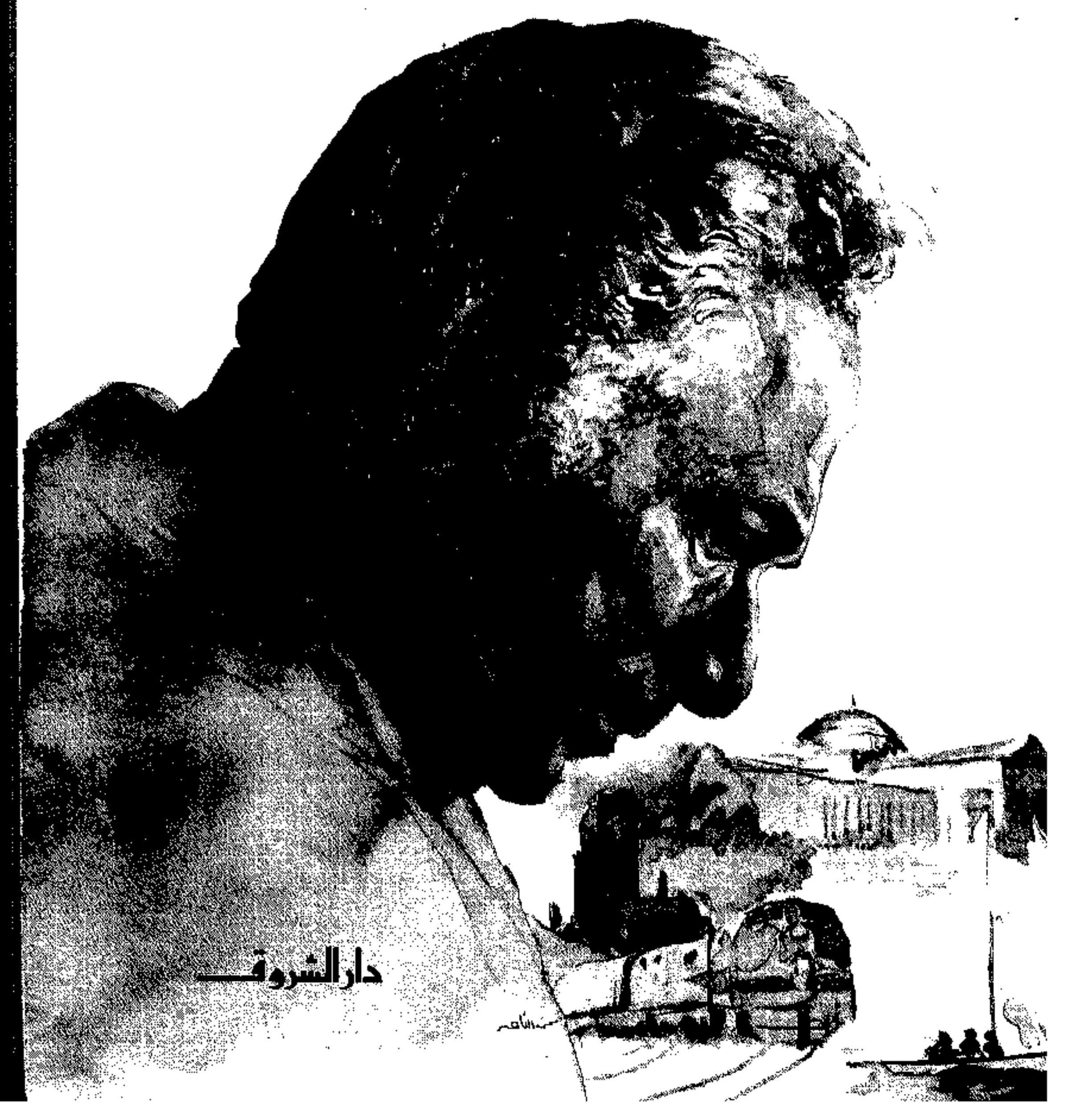
أنيس منصور

لأوّل مرّة!



دار الشروق



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأوّل مرّة !

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م
الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب: ٣٣ البانوراما
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

لأوّل مرّة!

دار الشروق

جـــدّة : لأول مـــرّة !

أول مرة أرى فيها رجلا سعوديا كان فى مهرجان البندقية السينمائى . . وكان يجلس قريبًا من الممثلة الإيطالية جينا لولو برجيدا . . وكانت تداعبه بالإيطالية . . ونظرت إليه . . إنه على خلاف ما توقعت . فما الذى توقعت ؟ لابد أن يكون أسمر اللون طويلاً نحيفًا له أنف كبير . ولا يتكلم أية لغة ، وإلى جواره يجلس واحد يترجم له . . ولابد أن له سيارة كاديلاك تقف على الباب . ولكن المنظر الذى رأيته مختلف تمامًا . وانشغلت بفاتنات السينما العالمية . ولكن لم اسأل نفسى : من أين أتيت بهذه الصورة لأى مواطن سعودى ؟ لم أناقش . . ولا كان عندى وقت . ولا كنت مستعدًا لتصحيح هذه الصورة . .

والمرة الثانية : كنت فى برلين فى حديقة الحيوان . وجلست على أحد المقاعد ووجدت شابًا إلى جوارى يقرأ صحيفة عربية . . وفى مواجهته فتاة صغيرة شقراء زرقاء العينين . . إنها بنت أخته . . ولم أعرف ما الذى يميز هذا الشاب الأسمر عن أى إيطالى أو إسبانى أو يمنى . . وهذه الفتاة عن أية ألمانية أو بولندية . . ولم أصحح هذه الصورة للمواطن السعودى . . وانشغلت . فلم تكن قضيتى : ما هى الصورة الصحيحة للمواطن السعودى !

وامتلأ دماغى بمفارقات الدنيا الواسعة . . ومشاكلها السياسية والفلسفية . . وكنت مشغولاً بمستقبلى وهمومى . .

وفجأة وجدت أننى مسافر إلى السعودية لأداء العمرة . . بالضبط ما هى العمرة ؟ وأين تذهب وماذا تفعل ؟ . . لم أفكر فى ذلك وإنما أحببت أن أستمتع بوقع الأحداث الجديدة لأجد كلاما ومعانى جديدة . . (لقد أديت العمرة بعد ذلك ثلاثين مرة وحججت البيت الحرام سبع مرات وصليت فى داخل الكعبة ثمانى عشرة مرة ، ولكننى لم اكتب إلا كتابًا واحدًا عنوانه . طلع البدر علينا ـ بعد أداء أول عمرة . ولم أكتب حرفًا واحدًا بعد ذلك) .

فكل المعانى الجديدة والمفاجئة التى أحسست بها بعد الصدمة الوجدانية الأولى هى التى سجلتها وصورتها وعايشتها عند تأليف هذا الكتاب . ولم أجد عندى ما أقوله دينيًا وفلسفيًا

ونفسيًا ووجدانيًا . . كأنني شجرة تحملت بالثمار التي نضجت . وكانت في حاجة إلى هزة واحدة ، لتسقط كل هذه الثمار. فلم يبق في الشجرة إلا أوراقها وأوكار بعض الطيور التي هربت .

وفي كل مرة أنظر إلى شجرتي بعد كل عمرة أو حج أو أثناء ذلك ، أجد أن الأوراق ذبلت والثمار صغيرة جافة . . ولا شيء ينضج هذه الثمار ولا شيء يسقطها مهما هززتها . . إنها إحدى تلك الأشجار التي لا تثمر إلا مرة واحدة في العمر كله .

ولكن حاولت أن أحشر في دماغي بعض الصور التي سوف تكون عليها مدينة جدة التي لم أرها . . وكذلك أهلها . .

ولا أنسى يوم رأيت باريس لأول مرة . كنت أتصور أن الناس في الشوارع في عناق دائم والأشجار والطيور . . كله في عناق غنائي موسيقي . . إنها باريس . .

ولما نزلت في محطة ليون بباريس ، نسيت أن أنظر إلى الناس من القطار مع أنهم من باريس وأهلها . . وإنما تصورت أن أهل باريس يقفون على الأرصفة فقط . . ووقف القطار . وكانت دهشتي عظيمة أن وجدت الناس قد فرغوا من القبلات والعناق . . وأنهم يقفون متباعدين . وفي حالة قرف . . وفي مكان بعيد وجدت شابين يتعانقان . . ووقفت أتفرج . . لم أجد شيئًا غير عادي . . هذه باريس . . كأي بلد في الدنيا . . وإنما الصورة التي رسمتها في خيالي جاءت من قراءة الشعر الفرنسي ، وقصص الحب والغرام وصور الكباريهات . .

وعلى الأرصفة وجدت الكتب . . وتلاحقت أسماء أبطال التاريخ الفرنسي : نابليون وفولتير وروسو . . وسارتر أستاذنا في الفلسفة الوجودية . . ثم سارتر نفسه : قصير القامة قبيح الوجه أحول العينين . . فمه وأنفه مدخنة . . وهذا الذباب الذي يلف حوله ليس إلا كلمات تطايرت من دماغه فاتخذت لها أجنحة وحاولت أن تبعد عنه فلم تستطع !

ولما ذهبت إلى طوكيو لأول مرة ، لم أجد أهل اليابان كما تخيلت وأحببت . . فليسوا ضاحكين « عمال على بطال » . . ولا هم قصار القامة صفر الوجوه . . ففيهم بيض طوال القامة ، ثم إنهم لا يضحكون بلا مناسبة . ولكن الذي لم أتوقعه هو هذا الأدب العظيم . . وهذا الانحناء طوال الوقت . مثلا :

ـ صباح الخير (ينحني)

ـ صباح النور (ينحني)

ـ إلى أين ؟ (ينحني)

ـ في ستين داهية (ينحني أكثر)

ـ ولماذا ستين ؟ (ينحني)

ـ إن خمسين لا تكفى (ينحنى)

ـ إذن لتكن ٥٩ داهية فنحن فى سنة ١٩٥٩ (ينحنى)

ـ هذا رأيك ؟ (ينحنى)

ـ مجرد اقتراح (ينحنى)

ـ سوف آخذ برأيك ورأى زوجتى وسوف أذهب فى ١٥٠ داهية (ينحنى)

ـ أشكرك ولا أتمنى لك السلامة (ينحنى أكثر وأكثر) .

وقد ذهب الرجل الأول وبقى الثانى فى حالة انحناء كأنه يريد أن يتأكد من أنه فعلا ذهب ولن يعود !

وعندما ذهبت إلى مدينة هونولولو فى جزر هاواى . . جاءت واحدة ووضعت عقدًا من الزهور حول رقبتى سعيدة جدًا . وسألتنى : مستر جورج !

قلت : لا . .

فسحبت طوق الورد فعدت أقول لها : ماذا قلت ؟

قالت : أنت مستر جورج ؟

قلت : نعم . . لقد ارتبكت أمام جمالك ونسيت اسمى !

فوضعت الورد وقبلتنى قبلة مفاجئة وقالت : السيارة فى انتظارك !

قلت : إذن لم يقولوا لك إننى أحب أن أمشى إلى الفندق وأحمل حقيبتى فى يدى فضحكت وهى تقول : لقد اعتدنا على شذوذ أصحاب الملايين الأمريكان !

وكنت أتصور بنات هاواى عاريات حافيات يضربن الطبول وينفخن فى الأرغول ويحملن السائح على الأكتاف الناعمة ويلقينه فى أحواض الشمبانيا . . حتى أفقت من هذا الحلم الجميل عندما وجدت واحدًا يعطس ويمسح أنفه فى حذاء من القماش !

ويوم رأيت مدينة سيدنى فى استراليا لأول مرة . . كنت أتخيل الاستراليين طوالا بيضا حمرا إذا وقفت إلى جوارهم فإننى أصل إلى حزام كل واحد منهم بصعوبة . . وإنهم إذا ركبوا الطائرة جلسوا على الأرض حتى لا ترتطم رءوسهم بسقف الطائرة أو تخرج منه . . وفى مطار سيدنى . . لم أجد إلا أناسا مثل الإنجليز أو أقرب إلى الأمريكان سألت واحدًا منهم . سيادتك انجليزى طبعا !

فقال : ولماذا طبعا ؟ أنا استرالى ابن استرالى ! لماذا ؟

ـ كنت أتصور أنكم طوال جدا .

ـ هذه هى المعلومات الخاطئة التى عند الجهلاء الأجانب . . فهم يتصورون أن لنا ذيولا مثل حيوان الكانجرو . . وأننا لا نفيق من الشراب . . وأننا شخصيات مريضة لأن أجدادنا كانوا من المساجين والمجرمين الإنجليز . . إننى كما ترانى عاقل ومحترم . . وليس لى ذيل .

ثم تركنى غاضبًا . . فعرفت أنهم لا يحبون الدعابة وأنهم معقدون . وأننى لمست جرحًا غائرًا . . مع أننى كنت أحاول فقط أن أفتح حوارًا معه . . كلام يعنى !

ويوم ذهبت إلى نيويورك . . بلد ناطحات السحاب . . لم أكن أعرف أن هذه العمارات قد ارتفعت إلى السماء بسبب ضيق الأرض . فبدلا من بناء عشر عمارات متجاورة ، فهم يضعونها الواحدة فوق الأخرى لأن الأرض ضيقة . . ولأن نيويورك جزيرة سكانها من الوحوش الذين يشربون دماء البشرية ويتحول الدم فى أيديهم إلى ذهب يعبدونه من دون الله . . والأفلام الأمريكية تصور نصف مواطنيها من المجرمين ـ السود خصوصًا . .

وهى مدينة تشعر أنها باردة . . وسبب هذه البرودة هو أنك تحس من أول لحظة أنك وحدك . . وأن أحدًا لا يدرى بك ولا يهمه أمرك . . حيا أو ميتًا . . الجدران رخام والأرض والوجوه والقلوب . . وحاولت أن أبدو طويلاً عريضًا بسبب شعورى بضآلتى وتفاهتى . . فأخرجت جيوبى وشددتها بعيدًا عن البنطلون دليلاً على أنه ليس معى شىء يجعل اللصوص يدورون حولى ويرفعون السلاح صارخين : هات ما معك فورًا ولا ترفع صوتك ولا تحاول أن تستنجد بأحد . .

وزودتها شوية فارتديت الجاكتة بالمقلوب للدلالة على أنه ليست عندى جيوب ولا عندى فلوس . . ووقفت أتلفت حولى وأستحضر الصورة التى رسمها الكاتب الأمريكى يوجين أونيل فى مسرحية « القرد كثيف الشعر » . . وتذكرت البحارة فى هذه المسرحية يدقون جدران نيويورك الرخامية الجليدية التى تشبه وجوه الناس ـ بلا معنى ولا مشاعر ولا قلب !

وأنا على هذه الحالة الضائعة ـ أو حالة الضياع هذه وقف أمامى شاب يبدو أنه مهاجر إيطالى عربجى أو بلطجى ومد يده فى جيبه وأعطانى دولارًا !

فمن قال إن الأمريكان لا قلب لهم ؟!

* * *

وفى مطار جدة لم أحاول أن أملأ عينى من الناس فى المطار . . إنهم بالجلاليب البيضاء والعقال الأحمر أو الأسود . . ولا تستطيع أن تفرق بين الغنى والفقير . . بين المسافرين وموظفى الجمارك . . الوجوه ليست سمراء كلها ولا سمراء صفراء . . فهناك وجوه بيضاء . . والنساء لسن جميعًا محجبات . . هناك العباءة التى لا ترى من تحتها إلا ملامح عامة . . وهناك من تكشف وجهها . . وهناك من لا تضع شيئًا . . فما الحكاية إذن ؟

إنها ليست صورة سعودية . . وإنما خليط من السعوديين والأجانب العرب والخواجات . . من أهل البلد والعاملين فيه . .

إذن فلابد أن تكون الصورة السعودية فى الشارع : فالعربات كلها سريعة . . والشوارع مرصوفة . . ناعمة ـ وليست نظيفة تماما . . وفى الشارع أناس بالجلاليب والبدل أيضًا . . والمحلات ملآنة بالبضائع . . كل شيء موجود . . فأين هو السعودى . . وأين هى السعودية الملامح . . الناس . . العادات . . أليست هذه المدينة هى المدخل إلى الأرض المقدسة . . إذن فالصورة التى عندى هى التى ليست صحيحة . . فالسعوديون ليسوا وحدهم سكان هذه البلاد . . وهم لا يفرضون عاداتهم وتقاليدهم على كل الناس بالقوة . . فالأجانب أحرار يلبسون ما يعجبهم : رجالا ونساء .

أول شيء أدهشنى فى مدينة جدة : بعض اللافتات . من بين هذه اللافتات واحدة تقول : فقيه للدواجن . .

وكل الذى خطر على بالى أنه طبيب للدواجن أى متخصص فى تربية الدواجن ، أو بيعها أو إنتاجها أو علاجها !

فهل الدواجن كثيرة فى هذه البلاد لدرجة أن يكون لها فقيه ؟ وما عيب كلمة دكتور ؟. أو إخصائى؟

ثم ما هو بالضبط الذى يمكن أن يفعله هذا الفقيه ؟ . . ولماذا لافتات هذا الفقيه كثيرة وفى كل مكان ؟ . . ثم لماذا لم يكتب اسمه ؟ . .

الحقيقة لم أفهم !

فهل معنى فقيه للدواجن أن التقاليد الدينية مفروضة على الديك والفرخة فلا يقرب الديك الفرخة إلا بموافقة الفقيه ـ عقد زواج يعنى ؟ معقول ؟!

حتى الفراخ فى السعودية يجب أن تكون عشرتها حلالا كالمسلمين تماما ؟معقول ؟! وكان فى استطاعتى أن أسأل أى أحد . ولكنى لم أحاول . وقررت أن أعرف بنفسى . . فنزلت إلى الشوارع . . واللافتات عن فقيه الدواجن فى كل مكان . . وأخيرًا وجدت دكانا به أقفاص الدجاج ـ واللافتة تقول : فقيه للدواجن . . وقررت أن أرى بعينى . . فلم ألاحظ أن أحدا دخل يحمل قفصا للدواجن لكى يكشف عليها الطبيب . . ولا كانت الدواجن فى الأقفاص مريضة . . إنها فى صحة وعافية . .

فلماذا لا يوجد فقيه للأبقار والجواميس والخراف ـ وفى البلاد ملايين الخراف التى يستوردونها ولا يحبون سواها طعامًا فى السعودية وفى مصر أيضًا . هل الخراف فى صحة جيدة والدواجن هى المريضة ؟ شيء مش مفهوم !

ولما تعبت سألت . فكانت الحقيقة الطريفة أنها أسرة اسمها أسرة « فقيه » تبيع الدواجن فى طول البلاد وعرضها . وبعد ذلك عرفت منهم أصدقاء أدباء وأطباء . . ووجدتهم لا يأكلون الدواجن !

وعرفت د. سليمان فقيه صاحب أشهر وأكبر وأجمل مستشفى فى السعودية . . وعرفت أسرته . . زوجته سيدة مثقفة لطيفة مجاملة . . وابنته الجميلة وابنه الدكتور مازن فقيه الظريف الذكى الذى هو صورة مصغرة من والده . . أما والده دكتور سليمان فقيه فهو من ألطف الناس ومن أشدهم حسماً فى إدارة إمبراطوريته الطبية . قال لى د. سليمان وأسعدنى : أن ٨٠٪ من العاملين فى مستشفاه من المصريين . . وأنه شخصيًا تعلم وتخرج من مصر . . وأن المصرى يحتاج إلى إمكانيات فقط . . وأن عيب المصريين هو : الإدارة والإدارة والإدارة . . أى نقص الإدارة أو سوء الإدارة . . إدارته لقدراته هو الشخصية . . وإدارته لشئون الآخرين . .

صدقت يادكتور . . وأنا أصدقك لأنك محب لمصر . . ولأن هذه هى حالتى !

وقالوا لى تعال لنزور قبر أمنا حواء !

أمنا حواء ماتت ودفنت فى جدة ؟ وهم فى السعودية يعرفون قبرها ؟ ياسلام ، وهل أحد يعرف متى عاشت ومتى ماتت وأين نزلت ؟

المؤرخ الإسلامى الطبرى يقول لنا : إن الله خلق آدم يوم جمعة وأنزله من الجنة يوم جمعة وتوفاه يوم جمعة . . وكان آدم عليه السلام نائمًا ـ وفجأة وجد من تجلس فوق رأسه سألها : من أنت ؟

قالت : امرأة !

ـ ولماذا خلقك الله ؟

ـ لأكون زوجة لك . .

ويقال إنه كان نائما ولما صحا وجدها فوق دماغه فقال : أثا ـ وهى كلمة باللغة النبطية معناها : امرأة . .

والملائكة سألوا آدم : وماذا أسميتها ؟

قال : حواء !

فسألوه : لماذا ؟

قال : لأنها خرجت من كائن حى !

وكل المدة التى أمضاها آدم فى الجنة هى خمس ساعات . وقالوا إن الساعة تساوى ٣٥ سنة بحسابنا اليوم . .

ولما نزل آدم من الجنة ، وقفت رجلاه على جبل فى جزيرة سيلان . أنا رأيت هذا الجبل . والجبل له قمة اسمها قمة آدم . . أما موطىء قدم آدم فبحيرة كبيرة . . وآدم كان طويلاً وكان رأسه يحتك بالسماء ، أما قدمه ففى حجم البحيرة أو القرية . . أما اتساع خطوته فصحراء شاسعة . . أما أمنا حواء فقد نزلت فى مدينة جدة . . وتعرف عليها أبونا آدم عند جبل عرفات . . ومات أبونا آدم عن ٩٦٠ عامًا ودفن فوق الجبل فى جزيرة سيرى لانكا . . وبعده بسنة ماتت أمنا حواء . . ودفنت فى نفس المكان . . ولكنهم فى السعودية يرون أنها دفنت عندهم ـ والله أعلم !

ولما قالوا لى : تعال تفرج على قبر أمنا حواء ، لم أذهب . . ولا واحدة من بناتها فكرت فى زيارتها أو قراءة الفاتحة على روحها الطاهرة . . فقد انشغلن عنها . . أو أنهن غاضبات عليها . . فالحياة قاسية . . فكان أفضل لبنات حواء ألا يولدن . . وهذا احتجاج على آدم وحواء . . أو أنهن مثلى لا يصدقن أن تهبط حواء فى جدة وأن تموت فيها دون أن توصى أولادها بأن تدفن مع زوجها فى قمة جبال بوذا فى سيرى لانكا . . فكانت أمنا حواء مثل أختنا حواء . . وإنها ترى أن الزواج ممل . . وإن أية علاقة مهما طالت فإنها تبعث على الضيق . . وإنها اكتفت بأن تعيش معه وتموت بعيدًا عنه . . لعل حظها فى الآخرة أن يكون أفضل من الدنيا ـ وهذا رأى بنات بناتها منذ ذلك اليوم !

مدينة جدة ـ فى ذلك الوقت من سنة ١٩٦٩ ـ لم تكن لها شخصية واضحة . وإذا كان الواحد يشم هواء سحريا فإنه قادم من ناحية مكة التى لم أرها إلا بعد أيام . . وإذا كان القلب يطلع وينزل فليس لشىء فى جدة ، ولكن لما سوف يكون فى مكة . . فجدة هى العتبة إلى مكة . . أو هى الحجر الصحى الذى يتأهل فيه الإنسان نفسيا ووجدانيا قبل أن يذهب إلى مكة . . وبعد أيام من جدة لم أعد أراها . . وإنما أنظر وأنتظر ما وراءها . . وأسمع وأستمع إلى ما بعدها . . وأتخيل وأنشغل بالمجاهدات القلبية عند نهاية هذا الشارع المرصوف الناعم الممتد إلى مكة . .

وأحسست قبل ذهابى إلى مكة أننى لم أعد أطيق البقاء فى جدة . . فليس فيها شىء يبهرك أو يدلك على أنها مدينة مختلفة عن أية مدينة أخرى فى أية دولة على الخليج . . إنها حارة . . رطبة . . فى شوارعها رائحة الدجاج ورائحة السمن والدهن واللحم والأرز والبهارات ، كأنك فى إحدى المدن الهندية ـ طبعًا هى أنظف وأقل عددًا . . والوجوه أصح وأكثر مرحا . .

لقد غامت جدة وغابت . . فهى مدينة « الترانزيت » إلى مدينة المدن وأم القرى . . ومركز

الدنيا الإسلامية . . وملتقى كل الوجوه والجباه والقلوب . . وأحسست أن كل البيوت فى جدة أحجار تعترض الطريق . . وأن كل الطرق طويلة . . وأن المدينة زحام من الأحجار تسد العين والأذن وتجثم على القلب . . وأنهم جعلوا جدة فى الطريق إلى مكة ، ليزداد الإنسان شوقا وحنيناً . . وتتجمع كل همومه وأحقاده وأحزانه وآماله فى عينيه ، وبسرعة تتحول دموعا عندما يجد الدنيا كلها قديمها وحديثها تحولت إلى شىء واحد : الكعبة !

مكة المكرمة :

١ - لا حج بغير مشقة !

سألنى الملك فهد وله ابتسامة حلوة : إن كنت وجدت صعوبة فى الحج هذا العام سنة ١٩٩٢ . وقال : لابد أن تجد شيئًا من الصعوبة .

مع أنه لا دخل له ولا دخل للمملكة السعودية التى وفرت الطعام والشراب ورصفت الطرق والأنفاق والكبارى والأمن . . ولكن الحجاج قد زاد عددهم . ثم إنهم يتزاحمون فى مكان واحد وفى اتجاه واحد وفى أيام معدودة . وكأن الملك « فهد » بابتسامته الرقيقة يعتذر لك . .

وسألنى ولى العهد الأمير عبد الله إن كنت قد وجدت فى الحج هذا العام أى نوع من المشقة . وقال : إن الثواب أعظم كلما عظمت المشقة . وإن شاء الله تكون هذه المشقة قد ذهبت آثارها . .

والأمير عبد الله رجل لطيف رقيق ورحيم أيضًا . وعلى الرغم من ملامحه الصارمة وعوده المشدود ورأسه المرفوع ، فإنه طيب القلب . . والذين يعملون معه يحدثونك كثيرًا وطويلاً عن حبه للناس وحب الناس له . .

أما صديقى الأمير بدر فقلت له : والله لا أعرف عدد الأكواب المثلجة التى شربتها . . قل ثلاثين . . قل أربعين . . ولا عدد قطع الثلج التى ذابت فوق دماغى وفى يدى وأنا أحاول أن أخفف درجة حرارة تصل فى الظل إلى خمسين مئوية وفى داخل السيارة إلى خمس وخمسين . . وفى الشارع إلى ١١٠ درجات ٥٥ درجة منعكسة عن سطح الأرض ومثلها من فوق الشمسية . . ثمانى ساعات فى سيارة لا يعرف سائقها أين يتجه . . فعرفات كيوم القيامة . . لا أحد يسمع أحدًا ولا يدرى به . . والناس من شدة الحرارة والإرهاق « سكارى وما هم بسكارى » . .

وكان تعليق الأمير بدر ما لا نهاية له من الحكايات التاريخية والدينية والفنية والسياسية كأنه يريد أن يفعل فى دماغى ما لم يفعله الثلج . . وقد حدث !

. . على باب الكعبة كان الزحام شديدًا . . دخولاً وخروجا . . ولا نهاية للناس أمامك ووراءك . . ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئًا . . وإنما يحدث أن تجد مكانًا خاليًا إلى جوارك . . هذا المكان الخالى يتسع لشخص واحد . . هنا يجب أن تلقى بنفسك فى هذا المكان وسوف يتحرك وراءك طابور لا نهائى . . وتقدمت ووجدت قوة هائلة تدفعنى . . فأنا رأس حربة . . ولا سلطان لى على ضغطى على الناس . . ولكى أتقى الناس لففت يدى حولى . . وتحركت بجانب من الجسم . . والحمد لله وجدتنى وراء الباب . . وعينى على الطائفين حول الكعبة . . إن عددهم بضعة ألوف . . ليس كثيرًا . إذن سوف يكون الطواف سهلاً . . وتقدمت ونويت واتجهت وطفت وما هى إلا لحظات حتى امتلأت الكعبة بالناس . طبيعى أن يحدث ذلك . . ولا يحق لأحد أن يستنكر أو يتألم . أو يقول : آه . . إنه شرط الطواف بين مليونى حاج جاءوا من كل الدنيا . . فهم يريدون أن يملئوا عيونهم . . وأن يفتحوا قلوبهم : . وأن يتجهوا إلى الله . . فمن أجل هذه اللحظات كان المشوار الطويل من آسيا وأفريقيا وكانت تحويشة العمر . . ثم إن أناسا قد جاءوا ليموتوا فى الكعبة أو فى هذه الأراضى الشريفة . . فلا يهم إن ضربته أو زغدته فى جنبه أو ظهره أو فى بطنه . . إنه استعد نفسيًا لذلك . . وأنت فى أثناء الطواف ريشة فوق موجة تندفع إلى أقصى اليسار وإلى اليمين . . وتتوقف وتلتوى . . ولا قدرة لك على مواجهة شىء . . بل ولا إحساس لك . . فأنت أيضًا غارق فى هذا الذى لايوصف . . فى هذا الذى يجعلك لا تشعر بالحر ولا بالتعب ولا بأن أحدًا قد دق ظهرك أو نفذ بأصابعه إلى بطنك . . أو إلى الروائح التى تنبعث من الأجسام العارية الغارقة فى العرق . . فأنت لك رأس وليس لك جسم . . والناس أيضًا . . إن قوة هائلة لا تعرف من أين تفيض عليك تجعلك ريشا فى جناح لا أول له ولا آخر . . فأنت خفيف . . وأنت بلا إرادة . . وإذا سمعت من يقول : لبيك فأنت تقول أيضًا . . ومن يقول : يارب . . فأنت تردد أيضًا . . فليس على لسانك إلا الله والدعاء إلى الله . . وإلى والديك وإلى أحب الناس إليك . . تدعو بالصحة والعافية والستر وحسن الختام . . فأنت تدعو وأنت موقن بالاستجابة عند الله . .

وزاد الزحام وارتفعت درجة الحرارة . وأصبحت الحركة مستحيلة . وكان الحل الوحيد الممكن وهو حل شاق جدًا . ولكنه هو الحل . . لقد أكملت الطواف فوق . . فى الدور الثانى . . الثالث . . فوق . . وكان الشوط فوق يعادل عشرة أشواط تحت . . ولكن فوق هواء ومراوح . . وأناس يعترضونك نائمين . . لا يصح . . ولكن لا يهم . . إنهم يجدون الراحة الكبرى هنا . . فمن الذى لا يجدها هنا . . أو يجدها عندما يتخيل نفسه هنا . . وكان هناك أناس يصلون حول الكعبة ويعترضون الطائفين . لا يصح . . ولكن لا جدال فى الحج . . وهناك الرجل فى السبعين يحمل على كتفيه رجلا فى المائة والعشرين . لا يصح . . فالدين أعفاهما من الحج . والحديث النبوى يقول : إن الله يحب أن تؤتى رخصة . . أى يحب أن

يستمتع الناس بما رخصه الله لهم . . فقد رخص الله الحج عند الاستطاعتين المادية والصحية . . فالذى لا يستطيع فلا عليه . ومع ذلك فلا شأن لى أو لك . . فلا جدال فى الحج . . ومن الطائفين سيدة سحبت أمها أو جدتها . . وحتى لا تموت منها مختنقة ، فإنها أمسكت مروحة تحرك بها الهواء . . ولا يصح . . ولكن لا جدال فى الحج . . وهناك رجل يتوكأ على ساق خشبية . والناس يزلزلونه . وهذا لا يصح . . ولكن لا جدال فى الحج . . وأناس أتوا بأطفالهم الصغار يجرجرونهم حول الكعبة وتتساقط الأطفال ويبكون ـ ولا جدال فى الحج !

وشربت من ماء زمزم ما يكفى خمسة من الموتى عطشًا . . وكان السعى سهلا . وكان فى الدور العلوى أيضًا . . المكان واسع والتكييف نعمة من نعم الله . .

* * *

وفى منى التقيت بعدد كبير من الأصدقاء . لم أرهم إلا فى مثل هذه المناسبات الكريمة . .

والحديث الشريف يقول : الحج عرفة . .

أى الحج هو الوقوف بعرفة . .

ولكن المشكلة هى الطريق إلى عرفة . . هنا المشقة الحقيقية هذا العام . فالحرارة فى الظل فى السابعة والأربعين ويقال فى الخمسين . . الأرض من نار ـ ومن الغريب أن الأسفلت فى السعودية لا يسيح كما هو حادث فى مصر . عجبى !

كأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يسوى بين الناس . . وأن يجعلنا نشعر حقيقة بما يشعر به الآخرون . . وما دمنا لم نفعل ذلك بالذوق فليكن بالقوة . . بقوة حرارة الشمس والزحام وتعطل جهاز التكييف فى السيارة الملكية . . وأن يكون السائق من أهل البادية . . لا يعرف أى شىء من معالم عرفة . . ثم يرى أنه من العار أن يسأل الناس عن الطريق . . بل إنه يؤكد لنا أن أحدًا لا يعرف . . وحتى إذا عرف فما هو وجه الاستعجال . . فالوقوف بعرفة قد تحقق . . فسواء جلسنا على الأرض أو تحت السيارة أو فوقها فهذه هى عرفة . وليس من الضرورى أن نذهب إلى الخيام الملكية التى أعدت لضيوف خادم الحرمين . . ولذلك لم يحاول السائق كثيرًا أن يجد الطريق . . ولا أن يسأل أحدًا ولا أن يشجعنا على ذلك . ثم إن الناس حولنا لا يعرفون . . ولا يهمهم أن يعرفوا . . فالذى تسأل عنه يعتبر نوعًا من العيب . . أو نوعًا من الترف هم بعيدون عنه . . ثم إن السؤال يغيظ الناس . . فأنت تسأل واحدًا قد تصدع رأسه وقدماه واحمرت عيناه هكذا : قل لى ياحاج ما تعرفشى الاستراحة الملكية الأبهة فين؟!

طبعًا لا يعرف . وكيف يعرف ولماذا يعرف . ثم كيف تبحث عن الاستراحة الملكية ولا تريد حتى أن تتعب نفسك قليلاً فى البحث عنها ؟!

وكانت السيارة قد امتلأت بالمثلجات والثلج نفسه . . وزجاجات الماء المثلج . . كل ذلك اختفى بالتدريج . . ونزلت أشترى من الناس . . أما السيارات الملكية التى توزع الماء المثلج على الناس مجانًا . فالناس يخطفون منها أكثر من احتياجاتهم . . وبعضهم يبيعه مرة أخرى . . واختفى الماء المثلج . . ثم اختفى الثلج . . وأصبحت عاجزًا عن مواجهة الشمس . .

فإن لم تكن هذه جهنم الصغرى ، فهى تذكرنا بها . .

ورحت أسأل ولا أحد يعرف . والناس فى غاية التعب والأدب أيضًا . فالتعب واضح عليهم أما الأدب فلأن أحدًا منهم لم يقل لى مثلاً : الاستراحات الملكية فى عرفات ؟ وتريد أن تسمى هذا حجا ومشقة . . ياراجل اختش على دمك !

واختشيت على دمى ولم أعد أسأل أحدًا !

أما أصعب لحظة . . أقسى لحظة فى كل حياتى فهى التى سوف أحدثك عنها . . دعنى أقدم لها بعض معلومات خاصة عن الفلسفة الوجودية . ففى الفلسفة الوجودية عبارة للفيلسوف سارتر يقول فيها : الجحيم هو الآخرون !

أو الجحيم هو عيون الآخرين . .

أضرب لك مثلاً صغيرًا هو : نفرض أن أحدًا جلس إلى جوارك وراح ينظر إليك . . إلى وجهك . . إلى أنفك . . إلى شفتيك . . سوف تشعر بضيق . . وتحاول أن تستدير بعيدًا . . أو تحاول أن تمسح أنفك . . أو تسوى شعرك أو الكرافتة . . فما الذى حدث ؟ حدث أنك تضايقت من هذه النظرات إليك . . التى لا تجد لها مبررًا . . فأنت تضايقت لأنك لا تعرف ما الذى فى رأسه . . ما الذى يقوله عنك . . ما الذى وجده فيك . . إنه اقتحم خصوصيتك . . تسلل إلى خصوصياتك . . لقد تضايقت . وكثيرًا ما تقول لأحد : أنت بتبص لى كده ليه؟

وأنت تقول ذلك لأنك تضايقت من هذا الذى جعله ينظر إليك بعد أن دار فى دماغه كلام وآراء وأفكار عنك أنت لا تعرفها . . ولكن فوجئت بقرار هذا الشخص . وقراره أن ينظر إليك وأن يتأملك دون أن يقول لك السبب فى هذا الاختراق !

ولم يكن هذا إلا شخصًا واحدًا . .

أما الذى حدث لى فشىء لا يمكن وصفه . ولا يمكن تصوره ولا احتماله . إنه أقصى وأقسى درجات العذاب والانتهاك أيضًا .

فقد اتجه السائق إلى الطريق الخطأ . وتصادف خروج المصلين من (مسجد نمرة) . . المصلون مليون ونصف مليون على الأقل . . كلهم خرجوا فى وقت واحد . .

والسيارة تخوض . . تعترض . . تتحدى . . كأنها صرصار يقف على ذيله فى وجه بركان . . الحر شديد . . والزحام شديد . . والناس ألوف . . مئات الألوف العيون تتجه إلى هذا الشىء الذى يواجه الناس . . ويريد أن يفعصهم كأنهم نمل . . كأنهم لا شىء . . دون احترام . . دون اعتبار . . دون اعتذار . . ما الذى فى عيون الناس . . ما الذى تقوله . . ما الذى تريده . . شىء مروع أن ترى - إذا استطعت - ألوف ألوف العيون كلها فى غضب . . فلا غضب فى الحج ونحن فى عرفة . . لم أستطع أن أواجه ملايين العيون . . ليس عندى ما أقوله . . وليس عندى ما أدافع به عن نفسى . . فأنا جالس فى سيارة . ولست راضيًا . والناس حفاة عراة راضون . . وأنا أخوض فى غضبهم وأدوس رضاءهم . . وأتقدم بسيارتى وأنا جالس على مقعد مريح . . وحولى زجاجات المشروبات . . صحيح أنها فارغة . . ولكن كان عندى ما أشربه جالسًا . . ولا يزال عندى ما يجعلنى أتحرك دون أن أمشى على الأرض . . والناس ليس لديهم من ذلك شىء . . ثم إننى لست راضيًا أبحث عن مكان أفضل . . عن الظل والهواء البارد والماء المثلج . .

ولم أجد إلا سلوكًا تعويضيًا واحدًا هو أن أتظاهر بأننى ميت . . أو شبه ميت . . وأنا لا أستطيع أن أطلب إلى الناس أن يسهلوا مهمة السائق حتى يمكن دفنى والصلاة علىّ . . وأخفيت وجهى فى يدى كأننى أبكى . . وكأننى منهار . . فلا طاقة لى على عيون الناس . . وعندما أخفيت عينى عن عيون الناس تخيلت أنهم يقولون : حتى لو مت . . فأنت تموت على مقعد فى سيارة ولست تحت أقدام الملايين !

ونزلت من السيارة وأفنيت نفسى بين الملايين هربًا منهم !

ولم أكن أعرف قبل اليوم أن جهنم هى عيون الآخرين . . مليون جهنم انفتحت فى لحظة واحدة . . لن أنساها ما حييت !

وتحت الماء المثلج تركت رأسى حتى كادت عروقى تتجمد . . ونصحونى أن أضع الملح على البرتقال . . الملح وفيتامين ج والكثير من الماء هى وحدها التى أنقذت مخى من أن يسيل عرقا . .

وكلما تذكرت عيون الآخرين نزل الماء يغلى من دماغى .

وقالوا أيضًا : أحسن شىء هو أن تبتلع عددًا من الأقراص المهدئة . . وأن تستسلم لأى نوع من النوم !!

النوم ؟! من قال إننى أريد أن أنام . . كيف ينام أى إنسان والناس من حوله يتحملون ألوانًا وأشكالاً من الشقاء والعناء فى سبيل الله . . لقد خجلت من نفسى . . فاكتفيت بأن

جلست أشكر الله على أنه قد يسر لى الطريق وهدانى . . بعد أن لسعتنى أشعة الشمس وأبخرة الأرض . .

أما عيون الناس فهى التى كوتنى بنار لا دخان لها !

حتى ساعات العذاب هذه ، قد أصبحت ذكرى أضيفها إلى قدرتى على الاحتمال الرهيب . .

ولم أكن أتصور أن عندى هذه القدرة المختزنة التى تظهر فى المناسبات الفريدة . .

إذن فالإنسان أقوى كثيرًا جدًا مما يتصور وأقدر على تحمل الألم أكثر مما يتصور . . ولكننا لا نحاول .

فالحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ـ ولم يكن ذلك مكروهًا . . وإنما كان مرغوبًا مطلوبًا محبوبًا فى سبيل الله ! .

المدينة المنوّرة :

٢ـ شىء لا يوصف !

لو أحد يقول لى ما هذا الذى يحدث فى المدينة المنورة . حاولت أن أعرف بالضبط ، ولكن لم أستطع . . شىء غريب عجيب يحدث لأى إنسان إذا ذهب إلى المدينة . . أو حتى فى الطريق إليها . .

إن أهل المدينة أنفسهم يرون أن كل شىء عندهم يبعث على الشفاء وراحة البال . . والصحة والعافية . . ترابهم وهواؤهم . . وماؤهم وسماؤهم . . وإذا أكلت التمر . . واحدة أو عشرين . . فكل شىء قد جعله الله لهم مصدرًا للشفافية والنور . . فقد كافأهم الله على أنهم احتضنوا الرسول عليه الصلاة والسلام . . حتى كمل الإسلام بينهم وعلى أرضهم . . فعاد الرسول إلى مكة المكرمة . . وهو يقول ، لا هجرة بعد الفتح .

أى لا هجرة من مكة أو المدينة إلى أى بلد آخر . . فقد نصر الله الإسلام ولم يعد أحد يخاف أن يجاهر به . . إن أهل المدينة قد ناصروا الرسول وساندوه . فجعل الله كل ما يمسكه أهل المدينة خيرًا لهم وبركة لضيوفهم .

* * *

جلست مع عدد من الشبان العلماء والأدباء فى مكان بعيد عن المدينة . . الأرض بساط أخضر . . وجبل أحد قطعة من الظلام بين السماء والأرض . . والنجوم قريبة تكاد تقع علينا . . والسماء عميقة . . ما هذا الذى فوقنا . . كل هذه الأجسام السماوية قطع من نار تدور بعضها حول بعض من الأزل إلى الأبد . . أحجار تتوازن فوق . . بيننا وبينها ألوف ملايين السنين الضوئية . . فلا أحد يعرف أبعاد الكون ولا متى كان أوله ولا متى يكون آخره .

وكان الفيلسوف الألمانى كنت يقول : إن الذى أشعر به فى أعماقى أعظم من هذا الكون . . فالله أسمعه وأراه فى داخلى . . وليس هذا الكون إلا صورة متواضعة جدًا من هذا الجمال والجلال فى وجدانى !

وكان أستاذنا العقاد يقول : إن هذا الكون كله ليس أقوى من حشرة صغيرة . . قل لى كيف خلقها الله بهذا الكمال وبهذه الدقة . . إن عظمة الله تبدو فى أصغر مخلوقاته معجزة من المعجزات . . من الذى يستطيع أن يخلق جناح بعوضة ؟!

وكان الأستاذ العقاد يقول : إن معجزة الخلق والإبداع وحكمة الله وقدرته المطلقة تظهر فى الحيوان المنوى . . هذا الكائن الضئيل جدًا الذى ينقل صفات الأب والأم والجنس البشرى كله . . كيف ؟ وأين ينقلها ؟ وكيف ينظمها ؟ ومن يشرف عليها حتى يكتمل الجنين فيجىء له صوت أبيه ويشبه أمه . . ومزاج أبيه فى الطعام والشراب ؟ كيف حدث ذلك ؟ ما هو هذا العقل الجبار الذى يشرف على تكوين الحيوان المنوى والبويضة . . ثم كيف يرتب الخلايا المتنوعة . . هذه الخلايا للمخ وهذه للأظافر . . ولون العين وحجم الشفتين . . أين يوجد (العقل المدبر) لكل غدد الإنسان وكل عادات الأبوين . . وكل مكتسبات الجنس البشرى فلا تلد سيدة بطة أو ثعبانًا أو شجرة . . وإنما تلدإنسانًا يجمع صفاتها وصفات زوجها . . بل أحيانًا تكون له صفات أبيها أو خالها ؟ كيف ؟

الجواب : هذه هى عظمة الله !

وكان للقمر لون وحجم هو الآخر لم أرهما من قبل . . فلم يحدث إلا نادرًا جدًا أن جلست فى الصحراء أتفرج على السماء . . ولم يحدث أن ذهبت أتفرج على القمر . . إن السنين تمضى بنا ليلاً ونهارًا ولا يحدث أن أرى شروق الشمس أو حتى غروبها . . فأنا فى ساعة مبكرة جدًا أنكفىء على الورق وأظل كذلك حتى تعلو الشمس أمتارًا عن الأرض . . ولم أر شروق الشمس إلا نادرًا ولا غروبها إلا قليلاً . . أما القمر هلالا وبدرًا فهو مفاجأة كل شهر . . وأرى القمر من نافذة السيارة أو على زجاج النوافذ . . ولكنهم هنا فى الصحارى يرون السماء يكادون يلمسونها بأيديهم .

قال لى أحد الأدباء : ما هذا الذى نشرته الصحف العالمية عن خلق الكون ؟ وإن العلماء يعرفون الآن يقينا كيف خلق الله هذا العالم . . ومتى ؟ أى كلام هذا ؟ هل يستطيع أحد أن يقطع بذلك ؟

ولم أنطق . فالإجابة طويلة . وكلها احتمالات . . ومن السابق لأوانه جدًا أن أقول كلاما محددًا . وكل معلوماتى هى التى نشرتها المجلات والكتب العلمية . .

ـ قل لنا !

ـ أنا أقول ؟ أنا فقط أنقل ما قاله علماء الفلك والفزياء . . وسوف أحاول أن أجعله بسيطًا دون أن نضيع معا فى تفاصيل لا أول لها ولا آخر .

قلت وأنا أنظر إلى القبة السماوية . . وقد تناثرت بينها البقع البيضاء اللامعة . . واضحة . . وبعضها أقل وضوحًا . . ولا أول لها ولا آخر . . وهذه البقع المتقاربة هى التى نسميها (المجرة) . . والمجرة تضم ألوف ملايين ملايين النجوم التى تشبه الشمس . . وحول كل نجم عشرات الكواكب مثل الأرض . . وفى الكون ألوف ملايين ملايين المجرات . . ولو انطلق نجم مثل الشمس فى أى اتجاه وبأية سرعة فإنه لن يصطدم بأى نجم آخر ـ فإلى هذه الدرجة اتسع الكون فوقنا وتحتنا وحولنا . . تمامًا كما لو قلت لك : إن أية نملة فى استراليا مهما سارت فى أى اتجاه وبأية سرعة ولأى وقت فلن تصطدم بنملة أخرى فى القاهرة ! واضح الكلام ؟

ـ نعم . .

ـ إذن أنقل ما قاله العلماء . . من خمسين عاما ظهرت نظرية تقول إن هذا الكون كانت له بداية . . وهذه البداية عبارة عن انفجار كبير . . انفجار مادى . . هذا الانفجار أدى إلى تناثر المواد الملتهبة مع الغازات فى الفضاء . . وظلت هذه المواد تتباعد بسرعة هائلة . . ملتهبة . . ثم تعرضت للبرودة فتجمدت . . ودارت حول بعضها البعض تتوازن وتتجاذب . . ألوف ملايين السنين . . وكانت هذه النظرية مجرد فرض علمى . . أى إنه لابد أن يكون للكون بداية . . ولابد أن المواد أو المادة الأولية التى خلق الله منها الكون كثيفة جدًا . . صدر لها أمر بأن تنطلق وأن تنفجر ساخنة شظايا بسرعة هائلة . . فحدث الانفجار . . وكانت الشظايا مجرات ونجوما وكواكب . . بعضها ما يزال ساخنا وبعضها قد أصبح باردًا وجوفه ساخنا ـ كالأرض مثلا . . ولأن الانفجار كان هائلاً . . والغازات سريعة تطوحت المادة فى جوانب لا نهاية لها فى هذا الكون . . واضح ؟

ـ نعم . .

ـ وبقيت هذه النظرية مجرد فرض علمى معقول لبداية الكون . . ولم تظهر نظرية أخرى تقول إنها باطلة أو إنها خرافية . . ولكن العلماء حاولوا فى الخمسين عاما الماضية أن يجدوا تفسيرًا آخر ، ولكنهم لم يجدوا . فسلموا بهذه النظرية مؤقتا إلى أن يهتدوا إلى حل لمشكلة . بداية الكون . . أو بداية الخلق . . حتى الشهور الأخيرة !

ـ فماذا حدث ؟

ونظرت إلى السماء فوجدت النجوم كأنها تقترب أكثر وأكثر تريد أن تسمع ما نقوله نحن عنها وعن ميلادها من ألوف ملايين السنين وموتها بعد ألوف ملايين السنين . . فالنجوم كالحيوان تولد وتنمو وتزدهر وتذبل ثم تموت . . قلت : وكان الأمريكان قد أطلقوا منذ ثلاث سنوات سفينة فضاء تدور فى فلك حول الأرض ارتفاعه ستمائة كيلو متر . . والسفينة ترصد

درجات حرارة الكون والإشعاعات فى الفضاء الخارجى وتسجل الأصوات . . وتبعث بملايين الصور إلى محطات المتابعة الأرضية فى أمريكا واستراليا . . ولم يجد العلماء شيئًا جديدًا . وفجأة حدث أعظم اكتشاف فى هذا القرن . . أو فى كل القرون . . لقد أرسلت السفينة (صورة تذكارية) للكون بعد أن خلقه الله بمئات ألوف السنين .

ـ يعنى ؟

ـ يعنى أن هذه السفينة أرسلت معلومات عن انفجار حدث بعيدًا جدًا . المسافة بين السفينة ومكان الانفجار عبارة عن رقم ستة وأمامه واحد وعشرون صفرًا من الأميال . . أى ألوف ملايين السنين الضوئية ـ السنة الضوئية هى حاصل ضرب ١٨٦ ألف ميل (سرعة الضوء فى الثانية) × ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يومًا . . الصورة التى التقطتها السفينة هى عبارة عن شكل المادة وهى تتباعد إلى الوراء وبسرعة واحدة متسقة منظمة . وهذا هو أخطر ما فى الاكتشاف . ومعنى السرعة الواحدة أن الانفجار ما يزال قويًا وأنه لم يضعف بعد بسبب أنه قد بدأ قبل ذلك بألوف ملايين السنين . . والصورة التى التقطتها المركبة الفضائية (كوب) تؤكد أن الانفجار العظيم قد حدث منذ ١٦٠ ألف مليون سنة . . وأن هذه الصورة قد وصلت المركبة الفضائية بعد خلق الكون مباشرة ـ أى بعد حوالى خمسة عشرة ألف مليون سنة . وأن الانفجار ما يزال قويا . . وأن شظايا الانفجار تتحرك بسرعة هائلة لم تضعف بعد . . وأن الغازات ما تزال فى درجات حرارة مئوية بالملايين . . وأن سرعات الغازات أضعاف أضعاف سرعة الضوء . . وأن مادة الكون التى انفجرت بهذه الصورة الجبارة لابد أن تكون صغيرة جدًا . . وأن انفجارها كان عنيفًا جدًا لأن المادة الأولى للكون كانت لا متناهية الكثافة . . فاحتاجت إلى انفجار جبار لكى يفكك ذراتها ويكون انطلاق لا يتصوره العقل . . ومن يدرى ربما حدث انفجار آخر بعد ألوف ملايين السنين ، وذلك بأن ينكمش الكون وتتجاذب المواد لتكون أصغر وأصغر وأصغر كما كانت عند بداية الكون . . ويولد الكون مرة أخرى ويكون الانتشار والازدهار وإلى غير نهاية ! واضح ؟

ـ نعم . .

ـ لابد أن أوضح هذه الصورة التى يعجز العقل عن تصورها أو إدراكها . . نفرض . . نفرض أن هذا الكون عمره سنة احدة . . نفرض . . إذن فالله قد خلق الكون فى الثانية الأولى من الدقيقة الأولى يوم أول يناير . . واضح ؟

ـ نعم . .

ـ أى إن الانفجار العظيم للمادة الأولى التى استخدمها الله فى صنع هذا الكون قد نفخ فيها فتفجرت فى أول ثانية من أول دقيقة من أول يوم فى شهر يناير . . هل نعرف متى ظهر

الإنسان على سطح هذا الكوكب ؟ لقد ظهر الإنسان قبل ثلاث دقائق من منتصف ليلة ٣١ ديسمبر . . وظهرت كل حضارة الإنسان فى الثانية الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . أى إن عمر الحضارة الإنسانية كلها لا يزيد على ثانية ونصف فى عمر هذا الكون . . كل الذى أنجزناه وقاتلنا من أجله . . وحاربنا وانتصرنا وانكسرنا على الأرض وفى الماء وفى الهواء . . وكل عظمة الإنسان فى العلم والأدب والفن . . كل ذلك عمره ثانية ونصف فقط . . واضح ؟

ـ نعم . . .

ـ لابد من توضيح آخر . إذن أين نحن من هذا الكون كله . . أى الكون الذى نعرفه . . أى الكون الذى نقلته لنا سفينة الفضاء . . فلابد أن أجزاء أخرى لا أول لها ولا آخر فى هذا الكون لم تصلنا . . فالمادة الأولى التى خلق الله منها هذا الكون مادة مظلمة . . إذن لا يزال فى هذا الكون ما لا ندرى من المساحات والمسافات المظلمة . فالكون أضعاف هذه الصورة المتواضعة التى تلقيناها أخيرًا . . والتى أطلقتها أصابع الله ـ سبحانه ـ إلى جوانب الفضاء اللانهائى فى امتداده . . أين نحن . . من مثل هذه ؟

ومددت يدى إلى تمرة من تمور المدينة المنورة وقلت : بل نحن مثل هذه . . مثل هذه النواة التى فى داخل التمرة . . إذا ما قورنت بجبل أحد الذى وراءنا . . ونحن نسكن هذه النواة . . وكل تاريخ الإنسان وحضاراته القديمة والجديدة . . كلها تتصارع فوق هذه النواة . . أما سفينة الفضاء هذه فليست إلا ميكروبا يدور حول النواة ويلتقط صورة لجبل أحد . . كل الذى أقمناه وندافع عنه ثم نخترع لأنفسنا ما لا نهاية له من النظريات العلمية والفلكية والأخلاقية . . ثم نخترع أسلحة الدمار . . كل ذلك يتحرك على سطح هذه النواة . . أما الكون حولنا فهو مثل هذا الجبل الهائل الضخم الأشم . . نحن هكذا والكون كله هكذا . . وكان الإنسان يتصور ـ واهما ـ أن الله قد خلق الكون من أجل أن يتفرج عليه الإنسان إذا اتسع وقته ؟! فقط هذه الأكوان للزينة ؟! لتكون فى شرف استقبال نظرات الإنسان . . الحقيقة نحن كائنات ضئيلة جدًا فوق بلحة تطلق حولها فى سعادة وغرور ميكروبًا يدور حول البلحة ويمد خراطيم هزيلة وعدسات بدائية تلتقط ما يصدر من إشعاعات وموجات صوتية تنبعث من جبل أحد ومن جبال أخرى لا نراها ولا نعرفها . . فجبل أحد ليس إلا التكوين الهائل الذى بعث بإشعاعاته إلى أجهزة الرصد الدقيقة البديعة التى ابتدعها الإنسان ووضعها فوق هذا الميكروب . . أما ما وراء الجبل ؟ وكم عدد الجبال الأخرى ؟ ومتى ظهرت ؟ ومتى تكونت ؟ وكيف هى ؟ فلا يزال الميكروب عاجزًا عن معرفتها . . لأن سكان البلحة لم يهتدوا إلى أجهزة أخرى بالغة الدقة . . واضح هذا الكلام ؟

ـ نعم . . .

ـ لابد من توضيح آخر . . فالإنسان رغم ضآلته . . فإنه لاشك يشعر بالعزة والكبرياء . . فهو رغم هذه الضآلة ورغم أنه حديث العهد بالظهور على مسرح هذه البلحة فى هذا الكون اللانهائى ، فقد استطاع أن يعرف . . والإنسان حيوان عنده استطلاع وخيال وكبرياء . . وفى نفس الوقت يشعر هذا الإنسان بأنه تافه جدًا إذا ما قورن بهذا الكون . . وإذا ما أدرك أن فى الكون ألوف ملايين ملايين الكواكب الأخرى ـ مثل الأرض ـ تدور حول ما لا عدد له من النجوم مثل الشمس . . وفى هذه الكواكب أشكال وألوان من الحياة العاقلة . . أعقل وأعظم من الإنسان . . أو فى مراحل سابقة على تكوين الإنسان . . فليس وحده فى هذا الكون ويستحيل أن يكون كذلك . . تمامًا كما لو قال النمل الذى يجرجر صرصارًا : نحن الكائنات الوحيدة فى هذه الأرض . . أو كما لو قالت أشجار الليمون نحن الأشجار الوحيدة على هذه الأرض . . أو فى كل الكواكب الأخرى . . فقدرة الله لا حد لها . . والذى نراه فى أنفسنا وفى تكويننا والأكوان حولنا ، ليس إلا صورة متواضعة جدًا لعظمة الله التى لا حدود لها ! واضح ؟

ـ نعم . واضح وباق . . ويبعث على الإيمان بعظمة الله . .

ـ لابد من توضيح أخير . . ما الذى جعلنا ننتقل إلى الكلام عن الكون وعظمة الله ؟! إنها هذه الصورة الرائعة حولنا . . إنه هذا الشعور الباهر لأعماقنا والذى لا يجده الإنسان إلا فى المدينة المنورة . . هو الذى أطال أعناقنا ووسع عيوننا وفتح عقولنا لتتلقى هذا الفيض اللانهائى من النور والصفاء والاقتراب من السماء التى أحسسنا أنها تقترب منا أكثر وأكثر ـ فسبحان الله ما أعظمه وأحكمه ! .

المدينة المنورة :
٣ - يارسول الله صرنا غرباء!

لا أعرف كيف أصف لك لون السماء قبل الفجر . . ولا أعرف أن أحدد لك درجة الحرارة فى ذلك الوقت . . ولا من أين يجىء الناس بملابسهم البيضاء . . ولا مصدر الهمس الذى يملأ المكان . . أما الصوت فهو صوت المؤذن يجىء من فوق . . من فوق مسجد الرسول . . من فوق فوق . . من السماء . . ومن تحت تحت من الأعماق . . ومن كل اتجاه . . بل من كل خلية فى جسمى . . كأنه يؤذن فى دمى . . كأننى هو . . كأنه أنا . . كأنه نحن . . كأننى المؤذن وجميع المصلين . . كأننى حشد هائل يتدفق إلى داخل المسجد . . وأنا لست إلا واحدًا من مليون . . كيف ؟ لا أعرف . . ولا تصدق أن أحدًا يستطيع أن يقول بالضبط . ما هذا الذى حدث . .

ولا تكاد تدخل المسجد حتى تصبح قيادتك فى يد غيرك . . تمامًا كالسفن عندما تدخل الموانئ فإن القبطان يترك السفينة لقائد آخر أكثر وعيا وفهما بطريق الأمان . .

وإلى جانب من المسجد . . إلى حائط أسندت ظهرى واسترحت إلى ذلك وظللت مغمض العينين أدندن . . أدمدم . . أقول ما لا أعرف ومالا أدرى . . ولكنى أقول . . أفتح فمى وأغمض عينى وأسند ظهرى وأمد ساقى . . كأننى نائم أو أريد ذلك . . فكل شىء كأنه صدر أم . . وكل صوت كأنه الضوء تحول إلى نغم . . أو كأنه النغم تحول إلى شعاع . . إننى أتدفق . . إننى أفيض . . إننى لست إننى . . صدقنى لا أبالغ ولا أحاول أن أكون غامضًا . . ولكن كل شىء هو طوفان من المعانى والأصوات والألوان والأضواء والبركات . .

وفتحت عينى على جارى . . إنه صديق الأمس . . ونظرت إلى جاره والذى يليه . . إننا جميعا صحبة الأمس . . سألت جارى . . كأننى أريد أن أفيق وأن يفيق هو أيضًا : كيف ؟ فلم يرد . . أردت أن أقول له : كيف جئنا إلى هذا المكان من المسجد ؟ هل اتفقنا على ذلك؟ . هل الصدفة ؟ الصدفة أن نكون نحن السبعة فى مكان واحد كأننا على موعد . . وكيف وجدنا مكانا واحدًا وسط الزحام ؟ إننا سبع من السفن دخلت الميناء معا ، وقادها

رجل الأمن والأمان إلى هذا المكان وألقينا مراسينا وربطونا إلى الشاطئ وإلى حيث الموج أ
والبحر أهدأ . . وطيور البحر أكثر . . فما الذى تفعله الطيور ؟ ما الذى أسعدها ؟ ما ا
جعلها هكذا كثيرة ؟ ما الطعام الذى وجدته حولنا ولا نراه ؟ شىء عجيب أن تت
الهمسات إلى أجنحة والأجنحة إلى طيور والطيور إلى موجات ضوئية إلى نبض مبارك . .
المسجد قلب واحد ونحن ملايين الكرات الدموية . . كل شىء كأنه وكأنه . . فأنا لا أ
بالضبط ما هذا الذى هو نحن . . والذى هو غيرنا . .

جارى يتغنى فى مدح الرسول هامسًا فى صوت جميل :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ما جاوزتها سماء
حبذا عقد لؤلؤ وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء . .
ـ يا رسول الله صرنا ضعفاء ـ يا رسول الله صرنا أغبياء
ـ يا رسول الله صرنا حقراء ـ يا رسول الله صرنا (مسخراء)

ثم جارى وجاره ويتبادلان الغناء والمديح . . بيت من قصيدة (البردة) للبوصيرى فى
الرسول . . وبيت من قصيدة (نهج البردة) لشوقى :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بد
ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحر
يالائمى فى الهوى العذرى معذرة منى إليك ، ولو أنصفت لم تـ
يالائمى فى هواه والهوى قدر لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلـ
محضتك النصح لكن لست تسمعه إن المحب عن العذال فى صمـ
لقد أعرتك أذنا غير واعية ورب مستمع والقلب فى صمـ
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حُبّ الرضاع ، وإن تفطمه ينفط
والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخـ

يارسول الله صرنا (مسخراء) .

وكأننا لم نتوقف عن حديث الأمس ، فمضى جارى يقول : كان ذلك من عشرين سـ
وربما أكثر . . وأنت تعرف . .

ولكنى لا أعرف ما الذى يريد أن يقول . .

ومضى يكمل حكايته لأننى أعرف ـ هو الذى يقول ـ ولم أندهش كأننى أعرف وانتظ
يمضى دون توقف . .

كانت أمه مريضة وكان جالسا إلى جوارها فى المستشفى أياما موصولة الليل وا

والصلوات . . وكان يرى من شدة التعب أن الممرضات طيور بيضاء تقدم لأمه طعاما . . وكانت الطيور تضع الطعام فى فمها . وهو ليس مندهشا لما يرى . . بل إنه كان ينظر إلى يديه فوجدهما جناحين . . وإلى ريشه الأبيض . . وإلى منقاره وعنقه فى المرآة . . يقول إنه أحس أنه مات . . ميت . . وإن الذى يراه كان فى العالم الآخر . . وإننا جميعًا كذلك . . وإننا نتحدث بغير كلام . . بغير شفاه . . فى هذه اللحظات أحس أنه خفيف الوزن . . بلا وزن . . وأنه يطير . . كل شىء يطير . . ونور قد ملأ السماء والأرض . . ليس شمسا تشرق من مكان . . وليس قمرًا فى السماء . . ولكنه ألوف الشموس . . لأشعتها نعومة ضوء القمر . . كأن الضوء من ألف ألف قمر يشرق ويغرب ويستقر فى السماء وفى الأرض وفى أحشائه أيضًا . . وسمع من يقول : إنه الرسول عليه الصلاة والسلام . .

وأفاق من نومه ليجد أنه قد انكفأ على صدر أمه المريضة . . إنه الأرق الطويل . . فاغتاله النوم وأسقطه جثة فوق جثة . . أما الذى رآه فالرسول حقا وصدقا . . وأما الذى لم يكن فى حسابه فهو أن أمه قد ماتت . . هل ماتت فانكب عليها فنام وسار معها فى دروب الموت ؟ هى لم تعد وهو عاد ؟ هل عندما سقط عليها قد دفعها إلى الموت ؟ هو الذى قتلها ؟ هو الذى مات وأخذته فى يدها ثم عاد وحده يروى ما حدث ؟ إن الدموع فى عينيه واقفة تنتظر الإذن بالسقوط . . ولم يبك . . ولم يحزن . . فقد ذاق طعم النعيم الذى ترفل فيه أمه . . رحمها الله !

شىء عجيب أن يترك مكانه لجاره الذى بدأ يتكلم كأننا ننتظره . . وكأن ترتيبًا قد اتفقنا عليه بالأمس . .

قال مغنيًا فى مدح الرسول . .
وجملة القول فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم .
ـ يارسول الله صرنا جهلاء . .

قال جارى يحكى كيف حدث له ما حدث . . فقد كان فى رحلة صيد . . هو لا يصيد ولكنه يرافق الذين يصيدون . . وكان هو الذى يروى النكت ويضحك . . وهو الذى يقلب المواجع . . مواجع الجميع فى قصص الحب الفاشل والزواج الذى أفضى إلى طلاق والطلاق الذى أفضى إلى زواج . . وهو يضحك ويضحك وغلبه النوم فرأى البحر يبلع الزورق ويبلع الأشجار على الشاطئ والشاطئ . . وامتدت سمكة صغيرة ورفعت رأسها وابتلعته . .

ونظر إلى نفسه فى ظلمات بطن السمكة فوجد نفسه فى حجم الصرصار . . كيف ؟ ولكنه يعلم أنه ليس صرصارًا . . ولكنه كان فى مثل ضعفه . . وتساءل إن كانت هذه هى جهنم . . وإنه انفصل عن الحياة إلى الموت فجأة وتطلع فى كل اتجاه إن كانت هناك جنازة . . ووجد صفا

طويلاً من الكلاب . . مع أنه ليس كلبا ، فكيف تكون جنازته من الكلاب . . وكانت للكلاب وجوه أصدقائه وأقربائه . . شيء عجيب . . وراح يتلمس كل جوانبه . . لقد عادت إليه آدميته . . ثم استقرت جوانب البحر والشاطئ ووجد نفسه يقول : اللهم صل عليك يانبى . . صلى الله عليك يانبى . . يانبى . . يانبى !

وقلت أنا : أنا حكيت حكايتى للشيخ الباقورى وصديقى الشيخ محمد . . وهو بركة من بركات دراويش السيد البدوى . . ورويتها قبل ذلك للشيخ حسن البنا . . وفى كل مناسبة حكيت هذه الحكاية . . ولم أكن متواضعًا . . وإنما كنت متباهيا . . مفاخرًا بنعمة الله . . وهى من نعم الله على الناس . . وهى ذات معنى . . إنها رسالة ودعوة وأمر بأن أفعل شيئًا . . ولم أفعل أى شىء . . وقاومت وقاومت وتراجعت وعدت فقاومت . . وتصلبت وتناسيت ونسيت . . واستسلمت وانهزمت وجمعت فلولى وقاومت . . ثم ذبت تمامًا ولم أعد قادرًا على جمع شتاتى . .

فلا أنا من الذين يصلون الليل بالنهار فى الصلاة والدعاء . . ولا أنا مثل والدى يرحمه الله أنظم الشعر فى مدح الرسول . . ولا أنا مؤهل لذلك . . ولا أنا أشارك فى حلقات الذكر ولا أصف الآيات القرآنية علاجا لأوجاع الناس ، كما كان يفعل والدى . . ولا أنا نذرت نفسى لله . . وإنما أنا مثل مئات ملايين الناس أفكر وأتأمل . . ثم أعلن عجزى عن الفهم . . وأعلن يأسى من أن أحقق شيئًا من النجاح فى فهم قضايا الكون : الله والحياة بعد الموت والبعث والنشور والوحى والرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم . . كلها أضواء باهرة لا أستطيع أن أفتح عينى فيها . . ولا يستطيع عقلى الصغير أن يحيط بها . . فعقلى فى حجم كفى وأنا لا أستطيع أن أضع الكون فى كفى . . ولا أن أضع الشموس والأقمار والنجوم فى عينى ولا أن أحشر كل المعانى والكلمات فى فمى . . فأنا ضئيل جدًا والكون عظيم جدًا . . وعمرى قصير جدًا . . وسنوات عقلى قليلة جدًا . . وأنا ذاهب وكل شىء باق . . تراب جزمتى أطول عمرًا منى . . والكون لا أول له ولا آخر . . لابد أن يكون له أول ، أين ؟ كيف؟ متى ؟ ماذا ؟ لماذا ؟ والله أعظم . . أروع . . أقوى . . أبلغ . . أحكم . . أعدل . . وأنا لا شىء . . فكيف يعرف اللاشىء أى شىء . . كل شىء ؟ والذى رأيته فى نومى : معنى . . رسالة . . رسالة تلقيتها . . إنذار . . إخطار . . استدراك . . رحمة . . بركة . . ولكنى سددت أذنى وعينى ووضعت عقلى تحت قدمى وسحقته ولم أرفع قدمى إلا بعد أن تحول قلبى إلى تراب . . فنفضته واستراح عقلى إلى ذلك . . ثم صنعت تاجا من الذهب على شكل عقل ووضعته فوق رأسى . . وقلت : عقلى جالس على عرشى فى مملكتى . . فما هى مملكتى ؟ لا مملكة . . أنا مملكتى ؟ فمن أنا ؟ إن شيئًا من مملكتى لا يطاوعنى . . فالقلب يدق دون إذن منى . . والمعدة تطحن بغير ارادتى . . والهواء داخل خارج من أنفى بغير إذنى . . وأنام بغير

أذنى وأصحو بغير إذنى . . فما هى مملكتى ؟ وعقلى يتذكر وينسى بدون إذنى . . فما هى مملكتى ؟ . . لا مملكة . . لا عرش ولا تاج . .

ولم أنطق بكلمة واحدة . ونظرت إلى جارى فإذا به يقول لى : هه . . وبعدين ؟

وبعدين؟ . كأنه يسمع ما يدور بينى وبين نفسى . . كأننى أتحدث بصوت مرتفع دون أن أدرى . . وتلفت إلى جارى إلى اليمين فإذا به يقول لى : كلامك معقول . . وبعدين ؟

وبعدين هو الآخر يقولها : إذن لقد كنت أتكلم بصوت مسموع من الجميع رغم ما فى المسجد من همهمة استعدادًا لصلاة الفجر . . أو صلاة الظهر . . أو للصلاة فى أى وقت . . ونظرت إلى الناس القادمين وإلى وجوههم . . وإلى الابتسامات الوضيئة الراضية الرضية . . وواحد قال لى : سامعك . . وبعدين ؟

وبعدين قالها واحد وسط الزحام قادمًا من الشارع . . كل الناس سمعوا ما دار بينى وبين عقلى وقلبى . . كل الدنيا تسمعنى . كيف ؟

ولن أجد سببًا يجعلنى أفتح فمى وأقول . . فالكل يرى ما أريد أن أقول . . ويسمع ما لم أقل عن حكاية قديمة رويتها لعلماء زمانى أسأل واستوضح . . ما المعنى ؟ قالوا : هناك معنى . ما الهدف ؟ قالوا : الرؤيا الصادقة هدف . . وأن تراها أنت هذه رسالة . . أنت لم تستوعبها ولكن أعطيت فرصة طويلة لكى تتذكرها وتفهم . . كان ذلك من أربعين عامًا . . وربما أكثر . . كنت أجلس فى البلكونة وأنظر إلى النيل . . والليل قمر . . والقمر منعش . . والنهار لم يطلع بعد . . وكنت جالسا وحدى . . وفجأة وجدتنى أقف وأقول : اللهم صل عليك . . اللهم صل عليك يانبى . . ونهضت واقفًا . . لقد نمت جالسا ووضعت رأسى على يدى على سور البلكونة ورأيت وسمعت وتزلزلت . . ولم أعرف ما الذى حدث . . لقد كان طويلاً جدًا . . ساعتين . . ثلاثًا . . ليلاً طويلاً . . مع أن الذى حدث لم يزد على ثانية أو ثانيتين . . ووجدت العرق يتصبب أنهارًا من عينى ومن رأسى . . ووجدت قلبى يدق فى كل مكان من جسمى . . وتراجعت فى مقعدى أستريح من هذا التيار الكهربى الذى صعقنى . . وبعدها أحسست أن وزنى أخف . . أننى أكثر حيوية وانتعاشا . . وأننى طفل . . ولو نظرت إلى وجهى فى المرآة لرأيتنى رضيعًا على صدر أمى . . ولم أقصص رؤياى على أحد . . عامًا . . وعشرين عامًا . .

وسمعت من الناس أن السعداء هم الذين يرون الرسول عليه الصلاة والسلام فى أحلامهم . . وإن علماء ومتصوفين عاشوا وماتوا ولم يروا الرسول . . وقد حاولوا بالصلاة والدعاء . . ولكنهم لم يروه . . وماتوا حزنا وكمدا كيف أن الله قد حرمهم من هذه النعمة . كنت أسمع وأسكت ولا أقول . ولا أعرف لماذا أنا ؟ ما المعنى ؟ ما الحكمة ؟ ما الرسالة ؟ . .

قال لى الشيخ الباقورى : أنت عليك مهمة خطيرة . وأنت مطالب بأدائها . .

قال لى الشيخ حسن البنا وكنت وقتها أمينًا لمكتبة الإخوان المسلمين بإمبابة : يا ولدى لا أعرف ماذا أقول لك . . إن المعنى واضح . . قليلون جدًا من لهم مثل حظك . . ولكن العبء ثقيل وأنت مطالب بأن تحمله وحدك . . والله على ما أقول شهيد . . انفض عنك مغريات الدنيا . . واتجه . . واستقم . . وانسلك . . وانسلخ . . وانقل علمك للناس . . إن وزرك عظيم إن لم تفعل . .

وأخافنى كلام الشيخ حسن البنا . . ولم أعد أحكى لأحد . فأنا لا أعرف ما الذى يمكن أن أفعله . . إننى مؤمن لاشك فى ذلك . .

فقال جارى : ولكن يجب أن تحكى وتقول لتكون قدوة للناس . . وليكون العلم فى خدمة الإيمان . .

واندهشت كيف أننى لم أقل شيئًا وجارى قد سمع كل شىء !

ما هذا الذى نحن فيه ؟ كيف لا أقول ويسمعنى جارى ؟ كيف لا أحكى ويفهمنى جارى ؟ كيف لا أظهر شيئًا ويفضحنى جارى ؟

ثم قال لى : أفضل !

قلت : ماذا ؟

قال : أن نصلى فى مكان آخر وأن نعود لننام فقد تعبنا اليوم .

وكان هذا بالضبط ما أريد . . وقمنا جميعا معا . . ووقفنا فى الصف . . وتلفت إلى جارى فلم يكن هو جارى . . وإلى جارى فى الناحية الأخرى . . ليس هو جارى . . هل كنت نائمًا؟ أبدًا . . هل لم أنم ؟ نعم . فأين الناس ؟ إنهم أمواج صغيرة فى محيط . . شعاعات قصيرة فى شمس . .

يا رسول الله صرنا غرباء !

عزرائيـــل الموت !

تساءلنا عن أكثر السائقين فى الدنيا جنونًا . .

واحد قال : إنه السـائق المصرى !

وواحد قال : الإيطالى هو الأكثر جنونًا . . يساعده على ذلك السـيارات الصغيرة والزحـام . . والموتوسيكلات ذات الدوى العنيف والفرامل القوية . .

وواحد ثالث قال : بل هو الفرنسى . .

وفجأة توقفت سيارتنا مرة واحدة . . وفى نفس واحد قلنا : بل هو السائق الإسرائيلى . .

فاليهود عصبيون جدًا . ولذلك فحوادث السيارات أكثر من حوادث الحرب . . ولذلك فأسنانهم مسوسة وضغطهم عال جدًا . والسبب هو هذه الحالة العصبية الجنونية . .

وكنا فى طريقنا إلى مدينة حيفا . .

وكان من أثر هذه الفرملة المفاجئة أن ارتطم رأس المرحوم على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام فى المقعد الأمامى ونزل الدم من أنفه . . ولما رآنا انزعجنا ازداد اضطرابه . . وأشار لنا ألا نهتم بالحادث وأن نكمل الحوار الذى بدأناه : إن الإسرائيلى أكبر سائق مجنون فى الدنيا ، ثم إنه لم يعتذر كأن السيارة ليست إلا دبابة فى معركة . . أو كأن من واجبه أن يقتل بعض المصريين ، فقد فاته أن يقتلهم فى الحرب . . فلماذا لا يستهل بهم معركة السلام ؟ .

وكأن عزرائيل الموت أراد أن ينبهنا جميعًا فنتلقى خبر وفاة على حمدى الجمال بعد ذلك فى واشنطن بصدمة أقل . . فقد رأينا وفاته بشكل ما فى الطريق بين القدس وحيفا . .

وكلما تذكرت حيفا تذكرت هذه الحادثة . .

وتذكرت قصة قديمة تقول إن أحد الأمراء نزل إلى الحديقة فوجد ملاك الموت جالسًا تحت شجرة تفاح . . ولما رآه ملاك الموت سقطت التفاحة من فمه . . فخاف الأمير . فاصطدم

بإحدى الأشجار ونزف الدم من أنفه . . وذهب الأمير إلى والده يقول له : أريد أسرع حصان عندك . .

فسأله الملك : لماذا ؟

قال : لقد وجدت ملاك الموت فى الحديقة . . ومد يده ناحيتى وهربت فارتطم رأسى بإحدى الأشجار . . وأريد أن أهرب منه على ظهر أسرع الخيول .

فأمر له الملك بالحصان الذى يريد وسأله : إلى أين ؟ فقال الابن : إلى بغداد . .

ونزل الملك من قصره وذهب إلى ملاك الموت يقول له : لماذا تخيف شابًا صغيرًا هكذا ؟

فقال له ملاك الموت : أبدًا . . وإنما أنا اندهشت لوجوده هنا . . فأنا على موعد معه غدًا فى بغداد !!

وكان الموت على موعد مع على حمدى الجمال فى واشنطن !

أما الحقول الخضراء فهى على الجانبين . . أما الطريق فمرصوف ناعم حرير . . وتوجد قرى أو مستوطنات بين الأشجار الكثيفة . . ومحطات للأتوبيسات . . والناس من كل لون رجالاً ونساء واقفون فى انتظار الأتوبيس . . المحطات صغيرة نظيفة وفى المحطة مقاعد ومظلات والناس بيض وحمر وسمر . . إنهم من أوروبا وأمريكا وآسيا . .

وأما مدينة حيفا فهى مدينة أوروبية . . عمارات عالية . . والشوارع صغيرة ونظيفة . . والمدينة كلها فوق . . أعلى من البحر . . أعلى من الميناء الذى ازدحمت فيه السفن . . وتعالت المداخن . . والشوارع خالية من الناس إلا عددًا قليلاً من المشاة . . من السيدات والأطفال . . وفى البيوت حدائق صغيرة . . وأشجار كثيرة فى كل مكان . . وهناك فيلات . . وإذا وقفت على الشاطئ كان البحر الأبيض بعيدًا . . تحت . . هناك درجات أو طبقات من الأرض أو من الجبال . . فالمدينة قد أقيمت على جبل أو عدة جبال متجاورة . . وماء البحر لا هو أبيض ولا هو أسود . . وإنما هو رمادى وكذلك السماء . . والناس هنا أهدأ ووجوههم ملامحها قد استراحت تمامًا . . والمثل فى إسرائيل يقول لك : تعمل فى القدس . . وتسهر فى تل أبيب . . وتنام فى حيفا . .

ففى حيفا تنتهى الحياة عند غروب الشمس وينامون ، بينما لا يعرفون إلا السهر فى تل أبيب .

* * *

دخلت إلى مكتبة الجامعة . . إلى المطعم . . إل محل لبيع الورق والأقلام والكتب . . جاءت فتاة صغيرة وقالت لى : أنت فلان ؟

واندهشت جدًا . فقلت لها : كيف عرفت ؟ قالت : رأيت صورتك على كتب عند والدى .

ـ ومن هو والدك ؟! . .

قالت : محمود العباسى . .

ـ آه . . طبعًا أعرفه . .

إنه مؤلف وأديب ومترجم وناشر للكتب وصاحب مجلة . . وقد التقيت به فى مؤتمر القلم الدولى فى فيينا قبل ذلك بعشر سنوات . .

وكان منظرنا عجيبًا ونحن نمشى فى الشوارع . . فلا يوجد فى إسرائيل كلها واحد يرتدى الكرافتة إلا السيد مناحم بيجين رئيس الوزراء ورؤساء تحرير الصحف المصرية . فكنا ونحن نمشى فى الشارع الوحيدين الذين يرتدون البدل والكرافتات . . وتتشابك أيدينا فى الشارع . . والناس من حولنا بالفساتين أو البنطلونات الجينز والقمصان . . وكنا الوحيدين الذين يمشون بالعرض لا اثنين اثنين . . وإنما ثلاثة ثلاثة . . وأحيانًا جميعًا فى صف واحد نعترض المشاة على الأرصفة . .

وأشار السائق الذى تقدمنا إلى أحد المحلات على اليسار . . ولم ننتظر إشارة المرور ، وإنما عبرنا الشارع وتفادينا السيارات من هنا وهناك . . ودخلنا المحل وقيل لنا : إن صاحبه مصرى . .

وكانت مفاجأة للرجل الذى قال لنا بالعربية وبلهجة مصرية : أهلاً وسهلاً . . نورتم إسرائيل . . أهلاً . . تفضلوا . . ماذا تشربون ؟ .

وكنا نريد أن نشترى لمبات لقتل الناموس . . وسمعنا محاضرة مختصرة عن هذه اللمبات الفلورسنت التى يبيعونها للسويد والنرويج . . ومعظم الدول الأوروبية ـ ومعنى ذلك أن هذه البلاد جميعًا تعانى من وجود الناموس مثلنا . . أو أقل قليلاً !

وكانت البائعات يتكلمن العربية بلهجة مصرية . .

ونظرت فوجدت كل واحد يحمل لمبة أو اثنتين ، وخرجنا بنفس الطابور بالعرض إلى الشارع . . وقبل أن نخرج حاولت أن أغير المعنى الذى رأيته فى عيون البائعات . فقلت لواحدة : إن هذه اللمبات خلقت لنا مشكلة لسنا فى حاجة إليها .

سألتنى : مشكلة ؟

قلت : ومن أين سنأتى لهذه اللمبات بالناموس الكافى ؟

قالت : سهلة . . خذ من عندنا أى عدد من الملايين . . فلدينا فوق الحاجة والطاقة ! هاها . . هاها !

أى إننا نعرف بعضنا البعض وهى فاهمة وأنا فاهم ! . .

هذه المنطقة كانت مستنقعات جففوها وزرعوها . . وكانت البعوضة فى حجم الدبور . . ولابد أنهم سمعوا أو قرءوا عن البعوض المصرى عند الفيضان وعند رى الأرض . . وقبل أن أصافح مديرة العلاقات العامة قالت لى : لا تكتبوا فى مصر أن الناموس الذى عندكم بألوف الملايين قد جاء هو الآخر من إسرائيل !

المدينة ليست لها معالم خاصة . . اللهم إلا الكلمات العبرية على المحلات . . ولكن الوجوه شرقية وغربية . . والوجوه هادئة حزينة . . أو هادئة فقط . . ومظاهر الصحة على وجوه الأطفال والشباب . . ولم ألاحظ أحدًا قد ارتدى شيئًا أنيقًا . . لا الرجال ولا الفتيات . . ولكن المحلات قد امتلأت بكل أنواع السلع . .

والشوارع طالعة نازلة . . والأشجار كثيرة . . والبيوت نظيفة صغيرة جميلة . .

سألنى السائق : هه ماذا تريد ؟

قلت : المحفل البهائى . . فهنا أكبر معبد بهائى فى العالم كله . . وكان هذا المحفل هو مصدر تهمة للبهائيين بأنهم عملاء لإسرائيل جواسيس خونة كفرة ! !

وركبنا الصاروخ ـ أقصد السيارة ـ فالسائق كان يعمل سائقًا لدبابة فى الحرب . . وأكد لى أنه كان يحارب على الجبهة السورية وأنه لم ير مصريًا قبل ذلك . .

قلت له : طبعًا تتكلم العربية ؟

قال : ولا كلمة !

قلت فى نفسى : كذاب . .

فقد لاحظت أنه يتابع أحاديثنا من المرآة كلمة كلمة . . فكنت أعاكسه بأن أستأذن الزملاء وأتكلم الألمانية وأحيانًا الإيطالية . . وأراه فى المرآة فى حالة من الغيظ لأنه يريد أن يعرف . . ثم استخدم بعض الكلمات العبرية . . وأرى الدهشة على وجهه . .

ومن حين إلى حين يسأل : هل تكلمنى ؟

فأقول له : لا . .

ووقف بالسيارة . ونزلت مع المرحوم على حمدى الجمال وهو لا يزال متضايقًا من الإصابة فى أنفه . وقال لى : يا أخى أنت اللى يمشى معاك توجع له دماغه وتكسر له مناخيره ؟ يا أخى احنا مالنا ومال البهائيين ؟ . . يعنى هو ده اللى ناقصنا ؟ . .

ـ ياراجل تعال اتفرج . . وأنا أحكى لك قصة هذه الديانة ، وكيف خرجت من إيران حتى جاء عباس أفندى عبد البهاء إلى مصر وقابل الشيخ محمد عبده والعقاد وما دار بينهم . . سوف أحكى لك قصة قبيحة ولكنها تاريخية والله العظيم . .

ـ يا أخى مش عاوز . . سأنتظرك فى السيارة . .

ـ يا راجل عيب تعال . . إنها فرجة . . سوف ترى أعظم المحافل البهائية فى الدنيا . . أليس لك أصحاب من البهائيين ؟

ـ أبدًا .

ـ إزاى ؟ ألا تعرف الفنان الكبير حسين بيكار ؟ . . إنه شيخ مشايخ البهائية فى مصر . . ألا تعرف فلانة ؟ . .

ـ لا . .

ـ يا أخى تعرفها . . ألم تذهب ولو مرة واحدة لأم كلثوم . . ألا تعرف السيدة الطويلة السمراء التى تتكلم عدة لغات وتنادى الناس . . كل الناس ياباشا . . بتضخيم الباء .

ـ أبدًا .

ـ ياراجل طيب إيه رأيك أنا شفتها فى مكتبك مع الفنان الكبير صلاح طاهر . . يوم سقطت القهوة على بنطلونى . . وفوجئنا بأنها أخرجت منديلاً حريريًا جميلاً ، فضحكت أنت وقلت لها : خسارة . . معى منديل . .

ـ أيوه . . أيوه . . هذه بهائية ؟

ـ أيوه ! وتعيش فى أمريكا وقد جاءت لزيارة مصر مع زوجة الأغاخان . . إنها عندما خرجت من مكتبك رفعت يدها لكى تقبلها . .

ـ وأنا قبلت يدها ؟ .

ـ لا . . صلاح طاهر فعل ذلك بالنيابة عنا جميعًا !

ـ وإزاى هذه الجميلة جدًا بهائية ؟

ـ وجهة نظر !

وقفت السيارة بعيدًا . . ومن فوق الجبل رأينا البحر والبيوت صغيرة . . فالمعبد البهائى أقيم على السفح . . المعبد عبارة عن حديقة واسعة على السفح . . حديقة جميلة الأشجار والورد . . والطرقات كلها نازلة . . وكلها سلالم حتى لا يتساقط الناس . . والمحفل نفسه له قبة ذهبية . . ويقال من ذهب . . ويقال إنها أقيمت بفلوس ملايين البهائيين فى أمريكا وأوربا وآسيا . .

وكل زوار المعبد من الأمريكان والفرنسيين . . وكل واحد معه كتاب يقرأ معالم المكان . . وفى الحديقة تماثيل لطيور ضخمة . . لا علاقة لها بالديانة البهائية . . فهذه الديانة قائمة على « التوفيق » بين كل الأديان . . فأملها أن يتحقق الوفاق بين الناس . . لأنه لا يوجد خلافٌ جوهرى بين كل الأديان . . وإنما الخلافات قد خلقها الحاخامات والقساوسة والمشايخ . . والله واحد عند الجميع . . وكل الأنبياء يكمل بعضهم البعض . . ولكن الخلاف بين البهائية وكل الأديان أنها تحاول إلغاء الخلافات بين الأديان . . ثم إنها تضيف إلى الأنبياء ـ وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام ـ أنبياء آخرين . . فالقرآن الكريم يقول : إن محمدًا خاتم الأنبياء ـ أى آخرهم . . ولكن البهائية ترى أنه « خاتمهم » أى الخاتم الذى تزدان به أصابع النبوة . . فهو أجلهم وأعظمهم وليس آخرهم !!

فالبهائية حاولت إرضاء كل الأديان فأغضبت الجميع . ولأن البهائية لم تتخذ موقفًا حاسمًا من كل دين ، اتهمتها كل الأديان . . ولأن معبدهم الأكبر هنا فى حيفا ، اتهمناهم بالجاسوسية لحساب إسرائيل . .

والبهائية دين معترف به فى إيران . .

ومن حق كل إنسان أن يكتب فى بطاقته أو جواز سفره أنه بهائى !

وقد عاقبت مصر الفنان الكبير حسين بيكار فلم تعطه جواز سفر إلا إذا كتب أنه مسلم أو مسيحى أو يهودى أو بوذى ـ ولكن بهائى لا . .

وبعد ذلك دخل حسين بيكار السجن ، فغضب كل الفنانين والأدباء والشعراء فى مصر وفى العالم العربى . . لا إيمانا بدينه ، ولكن احترامًا لحرية العقيدة . . وحبا فى الفنان الكبير الذى هو رمز للصفاء والنقاء !

ونحن فى داخل المعبد الخالى تمامًا من أى شىء إلا النقوش الذهبية والنوافذ الطولية ذات الزجاج الملون الجميل ، اقتربت سيدة تسألنى بالفرنسية : أنت إيرانى ؟ قلت : نعم . .

ـ بهائى ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ترتدى هذه السيدة ـ التى هناك ـ قبعة عليها هذا العدد الكبير من العصافير ؟ . . ولماذا زوجها يمشى حافى القدمين ؟ . . ولماذا يلفان كل هذه الأحذية حول طفلها الصغير ؟

ـ مجانين ياسيدتى !

ـ تقصد أنها ليست تعاليم البهائية .

ـ لا . .

ـ ولكننى قرأت أن المسلمين يخلعون الأحذية فى المساجد . . ويتركونها عند الباب . . فأنا اعتقدت أن هذه الأسرة تخشى على أحذيتها أن تسرق فلفوها حول عنق هذا الصغير . .

ـ ولكن البهائيين لا يفعلون ذلك . .

وسمعتها تقول لزوجها عنى بالألمانية : لقد سألت رجلا مجنونًا . . هيا بنا نخرج فليس هنا إلا أناس مجانين !

واندهش على الجمال وسألنى : ما هذا ؟

ـ يا أخى ما الذى تتوقعه ؟ . . إنها تريدنى أن أكون إيرانيًا بهائيًا . . فليكن .

ـ لماذا لا تسألها : على أى أساس قررت أنك إيرانى وأنك بهائى !

ـ ولماذا أسأل ؟ . . ولو قالت لى أنت هندى . . صينى . . فلن أعترض ! فأنا لست موضوع البحث . . وإنما أريد أن أعرف ماذا تريد هى . . كلام يا أخى . . كلام ! تحب تشوف ؟ . .

ـ أرجوك . . لا بأحب ولا عاوز أشوف . . كفاية !

ـ آخر اقتراح . . لماذا لا تدخل أحد المستشفيات لعلاج أنفك لكى تتفرج على نظام المستشفيات والعلاج ؟ . .

ـ لا .

ـ ما الذى تخسره ؟ . . عندنا وقت . .

ـ لا .

ـ طيب عندى اقتراح . . ونحن فى طريق العودة إلى تل أبيب . . سوف أتظاهر بالمغص والدوخة بالقرب من إحدى المستوطنات ونطلب إلى السائق أن يذهب إلى أقرب مستشفى ونتفرج على هذه المستوطنات . . يا أخى فرجة . .

ـ ما هو المرض اللى عندك ؟

ـ يا أخى أى مرض ؟ . . إن شا الله أشكو من أعراض الحمل والولادة فأنا أريد أن اعرف !

* * *

وفى الطريق اصطدمت سيارتنا بسيارة أخرى . . وفى آخر لحظة تفادى السائق موتا مؤكدًا . . إنه ملاك الموت يرفرف حول هذه السيارة . . أعوذ بالله . .

قلت للسائق : كم سوريا قتلت ؟

قال : أنا ؟ . لا أعرف . . فنحن فى الدبابات نطلق النار فى كل اتجاه . . وغيرى هو الذى يحصى عدد القتلى . .

ـ هل أنت آسف أنك لم تقتل أحدًا من المصريين ؟ . .

ـ آسف ؟ . . ولماذا ؟

ـ لأنك الآن كدت أن تقتل اثنين من رؤساء تحرير الصحف المصرية . .

ـ من هما ؟

ـ نحن !

ـ بالعكس أنا تفاديت الاصطدام وموتنا جميعا . . إن السائق الآخر هو الذى يريد أن يقتل سائقًا إسرائيليا آخر ولا يهمه من يكون معه . . بل هو متضايق جدًا لأن سيارتى حكومية !

ـ هو على خلاف مع الحكومة ؟

ـ كلنا على خلاف مع الحكومة !

ـ هذه الحكومة ؟

ـ أية حكومة !

بكين :
من الذى يعرف ؟

تك لك . . كوان هون هوا بوم توكا ـ ليست هذه أخطاء مطبعية . وإنما هى عبارة صينية معناها : المكان الذى تسأل عنه أنت واقف أمامه !

ولم يكن هذا المكان إلا مطعماً من ناحية ودكاناً لبيع الصينى والجلود والخزف ولعب الأطفال من الناحية الأخرى .

وقالوا لى : إذا دخلته فقل على نفسك يارحمن يارحيم . يعنى أننى سوف أنفق كل أموالى !

ونظرت حولى يميناً وشمالاً ولم أجدنى تحت أى إغراء . . فقد رأيت محلات كثيرة فى الدنيا شرقاً وغرباً بعدد شعر رأسى . فليس من السهل أن يبهرنى أى محل . . ولكن أعدت النظر مرة أخرى . . ابتداء من الفتيات الصغيرات اللاتى يبعن . . هذه إذن هى الملامح الصينية التى تسيطر على كل قارة آسيا عدا الهند والشرق الأوسط . . ولا أكاد أقترب من أية واحدة حتى تظهر ابتسامة خفيفة مع حركة من شفتيها الصغيرتين . . وانطلاق صوت صارخ كأنه صوت فأر أو قط مخنوق . . ولابد أن هذا الصوت معناه : أهلاً وسهلاً أو تحت أمرك . .

ففى هذه الحالة لا تملك إلا أن تحنى رأسك وتقول أى كلام مثلاً : يانهار أسود . . هيه دى بقى بكين ؟! وهيه دى المحلات اللى تدوخ من يدخلها وتدوخ أكثر من يخرج منها ؟!

فأنت تستطيع أن تقول أى كلام فلن يفهمك أحد ، كما إنك لن تفهم أحدًا !

وتذكرت ما يفعله الصينيون فى هونج كونج . . فأنت لا تستطيع أن تضحك أو تهرب أو تخرج أى واحد منهم . فكل شىء سوف يصنعونه لك . . مثلاً : أريد بنطلوناً رجله بيضاء والثانية حمراء . . وله زراير من الخلف . .

وبسرعة يقول الرجل : موجود !

فتقول له : بنطلونا ضيقًا خانقًا كالبنطلونات الأمريكية وواسعًا كالبنطلونات اليابانية . .

ويرد عليك : موجود !

وتقول : وأريد الجيوب أن تكون من الخارج . .

ـ موجود !

وتقول له : ولكن اللون الأحمر أريده درجات . .

ـ موجود !

ـ وأنا مستعجل ولذلك أريد البنطلون بعد ساعتين . .

ـ بعد ساعة واحدة !

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الصينى فى هونج كونج قادر على أن يحقق لك أية رغبة . . ولا يمكن أن تفلت منه مطلقًا . كل شىء يمكن عمله وبأسرع مما تتصور . . أما فى بكين فالأمر مختلف . فكل شىء محدد تمامًا . وكل شىء معروف . ولا تستطيع أن تضيع وقت أى واحد . قلت للفتاة الصغيرة التى تتكلم اللغة الإنجليزية بصعوبة : عندك سيارة كاديلاك ؟

قالت : نعم .

وفتحت الدرج وأخرجت نموذجًا لها !

ووجدت أن الاستمرار فى هذه اللعبة شىء سخيف . فأنا أعرف مقدمًا الظروف الصعبة التى لقيها الصينيون (ألف مليون نسمة) وأن هذا الشعب جاد جدًا . . فليس عندهم وقت لهذه المسخرة !

خرجت من المحل بسرعة . فالمحل كبير . الجدران عالية . لا يوجد تكييف . . الهواء خانق فاسد . . كل واحد يعرف لماذا وماذا يريد . . وفهمت أن هناك نوعين من المنتجات الصينية . النوع الذى نراه أمامنا وهو لكل الناس . . والنوع الذى يباع خارج الصين وهو أحسن المنتجات من السجاد والمفارش والأكواب والفناجين والحرير المشغولة الجميلة . . يعنى إذا كان أحد يريد أن يشترى مشغولات صينية يجب أن يذهب إلى الرياض أو باريس أو هونج كونج . . أما هنا فى بكين فلن يجد إلا السلع الشعبية !

وركبت السيارة وانطلقت يمينًا وشمالاً . . وطولاً وعرضًا . . الشوارع واسعة جدًا . . والمؤسسات عالية ضخمة . . كتل حجرية متراصة . . والناس صغار الأحجام لهم وجوه واحدة . . شاحبة . . أو هى صفراء سمراء . . لا تعبير عليها . . وعلى الجانبين الأيمن والأيسر ألوف البسكلتات . . تمشى فى هدوء وفى صمت . . لا أحد ينظر لأحد . . الكل يتحرك . . وقد تدربوا على ذلك العمر كله . . وعند إشارات المرور يقفون فى صمت . . ومن النادر أن تجد أحدًا بدينًا ، كما إنه أندر من ذلك أن تجد أحدًا يضحك !

وجدت فتاة قد ارتدت قميصًا أمريكيًا عليه أسماء بعض الأفلام والنجوم ثم إنها تضحك . . أشرت بيدى إن كان من الممكن أن أتحدث إليها . فتوقفت ونزلت من البسكلت وقالت : هالو من أى البلاد أنت ؟

قلت : من مصر .

قالت : هالو . . وأنا من مدينة جنوب العاصمة ، وقد تعلمت الإنجليزية بلهجة أمريكية من سنوات طويلة . .

قلت : سنوات طويلة ؟ ولكن أنت صغيرة !

ـ كم عمرى ؟

ـ المرأة لا عمر لها . .

ـ ٢١ سنة . .

ـ كدت أقول ١٢ سنة . .

ـ فى يوم من الأيام كان عندى ١٢ سنة .

ـ عندك وقت ؟

ـ نعم .

ـ هل أدعوك إلى شاى ؟

ـ شكرًا .

وجلسنا . سألتها عن هذا الذى أراه وهذا الذى لم أره فى بلاد الصين الواسعة جدًا . . عشرات المقاطعات . . واللغات واللهجات . .

قالت : أحسن ما فعلت أن تجلس فى مكان وتتفرج على الناس . . فالمثل الصينى يقول : لا زفة فى سوق !

والمثل معناه أن الإنسان لن يدرى به أحد إذا كانت له زفة فى الزحام . ويقال إن الرجل الطيب كونفوشيوس قد سمع عن سيدة جميلة جدًا ، ومنحطة جدًا وزوجة لأمير قوى جدًا . . ولكنها هى التى تحكم الأمير . ذهب إليها . وتحدث الناس وقالوا كيف يذهب الخير إلى الشر؟ كيف تسعى الحكمة إلى الرذيلة ؟

فتضايق كونفوشيوس وخرج من عندها . . ثم عاد إليها مرة أخرى ومعه زوجها . فقال الناس : كيف استطاع الرجل وامرأته أن يلطخا سمعة هذا الحكيم العظيم ؟

فخرج كونفوشيوس غاضبًا وقال عبارته الشهيرة : غلطة : زفة فى سوق ومعنى ذلك أن من الصعب أن يوجد شىء جميل . . وسط شوشرة من الكلام والشائعات !

وسألتها إن كانت من الريف . فأجابت بأنها فعلاً من الريف . ولما سألتنى عن كيفية استنتاج ذلك . قلت لها : لأنك تضربين أمثلة كثيرة . . ككل أبناء الريف الذين تتحكم فى حياتهم وسلوكهم الأمثلة الشعبية مثل : الصبر مفتاح الفرج . . طولة البال تهد الجبال . . ياجارى أنت فى دارك وأنا فى دارى . . اللى عنده حنة يحنى ديل حماره !

قالت لى : إن هذا الجانب من المدينة هادئ جدًا . . والمثل يقول : تستطيع أن تمسك العصافير من فوق العتبة . . أى إن أحدًا لا يدخل ولا يخرج من هذا البيت لدرجة أن العصافير قد اعتادت على الوقوف أمام الباب دون خوف من أحد . .

قلت لها : ونحن عندنا يقول : كأن على رؤوسهم الطير !

أى إن الطير يقف على رؤوسهم دون خوف ، لأن رؤوسهم لا تتحرك !

* * *

الشوارع كلها واسعة طويلة متشابهة . . والأشجار على الجانبين وفى وسط الطريق . . وليس عندهم شارع لا تجد عند جانب من جوانبه حديقة صغيرة . . ولا يوجد وقت نهارًا أو ليلاً لا تجد واحدًا قد وقف يتأمل جمال الماء والزهور وأحيانًا الطيور . . أما فى الساعات المبكرة من كل يوم فتحول الشوارع إلى ملاعب . . أو جمانزيوم مفتوح . . فالناس تؤدى ألعابها الرياضية فى الشارع . . وتجد أناسًا تقدمت بهم وبهن السن يؤدون ويؤدين ألعابًا صعبة جدًا هذا يحنى ظهره . . أو يكسره مائة مرة . . وهذه ترفع رجلها إلى مستوى الرأس بخفة ورشاقة رغم أنها تجاوزت السبعين . . وهذا يزحف على بطنه . . وهذا يتقلب كأنه ثعبان . . وهذا يقف على أطراف أصابعه نصف ساعة . . وهذا معه سيف . . وهذا يرفع حديدًا . . كل ذلك فى الطريق إلى العمل . . وقبل دخول المصانع والورش . . اقتربت من أحدهم وقرأت ما كتبه لى المرافق الصينى فقلت : تبلوا . . لوكو . . أدنا هوا أوناشى تون تى ـ ومعناها : كم مرة تؤدى هذه الحركة ؟ فقال : مائة وعشرين مرة !

تصور . . الرجل عنده سبعون عامًا أو أكثر ويقفز على الأرض فوق ساق واحدة مائة وعشرين مرة .

وكتب لى المرافق فى ورقة : لوهانا . . يوهاتا شنشو مودانى . . كوتو . .

فأجاب : مرتين فى اليوم . . مرة فى الصباح ومرة قبل النوم . . فيما عدا الحركات الرياضية الأخرى . . إننى أؤدى هذه الحركات ساعة كل يوم منذ أكثر من ستين عامًا . .

وقرأت من الورقة : وفى اعتقادك أنك سوف تعيش كم عامًا !

فظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه وقال : إذا لم يصبنى مرض خطير . . فسوف

أعيش حتى الخامسة والتسعين . . وهى السن التى مات فيها أبى وأمى وجدى وخالى وأخى الأكبر!

* * *

أما البيت الذى أقيم فيه . .

فدعنى أصف لك البيت . . إنه ليس بيتًا . . وإنما هو قصر من قصور الأمراء أو الملوك . . وسط حديقة جميلة . . بها أشجار كثيفة وفيها بحيرات صناعية . . وعدد كبير من الببغاوات التى ترفع بالصوت منذ شروق الشمس حتى غروبها . . وفى البحيرات يوجد الأوز الأبيض والأسود والبط البكينى الشهير . . وعلى شاطئ البحيرة توجد بجعة ضخمة كالتى نشاهدها فى سوق السمك فى الإسماعيلية تمشى بين المحلات وتلتقط ما تشاء من السمك دون أن يعترض أحد . حاولت أن أشتريها لنفسى فقال لى واحد بلدياتى من تجار السمك : خذها إذا أردت الآن . . ولكن يجب أن توفر لها كل يوم خمسة كيلو جرامات سمك ؟!

هذه البجعة الصينية تعترض المشاة . . وتهجم عليهم . . ولكن أحدًا لا يتعرض لها . . إنهم يداعبونها . .

وعلى باب القصر موظفون للاستعلامات والتليفونات . . وتنظيف الغرف وتنظيم الوقت . . وكل شىء يتم بنظام وفى هدوء تام . . ولا صوت فى أى مكان ولا صدى . . ولكن يغلب على الروائح كلها رائحة البن . . وروائح أخرى لا أعرف ما هى ولا أعرف كيف أصفها . .

أدخل المطعم . . القاعة كبيرة . . واسعة . . كل شىء نظيف جدًا ومنظم . المائدة عبارة عن ترابيزة دائرية . . وفوق الترابيزة قرص دائرى . . وعلى هذا القرص توجد الأطعمة كلها . . وأنت تدير القرص فيجىء الطعام الذى تريد أمامك . .

هذا الطعام الذى يقدمونه هو الذى يناسبك أنت وليس الذى يأكلونه . . إنه طعام أوروبى . العجة والخبز والصلطة والمربى والفاكهة والشاى والقهوة . . ويحدث ارتباك بين السفرجية ـ أكثرهم بنات ـ إذا أنت طلبت مزيدًا من أى شىء غير الشاى والقهوة . . فإذا قلت : ممكن من فضلك بيضتين . .

فلا أحد يتصور أنك مفجوع لدرجة أن تأكل على الريق أربع بيضات . . ولكنها سوف تأتى لك بما تريد بعد حوار يدور فى المطبخ ينطوى على الدهشة من وحشيتك ، وأنك لا تهتم بصحتك . . ولا أحد يعرف إن كان هذا بيض عصافير أو بيض غربان . . إنه بيض والسلام!

وأحسست فى هذا القصر كأننى أعيش فى أية دولة أوربية . . لولا الفتيات وبعض الزينات واللوحات . . فقررت أن أذهب إلى مطعم شعبى . وكان معى المرافق الذى رجوته ألا يتدخل

فى سلوكى إلا إذا أحس أننى ضعت تمامًا أو أكاد أضيع . . ووافق الرجل . وكان لطيفًا . وقال لى : كلها دقائق وسوف تنادينى . . قلت : لا . . سوف أحاول !

أما المطعم فهو متوسط المساحة . . ولكن الزحام شديد . . والروائح لا توصف . ولا يمكن معرفتها أبدًا . . هل هذا لحم ميت ؟ هل هذه غازات سامة ؟ هل هذا الدخان احتراق شىء ؟ لا يمكن أن أصف هذا الذى أشمه . . ولكن الناس جلسوا فى هدوء . ومعظمهم يتكلم . . ولكن هناك ضوضاء لا أعرف مصدرها . . جاء الرجل وأشرت بيدى إلى أننى أريد طبقًا كبيرًا . . ولم يفهم الرجل . . أو لم يهتم كثيرًا بأن يفهم . فأنا لست إلا أحد الأجانب ولا داعى لوجع الدماغ معى . . وجاءت فتاة صغيرة تلميذة وحاولت بلغة إنجليزية مكسرة جدًا أن تسألنى عن الذى أريد . . وأتت بقائمة طعام وأشرت بأصبعى إلى سطور باللغة الصينية . وذهبت الفتاة وعادت بعد لحظات .

الطبق ملىء بأكوام صغيرة من الأعشاب أو من اللحوم . . أو من الاثنين معا . مع كوز ذرة صغير جدًا مسلوق . . وبعض سيقان الكرنب أو البصل أو الفجل وبعض الصلصة . . نقطة صلصة هنا ونقطة هناك . . وانحنت الفتاة وذهبت . . وأدنيت الطبق من أنفى . . لا يمكن أن أعرف بالضبط ما هذا الذى أمامى . .

وكان لابد أن أسأل المرافق فقال لى : بيض ثعبان . . ولحم القطط الصغيرة . . وقطعة من لحم الكلب . . وقطعة من قلب ثعلب . . وأعشاب من الجنوب . . وصلصة من دم الخنزير مع دهن الخنزير وديدان البحر والعلق والقليل جدًا من عسل النحل أو من السكر . . وكلها طازجة ، فهنا لا يعرفون الثلاجات . . كلها حيوانات ذبحت صباح اليوم . .

* * *

فهل لو جاء سائح أجنبى إلى القاهرة ورأى جامع الأزهر فقط . . أو مسرح البالون فقط . . أو المدبح فقط . . أو مقابر الغفير فقط . فهل يحق له أن يقول إنه رأى القاهرة وعرف عادات وتقاليد أهل مصر كلها ؟

هل إذا أنا انتقلت من قصر إلى حديقة ومن حديقة إلى شارع إلى ميدان إلى مطعم أستطيع أن أصف لك ما هى بالضبط حياة أكثر من ألف مليون نسمة يسكنون مساحة من الأرض تبلغ ستةملايين كيلو متر مربع ودينهم الكونفوشية والبوذية والتاوية والمسيحية والإسلام ؟ هل يمكن معرفة التغييرات التى أصابت الناس . . وثوراتهم على النظام العتيق . . أو الدول الشيوعية التى جعلت من مذهبها هذا المذهب المهين للإنسان وكرامته . . الشيوعية ذلك الحيوان المتوحش الذى لا يأكل إلا نوعين من الطعام : الحرية والكرامة ، ولابد أن يدمن نوعًا واحدًا من الكلام : المستقبل . .

وهى أكذوبة كبرى . فالشيوعية قد قضت على أى أمل فى مستقبل الإنسان . . ولذلك ثار الشباب فى الصين . . ولكن ثوراتهم صغيرة . وكان من السهل القضاء عليها . . ولكن لا يهم . إنهم أعلنوها . وعرفت الدنيا سخطهم وقرفهم . وهم يفعلون ما يفعله الذين يفقدون طريقهم فى الجبال أو فى الغابات . . إنهم يطلقون أعيرة نارية فى الفضاء لكى تلتفت إليهم الطائرات فتنقذهم . . وهذا ما حدث . فقد عرف العالم كله ماذا يريد الشباب فى الصين . . ولابد أن يحدث فى الصين وفى كوريا الشمالية وفى كوبا وفى البانيا ، ما أصاب كل الدول الشيوعية . . غدا أو بعد غد . . فلابد أن تتحطم الأغلال والأسوار وتنطلق الألسنة . . ويسترد الألف مليون نسمة ما فقدوا عشرات السنين . .

ولابد أن تكون البداية فى الاتحاد السوفيتى . هذا مؤكد .

قال الفيلسوف الإنجليزى ميل : لو أن نملة وقفت على حجر أسود كبير فى بناء كبير ولم تبرح هذا الحجر ، فإنها ترى أن كل شىء أسود . . وأن هذه طبيعة الأحجار . ولو أن نملة أخرى وقفت على حجر كبير أبيض لرأت أن اللون الطبيعى للأحجار أن تكون بيضاء . . وهذه على حق إلا قليلاً . . وتلك على حق إلا قليلاً . . ولكن الصقر الطائر فى الهواء هو الذى يعرف أن البناء يتكون من أحجار سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء . . ومنها جميعًا تتكون لوحة فنية . . وأن المهندس قد اختار هذه الألوان ليحقق انسجامًا واتساقا فى الألوان والأحجام . .

وكنت واحدة من هذا النمل . . وكنت واحدًا من هذه الصقور أيضًا . . رأيت القليل من بكين عن قرب ، والقليل منها عن بعد أيضًا . هل رأيت بكين ؟ جانبًا منها . . هل رأيت الصين ؟ جانبا منها أيضًا . . تماما كما نلتقط قطرة من المحيط ونقوم بتحليلها لنعرف عناصرها التى هى عناصر مياه المحيط كله . . لولا أنها لا تحتوى على الحيوانات من كل نوع وعلى النباتات من كل لون وعلى السفن والغواصات وصراع الناس فى كل العصور . .

فإن لم تكن هذه هى بكين فهى عينة منها . .

وإن لم تكن هذه هى الصين فهى ثقب ضيق فى حائط الصين العظيم أنظر من خلاله .

هل رأيت ؟ نعم ! هل سمعت ؟ نعم ! كل شىء ؟ لا. كل الناس ؟ لا . . وإنما بعض الأشياء وبعض الناس وبعض الوقت ـ أملا فى زيارات أخرى .

ولكن القليل الذى رأيت وسمعت وأكلت وعايشت يكفى للدلالة على أكثر المعانى والعادات والتقاليد . . والشعور أمامها بالضخامة والضآلة . . وبالحكمة والعجز . . والرسوخ والزلازل . .

ولقد ذهبت أطلب العلم من الصين ـ كما ينصح الحديث النبوى الشريف ـ ولكن الصين لم تبح إلا بالقليل ولم تتكرم إلا بالضئيل . . ولكنها قالت وباحت . . فشكرا على ذلك !

سيدنى :
وضاعت ذاكرتى !

حدث لى شىء عجيب لأول مرة . . فقد كنت أمشى فى الشارع أتلفت يمينًا وشمالاً . . أقرأ اللافتات وأحيانًا أنظر إلى الناس . . فجأة وجدت أنى لا أعرف أين أنا . . ما اسم هذه المدينة ؟ فقد رأيت مدنا كثيرة جدًا . . وتشابهت المدن الأوروبية والأمريكية . . وبخاصة فى الدول التى تتكلم لغة واحدة . .

حاولت أن أتذكر أين أنا . . لم أستطع . . اندهشت لما أصابنى . . ورحت أفكر كيف من الممكن أن يفقد الإنسان ذاكرته . . كيف يتعطل العقل . . كيف أن كل شرائط الذاكرة قد مسحت تمامًا . . إن هذا يحدث عندما تضع شريط كاست فى جهاز تسجيل ، وتضغط على زرار فإذا هو يمحوه كله . . ولكن ما هو الزرار الذى ضغطت عليه فى ذاكرتى فإذا كل شىء أبيض ؟ كأنى ألقيت فى بئر مظلمة . . لا صوت . . لا ضوء . . لا إحساس بأى شىء فعلاً أنا لا أعرف أين أنا . . فالشارع أوروبى أو أمريكى . . واللافتات مكتوبة بالإنجليزية . . والناس أوروبيون . . حاولت أن أجد شيئًا فى الشارع . . فى الناس . . فى الفترينات يدلنى أين أنا . . لم أجد . . ووجدت صندوقًا حديديًا على الرصيف فجلست أفكر فى هذا الذى أصابنى . . فلم يحدث من قبل أن فقدت ذاكرتى كل هذه الفترة الطويلة . .

أحاول أن أتذكر أين كنت بالأمس . . لا أعرف . . أين أنا الآن . . لا أدرى . . فى أى فندق . . أمد يدى إلى جيبى أستخرج جواز السفر . . لقد تركته فى الفندق . . أضع يدى فى جيبى أستخرج النقود . . لم تكن معى نقود . .

قررت أن أمضى فى السير ، فلابد أن أجد شيئًا يدل على المكان . . بعض المحلات التى تضع اسم هذه المدينة فى أسمائها أو منتجاتها أو أرقام تليفوناتها . . المحلات كلها مغلقة . . لابد أنه يوم الأحد . .

لقد ازداد ضيقى وفى نفس الوقت تصميمى على أن أعرف أين أنا . . مشيت طولا

وعرضا . . العمارات واحدة فى هذا البلد وفى أوروبا . . اللافتات بالإنجليزية ولكن فى أى مكان ؟ هل أنا فى انجلترا أو كندا أو نيوزيلندا أو استراليا . . آه إنها استراليا . . قفزت هذه الكلمة فإذا كل المصابيح تضىء فى رأسى والدنيا أمام عينى . . وهذه المدينة هى سيدنى وأنا جئت هنا . . وأنا أنزل فى فندق فى شارع جورج بالقرب من شركة طيران استراليا كانتاس . . وأنا الآن أبحث عن مطعم لرجل لبنانى قابلته فى الطائرة . . والدنيا برد فنحن فى شهر أغسطس وهو عز الشتاء فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية . . ومددت يدى إلى صدرى فوجدت أننى أضع « بلوفر » وفوق البلوفر بالطو وهذا الذى فى يدى شمسية للمطر . . وفى أحد جيوبى قرص أسبرين وأنبوبة « مرهم النمر » الصينى الذى يستخدم عند الإصابة بالبرد . . إصابة الرقبة أو الكتف . . ورفعت البنطلون فوجدت أن جوربى من الصوف . . إذن فأنا فى مأمن من البرد تمامًا فأنا استطيع أن أعبر مفارق الطرق وأتعرض للهواء دون خوف . فقد اتخذت الاحتياطات الضرورية . . الأجسام والوجوه والألوان كلها إنجليزية أو أمريكية . . فالاستراليون وسط بين الأمريكان والإنجليز . . ويسعدهم أن يقال إنهم إلى الإنجليز أقرب . . فهم أحفاد المجرمين الإنجليز . . فالإنجليز كانوا يبعثون بالمجرمين إلى أمريكا . وكانت أمريكا مستعمرة بريطانية . . ولكنها عندما استقلت سنة ١٧٧٠ لم يعد فى استطاعتهم نفى المجرمين هناك . . وإنما اتجهوا إلى هنا . . إلى « خليج النباتات » الشهير فى مدينة سيدنى . . ففى سنة ١٧٨٨ جاء « الأسطول الأول » البريطانى إلى هذا الخليج الذى أراه أمامى الآن . . ورست إحدى عشرة سفينة عليها ٧٥٩ مجرما و ٢١١ جنديًا و٣٠ زوجة و ١٢ طفلاً . أنزلوا إلى هذا المكان الذى أقف عليه . . وتركوهم بلا طعام ولا شراب ولا مأوى . . ولا أحد يعرف شيئًا عن هذه البلاد . . وكانوا يطلبون إليهم أن يبحثوا لهم عن أى شىء يأكلونه . . فلم يكن أمامهم إلا أسماك البحر . . وفى الليل كانوا ينامون على السفن . . وكان قائد هذه الحملة رجلاً غليظًا . . كان يضرب بالكرباج ويضع السلاسل فى الأيدى وفى الأعناق . . لقد رأوه يشنق أحد الجنود لأنه سرق قطعة صابون . . ثم رأوه يأمر بحبس جميع الضباط فى سجن السفينة !! ثم جعلهم يعملون فى تسوية الأرض ورصف الطرق المجاورة للخليج . . أما وراء أشجار الغابات فوقف سكان استراليا الأصليون ينتظرون ويتحفزون .

وكانت هذه هى البداية لإقامة « مستعمرة العار » كما كانوا يسمونها أى مستعمرة المجرمين واللصوص والقتلة . .

وبعد ثمانى سنوات من الاستيطان جاء أحد الجنود يعلن لقائد الحملة أنه وجد قطيعًا كبيرًا من الأبقار . .

فقد أطلق القبطان عندما رست السفن فى الخليج ست بقرات وثلاثة ثيران . . وتركها ونسيها ، فتكاثرت . وكان ذلك أول طعام فخم لكل المجرمين . .

وفى كل رحلة استكشاف إلى أى مكان فى العالم يوجد رسام وطبيب وفلكى . . الرسام يسجل الجديد من النباتات والحيوانات والشعوب التى تسكن الأراضى المجهولة . . ومن بين الصور التى سجلها رسام هذه الحملة صورة رجل أبيض وقف على كتفى رجل أسود يلتقط الثمار من بين أوراق الشجر . . وصورة لرجل أسود أمسك كانجرو وواحد آخر يذبحه والناس يصرخون فزعًا . . وصورة لضابط كبير يجلد طفلا صغيرًا وكل الدموع والرعب والذل فى عينى الطفل - منتهى الوحشية !

ولا أظن أن استرجاع هذه الصور والأحداث قد أحرق المصابيح فى ذاكرتى فأصبح كل شىء أسود داكنًا . . هل كرهت هذا العنف ؟ هل ندمت على أننى جئت إلى بلاد ليست لها أية معالم ؟ وهل من المنطق أن أحكم على قارة استراليا من أولها لآخرها من أول ليلة ومن رؤية جزء من مدينة كبيرة لا أعرفها وقد فتحت عينى على كل شىء ساعة أو ساعتين ؟ طبعًا هذا خطأ فظيع . . لابد أن أنظر . . أن أرى . . أن أتكلم . . أن أناقش . . أن أقرأ . . أن أستمع . . أن أعيش . . فأنا الآن لم أر شيئًا . . ولابد أن أرى !

قلت للصديق اللبنانى الجديد : لابد أن أرى لكى أعرف . . لكى أكتب . . لكى أقول إنى جئت فعشت . . فعندى ذكريات !

جلسنا نتكلم عن كيف جاء اللبنانيون إلى هذه البلاد . وكيف أصبحوا أصحاب ملايين ولهم رأى وسلطة ثم إنهم استراليون لحما ودما . إن لهم قصة واحدة . فهم يجيئون إلى هذه البلاد تجارًا يبيعون الأقمشة والمنتجات الصينية . . ويتنقلون بها على ظهور الخيول . . ومعظمهم كان يتنقل على ظهور الجمال . ولولا الجمال ما كانت حضارة هذه القارة . . فلأن البلاد صحراوية شاسعة جدًا ، كان الجمل هو الحيوان الوحيد الذى يقاوم الصحراء والجفاف . . وعلى ظهور الجمال انتقلت كل أدوات الحياة . . أهم شىء : أسلاك التليفونات والأعمدة الخشبية . . كلها نقلتها الإبل ألوف الكيلومترات . . وكذلك نقلت الإبل أشرطة السكك الحديدية . .

فاستراليا قارة قامت على ظهور الإبل ! .

ثم كيف أن اللبنانيين والسوريين عندهم صبر أيوب . . فكانوا يتنقلون بين الشواطئ بالزوارق فى رحلات خطرة . . ولكن كان نجاحهم مطردًا . وإصرارهم قاطعًا . ثم إن الواحد منهم لا يكاد يستقر حتى يدعو أهله . . ثم أهل قريته جميعًا . ولذلك ففى مدينة سيدنى هذه قرى لبنانية كاملة جاء أفرادها الواحد وراء الآخر . . وأكثرهم لا يعرف كلمة إنجليزية . . ثم إنهم الآن يتكلمون الإنجليزية بطلاقة ولا ينسون اللهجة اللبنانية الجبلية . .

وكان صديقى « جوزيف أبو سمرة » قد أجلسنى فى ركن ضيق من المطعم الصغير . . لا هواء ولا شباك . . كأننى فى مخبأ هارب من العدالة . . فقلت فى نفسى : لعلها من عادات هذه البلاد إخفاء ذكرى الهاربين الملعونين الذين أسسوا هذه القارة !

وكلما روى لى حكاية استأذن دقيقة ليعود ويقول لى : حالا . .

ولم أفهم . . ولا أعرف ما هذا الذى يستعجل حدوثه . . حالا . . دقيقة . . حالا وحكاية . . حالا وضحكة غير مفهومة . . ويتخلل ذلك أن أصافح والدته . . ووالده وولديه . . وأحد الأقارب ، وفى كل مرة يقول : إنه صحفى مصرى . . أول مصرى نراه فى استراليا . .

وحالا لآخر مرة . وقدم لى زوجته . . وبسرعة خلعت زوجته حزام فستانها . وقال لى . هذا الزنار ـ أى الحزام ـ هو طوق النجاة وسلم الحرية . . تفضل يابيه !

لم أفهم . ولكنه لف الزنار حول رقبتى وجعله على شكل كرافتة . . لأن المطاعم لا يمكن دخولها إلا إذا وضعت كرافتة . . وكان هذا الزنار هو الكرافتة . . ثم طلب منى أن أخلع البلوفر وأن أكتفى بالبالطو فوق القميص . .

وعندما دخلنا المطعم . . أشار الجرسون إلى أن أخلع البالطو ، فسعلت بقوة . وقالوا : إنه مريض . . نرجوك !

ووافق الجرسون على مضض !

وبسرعة قامت مدام جوزيف وشبكت طرفى ياقة القميص بدبوس . . لأن القميص بلا زراير . . وهذا من شأنه أن يجعل الكرافتة تبدو كأنها ليست كرافتة ، هذا بعد أن لفت الجرسون نظرنا إلى أن بعض الموجودين مستاء تمامًا من هذه الحيلة المكشوفة التى تؤدى إلى إفساد الجو العام الوقور فى المطعم . . فهمسوا فى أذنه أننى أمريكانى « كاوبوى » ، ولا أعرف أصول الذوق والأدب الإنجليزى الاسترالى !

فوجد الرجل فى هذا الاعتذار تحية له واعترافًا بالتفوق على الأمريكان رعاة البقر !

ووافقت على أن ألتقى فى إحدى الحفلات بأكبر عدد من الأجانب والاستراليين . . ولم أجد صعوبة فى الحصول على كرافتة مناسبة أول الأمر ، ثم وجدت صعوبة فى معرفة الفرق بين اللبنانيين والخواجات . . وخاصة إذا كان الذين أتحدث إليهم من الشباب . . أما العواجيز فيظهر الفرق واضحًا وخاصة فى اللغة . سألت سيدة لها هيئة فخمة ونظرة متعالية كأنها صاحبة هذه القارة . فقلت لها : سيادتك زوجة السفير البريطانى ؟

قالت : لا يوجد سفير بريطانى هنا !

قلت : إذن السفير الأمريكي ؟

قالت : لا !

فقلت (باللغة العربية) : أمال منفوخة على إيه ؟!

سألتني : ماذا تقول ؟

قلت : إنني أتلو بعض الدعوات قبل تناول الطعام .

قالت : ماذا قلت ؟ فأنا لا أزال أعرف اللغة العربية . .

فقلت : كنت أقول : اللهم اجعلني قادرًا على هضم الذى أرى وأسمع وأتذوق .

سألتني : أعجبتك هذه البلاد ؟

ـ جميلة . . نظيفة . . غنية والناس فى غاية الصحة والعافية . . وهذا واضح فى نعومة البشرة وواضح فى بياض العين والأظافر . .

ـ تحب تعيش هنا ؟

ـ أحب بعض الوقت .

ـ لا تهاجر ؟

ـ لا أهاجر . .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن السلعة التى أبيعها ليست لها سوق هنا . .

ـ وماذا تبيع ؟

ـ أبيع الكلام !

ـ مش فاهمة . .

ـ أنا صحفى . . كاتب . . أديب . . سلعتى هى منتجات الكلام . .

ـ وهل هناك أكثر من الكلام ؟

ـ الكلام العربى الذى أبيعه لا أحد يشتريه هنا . .

ـ ولكن شطارتك وبراعتك وإصرارك وصبرك وتضحيتك هى وحدها التى تجعلك قادرًا على فرض هذه السلعة وجعلها ضرورية لكل الناس . . هذه هى الموهبة . . نحن جئنا إلى هذه البلاد نبيع الزراير والأحزمة والقماش الدمشقى . . لا أحد يعرفه . . ولا أحد يريده . . ولكننا أفلحنا فى أن نجعله مفخرة لكل أسرة . . وأهم من كل ذلك فرضنا احترام الجميع لنا . . لأننا مهاجرون مكافحون شرفاء . . لم نكن نملك شيئًا . فأصبحنا نملك الملايين . . وفى كل مناسبة نعترف بفضل هذه البلاد علينا . . ونفعل ذلك فى كل مناسبة دينية واجتماعية وعائلية . . وهم سعداء بنا لأننا نذكر فضلهم علينا دائمًا .

فقلت : لو أضمن مليون مواطن مصرى هنا لقررت البقاء . . ولكن لا يوجد مصرى واحد فى هذه القارة . .

وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٥٩ . .

وأخذت بطاقتها وقررت زيارتها وأسرتها فى اليوم التالى . .

التاكسى وقف بى أمام بوابة من الحديد المذهب . . ووراءها شارع طويل من أشجار عالية . . والأرض مفروشة بالورد . . أما الطيور فقد جاءت وحدها . وتحت الأشجار توجد الغزلان والسنجاب وعدد من الكانجرو تقف جميعًا حول نافورة لها شكل عروس شابة حلوة . .

أما الأطفال فهم أحفاد السيدة . .

إن الذى أراه أعظم عملية كيماوية فى تاريخ أستراليا : كيف تحول الدمع والعرق إلى طوب أحمر وحجارة ومصابيح ونافورات وحدائق وفاكهة وبهجة وأطفال أصحاء وبوابات ذهبية وموسيقى حالمة . . كل ذلك فى ثلاثين عامًا !

موسكو : تماما كالكتب !

ألا يحدث لك أن تمشى فى مكان ويخيل إليك أنك جئت إلى هذا المكان من قبل مع أن هذه هى المرة الأولى ؟ . . الجواب : ممكن . وبعض الناس يكون عنده هذا الإحساس قويًا لدرجة أن يقول لنفسه : وعلى هذه الناصية توجد صيدلية . . ثم يذهب إلى الناصية ويجد الصيدلية . . ويجد أن صاحبها رجل قصير وبكرش كما توقع . كيف ؟

هناك نظريات . واحدة تقول لك إنه يخيل لك أن تكون قد رأيت هذا المكان من قبل لأن الأماكن تتشابه . وبعض الأحيان تتطابق تمامًا . فكأنك رأيتها من قبل . .

ونظرية أخرى تقول إن الإنسان أثناء النوم ، تنطلق روحه إلى أماكن كثيرة من الدنيا . وتكون هذه الروح مرتبطة بالجسم بخيط نورانى . . تمامًا كارتباط الجنين بأمه بالحبل السرى . وهذه نظرية لها اسم آخر . . اسمها نظرية « الطرح الروحى » ـ أى إن الروح تطرح الجسم وتنطلق وحدها بعيدًا . . ترى . . وتحتفظ بهذه الرؤية فى الذاكرة .

أما النظرية الثالثة فهى أننا عندما ذهبنا إلى موسكو لم نشعر بأى شىء جديد ، فهذا الذى رأيناه بالعين قد رأيناه بالخيال فى الأدب الروسى عند جوجول وجوركى ودستويفسكى وتشيخوف ولرمنتوف وبوشكين وسولوفيف . . وأخيرًا عند شولوخوف الذى ألف رواية «النهر الهادئ» .

كل هذا قد رأيناه : الشوارع الواسعة المغطاة بالجليد . . . والأشجار المنزوعة الأوراق . . والناس الذين هم أشباح سوداء غليظة الملابس والأحذية والأغطية ويدبون فى الأرض بقعا سوداء ثابتة الخطوات .

ولم نكد نضع حقائبنا حتى اقترح الأستاذ خالد محيى الدين الزعيم الشيوعى أن نذهب فورًا إلى الميدان الأحمر لزيارة قبر لينين الذى توفى ١٩٢٤ ولا يزال حيا أى لا يزال محنطًا كأنه حى . . أو يريدونه أن يظل حيًا خالدًا لا يموت . . وسرنا وراء خالد محيى الدين : الصحفيان محمد

عودة ولويس جريس وأنا . . أما هو فقد استعد لذلك فهو يعرف البلاد وجاءها كثيرًا . فالحذاء لا يتزحلق وغطاء الرأس فرو والبالطو . أما نحن فالأحذية عادية والجوارب ولا غطاء للرأس . . وكنا مصدر سعادة للروس . . فلا يكاد الواحد منا يمضى خطوة حتى يتساند على زميله ويتساقط على الأرض . ويتوقف الروس يضحكون . . ويتوقفون عن السير تمامًا لأنهم على يقين من رؤية هذا الانقلاب مرة أخرى . . وحدث مرات . . والأرض رمادية والجليد زجاج حاد والانزلاق شديد وسهل . ولكن الوقوف صعب جدًا . فأنت تضع يديك على الجليد وتحاول أن تقف . . وتتزحلق الجزمة وتنقلب حتى تمتد الأيدى الروسية . . والأيدى كأنها فروع لأشجار راسخة فى الأرض . .

وجاء من يعرض علينا شراء دولارات . وصرخ خالد محيى الدين يحذرنا من ذلك لأن قانونًا صدر بحبس وإعدام تجار العملات الصعبة . . أما إن قانونًا صدر فهذا صحيح ، وإما أن الروس يدقون أبواب غرفنا يسألون عن الدولارات ، فهذا صحيح . وبسرعة عدنا إلى الفندق وانتهى وسط أكفان الجليد أول مشوار خارج الفندق . درجة الحرارة خارج الفندق ٢٠ تحت الصفر وفى داخله ٢٠ فوق الصفر . . والفنادق دافئة ساخنة خانقة . . ولا شىء فيها يمكن أن تراه فالناس يتحركون وينظرون ولكنهم لا يتكلمون . ما هذا ؟ إنهم هكذا . ويمكن لأى إنسان أن يضرب دماغه فى الحائط ألف مرة . . فكل شىء سوف يبقى هكذا سواء أعجبك أو لم يعجبك . . فليس فى استطاعتك أن تغير ما تراه . فقط أن تستسلم وأن تتوافق معه . إنها دولة عظمى وشعبها يقف فوق تاريخ من البطولة فى الثورة والحرب . . وبطولة ابتلاع القهر والظلم والجوع والتخلف والعزلة والجاسوسية . .

قلت للفتاة المرافقة لنا وهى تتكلم نوعًا من اللغة العربية : أريد أن أنطلق . . أن أمشى على كيفى فى هذا البلد الطويل العريض الذى لا أرى منه إلا فتفوتة صغيرة . كيف ؟

قالت : إلى أين تريد أن تذهب !

قلت : إلى أى مكان . . أنا حر . .

قالت : إلى أى مكان ؟ إلى الغابات ! إلى الأوبرا . . إلى المسرح . . إلى السيرك ماذا تريد أن أدبر لك !

قلت : أنا حر . . لا أريد تدخلاً منك .

قالت : أنت فى حاجة إلى سيارة . هذه السيارة أنا التى أدبرها .

قلت : اعطينى السيارة .

قالت : هذه هى السيارة . تفضل !

وركبت السيارة . ولا أعرف ما الذى قالته للسائق . . وانطلق السائق فى الشارع . . واسع

جدًا . . طويل جدًا . . والناس أشباح سوداء منتظمة الخطوات كل واحد فى حاله . . الشارع أبيض . . رمادى . . والأشجار تغطت بالجليد . . والتماثيل من بعيد . . وأشير إلى السائق : من هذا ؟ أقولها بالإنجليزية . إنه لا يعرف أية لغة . . إنه يقول ما لا أعرف . وكنت قد تعلمت عددًا من الكلمات الروسية : أهمها خاراشو ومعناها : حسن جدًا . . وكلمة نيت ومعناها : لا . . وكلمة : دا ومعناها نعم . . واسباسيفا : من فضلك وباجالوستا . العفو . . ودازفيدانيا : مع السلامة . ولكن هذه الكلمات لا ضرورة لها . . والسيارة ما تزال تنطلق من شارع إلى شارع . . وكل الشوارع متشابهة . . والعمارات كتل ضخمة متشابهة تمامًا . . والنساء فى الشوارع يكنسن الجليد ويكومنه على جانب من الشارع . . واللون رمادى لكل شىء : السماء والأرض والأشجار . . وبعض المشاة قد تساقط عليهم الجليد فهم قطع من الأرض أو قطع من السماء . . والدنيا كلها اتخذت ألوان الموت . . والحياة تدب فيها ولكن بصورة لم نعرفها . . قرأنا عنها . . كأننا ما نزال نقرأ عنها . . نحن نرى الناس ولا نلمسهم . . نقترب منهم ولا نسمعهم . . نسمعهم ولا نفهم مما يقولون شيئًا . وعاد السائق إلى الفندق ووقف . وانتظر منى أن أنزل . ونزلت . خائبًا ـ أنا الذى خاب أملى . وقابلتنى المترجمة : هـه . . ما طعم الحرية ؟ ماذا فعلت بحريتك ؟

قلت : لا شىء .

قالت : أنا أعرف . . ولكن سوف أنظم لك حريتك فى أن تذهب إلى الباليه أو السيرك أو معرض سفن الفضاء . .

وكان أروع ما رأينا طبعًا : مسرح البولشوى . . باليه البولشوى . . أروع ما ابتدع الإنسان فى الدنيا . فالباليه الروسى هو قمة الفن والجمال والأداء .

الناس يدخلون وقد ارتدوا أحذية غليظة يمشون بها فى الشوارع . . ثم يخلعون الأحذية الغليظة ويرتدون أحذية عادية . . ويخلعون البالطو والقبعة ـ اسمها الشبكا ، وهى طاقية مصنوعة من الفرو . . ولا سيجارة ولا كوب ماء . . فالمطعم فى الدور العلوى . . فوق يأكلون ويشربون . .

وتركت فى القاهرة مناقشة بينى وبين الإخوة الشيوعيين قد نشرتها مجلة « آخر ساعة » : هل نسمح بقزقزة اللب فى الأوبرا المصرية .

وكان من رأى الكاتب الشيوعى محمود أمين العالم : أن اللب يفرج عن النفس وأن المتفرج جاء ليستريح . . يعنى مسموح بقزقزة اللب ، لكن فى الاتحاد السوفيتى غير مسموح لأى عامل أو فلاح أن يدخل الأوبرا بدون كرافتة . . ومستحيل أن يأكل ويشرب إلا فى المطعم . أما فى الأوبرا وفى السيرك فالصمت تام ! وكانت السفارة السوفيتية فى القاهرة تستاء جدًا من

الشيوعيين المصريين الذين يجيئون إلى حفلاتها بالقميص والبنطلون ومن غير كرافتة !!

وتؤكد لهم أن الشيوعية ليست بهدلة .. وأن الاتحاد السوفيتى دولة متحضرة تحترم البروتوكول والذوق العام ولا تقل عن أية دولة رأسمالية !

وكنا وفدا مصريا متجها إلى كوبا لنشارك فى مؤتمر القارات الثلاث ـ رأس الوفد المصرى المرحوم يوسف السباعى ـ والأعضاء أذكر منهم خالد محيى الدين وأمينة السعيد وسهير القلماوى ورفعت المحجوب ومحمد عودة ولويس جريس وأنا .. وكان يرأس الوفد السعودى المنشق عن السعودية أحمد الفاسى ، والوفد اليمنى المنشق عن اليمن الشاعر عبد الله بن يحيى العلوى ..

وفى الاتحاد السوفيتى وقعت أحداث هامة جدًا : خروتشيف أسقطوه وقفز إلى مكانه ثلاثة : كوسيجن رئيسًا للوزراء وبرجنيف سكرتيرًا عاما للحزب وبودجورنى رئيسًا للدولة . وكانوا يسمونهم الترويكا ـ أى الثلاثى .

وفى العالم الخارجى سقط بن بيلا فى الجزائر وجاء بدلا منه هوارى بومدين .

وسقط الملك سعود وجاء أخوه الملك فيصل .

ومات الملك فاروق ونهرو وتشرشل والأديب سومرست موم والشاعر الإنجليزى اليوت والفيلسوف السويسرى اشفيتسر والفيلسوف الإسرائيلى بوبر ، وماتت ملكة التجميل هلينا روبنشتين وحصل الأديب الروسى شولوخوف على جائزة نوبل فى الأدب .

واحتفلت بريطانيا بمرور سبعة قرون على ميلاد البرلمان الإنجليزى .

وخرج رائد الفضاء السوفيتى ليونوف من المركبة فوستوك ومشى فى الفضاء عشر دقائق وبسرعة أطلق الأمريكان مركبة خرج منها الرائد ومشى فى الفضاء ٢١ دقيقة وفازت روسيا فى الدورة الأوليمبية بإحدى وأربعين ميدالية ذهبية وأمريكا بسبع وثلاثين واليابان بست عشرة وألمانيا بثلاث عشرة وبريطانيا بخمس ميداليات ..

وكانت عندنا لحظات من المرح .. أو عندى أنا . فالمترجمة لنا تتكلم لغة عربية غريبة . كل شىء له كلمة واحدة . فمثلا النافذة لها كلمة واحدة اسمها : الشباك .. فإذا قلت لها النافذة فإنها لا تفهم .. كل يوم تقول لنا : غدًا نلتقى فى « صحن » الدار .. ترجمة هذه العبارة : الصحن معناه الهول أو البهو . أو الصالة أمام استعلامات الفندق .. الدار . معناها الفندق أو الأوتيل .. ولما حاولت أن أضيف إلى معلوماتها كلمات أخرى لها نفس المعنى رفضت تمامًا . لأنها لا تثق فى حسن نيتى . ولابد أن تحصل على تصديق رسمى على هذه الكلمات التى اقترحتها ..

قلت لها : إننى أحبك .

قالت : آه فهمت . . تقصد أنك تعشقنى وأنك تريد أن أكون عشيقة لك !

قلت : لا . . لا . . وإنما أريد أن أقول لك : إنك جميلة الوجه والعينين والشفتين والقوام . . يعنى أننى معجب بجمالك فقط . . كإعجابى بالزهور . . أو الورد أو الطيور . . أو القمر ، إن كان عندكم قمر . . فقط . .

تقول : يعنى أنا مثل الزهور تريد أن تقصفنى .

أقول : تقطفنى لا تقصفنى . .

تقول هى : تقصفنى . . يعنى تقطع رقبتى وتقضى على مستقبلى .

أقول لها : لا . . ياست لا . . هذه لغة عربية نظيفة . .

تقول هى : فهمت . . ولكن أريد أن أصارحك . . فأنا لى عشيق . . ولا أستطيع أن أكون عشيقة لرجلين فى وقت واحد !

لم أفلح فى أن أكون مفهومًا . .

وفى يوم دعتنا جميعًا لكى تلقى علينا بيانًا هامًا .

قالت : مرحبًا بكم فى الاتحاد السوفيتى . . ضيوفًا على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ولكن ! . . نعم ولكن البوطة على حسابكم !

أى أنتم ضيوف على الدولة ولكن إذا أردتم أن تأكلوا البوطة ـ أى الآيس كريم ـ فهذا على حسابكم . لأن البوطة من الكماليات . والكماليات شأنكم . . أما الضروريات فعلى الدولة .

وكان معنا الأخ السعودى أحمد الفاسى . رئيس الوفد السعودى والعضو الوحيد . وكانت تربطه بأجهزة المخابرات السوفيتية والمصرية صلة قوية . . وفى إحدى الليالى كنت أتسلى فاقترحت عليه أن أصنع له « المانيفستو » لحزب شيوعى سعودى . وكنت أسميه : «حزب شيوعى شريف » . . واقترحت عليه أن يكون أخوه شمس الدين الفاسى هو سكرتير عام الحزب والمتحدث الرسمى باسم الحزب : أبو هريرة الحزب . .

وكتبت بخط يدى إجابة عن كل التساؤلات التى تخطر على بال أى إنسان مثل . .

ما هى أحب الأديان إليك ؟

الإسلام !

ما هى أحب السيارات ؟

الكاديلاك !

ما هى أحب العطور ؟

الفرنسية .

ما هى أحب الخمور ؟

الاسكتش . .

ما هى أحب النظم السياسية والاقتصادية ؟

الشيوعية . .

إلى آخر هذه المداعبات . وفى ليلة من الليالى اكتشفت أننى أعطيت هذه الورقة لأحمد الفاسى وبخط يدى . مصيبة لو ظهرت هذه الورقة فى أيدى المخابرات المصرية . فنهضت من النوم فى حالة من الرعب . . ودققت على باب أحمد الفاسى : يا أحمد . . أحمد . . اصح . عاوزك ضرورى .

وفتح الباب أكثر انزعاجًا وقال لى : إيه مالك !

ـ الورقة . لقد هبط على الوحى . . وأريد أن أضيف جديدًا !

ـ الصباح .

ـ أبدًا الآن . .

وأخذت الورقة ومزقتها وألقيتها فى نار المدفأة !

وكان معنا الشاعر عبد الله بن يحيى العلوى . صديقى . والذى لا أكف عن مداعبته حتى أصدر عنى كتابًا كبيرًا عنوانه : أنيس منصور ـ آه منه وآه عليه . . « أكلنى نيا ودفننى حيًا» .

وفى هذا الكتاب كل الرسائل والقصائد التى بعث بها إلىّ من عشر سنوات . . ولم أنشرها . . للشاعر العلوى مرافق روسى باعتباره واحدًا من رؤساء الوفود ، هذا المرافق أستاذ فى جامعة موسكو اسمه د. جيريجورى . وكان يناديه ونحن جلوس فى المطعم ياجيريجورى .

ـ أفندم .

ـ اطلع هات الشنطة بتاعتى من فوق .

ـ حاضر . .

ويذهب البروفسور جيريجورى ويأتى بحقيبة كبيرة قديمة . ويقول له : افتح الشنطة . واستخرج لى منديلاً .

فيفتحها ويعطيه المنديل .

ويقول له : ياجيريجورى أعد الشنطة إلى مكانها ولا تنس أن تغلق باب الغرفة .

ـ حاضر . .

وكنا نتضايق جدًا ونقول للشاعر العلوى : يارجل عيب . . إنه أستاذ جاء ليشرح لك ويقدم المعلومات التى تريدها لا أن يكون خادمًا . . عيب يا مواطن يمنى ! .

وكان يقول : أنتم حاقدون . . أنتم لا تحبون أن تروا يمنيا يستعمر سوفيتيا . . هذا حقد . . افعلوا مثلى إن استطعتم !

ولم نفعل .

وعدت أقول للمترجمة : إننى ما أزال أحبك .

فتقول : آه أستطيع أن أحادثك . . أنت تحبنى . . يعنى أنت تريد أن تشغلنى . . فأفكر فيك . . وأتعطل عن عملى . أنت تلهو وتلعب . . وأنا أصاب بضرر شديد . . أنت تذهب إلى بلدك تحب فتاة أخرى وأنا أبقى هنا أتعذب بالتفكير فيك . . فأنت بأفكارك الرأسمالية تعطل إنتاج الاتحاد السوفيتى . . أنت تقوم بعملية تخريب محدودة . . ولو فعل كل أعضاء الوفود التى تزورنا هنا نفس الشىء لكان ذلك تخريبًا عامًا . .

ـ ياخبر أسود . . أبدًا لا شىء من ذلك . . والله أبدًا .

ـ هل أنت جاد ؟

ـ نعم .

ـ إذن لماذا لا تتزوجنى فورًا ؟

ـ لا أريد الزواج . . هل إذا قلت للوردة أنت جميلة ورائحتك جميلة . . هل هذا عرض للزواج . . هل إذا قلت للأشجار . . للقمر . . للقط . . للكلب . . هل هذه كلها عروض لزواج؟

ـ فهمت . . أنت لا تريد الزواج وأنت لا تريد العشق . . وأنت لا تريد الحب . . أنت تقول كلاما فارغًا .

ـ لكن ليس بالضبط .

ـ يعنى كلام فارغ . وعندك وقت لهذا الكلام الفارغ . . وليس عندى أنا وقت لهذا الكلام الفارغ ، وأنا أؤدى عملى فى خدمة الشعوب السوفيتية المحبة للسلام . .

ـ آسف . . أنا غلطان !

ـ نعم أنت غلطان !

والطوابير فى كل مكان . . هذا طابور للطعام ، وهذا طابور لأدوات المطبخ ، وهذا طابور للملابس التى وردت أخيرًا من الخارج .

وقفت فى الطابور . لا أحد يتكلم . . لا أحد يتبرم . الطابور يتحرك ببطء وكل واحد يأخذ ورقة ويدخل إلى أعماق المحل الكبير . . وجاء دورى ولم أعرف ماذا أقول . . ولكن البائعة أشارت إلى الرقم الذى يجب دفعه .

ودفعت عشرين روبلا . . وأخذت ورقة ودخلت . . ووقفت فى الطابور . وكان نصيبى لعبة . . دب كبير فى مثل طولى . . أخذته ولا أعرف ما الذى أفعله به . . وعندما عدت إلى الفندق فأجانى أحد الزملاء : من أين ، كيف ؟ إننى أريد واحدًا لابنى .

وبعت له الدب !

واشتريت بعض الكافيار وبعض الفراء وبعض فناجين الشاى . . أما الكتب ففى كل مكان وبملاليم . . وأما الأسطوانات فرخيصة جدًا . أرخص ما يمكن شراؤه وأهم : الكتب والأسطوانات وكل آداب الدنيا مترجمة إلى اللغة الروسية . ولا أحد لا يقرأ كتابا فى المترو أو القطار . . ويتركون الكتب فى القطارات بعد قراءتها . . والروس يحبون من الفنون ثلاثة . الباليه والموسيقى والشعر . . وكلها موسيقى !

وأكثر التماثيل الموجودة فى موسكو وفى العواصم السوفيتية : للشعراء والموسيقيين .

فما هى الصورة التى بقيت فى عينى وخيالى لموسكو ؟ : هى الصورة التى جاءت فى الروايات الروسية . . هى هى فكأننى عندما ذهبت إلى موسكو تنقلت معدتى وعينى فى رواية طويلة لجوجول أو تولستوى أو شولوخوف . . صفحة وراء صفحة . . جليد وراء جليد . . والناس مثل جذور الأشجار تدق الأرض راسية راسخة ، كل شىء هائل ضخم مخيف غامض سحرى . .

إن أسبوعا فى موسكو لا يكفى ، فالذى سوف نعرفه عن البلد قليل وعن الناس أقل . . وبعد ذلك ذهبت إلى موسكو كثيرًا . وكل مرة أضيف قليلاً جدًا إلى القليل الذى أعرفه . . إن موسكو ساحرة باهرة لغز فى فزورة فى أسطورة تستدرجك إلى أن تعود وتعود فلا ترتوى ولا تشبع !

ألف مبروك :
ألمانيا الموحدة !

الثقافة الألمانية عميقة فى دمى . . ولذلك فاحترامى لألمانيا وعظمائها فى الموسيقى والعلم والأدب والفلسفة لا حدود له . . وقد أمضيت كل عمرى لا أرفع عينى عن كل ما هو ألمانى فى الفلسفة والأدب والعلوم .

وحتى عندما تخصصت فى الفلسفة ، كانت الفلسفة الألمانية هى الفلسفة . . وفلاسفتها هم أعمدة الحكمة والنور فى حياتى الفكرية ـ ولا يزالون !

أول اسم ألمانى فى حياتى كان « باير » . . اسبرين باير الذى يشفى من كل داء . . للصداع والمغص . . وهو أرخص دواء ، وأضمن شفاء !

وأول عرض سينمائى فى حياتى هو فيلم ألمانى . . ولم يكن فيلما وإنما هو إعلان سينمائى . . فكانت سيارة لامعة تجىء إلى المنصورة . وهذه السيارة تخرج منها موسيقى . وكان صوت الموسيقى داعيًا لأن نجرى وراءها ونتعلق بها . . حتى تقف السيارة فى خرابة ـ عادة فى خرابة . وتضع شاشة على الحائط . . وعلى الشاشة تظهر رسوم متحركة عن الصداع ووجع الدماغ وكيف أن الأسبرين يشفى من الصداع ويقضى على عمليات الكسر والنشر فى عظام الإنسان !

وكان مجىء هذه السيارة أهم أحداث الأسبوع . وكانت السيارة تبهرنا بلمعانها . . وكان لابد إذا التففنا حولها أن نلمسها بأيدينا . . أو نلوثها بأيدينا . . فكان السائق يحذرنا . . ولكننا لا نسمع . . وفجأة نجد أنه قد كهرب السيارة فلا نكاد نضع أيدينا عليها حتى تطردنا بعنف . . أما السائق فهو أحمر الوجه أصفر الشعر أزرق العينين . نظيف لامع كالسيارة ، فقد جلس على مقعد أخرجه من السيارة وراح يتفرج معنا على الشاشة !

وأول مجلة علمية قرأتها كان اسمها « الفلاح » ـ يصدرها واحد اسمه ثابت ثابت . . وهذه المجلة تتحدث عن الصناعات الألمانية . . وخاصة مصانع الأسمدة . . ونترات الجير الذى

يستخدم في تسميد التربة وإحيائها وخصوبتها ووفرة المحصول . . وفي المجلة صور للأنابيب الضخمة والمداخن الطويلة . . والعمال الألمان بصحتهم وشبابهم وقمصانهم وبنطلوناتهم التي لها حمالات . . والرءوس كبيرة والشعر طويل وهم عمالقة . .

وأول قصة مترجمة قرأتها كانت قصة « الحب والدسيسة » للشاعر الألماني فريدريش شيلر . . وقد ترجمها إلى العربية كاتب مصري اسمه عادل صادق . . والقصة قد هزتني واندهشت جدًا لبعض العبارات الحكيمة التي جاءت بها . . وبهرتني هذه التراكيب التي تتخذ شكل الحكمة . ولا أعرف كيف تتكون أو كيف يصبح الإنسان قادرًا على إبداعها . مثلا هذه العبارة : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتا جميلة . . أو العبارة التي قالها أحد أبطال الرواية عندما جاءه شاب يطلب ابنته للزواج فاندهش الأب كيف أنه يطلب ابنته منه ، ولا يطلب منها هي . . فقال هذه العبارة : إن الشاب الذي يريد أن يستعين بي لكي أقنع ابنتي لا يلهمني الثقة به . . لأنه عاجز عن إقناع واحدة أن تكون زوجة له !

وأول لغة أجنبية تعلمتها كانت الألمانية . . فقد كانت في المنصورة جالية ألمانية كبيرة، وكان الألمان يعلموننا اللغة الألمانية ويعطوننا مكافأة على ذلك . . وكانت بينهم بنات جميلات . . وقد تكلمت الألمانية قبل أن أتقن قراءتها . . أو قبل أن أقتني كتابًا واحدًا !

وتعلمت « النشيد الوطني » الألماني قبل أن أعرف أن لمصر نشيدًا وطنيًا . . فكنت أردد مع الألمان : ألمانيا فوق الجميع . . فوق الجميع في العالم . . الحق والوحدة والحرية من أجل هذا الوطن الألماني . . المرأة الألمانية والفن الألماني والأغنيات الألمانية . .

والألمان يتغنون الآن بعد توحيد الشرقية والغربية : ألمانيا . . ألمانيا فوق الجميع في العالم . . الحق والوحدة والحرية للوطن الألماني .

وأول مرة أسمع عن الحرب كانت الحرب العالمية الثانية ولا أعرف ما هي ولا كيف تكون . . وأول وجه ساحر لزعيم أجنبي أراه كان وجه هتلر . . وكنت أندهش لوجهه وعينيه والشعر المتهدل على جبهته على جانب منه . . من هذا ؟ ما قوته ؟ وما سرها ؟ ما عظمته ؟ وقصص كثيرة خرافية غير واضحة في ذلك الوقت . . وكانت صورته وحكاياته التي أسمعها وأنا طفل مختلفة عن كل الحكايات الحقيقية والخرافية في ذلك الوقت . ولكن كنت أضيف هتلر إلى بقية العظمة الألمانية . . أو العبقرية الجرمانية ، ولا أرى ذلك غريبًا أو عجيبا ـ وإن كنت في ذلك الوقت لا أعرف حدود العظمة الألمانية ولا مفرداتها ولا علاماتها . . ولكنها عظمة تستغرقني وتغرقني ولا أجد إلى جوارها أية عظمة أخرى . . لماذا ؟ هذا ما حدث في ذلك الوقت من الطفولة والشباب المبكر ! .

وفي الجامعة كانت التي تدرس لي اللغة الألمانية سيدة سويدية . . كانت عجوزًا . . وتمنيت

لو كانت ألمانية . . ووجدت جميع من يقومون بتدريس اللغة الألمانية فى كلية الآداب من السويسريين . . وأصبح من آمالى فى ذلك الوقت أن أبحث عن أستاذ ألمانى . . ووجدته وكان اسمه باول كراوس من كبار المستشرقين . وكان يعلمنا اللغتين اليونانية والعبرية . . وعرفت أنه يوغوسلافى وليس ألمانيا . .

وأخيرًا وجدت رجلاً ألمانيا وكان مهندسا . . وكانت فى ملامحه كل علامات الفلاسفة الألمان . . كما كنت أتخيلهم فى ذلك الوقت : الرأس الكبير . . والشعر الطويل . . والبشرة شقراء . . والعيون زرقاء . . والطول عملاق . . وإذا تحدث برقت عيناه واهتز جسمه . . وكانت لهجته واثقة وكلامه فلسفة فى فلسفة ولا يضحك . . إذ كيف يضحك وهو فيلسوف مثل أفلاطون وأرسطو وهيجل وشوبنهور يحمل كل هموم الدنيا . ويحاول أن يجد لها حلا . هكذا تصورت كل ألمانى !

ولما سافرت إلى أوربا لأول مرة رأيت فيها إيطاليا وسويسرا وفرنسا وبريطانيا والسويد وألمانيا . . وكأننى كنت أدخر عينى وأذنى لألمانيا وحدها . . فكل البلاد زرتها قبل أن أرى ألمانيا كانت ظلالا وأشباحا هلامية . . وكأننى ادخرت عقلى ووجدانى لألمانيا وحدها . . وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت من سنة ١٩٥٠ مهدمة محطمة . . ولم أكن أعرف معنى الحرب . . ولا دمارها . . ولكن عندما رأيت ألمانيا تأكدت من ذلك . . فأنا أقف فى أول مدينة دسلدورف وأرى آخرها . . وبين الأنقاض تخرج الفتيات الشقراوات وتمد أيديها تأخذ منى . أنا . قطعة من الشيكولاتة أو سيجارة . . ياخبر أسود . . هل هؤلاء هم الألمان أولاد العباقرة فى كل شىء ؟ ماذا جرى ؟ قالوا : هتلر كان السبب . . أى إن عبقريًا ألمانيا هو الذى قضى على بقية العباقرة . ولم يقض عليهم . . ولكن قتل منهم الملايين . . ولا يزال هناك عشرات الملايين !

المصانع فككها الإنجليز ونقلوها إلى بلادهم . . والعلماء شحنهم الأمريكان إلى بلادهم . . وكذلك فعل الروس . . فكيف تقوم هذه الدولة من الأنقاض إلى العظمة ؟ كيف تصبح أجمل مما كانت وأقوى ؟ وأعظم من الذين حطموها ؟ وتصبح ألمانيا الغربية جنة أوروبية . . وكيف تنتشل بعد ٤٥ عامًا نصفها الآخر ؟ هذا ما حدث . والسبب عبقرية الشعب الألمانى !

ونحن طلبة فى الجامعة كنا مدرستين :

مدرسة عبد الرحمن بدوى . . مدرسة الفلسفة الألمانية المثالية . . ثم الوجودية بعد ذلك . . ومدرسة لويس عوض اليسارية الماركسية العلمانية . .

أما نحن الوجوديين ، فكان لنا أسلوب مختلف فى كل شىء . . فنحن لا نتكلم إلا عن

الفلاسفة الألمان : كنت وشوبنهور ونيتشه واشبنجلر وهوسرل وهيدجر وياسبرز والشعراء الألمان : نوفالس وهيلدرلن وجيته وشيلر وتيك وزلكه . . وإلا عن عباقرة الموسيقى موتسارت وبيتهوفن وفاجنر وشومان وشوبرت واشتراوس وإلا عن قادة الأوركسترا الألمان : كراوس وفورتفنجلر وفون كريان . .

وقد رأينا في القاهرة المايسترو فورتفنجلر يقود الأوركسترا الألماني في سينما ريفولى . وقد عرفنا أن التصفيق بعد « الحركات » في السمفونية غلط فطيع . . وقد أحسن هذا المايسترو تأديبنا فكانت تظهر العصبية على وجهه ثم لا يلتفت إلينا . . وعندما عزف مقطوعة من أوبرا « عايدة » التي كانت السلام الملكي في ذلك الوقت ، تصورنا أنه فعل ذلك تحية للملك أو لمصر فصفقنا طويلاً . . والحقيقة أنه فعل ذلك تحية لمؤلفها للموسيقار الإيطالي العظيم فردى!

* * *

ويوم ذهبت إلى برلين لأول مرة وقفت أمام سور برلين وبوابة براند نبرج . ولم أفهم . ووجدت من الصعب أن أعرف بالضبط ماذا حدث . . وكان من الممكن أن انتقل عبر الأسلاك الشائكة والحائط الحجرى من برلين الغربية إلى برلين الشرقية . . من النور إلى الظلام . . من الأناقة إلى البهدلة . . من الحرية إلى القهر . . إنه شعب ألماني واحد . . واحد اختار الحرية والرأسمالية والإبداع إلى غير حدود . . وشعب آخر مقهور فرض عليه الروس الذل والهوان والعبودية والحقد المكثف على شقيقته ألمانيا الغربية ، لقد تخلفت ألمانيا الشرقية في كل شيء إلا في الرياضة . . فليس أمام المقهور إلا أن يقهر جسده ، وأن يجعل هذا القهر منظما . ويكون التفوق في الرياضة نوعا من تسلق سور برلين والرقص فوقه على مرأى ومسمع من العالم كله . .

وكما إن الدببة يعلمونها الرقص فوق سطح ساخن على إيقاع الموسيقى ـ أى إنها ترفع أرجلها على إيقاع الموسيقى ـ أى إنها ترفع أرجلها على إيقاع الطبول ـ فكذلك الألمان الشرقيون قد علموهم الرقص على دقات العذاب . . حتى تفوقوا في تحريك القدمين والساقين . .

* * *

والآن ومنذ أيام قد انتهى زمن الجوع والحرمان والقهر والعبودية الإيديولوجية . . عادت ألمانيا إلى ألمانيا . . في عناق طويل وقبلة حارة . . إنه زمان الوحدة والألفة وإلقاء السلاح وحمل الفئوس وفتح أجهزة التكييف وتمديد الساقين والذراعين للراحة بعد العمل والمتعة بعد المشقة . . فلا حرب ولا خراب ولا دمار . .

ولكن ما تزال في الشرق حروب ودمار وخراب . . إنها صورة قبيحة أمام العالم كله . .

صورة للشيوعى قبيح الوجه ، لأنه يستأنف ما تركته أوروبا وأمريكا . . فقد تقهقر فعاد إلى أوائل القرن العشرين ، بينما أوروبا وأمريكا بالوفاق والسلام قد قفزتا إلى القرن الواحد والعشرين . .

* * *

مبروك على الألمان وأوروبا التى تحررت من الشيوعية . .

وروسيا التى تحررت من الماركسية . .

وعار علينا أننا نستأنف الوحشية بعدوان العراق على الكويت وعلى السعودية بمساعدة ومؤامرة أوروبا وأمريكا . . ثم نتبادل المواقع : فنحن نعود إلى القرن التاسع عشر ، والأمريكان والأوربيون يقفزون إلى القرن الواحد والعشرين !

أساتذتى كثيرون ولكنى لم أتعلم !

قالوا لى : إن السباحة أم الألعاب .. فأنت تمشى وتجرى فوق وتحت الماء وترقص وتنتعش، إذا أردت الصحة والجمال وهدوء الأعصاب فعليك بالسباحة اسمع كلامى ! وشجعنى الكلام ، وذهبت إلى عبد الباقى حسنين الكابتن الكبير أبى المدربين وأبى النكت وأستاذ جمال عبد الناصر والسادات ـ هو الذى قال لى ذلك !

ولست متأكدًا إن كان قد قال لى إنه هو الذى أنقذ محمد على الكبير عندما غرق فى مياه الإسكندرية أو إن الشاعر الإنجليزى شيلى قد غرق لأنه لم يسعفه ! .

وقلت لعبد الباقى حسنين : أنا أخاف من البرد !

قال : خلاص السباحة فى حمام التربية والتعليم . الماء هناك دافئ ولا يكون هناك أحد !

ـ إذن نذهب فى ساعة مبكرة جدًا !

ـ وأنا مستعجل !

ـ خلاص سوف تتعلم فى أسبوع واحد !

ـ كثيرًا !

ـ فى أربع وعشرين ساعة !

وذهبنا إلى حمام الماء الدافئ ولكن عبد الباقى حسنين جلس على أحد المقاعد فرجله مكسورة وفى الجبس وقال بصوت عال جدًا :

انزل ياأفندم سوف تكون أحد أبطال السباحة للمسافات الطويلة وبكرة تقول عبد الباقى قال . انزل يافندم ايوه برجلك اليمين ايوه انزل انزل سيب نفسك .

ووجدتنى تحت الماء وصرخت . .

عبد الباقى يقول : ياافندم سيب نفسك . . وسوف تعوم . . هذه طبيعة الأشياء فكل

جسم خلقه الله يطفو على الماء . . سيادتك تعلمت ذلك فى الابتدائى . . معقول تكون نسيت ياافندم مرة ثانية ياافندم ايوه كده ايوه اللهم صل على النبى معلهش سوف تضع رأسك فوق الماء عارف ياافندم سيادتك سبحت كام متر ياافندم ؟ ثلاثة أمتار اللهم صل على النبى أكثر من المسافة التى سبحها السيد الرئيس عبد الناصر والتى سبحها سيادة الرئيس السادات صدقنى أنت تعلمت أسرع منهما تانى ياافندم !

وأمام هذا الرجل الظريف الجالس مجبسا على مقعده نزلت الماء وطلعت كل يوم ، وهو الذى جعلنى أتصور أن البحر بيضحك وأنا نازل اتعلم العوم ، فأنا لا أرى أى تقدم من أى نوع ولكنه يؤكد أنى أسرع من كل من الرئيسين وفى إحدى المرات سألت الرئيس السادات إن كان عبد الباقى حسنين قد علمه العوم فضحك وقال : نحن الفلاحين عندما نولد يلقوننا فى الترع والمصارف فنحن كالأسماك نولد سباحين !

يعنى عبد الباقى حسنين أراد تشجيعى . . لا مانع ولكنى لم أتعلم !

فجاء دور الزميل الناقد الرياضى ما هر فهمى وكان قد أعلن فى الإذاعة والتليفزيون أنه هو الذى علمنى وأننى أستطيع أن أعبر الحمام ذهابا وإيابا وأننى أتنفس تحت الماء .

هو الذى يقول ولكن لا شىء من ذلك قد حدث وعندما سمعته يتكلم فى التليفزيون التفت حولى لعله يقصد أحدًا غيرى . هو يقول إنه علمنى والحقيقة أننى لم أتعلم !

وفى يوم جاءنى شاويش من الكلية الحربية وأخذنى على جنب وقال لى : اسمع ياسعادة البيه سيبك من الجماعة اللى يقولوا لك أحنا اتعلمنا فى أكسفورد كل ده بكش ياسعادة البيه أنا سوف أعلمك السباحة على الناشف يعنى هنا خارج الحمام سيادتك تنام على الأرض وتحرك يديك ورجليك وبعد ذلك أرميك فى الماء وسوف تدعو لى .

ثم استوقفنى قبل النزول وقال لى : ياسعادة البيه سيادتك طبعا شفت الكلب عندما يمسك العظمة فى سنانه .

قلت : نعم .

قال : خلاص ياسعادة البيه تمسك الخشبة دى زى الكلب تماما !

ولم أتعلم . .

وظهرت فى التليفزيون أحكى خيبتى مع عبد الباقى حسنين وماهر فهمى . . وفى اليوم التالى جاءنى عبد الباقى حسنين ومعه طشت بلاستيك وقال : ياسعادة البيه أنا غلبت معاك أنا جايب لك طشت وسوف أعلمك فيه أمام كل الصحفيين !

ولا أعرف سبب الخوف من الماء . هل صحيح أننى غرقت فى النيل وأنا طفل ، أنا أقول ذلك كثيرًا ولكن لست متأكدًا من أن هذا قد حدث وسألت أخى وإخوتى فوجدتهم لا يذكرون شيئًا من ذلك ، إذن لابد أنها أسباب فلسفية .

قال الفيلسوف ابن سينا :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب .

أنا طين وهو ماء والطين فى الماء ذائب .

وعندما كنت فى جزر هاواي وفى إحدى الليالى القمرية تسلقت شجرة مدت فروعها كذراعين جميلتين لمن يريد أن ينام عليهما وفى شعاعات القمر والموسيقى على الشاطئ والنسيم الهادئ والجمال الأبدى غلبنى النوم وصحوت عند الفجر لأجد الشجرة فى وسط البحر . . يانهار أسود . . ففى الليل ارتفع وزحف على الشاطئ وأصبحت الشجرة التى كانت على الشاطئ تبعد عنه خمسين مترًا ونظرت إلى الماء وأنا فى حالة من الرعب وظللت هكذا حتى طلع النهار ورحت كلما رأيت أحدًا أصرخ وأقول انقذونى !

وكان الناس يضحكون ويلوحون ببرانيطهم أى إننى لست جادًا ورأيت واحدة وقلت لها : فى عرضك انقذينى إننى لا أعرف السباحة !

فضحكت ووقفت وقالت : تعال أنت .

وأقول لها : تعالى انت !

تقول : لا تعال إنت .

أقول : والله أنا لا أعرف السباحة أرجوك فى عرضك .

تقول : كذاب قالوها كثيرًا قبلك تعال أنت وأنا آجى معاك .

أقول لها : انظرى إننى بملابسى كاملة راحت على نومة من امبارح . . أرجوك أتوسل إليك أبوس رجلك .

ولما اقتربت ناحيتى وجدت أن الماء يصل إلى منتصف ركبتيها قفزت سعيدًا من أعلى الشجرة إلى الماء الذى وصل إلى ركبتى فضحكت الفتاة وقالت : كلكم كذابون !

وعندما ذهب وفد الأدباء إلى اليمن ـ يوسف السباعى ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وأنا ـ توقفت الباخرة فى ميناء الحديدة وعرض علينا القبطان أن ننزل إلى الماء لم أتردد فلا أحب أن يعرف أحد أننى لا أحسن السباحة ونزلت بالمايوه والماء طين قذر

ليس للسباحة ، وإنما للدفن حيا وتقدم السباحون إلى أبعد من الشاطئ وظللت واقفًا وجاء نجيب محفوظ من ورائى مداعبًا ودفعنى إلى الماء والله لا أعرف ماذا حدث ، هل بدأ دفنى من فمى . كم لترًا من الطين شربت ولا أعرف كيف وقعت وكيف صرخت أطلب النجاة ولم يلاحظ أحد شيئًا . . فلا أحد يتصور أننى لا أعرف السباحة .

وكنت قبل سفرى إلى اليمن قد طلبت من الأديبة د. نوال السعداوى ـ وكانت مديرة العلاقات العامة بوزارة الصحة ـ أن تعطينى صندوقًا به كل الأدوية التى يمكن أن أحتاج إليها عند الإصابة بأى مرض ، وبسرعة رجعت إلى الصندوق أقرأ الأدوية وأسباب استخدامها ولم أجد فى كل الذى كتبته د. نوال السعداوى ما يمكن عمله إذا شربت الطين فى ميناء الحديدة باليمن !

وكانت ليلة سوداء فظللت أتخيل إصابتى بكل الأمراض وخاصة « دودة مدينا » . . فهذه الدودة موجودة فى اليمن ، وهى دودة تنمو تحت الجلد ثم تظهر من تحت الأظافر وكلما ظهرت بعد ذلك قطعوها ثم تعود إلى الظهور !

ولى صديق وقريب هو اللواء محمد فريد حجاج قرر على مسئوليته أن يعلمنى السباحة ثم ندم على ذلك فليست محاولة تعليمى إلا محاولة لإغراقه هو فى الماء ، فخوفى من الماء وسقوطى بسرعة إلى الأرض يجعلاننى أسحبه معى إلى القاع يانموت سويا يانعيش سوا .

وقرر هو أن يعيش وحده وعدل وعدلت نهائيًا عن السباحة !

وأنا الآن إذا نظرت إلى صور رواد الفضاء الأمريكان والروس الذين خرجوا من المركبة الفضائية وراحوا يمشون فى الفضاء فإننى أصدقها ، ولكن إذا رأيت الباليه المائى فإننى لا أصدق أبدًا أن السابحات الفاتنات لا يستندن بأرجلهن ورؤوسهن إلى أرضية الحمام لأنه ليس معقولا أبدًا أبدًا أن يرقصن وهن معلقات فى الماء إزاى أنا لا أصدق !

أما التنس فقد بدأت بأن قرأت كتابًا لزميل كان يعمل محررًا فى جريدة الزمان وهى جريدة مسائية كانت تصدر عن دار الجورنال ديجيبت رئيس تحريرها جلال الدين الحمامصى قرأت الكتاب وأعجبنى وفكرت فى ترجمته عن لعبة التنس وساعدنى على فهم الكتاب الكثير من الصور والرسومات البيانية .

ولم أترجم الكتاب ولكن كان اهتمامى بالتنس شديدًا ، وخاصة بعد أن قابلت اللاعب الألمانى المصرى فون كرامر ولم يكن اللقاء وجها لوجه وإنما رأيته ضمن آخرين ، بل رأيت فى صورته وكلامه واحدًا من أبطال التاريخ الألمانى ، ولكن ليس هذا سببا كافيا لأن أمارس رياضة التنس .

وذهبت إلى نادى التوفيقية وكان أستاذى اسمه رمضان ، ولم أجدنى قادرًا على أن أجاريه فى سلاسة اللعب فهو يلعب بلا مجهود ، وإنما حركاته رشيقة وكراته ناعمة طائرة وأنا أضرب الكرة . والكرة والمضرب لقاؤهما فى يدى عنيف ولا أعرف مدى تقدمى فى هذه اللعبة .

وانتقلت إلى نادى الجزيرة ألعب مع سعيد سنبل الذى أصبح رئيسًا لأخبار اليوم وحمدى فؤاد زميل الدراسة الذى أصبح نائبًا لرئيس تحرير الأهرام . أما سعيد سنبل فكان لا يلعب وإنما هو يحرك ذراعيه وكان يتضايق إذا أنا ضربت الكرة بعيدة عنه فيصرخ : الله أنت مش شايفنى هات لى الكرة هنا .

أى أمامه مباشرة .

وبعد لحظات من اللعب يجىء الجرسون يحمل لنا عصير الليمون فى الملعب ونشرب وينتهى اللعب !

وأنا الآن مستمتع تمامًا بمباريات التنس العالمية والفضل يرجع إلى الكابتن عادل شريف فهو الذى حبب إلينا هذه اللعبة وإلى ملايين من مشاهدى التليفزيون فهو رجل خبير ومحدث ظريف وعنده معلومات كثيرة وأعتقد أن المذيع الظريف المسلى قادر على أن يجتذب الملايين .

ولاحظت أن جمهور كرة اليد وكرة السلة ليست لديهم معلومات ولا حكايات ، وإنما المفردات التى يستخدمونها قليلة جدا ولذلك فهى مملة ولم أحاول مرة واحدة أن أتابع مباراة حتى آخرها بسبب سرعة اللعب أو بسبب إفلاس المذيع وعجزه عن اجتذاب الناس إليه وإلى الكرة !

أما رياضة المشى فقد مارستها طوال عمرى فعندما كنت طالبا فى مدرسة دمنهور الثانوية كنا نمشى من مدينة أبو حمص حتى دمنهور كل يوم ، ولم نكن نجد ذلك مشوارًا كبيرًا . . وفى المنصورة كان بيتنا فى الحسينية والمدرسة فى آخر المدينة وهو مشوار طويل وكنا نمشى كل يوم بعد الظهر من شجرة الدر إلى توريل وهى مسافة طويلة .

أما رياضة المشى الحقيقية فهى التى كانت مع الرئيس السادات فهو لابد أن يمشى كل يوم فى أى مكان . . حتى فى كامب دافيد طلب منى الرئيس السادات أن أذهب لأتمشى معه . . كان يمشى فى القناطر الخيرية وفى ميت أبو الكوم وفى داخل بيته فى الجيزة . . فى داخل جنينة ضيقة جدًا وكان المشى فيها نوعًا من الألعاب البهلوانية فالمسافات صغيرة جدًا وكنا نمشى فى الحرانية فى حديقة عثمان أحمد عثمان . . وفى أسوان وراء البيت ... وفى جزيرة الفرسان بالإسماعيلية وفى المعمورة . . وفى كنج مريوط . . فى أى مكان لابد أن يمشى ساعة وأحيانًا ساعتين وبعد المشى يحرك رجليه على البسكلت ثم التدليك ثم النوم بعد ذلك . . ويصحو

ليتناول الوجبة الوحيدة ويجلس بعد ذلك يرى الفيلم الذى كان قد رآه قبل ذلك مرتين وثلاثا ويسرح أثناء العرض فكأنه لم يره !

وقد حاولت كثيرًا أن أعود إلى رياضة المشى فى نادى الجزيرة وفى ساعة مبكرة ، وكان يشاركنى فى المشى الكابتن أبو هيف وقد ارتدى حذاء أدخل فيه الأصابع أما بقية قدميه فهى خارج الجزمة وهو لا يمشى وإنما هو يلهث ويحكى لك حكايات ويجمع حولك الناس واللى ما يشترى يتفرج ثم يغرينى بأنه سوف يعلمنى العوم فى حمام الأطفال ولا من شاف ولا من درى . . لكن لأن أبو هيف لا يستطيع أن يكون وحده فقد اعتاد على الأمواج وهديرها فلابد أن يكون الناس حوله أمواجا لها هدير ولسان طويل . ووجدت أن المشى فى نادى الجزيرة هو انعدام للهدوء والراحة والعزلة ، وصحيح أن أبو هيف رجل لطيف ، ولكنه قادر بمنتهى السهولة والهدوء على أن يحطم أعصابك ويوقعك فى مشاكل مع كل خلق الله !

أما تجاربى فى البنج بنج فمحدودة فهى تحتاج إلى سرعة وتركيز وأنا غير قادر على التركيز .

وكذلك لعبة البادمنتو جربتها بعض الوقت وكرة السلة أيضًا ، أما كرة القدم فكنت ألعبها أيضًا . . لقد كنت أشارك فى جميع الألعاب ولم أتقدم فى لعبة واحدة .

فمثلاً فى كرة القدم كنت كابتن الفريق ولم يقل لى أحد معنى أن يكون الإنسان « كابتن » ولكن قالوا لى كده وفى يوم كنا فى مباراة مع إحدى مدارس المنصورة وبدأ اللعب وكان لابد أن أشوط ضربة جزاء ، وكانت الكارثة . . فقد خرجت جزمتى ودخلت الشبكة أما الكرة ففى الاوت فلم تكن هذه الجزمة إلا جزمة واحد من إخوتى الأكبر سنا . وضحك التلاميذ وخرجت مع الجزمة من الملعب ولم أعد .

وبعد ذلك عرفت فى تاريخ الفلسفة أن الفيلسوف اكزسيون عندما ألقى بنفسه فى فوهة بركان فيزوف بإيطاليا لم يعرف الناس أنه انتحر إلا عندما دفعت الغازات بحذائه بعيدًا عن البركان !

وكذلك ماتت كل رغبة فى اللعب بعد خروج هذا الحذاء وضحك كل التلاميذ !

غلطة واحدة ارتكبها جميع المدرسين فقد كانوا ينظرون إلى الرياضة على أنها لعب أى ابتعاد عن الدراسة الجادة ، وإن هذا اللعب لا يليق إلا بالطلبة الكسالى ، ولذلك كان المدرسون يخرجوننى من طوابير الألعاب الرياضية ويقولون : اخرج انت يا ابنى روح أقرأ لك حاجة تنفعك دول أولاد بايظين اذهب الله يفتح عليك !

وهكذا خسرت صداقة زملائى والرياضة وكسبت القراءة والتفوق وظلت فكرة أن اللعب لا يصلح إلا للفاشلين مسيطرة على عقلى وقتا طويلاً فدفنت نفسى فى الكتب وابتعدت عن الصحة وهدوء الأعصاب !

إنهم أساتذتي الذين علموني ألا أكون رياضيًا وحرموني من نعمة الماء والهواء والكرة من كل لون وحجم واسم ولا أعرف لو كنت شبطت في إحدى هذه اللعبات وأخذتها بجدية ، كما أخذت القراءة والكتابة فهل كنت أحد أبطال مصر ؟

لا أظن فلست ميالا بطبعي إلى الابتعاد عن الكتاب . . فالكتاب بالنسبة لى كالماء بالنسبة للسمك . إذا ابتعدت عنه فإنني أموت وكما بدأت اهتمامي بالتنس بعد أن قرأت أحد الكتب كذلك كان اهتمامي بالشطرنج بأن عرفت حركة قطع الشطرنج ثم اشتريت عددًا من الكتب أدرس اللعبات المشهورة لأساتذة الشطرنج وكنت أحفظ بعض هذه اللعبات ، ولكنى انهزم فى النهاية . والسبب بسيط جدًا فإنني أوجع دماغي فى فتح اللعب . وفى اللعب فى منتصف الرقعة بينما خصمي لا يفكر على الإطلاق ولا يعرف نظريات اللعب ، وإنما هو يراني وأنا أحرك الفيل والطابية والوزير ولا يعرف ما الذى فى رأسي فسهل عليه أن يغلبني ، ولذلك فمذاكرة اللعب وحفظ النظريات لا أهمية لها ما دام الذى ألاعبه لا يعرف ما يدور فى رأسى فعدلت عن الشطرنج الذى بدأ من الكتب ومن القراءة !

فالبداية هى الكتاب عادة .

والنهاية هى الكتاب أيضًا ، ولذلك فأنا أقرأ عن الألعاب ولا أمارسها واتفرج على مباريات كرة القدم ولم أذهب إليها إلا مرتين فى حياتى مرة عندما لعبت البرازيل مع الأهلى من ثلاثين عاما والمرة الثانية عندما لعبت مصر مع انجلترا فى كالياري .

وأول رياضى عرفته فى حياتى وجلست إليه وحاول إقناعى بأن أتفرج عليه وهو يلعب وكان من الأخوان المسلمين فى شعبة إمبابة اسمه عمر شندى وكان له أخ يلعب أيضًا وقد دعانى أكثر من مرة ولم أجد سببا يقنعنى بأن أفعل ولا عندى سبب حتى الآن لأن أذهب إلى أى ناد رياضى مهما كانت هذه اللعبة حتى لو كانت التنس أو كرة القدم أو مجرد المشى مع أبو هيف فى جنات تجرى من تحتها الأنهار !

ذهبت إلى كالياري أبحث عن جراتسيا

قال لى : تسافر قلت : موافق .

ـ موافق على إيه . . هل تعرف إلى أين وبأية طريقة ولمدة كم يوم أو كم ساعة ! . .

ـ ياأخى أنا موافق على أى سفر إلى أى مكان بأية وسيلة ولأية مدة !

ـ كده على طول .

ـ ايوه !

ـ وكان السفر إلى كاليارى عاصمة جزيرة سردينيا لكى أتفرج على آخر مباراة للفريق القومى مع انجلترا طبعًا موافق . . وسمعت د. خيرى السمرة عميد طب القاهرة يتحدث إلى التليفزيون المصرى ويقول : إن انيس منصور ضحك عليه كمال الطويل وعبد الحليم حافظ وأخذاه إلى الملعب حيث يتبارى فريق البرازيل مع فريق النادى الأهلى من حوالى ٢٨ سنة . . وذهب وهو معتقد أنهما الأهلى والزمالك يلعبان . . ولما قيل له إن بيليه هذا هو اللاعب حنفى بسطان أبدى إعجابه بعبقرية حنفى بسطان وفوجىء فى اليوم التالى بأنه ليس إلا بيليه الذى كانت تتحدث عنه صحف مصر كلها من شهور طويلة . . وإن « أخبار اليوم » التى كان يعمل فيها رئيسًا لتحرير مجلة الجيل هى التى دعت بيليه إلى مصر ؟!

وسمعت صلاح الطاروطى عضو مجلس الشعب يقول : والله ياست أنا كانت عندى ساعة ذهبية مضبوطة وكنت سعيدًا بها إلى أن قابلت أنيس منصور فى الطائرة المتجهة إلى أمريكا لنشهد توقيع اتفاقية كامب دافيد . . وظل يقول : إنها ساعة حقيرة . . وإننى لقيتها فى الزبالة . . وكلما سألنى أحد : كم الساعة . . فأنظر إلى ساعتى ويشير هو إلى لونها وجلدتها وشكلها . . فقررت أن أتركها فى البيت . . ثم اشتريت ساعة ذهبية . . ولم أكد أعرضها عليه . . حتى اتهمنى بأنها ساعته قد استأجرتها . . أو أننى أخذتها من واحد من إخوتى . . وضاعت هذه الساعة . . ومعى الآن ساعة فى جيبى ولا أريد أن أفضح نفسى فأعرضها عليه . . وأنا الآن أكتفى بأن أسأله هو عن الساعة !!

والطبل والزمر والهتافات فى الطائرة المتجهة إلى كالياري . . الجو صاف . . والرياح معتدلة . . والطائرة راسية فى الهواء . . ومضى الوقت بسرعة . . وكل واحد يسألنى : لماذا السفر إلى كالياري ؟

وكان يتطوع بالإجابة عنى د . خيرى السمرة وصلاح الطاروطى . . ولكن لماذا لا أذهب ؟ إنها فرصة لكى أرى جزيرة سردينيا ولم أكن قد رأيتها من قبل . . انها ثانى الجزر الإيطالية الكبيرة . الأولى هى صقلية وعاصمتها باليرمو ، وهى مهد حركات المافيا فى إيطاليا وفى أمريكا أيضًا . . وقد استعان الحلفاء بالمافيا فى الحرب العالمية الثانية ضد موسولينى وضد هتلر . والمافيا هى الحكومة السرية لأمريكا . . وهى التى قتلت كنيدى وقتلت مارلين مونرو . . لماذا ؟ إنها حسابات طويلة ومعقدة . . وجزيرة سردينيا طولها ٢٥٠ كيلو متر وعرضها ١٥٠ كيلو متر . . وتقع إلى شمال جزيرة كورسيكا الفرنسية التى ولد فيها نابليون العظيم . . ومدينة كالياري قد بناها الأجداد من الفنيقيين ، وأهل الجزيرة يتكلمون لهجات كأنها لغات مختلفة لا يفهمها الإيطاليون أنفسهم . وهم خليط من أولاد الإغريق والرومان والفنيقيين والأسبان . وكل ذلك واضح فى فن العمارة وفى العادات والتقاليد والأفراح والليالى الملاح . .

وفى مطار كالياري لا شىء يدل على أننا فى إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان . . فالوجوه كأنها يونانية أو أسبانية . . أو حتى مصرية . . ولكن الكلمات الإيطالية تدق الأذن فينطلق اللسان . . وتعالت النداءات : تعال . . ترجم لنا ماذا يقولون !

قلت : إنهم يتمنون للفريق المصرى أن يهزم الإنجليز ٢ / صفر . . فهم لا يحبون الإنجليز . . ويريدون أن نخطف منهم كأس العالم !

الجو صحو . . جاف . . السماء مفتوحة والبحر حولنا أزرق . . شديد الزرقة والصخور من كل لون : بنى فاتح وغامق وأحمر وأصفر . . والمدينة تبعد عن المطار دقائق . . وككل المصريين نظرنا إلى الشوارع : نظيفة مستقيمة ناعمة . . والبوليس فى كل مكان . . سألنى أحد رجال البوليس : إن كانت عندنا أية علامة للفريق المصرى . . فأعطيته « الفانلة » التى توزعها شركة الطيران ـ الأصح أن تقول « الفالنة » لأنها انجليزية الأصل ! .

ركبت السيارة أتفرج على المدينة . قلت للسائق :

أنا جئت هنا أبحث عن جراتسيا دليدا . . تعرفها ؟

ـ لا . .

ـ ولم تسمع عن واحدة بهذا الاسم ؟

ـ أبدا !

ـ حاول أن تتذكر !

ـ هل يمكن أن تسأل أحدًا أكبر سنا ؟

ففتح النافذة ودار حوار بإحدى اللهجات ولم أفهم منه كلمة واحدة . وعاد يقول . أبدًا . . لم يسمع أحد بهذا الاسم ! .

وتذكرت مداعبة قمت بها فى إحدى المرات فى محطة مصر . عندما استوقفت أحد المشاة وسألته : من فضلك تعرف « رامتان » ؟

ـ رمضان مين ؟

ـ لا . . رامتان !

ـ لا مواخذة ده ايه ؟

ـ بيت !

ـ بيت ؟ لا مواخذة اسمه كده ؟

ـ ايوه !

ـ بيت من ؟

ـ طه حسين .

ـ آه . . طه حسين ولا مواخذة ده يبقى فين . .

ـ أنا عاوز أعرف . .

وجاء واحد يبدو أنه أكثر ثقافة فسألنى : ماذا تريد سيادتك ؟

قلت : أريد أن أعرف بيت طه حسين . . اسمه رامتان . .

ـ فاكر حاجة زى كده . . يمكن تلاقيه عند الأوبرج . . مرة قرأت عنه . .

ـ واحد يقول : بيت اسمه رامتان . . يا أخى طه حسين ده عليه حاجات ؟! وده لا مؤاخذة اسم ولا اسم حد من أولاده ؟

ـ اسم بيت .

ـ خلاص عرفت البيت . . شوف ياسعادة البيه . . مفيش حد عارف حاجة . . وكله بيقول إنه بيعرف . . وحياتك مفيش حاجة بالاسم ده . . ده كله كلام جرايد . . وهيه البيوت لها أسماء !!

ونفس الشيء حدث مع السائق الإيطالى . فقلت له : جراتسيا دليدا هى الأديبة الإيطالية التى ولدت هنا وحصلت على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٧ . . إنها واحدة من ست سيدات عالميات حصلن على هذه الجائزة الرفيعة . . أول واحدة كانت سويدية اسمها سلما

لاجر فيلد حصلت على جائزة نوبل سنة ١٩٠٥ وحصلت عليها واحدة نرويجية اسمها سجريد اوندست سنة ١٩٢٨ والرابعة من أمريكا اسمها بيرل بك حصلت عليها سنة ١٩٣٨ والخامسة من شيلى واسمها جبربيلا مسترال وكان ذلك سنة ١٩٤٥ .

وسألت السائق إن كان يتابع ما أقول فقال : والله أنا مكسوف . . إنها أديبة هذه الجزيرة . . الآن تذكرت وأنت تعرفها وأنا لا أعرفها . . لا تؤاخذنى . . إننى تخصصت فى هندسة السيارات . . وليست لى اهتمامات أدبية . .

عدت أقول له : إن جراتسيا هى الابنة المخلصة لهذه الجزيرة . . أدبها إقليمى بحت . . كانت تتحدث طوال الوقت فى روايتها عن فقراء ولصوص ومجانين وأغنياء هذه الجزيرة . . ولم ترفع عينها عنهم . . استطاعت أن تقدم صورًا عالمية رائعة لأهل الجزيرة . حتى عندما تزوجت وسافرت إلى روما ، لم تكتب سطرا واحدا عن روما واقعها وخيالها . كله هنا فى هذه الجزيرة . . ثلاثون رواية . . واحدة منها اسمها « الهروب إلى مصر » . .

ووقف السائق يسأل : تعرف بيت الكاتبة جراتسيا دليدا . .

ـ جراتسيا ايه ؟

ـ دليدا ؟

ـ دليدا من أين ؟

ـ ولدت هنا !

ـ ماتت أين ؟

ـ فى روما !

ـ اسأل عنها هناك !

وتوقفت السيارة نهائيا ونزل السائق . وبعد لحظات عاد يقول : لابد أن تسأل واحدًا كبيرًا فى السن . . متى ماتت ؟

قلت : سنة ١٩٣٦ عن ٦١ عاما !

ومن الممكن أن ترتاد المدينة طولا وعرضا ولا تجد أحدًا يعرف بيتها أو حتى قرأ لها . .

وأذكر أننا ذهبنا إلى بيت كان يملكه توفيق الحكيم بالقرب من ميدان العتبة . وسألنا أحد السكان . تعرف توفيق الحكيم ؟

ـ لا والله .

ـ هل تعرف اسم صاحب البيت الذى تسكنه . .

ـ البيت ده . .

ـ أظن اسمه توفيق الحكيم .

ـ هل تعرف ماذا يعمل ؟

ـ لا والله !

ـ الم تسمع عن كاتب مشهور اسمه توفيق الحكيم ؟

ـ لا والله !

* * *

والبحر حولنا هادئ ومياهه صافية تمامًا . . وعدد المصطافين قليل جدًا . . والعاريات ونصف العاريات . . واحدة . . اثنتان . . ثلاث . . وواجهات البيوت اسبانية الطراز . . والشوارع الملتوية والحوارى الضيقة كلها اسبانية . . ووجوه الناس وشعرهم الأسود . . وعيونهم الواسعة السوداء . . وأحجامهم الصغيرة . . كلها لا تدل على أنهم من أصل رومانى واحد ، وإنما من أصول مختلفة . . أما ملابس السيدات التقليدية ، فهى اسبانية الألوان والخطوط . .

وفى الشوارع خيول البوليس وكلابه . . وفى الفندق سألت : أين نجد بيت جراتسيا دليدا؟

ـ جراتسيا ماذا ؟

ـ دليدا . .

ـ من هى .

ـ أديبة عالمية عاشت هنا . . ورفعت شأن هذه الجزيرة إلى السماء .

ـ لابد أنها قديمة جدا . .

ـ يعنى .

ـ تعرف أين يوجد بيت اسمه رامتان ؟

ـ رامتانو ؟ !

ـ إيوه . .

ـ لم أسمع به قط . .

ـ فعلا لأنه موجود عندنا فى مصر !

ـ ها . . هاها . .

ـ . . . .

* * *

الله . . الله . . سمعتها من ورائى ومن أمامى . . وكنت أظن أنها كلمات استحسان للأستاذ الرياضى الذى بنى حديثًا . . أو دليل على الإعجاب بالنظام والضبط والربط . .

ولكن عرفت أن المقصود هو الأربعون فتاة الجميلات اللاتى أتين من كل إيطاليا . . جميلات لاشك . . رشيقات لا جدال . . ما هذا الذى يقدمه للناس . . كل المشروبات الممنوعة وغير الممنوعة . . والآيس كريم والشيكولاتة . . وكل ذلك ملفوف فى ابتسامة جميلة من وجوه جميلة وشعور جميلة استقرت على أكتاف . . على أجسام . . على سيقان . . الله . . الله . . يادين النبى . ففى أى موقع تنهال عليك هذه الكلمات . . والمعنى معروف ومفهوم . . ولم أصدق واحدًا ضبطته ينظر فوق وتحت ويقول : شايف الموبيليا . . شايف السجاجيد . . شايف البوفيه . . شايف الاستعداد !!

البوفيه فيه كل شىء بوفرة . . ولكن ليس هذا هو المقصود بالاستحسان . . الله يا أخى الكوكا هنا لها طعم وفيها غازات . . هذا صحيح والاستحسان ليس للكوكا . . ولكن لعشرات الفتيات بعثت بهن شركة الكوكا توزعها على كل الناس . .

وفى البوفيه قبل الماتش التقى المصريون بالإنجليز بالإيطاليين . . وقالوا لنا : إن فى الملعب على الأقل عشرة آلاف متفرج انجليزى ولكن البوليس يشدد عليهم الحراسة ، وقد علمهم الأدب . وبين كل صفوف الإنجليز يوجد رجال أمن أشداء غلاظ لا يعرفون الرحمة . ولن يسمحوا لأحد أن يفسد هذا المهرجان . . وقد ألقوا القبض على كثيرين وطردوا من الجزيرة كثيرين . . فالأمن مستتب تمامًا . هم يؤكدون ذلك . والبوليس الإنجليزى قد تعاون معهم تمامًا ، وهذا ما حدث أثناء المباراة وقبلها وبعدها . . والبوليس قد فصل تمامًا بين الموكب المصرى المتجه إلى الملعب وإلى المقصورة وبين المواكب الإنجليزية . . ولم نسمع عن حادث استفزازى واحد . . ولا اشتباك . .

جلست فى الصف الأول . .

إلى جوارى صلاح الطاروطى . . وورائى اللواء منير ثابت واللواء فاروق أبو العز ود . عبد الأحد جمال الدين والسفيرة هدى المراسى . . وإلى اليسار كبار ضباط البحرية المصرية . . وعدد من المصريين متناثرين فى المقصورة . . وفى مواجهتنا المشجعون المصريون . . والإيطاليون الذين يشجعون المصريين . . وإلى اليمين المشجعون الإنجليز وبدأت المباراة . .

وبينى وبين نفسى أقسمت أن تكون هذه آخر مباراة أذهب لرؤيتها . . فأنا لا أرى وجوه اللاعبين ولا أستطيع أن أميز واحدًا منهم . . فقط لون الفانلة . . وإن كان الناس ورائى وأمامى يميزون اللاعبين بالاسم . لا أعرف كيف . . مع أن بعضهم يضع منظارًا على عيونهم . . إذن هو التدريب الطويل والمعرفة العميقة لملامح وجوه وأجسام اللاعبين وحركاتهم . . ولكن أمام التليفزيون فالوجوه أوضح واللاعبون أقرب . . أما هنا . . فلا أعرف أحدًا . ولم أعد أفرق بين اللاعبين والمشاهدين فأنا أجهل الجميع . .

والفرق بين المباراة التى أشاهدها فى التليفزيون والمباراة التى أشاهدها فى الملعب . . كالفرق بين المسرح والسينما . . ففى المسرح ترى الممثلين ويرونك . وفى السينما لا ترى إلا تسجيلا فلا أنت تراهم ولاهم يرونك . . ولكنهم فى السينما أوضح ثم إنك تتفرج وأنت على راحتك . . جالسا نائما . . آكلا شاربا . . بالبيجامة أو بلبوصا . . أنت حر ولكن عشاق الكرة لا يطيقون أن يروا تسجيلاً . وإنما يذهبون إلى مكان الأحداث ويذوبون مع اللعب والملاعب ويصرخون !

وكان د. عبد الأحد جمال الدين رئيس الشباب والرياضة يصرخ : ليه ياجمال . . كويس ياهانى ياواد عظيم . .

وجارى يقوم بدور وكيل النيابة الذى يتهم اللاعبين بعنف . . فإذا كان واحد إلى جواره أعنف منه دافع عن اللاعب هكذا : إيوه ياحسام اقفل عليه . . فيقول واحد : ياأخى أنت نايم ! فيرد عليه واحد ثالث : ياأخوانا مش كده هوه يعمل ايه . . مش شايف الراجل هاجم عليه زى البلدوزر ياناس الرحمة . . يخص عليك ياجمال . هيه دى لعبة . . ياراجل فين الحاجات الحلوة بتاعتك . .

وصلاح الطاروطى : قد اتجه بوجهه الذى ازداد شحوبا إلى اللاعبين . . وفجأة يقفز قائلاً: ليه بس . . دى ميه ميه جون ! ليه بس حرام عليك . . ياشيخ وقعت قلبى . . ويرد عليه آخر : الله جرى ايه . . حيشم على ظهر إيده ؟ . دول محلقين عليه من هنا ومن هنا . . ومش لاقى حد يديله الكرة . . علشان كده بيديها وراءه !!

شيء عجيب لا أحد من المتفرجين يلتفت لأحد . . وكل واحد منهم يصرخ فى اللاعبين الذين لا يسمعونه . ولا أحد لا يتوقف عن الصراخ وفى نفس الوقت يرد على المتفرجين الآخرين . .

وحاولت أن أداعب أحد الزملاء . . ووجدت أن هذه الدعابة بايخه وغير مقبولة ، وليس هذا وقتها . . حاولت أن أسبح ضد التيار الجارف . قلت : والله أنا نادم على أننى جئت أتفرج على هذه المباراة . وكان الرد من ورائى : نادم ! دى عظمة . . ده يوم تاريخى !! وقال الذى إلى جوارى : نادم ده يوم مشهود فى تاريخ مصر . . اقعد أحسن تندم أكثر إذا لم تر هذا الجون الذى سوف يسجله مجدى عبد الغنى حالا . . اقعد . . اقعد ! وقال واحد من إمامى . لا تكن قاسيا . . اخص الله يلعنك ! وكان يقصد أحد اللاعبين الذى يريدنى أن أجلس لكى أراه حتى النهاية !

أما الصرخات الحريمى ورائى فكانت من السيدة هدى المراسى سفيرتنا فى إيطاليا . . وابنتها أكثر حماسًا وانفعالاً وصراخًا ! ومن الصعب ألا يكون أحد كذلك . .

طبعًا لو أن هذه المقصورة فى القاهرة لتعالت شتائم للأب والأم . . مع ألفاظ نابية وكلها مقبولة من المتفرجين ، وقد اعتادوا عليها . . ولا يرونها شتيمة ، وإنما هى حالات عصبية لا تحمل أى عداء . . وإنما هى دليل على الحب الصادق للاعب الذى تقول عنه : إنه ابن عفريت . . إنه ممتاز . . أو تقول عنه : إنه وسخ . . إذا كان خصما . . أى إنه لاعب ماهر . هذا دليل على الإعجاب بغير حب . . ولو كان من النادى الذى يشجعه لقال عنه . إنه مجرم . . وهى صفة أخف من الصفة الأخرى . . وهى دليل على الإعجاب به والحب له !

الحمد لله . . الحمد لله . . قالوها جميعًا . فقد انتهى الشوط الأول بلا أهداف . وواضح أن الإنجليز فى غاية السرعة والعنف . . وأن اللاعب ينطلق صاروخًا يصيب كل من يتعرض له . . ومن أهم ما يميز الإنجليز عن المصريين أن الإنجليز يجدون أنفسهم بسهولة . . بينما المصريون فى حالة بحث دائم عن بعضهم البعض . ولذلك تجد اللاعب المصرى أمام المرمى ويلتفت يبحث عن أحد . ليجد هذا الأحد وراءه . وبدلا من أن يشوط فى المرمى ، فإنه يشوط إلى الوراء . .

والحكم عندما أعطى إنذارًا إلى شوبير يتهمه أنه بطىء يعطل اللعب . . كان الحكم ظالمًا . لأن شوبير لا يعطل اللعب . . وإنما هو ـ مثل كل المصريين ـ إيقاعه الحركى بطىء . . ثم إنه مثل كل اللاعبين يفتش عن زملائه ! والمدرسة الإنجليزية مختلفة عن المدرسة المصرية . . فالمدرسة الإنجليزية هى نفس المدرسة الألمانية النمساوية هى المدرسة الأنجلوساكسونية . . هى مدرسة القوة والعنف والسرعة . . وياقاتل يامقتول !

أما المدرسة اللاتينية : الفرنسية . . الإيطالية . . البرازيلية والمصرية أيضا فهى مدرسة تعتمد على فن اللعب . . على المرونة والذكاء وعلى اللعب فى الوسط . . وعلى التمريرات القصيرة الثعلبية . . والمدرسة الإنجليزية الألمانية هى مدرسة الطابور العسكرى . . أما المدرسة اللاتينية فهى مدرسة الرقص الشعبى . . وفارق كبير بين الذى يذهب إلى القشلاق والذى يذهب إلى البيت . . فاللاعب الإنجليزى عسكرى ذاهب إلى الميدان . . واللاعب المصرى راقص شعبى . . ولذلك ليس غريبا أن نجد ما رادونا ـ الطلاينة يسمونه مكرونا لأنه كثير الالتواء والسقوط ـ على الأرض واقعًا . . لقد اعتاد على ذلك . . واعتاد الناس على أن يروه محاصرًا مضروبا معوقًا . . ولذلك ينتهز هذه الفرصة ليرتمى على الأرض ليأخذ نفسه . .

اللاعب الإنجليزى يشوط من أول الملعب لآخره . . ويشوط دون أن ينظر وراءه وأمامه . . وسوف يجد لاعبين فى انتظاره فى كل مكان . فهم يفهمون إلى أين تتجه الكرة . بينما اللاعب اللاتينى فى حالة بحث دائم عن زملائه . . فإذا وجدهم كانوا على مسافة أمتار منه . . فهم

يلعبون فى الوسط . . وسط الملعب كله . . أو وسط ملعب الخصم . . ولكن لا يطلقون قذائفهم بعيدة المدى !

والارتباك الذى أصاب الفرق الرياضية هذا العام سببه أنهم خلطوا المدارس . . فكثير من الفرق تبدأ انجليزية وتنتهى برازيلية . . أو العكس . . فكأنهم يتكلمون لغتين مختلفتين . إحداهما لا يتقنونها . . فكانوا غرباء على أنفسهم . . أما الفرق التى اتقنت مدرسة واحدة ولم تغير أسلوبها فهى التى استطاعت أن تصل إلى نهاية سعيدة . . وفى تفسير عدم دخول فرنسا كأس العالم أنها حاولت أن تغير أسلوبها التقليدى فى اللعب . فبدلا من أن تحتفظ بذكائها وألعابها القصيرة حاولت تقليد بعض تلاميذها فى اللعب العنيف . . استعانت بلاعبين من الجزائر فيهم عنف وغلظة - تمامًا كالمدرسة الإنجليزية . . فحدثت لخبطة فى الفريق الفرنسى فتأخر عن اللحاق بكأس العالم !

ونحن نتزاحم على أكوام المكرونة الإيطالية فى البوفيه . مكرونة من كل لون وطعم . . وأكوام الجبنة اللذيذة . . ومالا نهاية له من المشروبات . .

قال لى جارى الإنجليزى :

من سيخرج من الكأس ؟

قلت : أنتم !

قال : هكذا ؟

قلت : نعم ولأسباب أخلاقية .

وقال : ماذا تقصد ؟

قلت : لقد أثبت التحليل لدم وبول أحد اللاعبين الإنجليز أنه تعاطى حبوبا منبهة . .

وفى هذه اللحظة لم أعد أفرق بين لون وجه الرجل ولون المكرونة فى الطبق . . ومددت يدى أمسك طبقه الذى ارتعش . وسحبت الرجل حتى أسند ظهره للحائط . . وسرحت . . وتمنيت أن يكون هذا الذى قلته صحيحًا . ولم انتبه إلى أن الرجل من الممكن أن يموت فورًا . . وإن هذا حدث كثيرًا فى ملاعب الكرة . . وبحثت عن الرجل فلم أجده . . وانزعجت . . ورحت أبحث عنه . . فلم أجده . . واندهشت كيف أن الرجل اختفى بهذه السرعة . . أو كيف أننى سرحت لدرجة أننى لم أشعر به واقفًا أو جالسا أو حيا أو ميتًا . . وانشغلت برؤية الناس . . وهم يأكلون . . إنها صورة مختلفة عن التى رأيتها فى المقصورة . . ولا شىء يدل على أن الكرة قد استغرقتهم إلا أن أحدًا منهم لا يدخن ، وأن أحدًا منهم لا ينظر إلى الجميلات الإيطاليات طالعات نازلات جالسات على الأرض . . ولما اتجهت إلى المقصورة جاءنى الرجل ومعه اثنان آخران ويسألان : إن كان صحيحا هذا الذى قلت ؟

فقلت : يا اخى كنت أداعبك !

وسألت أهل الذكر ما الذى يمكن أن يحدث لو كشف التحليل أن أحد اللاعبين الإنجليز تعاطى حبوبا منبهة . . فبدت السعادة على كل الوجوه المصرية : يبقى صعدنا لدور الـ ١٦ والإنجليز راحو فى أبو نكلة !

ولم أفهم العمليات الحسابية التى ذكروها ! سألت إحدى الجميلات : وأنت تشجعين من؟ قالت بسرعة : الفريق المصرى !

ـ لماذا ؟

ـ لأننى لا أحب الإنجليز . .

ـ ولا تعرفين أحدًا من المصريين ؟

ـ ولا أحد . . ولكن رأيتهم على الشاشة . .

ـ أعجبوك ؟

ـ بعضهم .

ـ تذكرين بعض الأسماء . .

ـ هشام . . وشوبير . . وهانى . طبعًا تعرفهم ؟

ـ لا والله . . ولا واحد منهم . ولا رايتهم من قبل .

ـ الست أحد الوزراء ؟

ـ لا . . الوزير هو الجالس هناك . .

ـ أنت ماذا ؟

ـ مؤلف .

ـ إذن انت ملك !

ـ شكرًا . .

ـ تعرفين جراتسيا دليدا ؟

ـ آه أديبة إيطالية . . إنها مفخرة هذه الجزيرة . .

ـ هل تعرفين أن الناس هنا لا يعرفونها . .

ـ اهتماماتهم ليست أدبية . .

ـ وانت اهتماماتك أدبية ؟

ـ أنا أكتب قصصا قصيرة . .

ـ أنا ترجمت أكثر من مائتى قصة قصيرة لأديب إيطاليا البرتو مورافيا . . ولزوجته الأولى إلزه مورانته . . وترجمت لزوجته الثانية داتشا ماريانى . . وكارلو ليفى . . وشيزاره بافيزه . .

ـ أنت متخصص فى الأدب الإيطالى . .

ـ لا . . وإنما فى مرحلة من مراحل نموى الأدبى ، كان الأدب الإيطالى قد سيطر بواقعيته على كل تفكيرى .

ـ والآن ؟

ـ آداب أخرى وفلسفات أخرى . .

ـ هل تسمع عن الكاتبة البادشسبدس ؟

ـ التى كانت ترد على رسائل القراء فى مجلة « أبوكا » !

ـ تمام . . أنا حفيدتها ؟

ـ أنت لست من سردينيا . .

ـ لا . . أنا من روما .

ـ وكل الفتيات الجميلات طبعا .

ـ لماذا طبعا ؟

ـ لأنهم هنا فلاحون صيادون أجانب عن إيطاليا . .

ـ تمام . .

ـ أول مرة تقابلين مصريين ؟

ـ نعم . . وكنت أتصور أنهم فى غاية العنف والغلظة . . قالوا لنا كده . . ولكن المصريين أناس فى غاية الأدب والرقة . .

ـ شكرًا .

ـ ربما كانت هذه المعلومات بقصد أن نكون فى حالة احتراس ويقظة دائمة . . حتى الإنجليز الذين تراهم هنا ليسوا بالصورة المخيفة التى وصفوها لنا . .

ـ إنهم يقصدون إنجليز المدرجات وليسوا الذين فى المقصورة . .

ـ تمام . .

ـ أنت تستخدمين كلمة « تمام » كثيرًا ؟

ـ أنا أصلا ضابطة بوليس وزوجى ضابط ووالدى وأخى . .

ـ تمام يا افندم !

يا ابن الـ . . يا ابن الـ . . الله يخرب بيتك . . يا ألف خسارة . لقد دخل هدف فى

شوبير ! كيف ؟ . . بسرعة غريبة . استروبية . . يقولون حولى . . لقد قفز اللاعب الإنجليزى إلى أعلى . . وكان شوبير أقل شبرا . . وجاء هشام يكن فكانت قفزته أقل سنتيمترا واحدًا . . ودخلت الكرة وخرجت مصر من كأس العالم !

يعنى إيه ؟!

ولا حاجة . . تمنينا كأس الكرة . . ولكن هذا يكفى . . لم نكن نحلم بأن نصل إلى هنا . . ولا أن نتعادل مع هولندا . . ولا مع ايرلندا . . ولا نحلم بأن نلعب مع انجلترا تسعين دقيقة فى قوة ورجولة وبراعة . لقد خرجنا من الكأس ! .

وقفزت نبرة الكلام حولى . وغضبت الأصوات . . وخرجت علب السجائر لأول مرة . . وسمعت من يقول : البنات دى مالها ؟ عليها عفريت . . ما تقعدى ياست خلينا نتنيل نشوف ايه اللى بيهببوه فى الملعب !!

لقد أفاق المتفرجون . .

وعلى مائدة العشاء جاء كل اللاعبين إلا شوبير . . وجاء جارى وهو لاعب قديم يشتم «شوبير» . . واتجهت إليه بكل وجهى وجسمى . يا راجل حرام عليك . . شوبير أنقذ عشرات الأهداف وأخطأ مرة . . فهل معنى ذلك أنه ولا حاجة . . عشرون مرة حقق المعجزات ومرة أخفق فكأنه لا لعب ولا أنقذ ! .

وبسرعة كانت الأصوات المصرية كلها تنصف الفريق . . وتجد له ألف عذر . . ثم تطيب خاطر المدرب الجوهرى . . الذى كان يطمع فى أكثر ـ ونحن أيضًا !

وبسرعة أطفئت الأنوار فى كل مكان : فى الوجوه وفى الشفاة . . وجاء الطعام . . فنحن مرهقون فجأة . . فقد ركبنا الطائرة الساعة ١٢ ظهرًا والآن الساعة ١ صباحًا . . فلماذا لا نتجه إلى الطائرة لننام ؟. وياريت ننام فينقذنا النوم من كل الهموم والأحزان والشعور بالإحباط . . وإن كنا نواسى أنفسنا بأن ما حدث هو أحسن ما يستطيعه أى فريق مصرى ليس محترفا . . ولم يتدرب إلا أربعة شهور ، والحقيقة أننا « زودناها » شويتين عندما تخيلنا أنه فى الإمكان ما ليس ممكنا أن نهزم انجلترا ونقتل ألمانيا ونقضى على إيطاليا . . وبقدرة قادر نجد الكأس قد استقرت على رأس الجوهرى !

وما زلت احتفظ ببعض العبارات التى لا أفهمها . وإن كنت أعرضها لعل أحدًا غيرى يجد لها تفسيرًا :

لماذا لم يلعب طاهر أبو زيد ؟

لماذا أنزل الجوهرى لاعبا مبتدئًا فى آخر لحظة ؟ ياعمى . . كلها أيام ويسافر الجوهرى إلى السعودية ويعمل مدربا بالشيء الفلانى هناك . . هو الوحيد الذى استفاد !

سألت د. عبد الأحد جمال الدين : فى رأيك ما الذى جعل الجوهرى يحقق هذا الإنجاز الفنى ؟ . قال : أنا أعطيته حريته الكاملة فى الاختيار والتدريب ولم يتدخل أحد فى عمله . . لا أفرض عليه رأيا ولا لاعبا . . وثم إننى قلت له أنا على استعداد أن أقدم لك أية مساعدة مالية فى أى وقت !

شيء يبعث على الضحك أيضًا أن تتصور أن اللاعبين المصريين مجموعة من الوحوش الشاردة . . ثم قام الجوهرى بوضع السلاسل فى أيديهم وأرجلهم حتى لا ينفلت عيارهم لعبا ولهوا . . كأنهم بلا إرادة ولا عقل . . ولذلك لابد من حبسهم انفراديًا حتى لا ينهد حيلهم فى اللهو والسهر !

وهم يفعلون ذلك لأنهم هواة . . إذا لعبوا وجدوا طعامًا ، وإذا لم يلعبوا وجدوا مالا . . وإذا خلطوا اللعب باللهو وجدوا من يقدم لهم الهدايا من الفلوس والسيارات . . فهم لا يخافون على رزقهم !.

أما اللاعبون المحترفون فهم يخافون على أنفسهم . . على الصحة واللياقة . . وإلا ماتوا من الجوع . . إنهم أبناء القطاع الخاص . أما اللاعب المصرى فهو الموظف ابن الموظف ابن القطاع العام . . وهم مثل فئران السفينة : إذا عامت السفينة وجدوا ما يأكلونه ، وإذا غرقت وجدوا ما يأكلونه !

سألونى فسألت : هل إذا جاءك ابنك الحاصل على الثانوية العامة واندهش كيف أنه لم يأت وزيرًا فى التشكيل الوزارى الجديد فماذا تقول له ؟ .

ـ أقول له أنت مجنون !

ـ كيف تتهم أنفسنا جميعا بالجنون ، ونحن نتمنى للفريق المصرى الذى لم يصل إلى كأس العالم من ٥٦ عاما أن يحصل على الكأس لأنه تعادل وتعادل . . يجب أن تدق رأسك فى الحائط وتقول : اعقل . . وأن يفعل أحد ذلك معنا جميعًا ويقول لنا : اعقلوا . . يرحمكم الله !

والذى أسعدنى أننى وجدت كل الناس من كل فئة يعطفون على الفريق القومى ويقولون . لقد أدوا ما عليهم وزيادة . .

والحمد لله على كده . . كده كويس جدا جدا !

ألمانيا التي لا تموت ..!

في سنة ١٩٥٠ م رأيت برلين قلت : خسارة !

في سنة ١٩٩٠ رأيتها قلت : عظيمة !

* * *

في سنة ١٩٥٠ أحسست كأنني لا أريد أن أرى ما أراه ، ولا أن أسمع ولا أن أستبق الأحداث إلى المستقبل . . فقد غمرني الحزن على المدينة الجميلة التي قرأت عنها ورأيت صورها . . ولا أعرف كيف كانت قبل أن يتعاون الحلفاء على دمارها . . وكان من نصيب الروس أن يهدموها على رأس هتلر .

لا أعرف كيف كانت . .

ولكن إذا نظرت إلى برلين الغربية وقد ظهرت فيها المطاعم الجميلة والفنادق والشوارع المضاءة . . لا كل برلين الغربية وإنما جانب منها . . أيقنت أن هناك مشاريع جبارة لإعادة كل شيء على ما كان عليه . . بل أعظم وأروع . .

ولكن إذا ذهبت إلى برلين الشرقية رأيت كيف كانت برلين الغربية قبل تجديدها . . فالشوارع خالية من الأشجار وأرضها من اللمعان . . فلا الشوارع مضاءة ولا الوجوه . . ولا المحلات . . بل إن المحلات هي الشوارع وقد اتخذت لها أبوابا . . فهي خالية عارية قبيحة . . والمحلات الكبرى عبارة عن ورش ليست مكيفة . . فهي ذميمة اللون والرائحة . . والشعب الألماني الشرقي يعيش حزينًا فقيرًا . . وهم يحسدونك على أنك جئت من برلين الغربية . . ولكن لا حيلة لهم ولا أمل . . انتهى . لقد آلت برلين الشرقية إلى الروس ومعها ١٥ مليونا من الألمان . . كلهم دخلوا سجون الجوع والقهر . . انتهى إلى الأبد . وإذا أراد أحد أن يعيد ألمانيا الشرقية إلى الغربية فلابد أن يستولي على موسكو أولا !!

وفي برلين الغربية نزلت في فندق اسمه كمبنسكي . الفندق جميل جدا . ألماني بمعنى الكلمة : النظام والنظافة والأناقة والأبهة والكبرياء . .

كنت واحدًا من وفد رسمى . . جلسنا معا . طلبنا طعامًا شهيًا . جاءت مناضد لها عجلات وأجراس وتعلقت عليها أعلام مصر وألمانيا . . كنا سبعة . . وكنا عرضا مسرحيا يتفرج علينا الألمان فى دهشة وفى صمت وفى أدب . . فبعضنا طلب دجاجة كاملة مع البطاطس والمكرونة والصلصة والحلوى والفاكهة . . والناس ينظرون ولا يتكلمون . فلا أحد يطلب دجاجة كاملة . . ربع دجاجة أو نصف دجاجة . . ولا يطلب هذه الكميات الكبيرة من كل شىء . . وفى ذلك الوقت كان الألمان يحملون ما تبقى من الطعام معهم . . بقايا الخبز والزبد والسكر والفاكهة . . ويأخذون عظام الدجاج إلى كلابهم أو قططهم . . وكان ذلك منظرًا مألوفًا .

وكانوا يندهشون لما نعمله . . بعضهم جلس يتفرج كيف يمكن لأى إنسان أن يأكل كل هذه المواد وإذا أكلها فكيف يعمل . وأدهشهم أكثر أننا أكلنا وتركنا وراءنا جانبًا كبيرًا من اللحوم والخضراوات والفواكه والحلويات ـ طبعًا يرون ذلك منتهى السفاهة . فهم بعد الحرب كانوا يحصلون على كل شىء بصعوبة . ولكنهم كانوا يعملون . حقيقة واحدة من المؤكد أنك سوف تجدها فى ألمانيا : إنهم يعملون . وإنهم مؤمنون بأنه فى الإمكان انتشال ألمانيا وإعادتها إلى سابق مجدها . ممكن .

بعض الألمان تقدم من موائدنا وحمل ما تبقى من الطعام . وبعضهم وجدوها مؤلمة نفسيًا . فتمنى أن يفعل ، ولكن نفسه لم تطاوعه !

وكانت لنا فتاة ترافقنا . . فهمست فى أذنى . واعتذرت . ولكن وجدت حلا . سألت الجرسون : هل من الممكن أن آخذ معى صندوقا به بعض اللحوم والخضراوات والفواكه ، فقيل لى : نعم وبكل سرور !

وأخذت الصندوق وأعطيته للفتاة التى ترافقنا !

وعندما ذهبت أتفرج على مصانع كروب ـ كبرى مصانع الحديد والصلب والتى ساعدت هتلر فى بناء المدافع ـ وجدتها خرابا يبابا . أين ذهبت ؟ الحلفاء ضربوها من الجو . . اقتسمها الحلفاء فكان على أمريكا أن تضرب جانبا وكذلك بريطانيا وفرنسا . . ثم إن الإنجليز فككوا هذه المصانع وحملوها إلى بلادهم !

قال مدير شركات كروب : إنهم أخذوا المصانع ، ولكن لم يأخذوا العقول القادرة على إقامتها فى نفس المكان مع تطويرها !

وقد أعادوا بناء هذه المصانع . . حتى خيل إلينا أن هذه المصانع كانوا قد أخفوها تحت الأنقاض . ثم جعلوا يرفعون عنها الحجارة والحديد ، فإذا هى قد استوت شامخة ضخمة . . وتعالت مداخنها ، تؤذن لمستقبل جديد جبار !

وعندما ذهبت أتفرج على مدينة ديسلدورف وكان الحلفاء قد مسحوا بها الأرض . . فكنت إذا وقفت فى أول المدينة أرى آخرها . . فلا شىء على وجه الأرض غير الأنقاض . . ومن هذه الأنقاض تخرج الشقراوات للعمل والعمل والعمل . . وكان شيئًا عجيبًا أن يرى أحد سيجارة بين أصابعك . . أو يرى طفل قطعة شيكولاته فى يدك . . إن أم الطفل لا تجد حرجا فى أن تطلب منك قطعة لابنها ، فهى تخشى أن يكبر دون أن يذوق طعم الشيكولاتة !

وآه لو رأى أحد معك رغيفًا كاملاً . . إنه شىء يلفت كل الناس . إن الرغيف الواحد تقتسمه أسرة ! .

خراب بالمانيا . . هباب بألمانيا . . عذاب يا ألمان حاضركم وماضيكم . والأفلام التى تظهر على الشاشة تصوركم وحوشا بشرية . . حيوانات كان يسوقها بالكرباج هتلر فلا يعترض أحد . . وجاء الحلفاء يحتلون ألمانيا . عقلها وإرادتها وحياتها . .

ولكن الألمان مضوا يعملون فى صمت . . والحلفاء يتفرجون ويندهشون لهذا الشعب الذى لا يموت !

* * *

ورأيت برلين ليلة الوحدة . .

وقبل ذلك كان الألمان قد حطموا السور الذى أقامه الروس ليفصل بين الرأسمالية والشيوعية . . بين الماضى الأليم والحاضر الرائع . . بين الفقر والهوان والقهر واليأس ، وبين الثراء والكرامة والحرية والآمال التى لا نهاية لها . . بين الألمان الحقيقيين والألمان المزيفين .

وكان الألمان يهربون من الشرق إلى الغرب . .

وقفزت الدنيا فى أوروبا عندما خلعت الشيوعية من رأسها وقدميها . . وعندما أدرك الشيوعيون أنهم خدعوا أنفسهم والعالم سبعين عاما . . يعدونهم بجنات تجرى من تحتها أنهار الراين والرون والفولجا . . فلا جاءت الجنة ، ولا جرت الأنهار . .

وجاء الرجل العظيم الذى اسمه جورباتشوف وأحس أنه لم يعرف إلا الفقر . . وأن آمال أى مواطن روسى هى أن يحصل بالضبط على ما يحصل عليه أى عاطل أمريكى : سيارة وتلفزيون وثلاجة وبوليصة تأمين ضد المرض والبطالة !

وتحررت الشعوب الشيوعية من أكذوبة المساواة المطلقة التى لا تتفق مع طبيعة الإنسان . . وانتظار الخراب الشامل الساحق لأمريكا . . فلم يصبها الفقر والانهيار الذى كان يتوقعه الشيوعيون . . بل ازدادت أمريكا وألمانيا واليابان وفرنسا وبريطانيا ثراء ورفاهية فى ظل حرية

الفكر والعمل . . وكان من الطبيعى أن تفكر ألمانيا الشيوعية هى الأخرى فى أن ينتهى عذابها وحرمانها وأن تتحد مع ألمانيا الغربية التى شعبها هو الأكبر والأغنى . .

واتحدت الدولتان . . أو الدولة الواحدة . .

وذاب تحت الأقدام حائط الذل : حائط برلين . .

وتعالت هتافات الجماهير . .

وراحت تنشد معانشيدها القديم : ألمانيا . . ألمانيا . . فوق الجميع فى العالم . .

الحق والوحدة والحرية من أجل الوطن الألمانى . .

أغنيات ألمانيا . . كلهامن أجل الوطن .

اذهب وتفرج على برلين . . وكل المدن الألمانية . . أين ذهب الدمار والخراب والتراب والهباب ؟ إنه ما يزال فى ألمانيا الشرقية . . وهذا عبء على ألمانيا الغربية . . فسوف تعيد ألمانيا الشرقية إلى ما كانت عليه . . وسوف تفكك مصانعها القديمة التى تلوث البيئة بالهباب والسموم وسوف ترصف الشوارع وسوف تدرب العمال كيف تكون المصانع الجديدة . . وسوف يعلمونهم الذوق والأدب ، فهم شيوعيون أجلاف نسوا الذوق نصف قرن . . وسوف يدفع الألمان الغربيون مزيدًا من الضرائب لإنقاذ الألمان الشرقيين . . إنها مشكلة عويصة جدًا . . ولكن ألمانيا غربا وشرقا قادرة على أن تتخطاها ـ ففى ذلك إعجاب جديد من العالم كله للدولة التى حققت المعجزة الاقتصادية مرتين . . مرة بإنقاذ نفسها ، ومرة بإنقاذ نصفها الآخر.

* * *

دخلت أحد مطاعم برلين . . المطعم قمة الفخامة والأبهة . . كل شىء يتألق . . الأدوات والمناضد والجدران والأكواب والوجوه . .

. . جديد فى جديد . . سبحان الله . . نظرت إلى قائمة الطعام . . أصناف لا أول لها ولا آخر . . نظرت إلى ثمن الوجبة . . غال جدا . . نظرت إلى الورد أمامى لمستها . . شممتها . . ومن بعيد وجدت الوجوه الحلوة والابتسامة الأحلى تسألنى من بعيد إن كنت قد قررت واخترت ما أريد قبل أن تجىء الوجوه الجميلة . . ولم أعرف ما الذى أختار . . فكل شىء كثير . . وجاءت الجرسونة الثانية ووضعت إصبعى دون أن أنظر . فقالت : ماذا ؟ قلت : اخترت المانيا .

فلم تفهم فقد كنت استكمل الحديث بينى وبين نفسى !

فما الذى حدث فى هذه البلاد ؟

الألمان يقولون : ولا حاجة . . فقط عملنا !

وقبل ذلك كانوا يقولون عن سر العبقرية الألمانية إنهم قبل أن يدخلوا الجامعة يمرون على الجيش !

أى إنهم يتعلمون الانضباط والدقة والعمل الجماعى والتضحية قبل أن يدخلوا الجامعة . . . التى هى تجنيد وتضحية أيضًا . . فالجيش جامعة ، والجامعة جيش ، والألمان جنود فى معركة التطور . . وقد كسبوها . . فالمانيا أغنى دولة فى العالم . . وأكبر دولة صناعية تجىء بعدها أمريكا واليابان . .

يعنى إيه ؟ يعنى منتهى العظمة !!

إنهم يضربون المصريين :
حكاية مضحكة ؟!

احتشد المصريون الهاربون من العراق والكويت على الحدود الأردنية . . رجال بالجلاليب والطواقى . . ونساء حوامل وعلى صدورهن أطفال . . الإرهاق واضح على الجميع . . ويتقدم أحد المذيعين من رجل متوسط العمر . . وجده نظيفًا ضاحكًا . . ثم يضع الميكرفون عند فمه ويسأله :

المذيع : حمد الله على السلامة ياحاج . .

العائد : والله ياسعادة البيه كان نفسى أحج . .

المذيع : المرة الجاية ؟ لا هو انت ناوى ترجع ؟

العائد : إن شاء الله يابيه . . دى بلاد جنة . . سكرة . . ربنا يخلى لنا الرئيس مبارك . . وينصر الرئيس « صدام » . .

المذيع : ينصر الرئيس « صدام » على مين ؟ لقد انتصر على الكويت ووضعها فى بطنه . .

العائد : فى الحفظ والصون ياسعادة البيه . . الرجل بيحب مصر قوى . . ويموت فى الشعب العربى . . قوى . . مفخرة لنا ياسعادة البيه . . الواحد لما يشوفه كل يوم يعرف أن كل مشاكل العرب وفلسطين سوف تنحل بجرة قلم . . والله كده يابيه . .

المذيع : انت جاى منين ؟

العائد : من العراق يابيه !

المذيع : ما حدش ضربك ولا عذبك ؟!

العائد : أنا ؟ أبدا يابيه . . الناس فل . . والرئيس صدام ميت فل وعشرة . . ربنا يخلى الرئيس مبارك . . بيموتوا فيه هناك ياسعادة البيه . . (ضوضاء . . وأصوات تتعالى وتشتم هذا المصرى العائد) يقولون : كذاب . . حشاش . . جاسوس . . انظر إلى العلامات الزرقاء فى وجهه وفى أنفه . . انظر إلى ملابسه الممزقة . . كذاب . . كلب . .

العائد : الله . . الله . . ليه الغلط بس ياسيادتنا . . نصيبى كده . . ما حدش لا ضربنى ولا عذبنى . . أكذب على الله . . دعاء الوالدين ياناس . . الجنة تحت أقدام الوالدين . . وأنا كنت فى الجنة . . شوفوا أنتم أهاليكم كانوا بيقولوا عليكم ايه . .

المذيع : صحيح هدومك مقطعة . .

العائد : المشوار طويل يابيه . . والواحد من الزهق والتعب والشمس والعطش كان بيطلع من هدومه . .

المذيع : يعنى انت اللى قطعت هدومك ؟

العائد : بيحصل يابيه . .

المذيع : مش فاهم . . يعنى انت الوحيد اللى ماحدش قرب له . .

العائد : تمام !

المذيع : ليه ؟

العائد : فضل من ربنا يابيه . .

المذيع : وانت كنت بتشتغل ايه ؟

العائد : وشى فى الأرض . لا مؤاخذه كناس !

المذيع : كناس ؟

العائد : العمل شرف يابيه . .

(المصريون يتهجمون على العائد . . ويمسكون بجلابيته . . ويقولون : كلب ابن كلب . . جاسوس . . خائن . . جبان) .

المذيع : أنت خائف ؟

العائد : حقيقة ربنا . . أنا خائف يابيه . .

المذيع : خائف من ايه ؟

العائد : أولاد الحرام كثير زى ما أنت شايف يابيه . .

(يقترب العائد من المذيع ويهمس فى أذنه)

المذيع : ياراجل ما تخفش . .

العائد : قل لى ياسعادة البيه بالأمانة . . والمصحف الشريف احنا فين دلوقت ؟ فى العراق ولا فى الأردن . . اعذرنى أنا متلخبط ياسعادة البيه . .

المذيع : يا أخى احنا فى الأردن . . احنا سبنا العراق .

العائد : بتتكلم جد يابيه ؟

المذيع : أى والله والمصحف الشريف !

العائد : الله يخرب بيتك . . الله يوجع قلبك على مراتك ويوجع قلب مراتك عليك ويوجع قلب أولادك عليك . . ياابن الكلب . . يامصاص الدماء ياهاتك الأعراض .

المذيع : ايه ده انت بتشتمنى ياراجل ؟ !

العائد : انت ينقطع لسانى يابيه أنا باشتم الصدام الصدمان العدمان !

(وهتافات لمصر والرئيس مبارك والدعاء على صدام . . وزحام شديد . . والجنود الاردنيون ينهالون بالضرب على المتزاحمين) .

العائد : ضرب ثانى يابيه . . احنا فى الأردن ؟

المذيع : نعم . .

العائد : ضرب فى العراق وضرب فى الأردن ؟

المذيع : نعم . .

العائد : يعنى احنا سبنا الضرب فى العراق علشان الضرب فى الأردن ؟

المذيع : مؤقت ؟

العائد : الضرب مؤقت . . قالوا لنا كده .

والمصريون يحتشدون ويركبون السيارات التى تنقلهم إلى ميناء العقبة . . وهنا تقف العبارات الواحدة إلى جوار الأخرى . . زحام وخناقات . . العراق . . واستمر الضرب ست سنوات ومن هنا حانقعدكم سنة ؟ !

المذيع : حالا سوف تتجه إلى المركب التى تنقلك إلى مصر . .

والمصريون عصبيون يمسكون بخناق بعضهم البعض . . وتسقط حقيبة العائد فى الماء . . وتتعالى الشتائم وتتردد أسماء الحمير والكلاب والخيانة وينهال المصريون بالكلام والشلاليت بعضهم على بعض .

العائد : الله ده هنا فيه ضرب برضه . . إيه الحكايه يابيه . .

المذيع : احنا مع بعض . . زيتنا فى دقيقنا . . انت نسيت مصر والا إيه ؟

العائد : أنسى إزاى ؟ بس ايه الحكاية ياسعادة البيه . . المصريون ينضربوا فى كل

مكان . . ضرب العراق يوجع الظهر . . وضرب الأردن يوجع البطن . . وضرب مصر يوجع القلب . .

المذيع : ضرب المصريين فيه زمالة وأخوة . . يعنى أخوك هوه اللى بيضربك .

العائد : ياسعادة البيه إذا كان أخويا يقلع عينى . . فهوه بالشكل ده زى أى واحد تانى قلع عينى . . ولا فرق بين الذى يقلعها بالذوق واللى يقلعها بالقوة . . عينى انقلعت والسلام . . الله . . قل لى ياسعادة البيه . . ما دام الضرب فى كل مكان . . يبقى احنا ايه اللى رجعنا مصر . . ما دمنا مضروبين فى مصر وفى العراق . . يمكن ضرب العراق بالعملة الصعبة . . أحسن يعنى !

(المذيع لا يرد . . ولكن العائد المصرى لا يتركه) . .

العائد : قل لى يابيه . . هيه المركب دى مصرية ؟

المذيع : نعم .

العائد : والمياه دى مصرية ؟

المذيع : نعم !

العائد : والناس دول كلهم مصريون ؟

المذيع : إيوه ياسيدى . . كل اللى انت شايفه مصرى فى مصرى والشاطئ اللى هناك ده مصرى . .

العائد : الله . . أمال الناس قرفانه من بعض ومش طايقين بعض . . زى ما يكون رايحين سجن . زى ما يكون معمول فيهم مقلب . . مش فاهم يابيه . . الله يخليك نورنى . . ايه اللى حصل بالضبط . . سيادتك بتعيط يابيه . . هيه الرجال تعيط . . امال احنا نعمل إيه احنا لازم نعيط بدل الدموع دم . . راحت فلوسى وماتت مراتى وأولادى تاهوا . . وقالوا لنا اهربوا . . هربنا . . انت بتعيط يابيه ؟ أنا مش عارف إيه جرى لى . . دموعى من المصائب نشفت . . الدنيا كلها نشفت . . ريقى نشف . . دمى نشف . . وإيدى نشفت مفيش فيها مليم واحد . . زى ما أكون أنا ميت . . زى ما أكون الناس دى كلها ماشيه فى جنازتى . . أى والله يابيه !

المذيع : أنا باعيط . . علشان الريكودر راح . .

العائد : سرقوه ؟

(العائد يخلع ملابسه ويلقى بها فى البحر . . الجاكتة . . والجزمة . . وشنطة كبيرة . .) .

المذيع : بتعمل كده ليه ؟

العائد : أحسن ما حد يسرقهامنى . . فأنا لسه عندى شوية احترام لأولاد بلدنا . .

المذيع : أنت بتعيط . . ليه ؟

العائد : على خيبتى . . قل لى والمصحف الشريف ياسعادة البيه . .

المذيع : نعم . .

العائد : المركب دى مصرية ؟

المذيع : نعم .

العائد : والمياه دى مصرية ؟

المذيع : قلت لك ايوة يا أخى !

العائد : والناس دول كلهم « مصريين » ؟

المذيع : الله جرى لك إيه . . قلت لك إيوه . .

العائد : أمال ضربونى ليه ياسعادة البيه . . مفيش حد فى العراق ولا الأردن شتم أمى . . هنا بس !

(نزلوا جميعا من المركب . . وقف « العائد » أمام رجل الجمارك .

رجل الجمارك : بتعرف تقرأ؟

العائد : ياريت . . أهلى ما علمونيش يابيه . . ملحقوش ياسعادة البيه أبويا مات وأنا عندى سنة وأمى ماتت وأنا عندى سنتين . .

رجل الجمارك : عندك فكرة الميكروباس اللى أنت جايبه معاك ده يساوى كام !

العائد : يساوى ربع مليون جنيه مصرى . . تعبى وشقاى . . تعبت أنا مع إخوتى وأولاد خالى . . كلهم ماتوا يابيه . . أبوس ايدك . . اهو ده كل اللى فاضل من الدنيا . . عشر سنين دوخة ليل ونهار . .

رجل الجمرك : معاك باسبور ؟

العائد : أبدًا .

ـ معاك بطاقة ؟

ـ أبدًا . .

ـ امال معاك إيه ؟

ـ الستر . . والناس الحلوة دى كلها . . وربنا يخلى الرئيس مبارك ويخرب بيت الرئيس صدام . .

ـ اسمع ياراجل انت . . خلى واحد يقرأ لك إيه المكتوب على الميكروباس . .

ـ مكتوب عليه إيه ياسعادة البيه . . سيادتك عارف الحاجات الحلوة اللى بنكتبها فى مصر عين الحسود فيها عود . . الحلوة دى من بنها . .

ـ لا . . ياإخويا مكتوب عليه الحلوة انت ملك للسفارة المصرية ؟!

ـ السفارة المصرية يانهار أسود . . بتاع مصر يعنى ؟ سرقوها وباعوها لى . . الله يخرب بيت الرئيس صدام . . حلاقيها منين والامنين . . رجعونى العراق . . رجعونى !

الناس يضحكون والرجل يبكى . . ولما لم يجد أحدًا يشاركه هذه النكتة . . راح هو الآخر يضحك . . ويقول : الله يخرب بيت أهلى لا دخلونى مدرسة ولا علمونى القراءة والكتابة . .

والراديو يذيع : حمد الله على السلامة ياجاى من السفر . . وحشانا الابتسامة . . وشك ولا القمر .

العائد (يضحك ويبكى) ويقول : حمد الله على السلامة ياراجع للقرف . . وحشانا الابتسامة . . جاك ستين قرف ! .

أرض مصر من السماء

عندك فكرة عن أول خريطة فى العالم ؟ أنا أقول لك . . إنها موجودة فى أسطنبول ومعروفة باسم خريطة بيرى ريس . . . وعمرها ثلاثون ألف سنة . ولكن الأعجب من ذلك أنها التقطت من الجو ! كيف ؟ هذه الخريطة لاستراليا ونيوزيلندا وتسمانيا وعشرات من الجزر الصغيرة فى نصف الكرة الجنوبية . . وقد حدد العلماء عمر هذه الخريطة من الهيئة الجغرافية والجيولوجية لهذه الجزر . . . أى إنها كانت هكذا كما جاءت فى الخريطة من ثلاثين ألف سنة فمن الذى التقطها وكيف ؟

والجواب التقليدى الآن هو : إن كائنات من كواكب أخرى هبطت إلى الأرض وفى ظروف غامضة جاءت ، وفى ظروف غامضة ذهبت . . وتركت لنا هذه الخريطة دليلا على ذلك !

ولم نكن نعرف بوضوح أن الإنسان إذا ارتفع فى الفضاء فإن الدجلة والفرات والنيل تبدو خيوطا فضية على بساط سندسى . . . ولكن الذى قال لنا ذلك هو مؤلف (ملحمة قلقامش) البابلية . . . فهو عندما ارتفع فى الفضاء ـ فى إحدى سفن الفضاء (؟!) ـ بدأت الأرض تصغر والجبال والمساحة المزروعة والأنهار . . . ولو ظل يرتفع ويرتفع لتلاشت معالم الأرض كلها أخضرها فى أصفرها فى أزرقها !

وفى سفر (اخنوخ) ارتفع هو إلى ما فوق الأرض ورأى الدنيا صغيرة وتزداد تضاؤلا . . . ولكن الارتفاع هو الأسلوب الوحيد لكى ترى أشمل وأوسع وأدق !

ولكن هذه الحقيقة لم نعرف معناها الحقيقى إلا عندما أصبحنا قادرين على ذلك بالوقوف فوق الأسطح أو إطلاق البالونات فى الفضاء أو ركوب الطائرات وأخيرا سفن الفضاء .

فقد كان من عاداتنا إذا أردنا أن نرسم للأرض خريطة أن نركب الجمال أو الخيول ونقيس انخفاضات الأرض وارتفاعاتها . . . ولما عرفنا البالونات وضعنا فيها الكاميرات لكى تلتقط صورة عامة شاملة للأرض المزروعة والصحارى والجبال . . .

ثم اهتدينا إلى الطائرات تلتقط الصور ونقوم نحن بالضرب والطرح والتحليل والتركيب حتى يكون لنا فى النهاية نوع من الخرائط . . .

وتاريخ صناعة الخرائط هو تاريخ الصور من فوق . . . والتجميع والتحليل والتركيب تحت . . . وربما كانت آخر خريطة شاملة لمصر عمرها سبعون عاما . . .

ولكن كانت لمصر خرائط متنوعة وأول خريطة لتربة مصر رسمها الإنسان كانت من ٣٢ قرنا . . . فقد رسمت هذه الخريطة الجيولوجية فى عهد الملك رمسيس الرابع . . . هذه الخريطة موجودة الآن فى متحف « تورينو » بإيطاليا . . . وهى عبارة عن خريطة لصفات الأرض يستخدمها من يقطعون الأحجار لصناعة المقابر والتماثيل . . . والذى رسم هذه الخريطة هو الكاتب المصرى امنمحعت سنة ١١٥٠ قبل الميلاد . . . والخريطة مرسومة على ورق بردى . طولها ستة أقدام وعرضها ١٦ بوصة . وقد تمزقت بعض جوانبها . وعثر عليها العلماء فى سنة ١٨٢٠ بين أنقاض دير المدينة بالقرب من وادى الملوك . . والخريطة معروفة جيدًا لكل علماء المصريات فى العالم .

وظلت كذلك فى موقعها . . . ولكن أحدًا لم يحاول أن يتحقق مما ورد فيها من معلومات . . . حتى جاء اثنان من العلماء الأمريكان هما جيمس هارل وماكس براون وأخذا صورة لهذه الخريطة وجاء الاثنان إلى مصر وإلى الموقع نفسه من وادى الملوك . . . وتأكد لهما تماما أن الخريطة دقيقة جدا . . . وأن هذه الخريطة لم يرسمها واحد وإنما كانت هناك بعثة رسمتها وعرضتها على الكاتب أمنمحعت الذى أدخل تعديلات عليها ! .

ولم يعرف الغرب رسم الخرائط الجيولوجية إلا فى القرن الثامن عشر عندما ظهرت أول خريطة فى سنة ١٧٤٠ ـ فكأن الفراعنة قد سبقوا زمانهم بثمانية وعشرين قرنا !

* * *

وفى سنة ١٩٧٢ أنشأ المهندس د . محمد عبد الهادى (مركز الاستشعار عن البعد) . . . وفى الوقت نفسه بدأت الأقمار الصناعية الأمريكية برسم خرائط للكرة الأرضية من فوق . . . وبدأنا نتلقى المعلومات من القمر الأمريكى (لاندسات) . . . . وكذلك من أجيال مختلفة من هذا القمر . . . ولكن فيما بين ١٩٨٦ و ١٩٩٠ كانت المعلومات التى نتلقاها مع عدد من محطات المتابعة الأرضية هى المادة الأولية لرسم أول أطلس لمصر . . . ومصر هى الدولة الوحيدة ـ بعد أمريكا ـ التى عندها أطلس لكل أراضيها ووديانها وأنهارها ومجاريها وجبالها . . إنه (الأطلس الفضائى الشامل لمصر) الأطلس يزن ٣٥ كيلو جرام وبه ٧٩ لوحة رائعة الألوان أنيقة الطبعة فى غاية الدقة العلمية ، وهو نتيجة جهود عدد كبير من الخبراء المصريين يعملون ليلاً ونهارًا . . . يباع الأطلس بألفى جنيه ويباع للهيئات العلمية

بألف وللخارج بألفى دولار. . . وظهور هذا الأطلس يعتبر حدثا علميا باهرًا . . .

أما كيف تتلقى المعلومات من الفضاء الخارجى لأرض مصر ؟ فالأقمار الصناعية تدور حول الأرض على ارتفاع ٧٥٠ كيلو متر . . . وبسرعة ٣٨ ألف كيلو فى الساعة وتدور فى مداراتها فوق نقطة معينة من مصر كل ١٦ يوما . . . ومن فوق هذه النقطة المتفق عليها تبعث بما لديها من معلومات لمصر ولكل محطات المتابعة الأرضية فى مصر وفى أوروبا . . . أما هذه المعلومات فهى عبارة عن أرقام . هذه الأرقام تدل على الدرجة اللونية لسطح الأرض . . . فما الذى يخرج من سطح الأرض ؟ تخرج نبضات أو ومضات ضوئية . . . هذه الومضات تتلقاها أجهزة الكترونية ذات سبع موجات للدرجات اللونية المختلفة يصل عددها إلى ٣٢٠ درجة . . . فكل شيء على سطح الأرض له أشعة يعكسها . . . وهذا الانعكاس يصل إلى الأقمار الصناعية التى تبثه فورًا على شكل أرقام . . . هذه الأرقام يدخلونها أجهزة الكترونية شديدة التعقيد وتحولها إلى مساحات لونية . . . وكل نقطة مثل هذه النقطة التى على أى حرف هنا تعادل ٧٨ × ٧٨ مترا على سطح الأرض . . . وتتجاور النقط أو تتراكم بعضها فوق بعض بحسابات علمية دقيقة جدا لكى تعطى فى النهاية مساحة الأرض المزروعة ونوع المزارع ومساحة الأرض البور والصحارى والمسطحات المائية والوديان والرمال المتحركة . . .

وكل ذلك لا تستطيع العين العادية أن تراه ، بل إننا نحتاج إلى عين صقر أو عين نمر لكى ندرك هذه الفوارق اللونية الهائلة . .

والأقمار الحديثة تدور على ارتفاع ٧٥٠ كيلو متر. . أما أقمار التجسس العسكرية فعلى ارتفاع ٣٠٠ كيلو متر. وهى لاتعتمد على الإشعاعات الضوئية ، وإنما على الإشعاعات الحرارية ـ تماما مثل الثعابين التى تعتمد فى حركتها على الإشعاعات الحرارية من أى جسم حولها .

وإذا كانت الأقمار الحديثة لا تصور إلا كل ما يرتفع عن الأرض ثلاثين مترًا . فإن الأقمار العسكرية تصور كل ما يرتفع عن الأرض ٣٠ سنتيمترا . . ولذلك فهى تصور الأشخاص والسيارات . . بعض الأقمار الأمريكية بلغت فى دقتها أنها تستطيع أن تصور رجلا يطارد كلبا فى شوارع القاهرة ؟!

فكل جسم تصدر عنه حرارات على سطح الأرض تصوره الأقمار العسكرية . فالسيارات التى كانت تعمل وتوقفت تصدر عنها حرارة تلتقطها الأقمار . . ولو كان هناك مبنيان متجاوران متماثلان تماما ، وفى أحدهما مصنع والآخر للتمويه لالتقطت الأقمار صورة المصنع الذى يعمل . . بل إن الأقمار تلتقط صورًا للأشياء التى كانت بها حرارة وغادرت مكانها . . وفى مركز الاستشعار عن البعد قمنا بهذه التجربة . فيجلس الواحد منا على مقعد بعض الوقت . . ثم ينهض من المقعد وإذا بالكاميرات تصور الحرارة المنبعثة فوق المقعد . . فنرى

صورة له فى نفس المكان . . وهذا ما جعل بعض العلماء يقولون إنه سوف يجىء وقت يخترع فيه الإنسان أجهزة دقيقة تصور التاريخ القديم للإنسان . . فنرى من الفضاء الخارجى دخول القوات الفرنسية مصر أو معركة أبى قير . . كل ذلك موجود بصورة حرارية على الأرض أو فوقها بقليل . . فلا شىء يتبدد ، وإنما كل شىء يتحول إلى صورة أخرى ويبقى هناك !

وقد اعتمد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية على التصوير الجوى فى كل معاركهم . وعلى الرغم من أنه يعتبر تصويرًا بدائيًا إذا قورن بما وصلت إليه تكنولوجيا الفضاء ، فقد كان دوره حاسمًا فى المعارك . . فلولا الاستطلاع الجوى لأرض معركة نورماندى ما كانت المعركة . . ولولا ما عرفه الألمان من الأحوال الجوية فوق المانش ما هرب أسطولهم فى الضباب والمطر الغزير والعواصف العنيفة لكى يضرب الأسطول الفرنسى فى مارسيليا مارًا بمضيق جبل طارق . . ولم يكن التصوير الجوى قد بلغ درجة من الدقة والكمال ما بلغه الآن . . وكان هتلر وقادته العسكريون قبل أن يقدموا على أية خطوة عسكرية ينتظرون المسح الجوى الذى تأتى به طائرات الاستطلاع . .

وكان الطيارون يعتمدون على الطيران المنخفض لكى يروا بعيونهم أيضًا . . أما الآن فالأشعة تحت الحمراء التى لا تراها العين مهما كانت قوية هى التى تلتقطها الأقمار فى دورانها العالى والسريع حول الأرض . .

وقد رأيت فيلمًا أخرجته هيئة الأذاعة البريطانية عن الذى تراه عيون الإنسان والثعابين والصقور والحيتان والحشرات والعنكبوت والأخطبوط . . الفيلم أعجوبة علمية . فعيون هذه الحيوانات ترى دقائق لا يتصورها العقل . . ثم تجمعها من عيون مختلفة وتركبها فى المخ . . ألوانها ودرجاتها ومسافاتها وحرارتها ورائحتها وهو ما لم يبلغه الإنسان حتى الآن . . ولكنه فى الطريق إلى ذلك !

وهذه الأقمار تدور حول الأرض لتسجل التغيرات التى تطرأ على الأرض . . إن كانت قد تغيرت المساحات المزروعة . . أو انقضت عليها الفيضانات أو أن الصحراء قد زحفت على الوادى . . وتصور ظهور الآفات الزراعية وقبل أن تراها عين الإنسان . . وتصور بشائر المحاصيل الزراعية وتقدم المعلومات الدقيقة عن مساحتها وتوقعاتها للمحصول الجديد وكل ذلك فى خدمة التخطيط والفلاح والتاجر . .

أما إن بعض الأقمار الصناعية التى تصور لنا ما تحت الأرض فلم يعرفها الإنسان بعد . . وإن كان المكوك الفضائى يستخدم الرادار الذى يرتد إلى الأرض ويخترق سطحها إلى متر أو مترين . . هذا كل ما وصلنا إليه . . أما الكلام عن الصور الفضائية التى تبين لنا ما تحت الأرض فليس تعبيرًا دقيقًا . وكل ما هناك أن الصور الفضائية تبين لنا حالة السطح الذى

نستنتج منه أن هناك صخورًا معدنية أو تجمعات للمياه تحت الوديان . . أى تصور لنا مظاهر السطح التى تدل على أن هناك شيئًا ما تحته : ماء . . أو معادن . .

ولم يحدث أن استخدم الإنسان كل قدرات التجسس من الجو ، كما حدث فى حرب الخليج . . فقد استخدمت أمريكا كل قدراتها التكنولوجية الفريدة فى رصد كل شىء يتحرك على سطح العراق . .

فمن المعروف أن سفن التجسس كانت ترصد كل صاروخ يخرج من العراق وتنقله إلى قاعدة لها فى جزر هاواى وتنقله إلى قاعدة لها فى واشنطن . . وفى ثانية أو اثنتين يصدر الأمر بالضرب فتعود الرسالة إلى السعودية فى ثانية واحدة . . وينطلق صاروخ أمريكى مضاد . . وهكذا فإن عملية رصد الصاروخ حجمًا وسرعة تستغرق ثانية واحدة وإرساله هذه المعلومات فى ثانية وصدور قرار الضرب فى ثانية . ولكن الأقمار الجديدة تتولى الرصد والقرار ، وبذلك توفر ثانية تضيع بين السعودية وهاواى وواشنطن !!

وقد استخدمت أمريكا أقمار التجسس ببراعة ودقة قبل الانقلاب ضد جورباتشوف . . فقد نقلت كل المكالمات التليفونية بين جورباتشوف والذين حوله والذين ضده . . وهذه المكالمات تلقتها السفارتان الأمريكية والبريطانية . . وعرف الرئيس بوش بأخبار الانقلاب قبل أن يعرفها جورباتشوف . ونقلوا إليه كل ذلك قبل أن يتحرك مساعدوه ومؤيدوه !

وإسرائيل قد أطلقت سلسلة من أقمار التجسس هى : أفق ١ ، وأفق ٢ ، وأفق ٣ . . وهذه الأقمار لا تدور حول الأرض ، وإنما اتخذت لها مكانا ثابتا فوق الشرق الأوسط . والقمر لكى يثبت فى مكان حول الأرض لابد أن تكون له سرعة الكرة الأرضية نفسها . .

والقمر العربى « عربسات » استقر على ارتفاع ٣٦ ألف كيلو متر من سطح الأرض وهو ثابت فوق خط الاستواء ليكون قادرًا على البث جنوبا وشمالا . . وعربسات ليس إلا مرآة عاكسة لما يتلقى من موجات أرضية . .

وأخيرًا اتفق العرب على أن تكون هذه العملية التى تقوم بها الأقمار الصناعية اسمها «الاستشعار من البعد » . .

أما وزراء البحث العلمى العربى الذين اجتمعوا فى الرباط سنة ١٩٧٦ فقد اختلفوا اختلافا لغويا هائلا . .

العراقيون اختاروا تعبير : الجس النائى . .

والسوريون اختاروا : التحسس من البعد . .

والتونسيون اختاروا : المركز الجهوى لتلقى المعلومات من الفضاء . .

ولا أظنهم جادين الذين أطلقوا على الاستشعار من البعد : البصبرة من البعد !

إلى مجهول يبعد ألوف السنين الضوئية!

يوم هبط الإنسان على سطح القمر قلنا أيامها : هانت . . لقد اقتربنا ! ولم نتنبه إلى أن هذه العبارة مضحكة . فما الذى هان ؟ . . ومن أى شىء اقتربنا ؟! فالقمر يبعد عن الأرض ربع مليون كيلو متر . . وهذا القمر ليس إلا تابعا للأرض التى هى كوكب يدور حول نجمة هى الشمس . . وهذه الشمس ليست إلا واحدة من ألف ألف مليون نجمة فى مجموعة غازية اسمها « المجرة » هذه « المجرة » تبعد عن الأرض مليونى سنة ضوئية . . أى تبعد عن الأرض واحدًا وأمامه ٢٦ صفرا من الكيلو مترات . وتتحرك بسرعة مليونى كيلو متر فى الساعة . . وفى الكون ألف مليون مجرة .

وكانت فرحتنا مثل فرحة طفل قطع أول خطوة صغيرة فى طريقه إلى القطب الشمالى !

أو فرحة البطل الزنجى لأوبرا « بورجى ويس » هذا البطل مقطوع الساقين تجره ماعز . يسأل أين ذهبت حبيبته ؟ فقالوا له : إلى نيويورك . وسأل : أين نيويورك ؟ فأشار الناس مشفقين عليه ، إنها فى الشرق . . وأسعده أن يعرف الاتجاه وجلس على العربة التى تجرها الماعز متجها إلى حيث حبيبته ـ وهو لا يعرف أنها تبعد عنه سبعة آلاف كيلو متر ! .

وانتقلنا بسفن الفضاء من القمر إلى الزهرة والمريخ . وفكر العلماء فى اختصار نفقات الرحلة . فقرروا بناء محطة مدارية تتوقف عندها السفن لتتزود بالوقود قبل انطلاقها إلى المريخ مثلا . . وقد التقطت صور كثيرة للمريخ . . ولم نعرف هل كان المريخ عامرًا بالحياة النباتية والحيوانية والعاقلة تمامًا كالأرض . ولكن شيئًا ما حدث من ألف مليون سنة أدى إلى اختفاء الحياة تمامًا . فبقيت الأنهار الجافة والعناصر الحيوية دليلا على هذه الحياة . إن سفن الفضاء الأمريكية ، بعد تحليلها لتربة المريخ اكتشفت أنه لم تكن به حياة !!

ولكن التكاليف فادحة . ولذلك رأى العلماء أن يتعاون الروس والأمريكان . ويكون هذا التعاون فى الفضاء نموذجا لعصور من التعايش السلمى على الأرض ، وبدلا من حشد

الرءوس النووية ـ ٤٠ ألفا عند الدولتين ـ حول الأرض تحفزًا لأية حرب جديدة فإن السلام فوق سوف يؤدى إلى السلام تحت . .

ولكن ارتفاع الإنسان فى الفضاء لا يدل على أن أخلاقيات الإنسان قد ارتفعت أيضًا . فكما هى العادة فى تطور الأدوات : تبدأ السفن للقتال ، ثم بعد ذلك تكون أدوات للحياة كالطائرات والرادار . وكل الأجهزة الألكترونية اخترعها الإنسان لتساعده على قهر خصمه ثم سيطرته على العالم ، وبعد ذلك تحولت لخدمة الحياة . . وكذلك الطاقة الذرية استخدمها الأمريكان فى إنهاء الحرب مع اليابان . . وبعد ذلك أصبحت الطاقة الذرية فى خدمة الزراعة والصناعة والطب . . ثم ارتفعت إلى الدوران حول الأرض دفاعًا عن مكاسب الرحلات الفضائية . فكانت سفن الفضاء استئنافا للحرب ، ولكن على مستوى أعلى ! .

والتاريخ هو الصراع بين التعلم والكارثة ـ أى إن تاريخ الإنسان هو أن يتعلم الإنسان كيف يتوقع المصائب وكيف يقاوم وقوعها ، ثم كيف يعالج نتائجها بعد أن تقع . وهذا ينطبق على مغامرات الفضاء ، ورحلات الإنسان إلى الكواكب الأخرى القريبة لنا فى مجموعتنا الشمسية . وعندما يصل إليها سوف يجعلها نقطا للوثوب إلى أجرام أبعد . .

* * *

عجيب أمر الإنسان هذا . . فعلى الرغم من التقدم العلمى الهائل ، فإن الإنسان نفسه لم يتطور . . الإنسان الذى كان يستخدم السكين المصنوع من الحجر ليذبح ويقتل ، هو نفسه الذى يستخدم أشعة الليزر ليذبح ويقتل أيضًا . . وكما كان يذبح أخاه الإنسان ، فهو لا يزال يفعل ذلك أيضًا .

وعندما اكتشف كولومبوس أمريكا وهبط إليها . . تحول إلى وحش كاسر . . ينهب المعادن ويخطف الهنود الحمر ويقتل ويعذب . . حتى ثاروا عليه ، وثار عليه مواطنوه الأسبان أيضًا . إنه هو الذى انتقل من عالم قديم إلى عالم جديد ، لم يغيره المحيط الذى عبره ، لم يغيره الانتصار الذى حققه . .

وكذلك الرحالة البرتغالى فاسكو داجاما عندما هبط إلى الهند ، طغى وبغى وأراق الدماء وأحرق وخرب . . وكاد يقتله البرتغاليون أيضًا . . إنه ارتد وانعكس وحشا كاسرًا .

وكذلك الرحالة الإنجليزى جيمس كوك ، لقد عبده سكان جزر هاواى ورأوا فيه إلها طويلا عريضا جاء على جزيرة عائمة ـ سفينة ـ كما قالت الأساطير . . ولكنه قتل وذبح وعذب وأذل ، فكان ذلك فوق احتمال الناس البدائيين . فأطلقوا عليه سهما أرداه ونزف دمه . . ولم يكن أحد منهم يتصور أن الإله الأشقر من الممكن أن ينزف أو يموت فانقضوا عليه فقتلوه وكفروا به أيضًا .

وعندما استعمر الأوربيون أفريقيا وآسيا وهم أبناء الحرية والكرامة الإنسانية والمساواة والعدل انقلبوا وحوشا لا رحمة فيها ولا إنسانية عندها . وإنما فضحوا أنفسهم فكانوا كذابين مخادعين منافقين . .

إذن فالإنسان المتحضر عندما انتقل إلى مجالات جديدة لم يتغير ، وإنما بقى كما هو وأسوأ . والإنسان الحديث الذى يتنافس فى وضع أعلامه على الكواكب دليلا على أنه أول من وصل إليها ثم ضمها إلى الأمبراطورية الأمريكية أو الروسية ، فقد اتخذ نفس أساليب الاستعمار فى القرنين التاسع عشر والعشرين على الأرض وفى القارات الخمس . . وكان أسلوبه : السباق المسلح من أجل ضم مساحة من الأرض بما عليها ومن عليها وما فى أعماقها بأى شكل وبأى أسلوب .

ولا تزال العبارة التى قالها أول رائد للفضاء الأمباشى جاجارين السوفيتى ، دليلا على سذاجة هذا الإنسان وعلى غروره . . وغرورنا أيضًا . فهو قد ارتفع بسفينته مئات الكيلو مترات حول الأرض ثم عاد ليقول : ولكنى لم أجد الله .

يريد أن يقول : إنه لا إله لهذا الكون ، ولو كان لوجده هناك . أى كون هذا الذى يتحدث عنه هذا الجندى الساذج ؟ . إنه مثل نملة صعدت أحد أحجا ر الهرم ثم هبطت لتقول . ولكنى لم أجد الملك خوفو . .

فنحن مثله تماما فرحون بما حققه العلماء ، ولكن لا يزال الكون واسعا شاسعا عميقا مجهولا تماما ، وكل ما لدينا من معلومات هى قشور ورموز . . إنها معلومات مثل أصداف صغيرة على شاطئ المحيط . .

إن الذى عرفناه من أسرار هذا الكون بالقياس إلى الذى لا نعرفه مثل طابع بريد ألصقناه على أحد أحجار الهرم الأكبر . . وطابع البريد هذا يساوى مساحة الذى نعلمه ونحن نجهل بقية الهرم .

ورائد الفضاء الأمريكى أرمسترونج الذى هبط على القمر ، لا يختلف كثيرًا عن جاجارين، فقد لف حول عنقه إيشاربا هدية من زوجته ، حتى ينجو من الموت ، هذا الإيشارب لفته حول عنقها وتنقلت به بين الكنائس حتى صار مباركا .

منتهى السذاجة . . فالرائد الأمريكى يعمل على سلامته ألوف العلماء فى محطة إطلاق سفن الفضاء وتراقبه عشرات الألوف من العيون الالكترونية . . إنهم يرون قطرة العرق على وجهه . . إنهم يسجلون تفكك رباط حذائه . . يرصدون دقات قلبه . . يحسبون كمية استهلاك الأوكسجين .

لقد أنفقت أمريكا ألوف ملايين الدولارات من أجل أن يهبط إنسان على القمر . .

إن تراب حذاء هذا الرائد أغلى من مجوهرات الأرض . . ثم يتصور مؤمنا أن الإيشارب طوق النجاة إذا ارتبكت الأجهزة أو تطوحت السفينة فى الفضاء الخارجى أو تهشمت ، القمر أو على الأرض . ومعنى ذلك أنه فى سفينة الفضاء يوجد أول ما عرف الإنسان علوم . السحر والشعوذة والخرافات . . وآخر ما وصل إليه من علوم الفضاء والأليكترون .

وفى ٢ مارس سنة ١٩٧٢ أطلق الأمريكان سفينة الفضاء « بيونير ١٠ » ولم يكن هدف . . وإنما أطلقوها إلى ما وراء الشمس . . لعلها تقع فى أيدى كائنات أخرى أء منا . . لعلهم يعرفون أننا هنا على هذه الأرض . . وأننا هكذا متطورون ، وأننا نريد نعرفهم ، أو أنهم يعرفوننا . . فقد سجل العلماء من عشرين عاما موجات عالية التردد الفضاء الخارجى . . هذه الموجات اسمها الكازار والبلسار . . ورأى العلماء أن هذه الموج هى مواصلات لاسلكية عاقلة من كائنات أو حضارات تبعد عنا ألوف السنين الضوئ فليس معقولا أن نكون نحن سكان الأرض القلة العاقلة الوحيدة فى الكون . عمر هذا الك ١٥ أيونا ـ الأيون ألف مليون سنة ! .

وأهم ما فى « بيونير ١٠ » لوحة رسمها العالم الفلكى كارل ساجان وزوجته وعلى ، اللوحة رسم رجل وامرأة ـ أى ذكر وأنثى . . وموقع الأرض من المجموعة الشمسية ، والغر من هذه اللوحة أنها إذا وقعت فى أيدى المجهول أن يعرف أننا كائنات عاقلة ، من يد لعلهم يساعدوننا فنختصر العقبات التى تواجهنا على الأرض . . والتى نجدها فى أنفسنا فنحن نعرف كل حجرة الآن على سطح القمر والزهرة والمريخ ، ولكننا لا نعرف فيروس الز الذى يجدد نفسه ويغير جسمه كما يريد . . ولذلك فنحن لا نعرفه حتى نقضى عليه ، يختلف فيروس الزكام عن فيروس الإيدز ـ فكلاهما مجهول .

ومن يدرى ربما ساعدونا على اكتشاف مصادر الطاقة والحياة على أرضنا . . أو ساعا فى حل ألغاز الأشعة الكونية ! .

وإن كانت هناك نظرية تقول : إن كوكب الأرض ليس إلا حظيرة لتربية السلالات الحيو العاقلة . . وإن كائنات أعقل قد ألقت بنا على الأرض ، وإنما حاولت القضاء علينا أكثر مرة بالطوفان والزلازل ، وزحف الجليد مرة ، وأشعة الشمس مرة أخرى ـ ثم يئست مذ احتقرت شأننا فتركتنا . تماما كما نترك نحن النمل الأبيض يتكاثر فى بيوت مهجورة .

وإن الأطباق الطائرة التى نشاهدها فى جو الأرض من حين إلى حين ليست إلا كامير ضخمة جاءت تصور ما حدث على الأرض لتعود بها إلى أصحاب هذه الحيرة العـ المتوحشة .

فالسفينة « بيونير ١٠ » ليست إلا رسالة بعثنا بها إلى مجهول يبعد ألوف أو ملايين السنين الضوئية . فهل تستطيع هذه الرسالة أن تصل إلى الهدف عبر ملايين ملايين الكيلو مترات دون أن تحترق أو تتآكل أو يصطدم بها نيزك . . الأمل عظيم أن تصل سالمة . . إلى أين ؟ . . نحن لا نعرف .

وكان أجدادنا من البحارة عندما تصيبهم كارثة يكتبون رسالة ويضعونها فى زجاجة فارغة ويسدونها ويلقونها فى البحر . لعل أحدًا يلتقطها فيخف لمساعدتهم . . وفى كثير من الأحيان كان الموج يلعب بالزجاجة مئات السنين فإذا التقطها أحد ، كان بعد وقوع الكارثة . . فكأن الرسالة صرخة مدفونة فى قبر من الزجاج . . تماما كصرختنا التى أطلقناها إلى الفضاء الخارجى بسرعة ٢٧ ألف ميل فى الساعة . . لعل وعسى .

وكل ما جاء فى اللوحة التى اتجهت إلى ما وراء المجموعة الشمسية صحيح إلا أننا نسينا شيئًا هاما وهو ما نحتاج إلى أن يساعدنا أحد فى القضاء عليه . . إن الأنبياء والكتب السماوية وغير السماوية لم تسجل نجاحا مؤكدا . . ففى اللوحة رجل وامرأة ، هذه حقيقة ، ولكن أهم من هذه اللوحة أن هذه المرأة تلد صغارًا تقتلهم عندما يكبرون على الأرض . أو غدا على الكواكب الأخرى ، فما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما والشيطان هو الإنسان !

وكل التطورات العلمية ليست إلا أسماء جديدة للحقد الذى يؤدى إلى الحرب التى هى أعظم وسائل الموت على الأرض . وعلى أى كوكب آخر .

من هنا كانت البداية !

الفيلسوف الألمانى اشبنجلر هو الذى توقع أن المستقبل للشعوب الصفراء : الصين واليابان . وأن هذا العفريت الأصفر إذا نام وقام ، فالويل للشعوب الأخرى !

ومن المؤكد أن الشعوب الصفراء قد قامت وتقدمت الشعوب الغربية . ولا تزال تعمل على تهديدها وإزالتها من الأسواق العالمية . . اليابان مثلا ، ثم النمور الأربعة : كوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وتايوان . . وكوريا تتقدمها فى نهضتها الصناعية الكبرى ، وتايوان تتقدمها فى الثراء والاعتماد على الصناعات الصغيرة . وهونج كونج تتقدمها فى متوسط دخل الفرد إذ يصل إلى ثمانية آلاف دولار سنويًا . .

ولكى نعرف مدى السرعة فى التقدم والنهضة والقدرة على التطوير ، لابد أن نأخذ فترة زمنية محدودة ونضع فيها كل الشعوب ونرى أيها الذى تقدم أسرع وأعمق . والتقدم أساسه . تغيير وسائل العمل والحياة ورفاهية الفرد . .

فيقال مثلا إن النهضة فى مصر بدأت بالحملة الفرنسية ، عندما جاء نابليون بالمطبعة والقوانين . ويقال أيام محمد على . . ويقال مع فتح قناة السويس . . ومعنى ذلك أن بداية التغيير والاستمرار فى ذلك بدأت بحادث أو بشخص . ومن الممكن بعد ذلك أن تمضى مصر فى تقدمها ، طالعة نازلة . . أو طالعة أحيانا ونازلة أحيانا . . ولكن يزداد حظها من التحرر . التحرر من الفقر والمرض والظلم والجهل . فالتاريخ هو مسرح الحريتين الفردية والجماعية . .

ويقال ـ مثلاً ـ إن حضارة الإنسان بدأت عندما اخترع النار . . فالنار هى التى أضاءت له الليل ـ أى أطالت ساعات النهار . . وهى التى أنضجت له الطعام ، وهى التى قامت بحمايته من البرد . . والنار هى مصدر الطاقة التى أطلقت القطارات والمصانع والسفن . . وفى أساطير الإغريق أن الآلهة عندما ضاقت بالإنسان أخفت عنه سر القوة . . ولكن «بروميثيوس » هو الذى سرق النار من الشمس وأعطاها للإنسان ، فاستحق بروميثيوس أقسى وأقصى درجات العذاب ! .

ويقول الأديب الفرنسى مالرو : إن الفراعنة قد اكتشفوا الخلود عندما اكتشفوا الحجارة !

أى إنهم عندما اكتشفوا أنه يمكن الكتابة والرسم على الحجر . فالحجر هو الصفحات والكتب التى عاشت ألوف السنين بعدهم . أى إن الكتابة هى بداية العمر الطويل للفكر والدين والفن . . ولذلك كانت « المطبعة » هى نقطة تحول هامة فى حضارتى الشرق والغرب . .

مثلا : دولة اليابان هى أقوى وأخطر وأكثر الدول الصفراء تطورًا واندفاعًا علميا إلى الأمام. هذه الدولة نموذج لمعرفة كيف تتطور الشعوب . وكيف يستمر تطورها وتزداد خطورتها . متى بدأت ؟ وكيف ؟ ولماذا ما تزال البداية متواصلة الحلقات ؟ . . ولماذا حلقاتها صاعدة فى كل مجالات الإبداع الإنسانى ؟

المؤرخون يقولون إن الشعب اليابانى مثل الشعب المصرى : كانت بدايته من ألوف السنين. والفرق الوحيد أن بداية المصريين مصرية . . ولكن بداية اليابان صينية . . ولكن كيف تقدمت اليابان على الصين ؟ . هناك ألوف الإجابات . وكلها مقنعة . . إلا قليلا . وقد صدر أخيرًا كتاب بعنوان « الرحلة اليابانية (١٨٥٢ ـ ١٨٥٤) لقائد الأسطول الأمريكى ماثيوبيرى يقول : إن البداية « بالضبط » كانت سنة ١٨٥٤ ، عندما وقف بقطع الأسطول الأمريكى على شاطئ اليابان . وجاء الناس يتفرجون على السفن الضخمة وعلى الناس الطوال البيض الشقر . . وبسرعة تسللت الزوارق اليابانية تبيع الأسماك والفواكه والأرز ، وابتساماتهم عريضة على وجوهم وظهورهم قد انحنت وانكسرت من الذوق والأدب . .

أما البداية الحقيقية فيراها القائد الأمريكى عندما نزل جنوده إلى الشاطئ وراحوا يمدون أسلاك التليفون والبرق . . ويدقون الأعواد الخشبية فى الأرض . . ثم يشدونها بعضها إلى بعض . وفى اليوم التالى وجد عددًا من الأطفال قد تسلق الأعمدة . وعندما دعاه الأمبراطور إلى العشاء لاحظ أن أحد الأمراء قد جلس على الأرض وراح ينصب أسلاك التليفون ويشدها بعضها إلى بعض . . ولم يكن يثبت الأعمدة فى الأرض وإنما فى أطباق الأرز . . ونهض القائد الأمريكى إلى الطعام وتركوا الأمير يلعب فى أطباق الأرز . . وجاءت مذكرات القائد الأمريكى تقول : إن هؤلاء اليابانيين « قرود » يتسلقون الأشجار وأعمدة التليفون ! .

غلط ! فالقائد الأمريكى لم يتنبه إلى أهم خصائص اليابانيين : إنهم يتعلمون بسرعة وإنهم يقلدون بسرعة . ويفكرون ويستوعبون . وبسرعة جدا يطورون هذا الذى تعلموه !

هذه هى البداية !

* * *

وبعدها بمائة سنة ألقى الأمريكان القنبلة الذرية على مدينتى هيروشيما ونجاساكى .

وبعدها بأسبوع واحد استسلمت اليابان بلا قيد ولا شرط . . وانتهت الحرب العالمية الثانية بموت خمسين مليونا ! .

وصفق العالم كله لأمريكا التى هزمت اليابان ومسحت بها الأرض ، وقتلت فى ساعة واحدة مليونا من البشر وجرحت مليونا وشوهت عشرة ملايين ، وجعلت أولادهم يتوارثون أمراضهم وعاهاتهم أيضًا . .

ولم نتنبه إلى أن الشعب اليابانى قد استسلم لأنه يريد أن يوفر شبابه لمعركة لا تنتهى ، وهى إحياء الشعب اليابانى من أجل البناء والدخول فى حرب اقتصادية ضد أمريكا وأوروبا . وأن يكون ميدان القتال هو أمريكا نفسها وأوربا ! .

ولم يتنبه العالم إلى الصفة الثانية من العقلية اليابانية وهى : أن كل الحروب ليست نهائية . إنها مواقع ، وليست معارك . . ولذلك إذا خسروا موقعة ، فهم لم يخسروا حربا . . فالحرب مستمرة ، ولكن بأسلحة أخرى فى المصانع والبورصة والمعامل والحقول ! .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية زار القادة الأمريكان والعلماء المصانع اليابانية . . وخرجوا ليقولوا : إن أحدا لا يستطيع ذلك . فالعامل اليابانى « آلة » . . ولا روح له . . ولا قيم . . ولا مبادئ . . لقد جعلوه عبدا ذليلاً يعمل ما يأمرونه به . . وإنه قد نسى الابتسام ، ونسى أيضًا أن يكون إنسانًا ! .

غلط أيضا . فاليابانى ليس كذلك . وإنما اليابانى قد ربط حياته ومستقبله بالشركة التى يعمل بها . فهى أسرته . وهى دينه . ومن أجلها يعيش ويموت . . والشركة قد ضمنت له كل شىء . . فلا خوف عليه فى أى وقت ، ولا خوف على أولاده من بعده . فالشركة هى البيت والمدرسة والمعبد والمستشفى والجنة فى الدنيا والآخرة . ولذلك فالعمل حياة . والحياة عبادة ! .

* * *

وقد رأيت نهضة كوريا الجنوبية : صناعات كبرى وصغرى . والعالم كله لا يزال مبهورا بالدورة الأولمبية : الجمال والنظام والكفاءة والضبط والربط . . وكوريا الجنوبية تستخدم نفس أساليب اليابان فى الارتباط والانضباط والتفانى فى العمل . ولا شىء يخيف اليابان إلا كوريا الجنوبية ، فهى أكثر شراسة فى المنافسة وأكثر استيعابا للتجربة اليابانية . .

ورأيت أخيرًا التجربة الصينية فى تايوان (٢٠ مليونا). إنها الدولة الوحيدة فى العالم التى تقوم نهضتها الضخمة وثراؤها الفاحش على الملكيات الصغيرة . كل أسرة لهامصنع . . ولذلك فيها ٧٠٠ ألف مصنع . . تعمل بكفاءة نادرة . . تنقل من أوروبا وأمريكا وتطور . .

بل الشركات الأوروبية الكبرى تقيم مصانعها ومعاملها فى جزيرة تايوان لأن الأيدى العاملة أرخص والضرائب والجمارك أقل . . وهؤلاء الذين يعملون لحساب هذه الشركات . . يعملون لحساب شركات أخرى منافسة . . وامتلأت الدنيا بمصنوعات مكتوب عليها عبارة : صنع فى تايوان . . كل شىء . . من الأبرة للصاروخ مرورا بالبدل والفساتين والعطور والأساور والأقراط والأحذية . . والأحجار الكريمة . . ومالا نهاية له من الأحجار الملونة والنحاس الذى انغرست فيه الأحجار أيضا ـ كلوازونيه . . فامتلأت الأرصفة والدكاكين والمحلات الكبرى والفنادق بكل السلع من كل لون وحجم وثمن . . وهذه الجزيرة الصغيرة لها أموال فى البنوك يتراكم بعضها فوق بعض ولا نعرف ما الذى ستفعله بها . . هذا العام بلغت فلوسها ثمانين ألف مليون دولار . . والناس لا يلتقطون أنفاسهم ، وإنما يعملون بجنون ، ولا يعرفون كيف يتوقفون ولا أحد يجرؤ على أن يقول لهم ذلك . وإنما مهمة الدولة تصريف الإنتاج وتشغيل الأموال . . أما الشعب ، فلن يتوقف ! .

ولابد أن نسألهم : لماذا ؟ لماذا أنتم وليس نحن ؟ ما الذى عندكم وليس عندنا ؟ إن بلدكم صغير جدا . وشعبكم أقل من نص شعبنا . . وليست عندكم موارد طبيعية . . وديننا أعظم . وتاريخنا أقدم . واستقرارنا أعمق . . ونحن أطول وأعرض ونأكل أكثر وننام أطول . . ثم نعمل ٢٧ دقيقة من كل يوم ـ هذه معلومات رسمية اعتذرت عنها الحكومة لأنها فضيحة . . ولكنها حقيقة ! .

فاختلف العلماء فى تفسير كل ذلك . .

أناس يقولون : إن ديننا يقول إن العمل حياة . قلت : إن ديننا يقول لنا : ان العمل دين . وسياستنا تقول : إن العمل شرف . .

وأناس يقولون : إن إيماننا بمذهب معلمنا الأعظم كونفوشيوس لا حد له . .

وكونفوشيوس هذا ليس نبيا . وإنما هو رجل حكيم عاش ومات من ٢٦ قرنا . ولم يعد أحدًا لا بالجنة ولا بالنار . وإنما فقط طلب من الناس أن تعمل . وأن تتقن . وأن تتفوق وأن يحب بعضها البعض . وإنه لا داعى لاستخدام العطور ما دام الإنسان يستحم ثلاث مرات يوميا ـ إنهم يصنعون العطور ولا يضعونها ـ المتفرنجون فقط ! .

ومن أهم مبادئ كونفوشيوس : أن المعلم الذى يطلب من الناس أن يتراخوا ، لا يصح أن يكون معلما ! .

ويقـول أيضا : يكون الإنسان عظيما إذا عمل قبـل أن يتكلم . وإذا تكـلم فعلـى قدر علمه !

وكونفوشيوس يقول : الجهل ليل طويل ، لا يسطع فيه قمر ولا تطلع له شمس !

إلى آخر الكلمات الحكيمة البسيطة . وعندنا فى القرآن وفى الأنجيل وفى دواوين الشعر ما هو أعم وأجمل وأروع . ولكن المهم هو مدى تمسكنا بمثل هذه العبارات البليغة . . إنهم أكثر تمسكا . وأشد تطبيقا لكل ذلك .

إذن فليس هو الدين العظيم ، ولا الكلمات البليغة العميقة ، ولكنه الإيمان التام بفكرة أو قاعدة أو مبدأ . وهم يتفوقون علينا بعمق الإيمان وثباتهم على ذلك .

وهذه هى البداية . . ففى مذهب كونفوشيوس : إن الفلاح والمعلم هما أعظم الناس . الفلاح يطعمنا والمعلم ينورنا .

فالمعلم هو الذى يلقن الفلاح أن يكون أكثر إخلاصا . وأكثر إنتاجا .

ومن كل كلمات كونفوشيوس آمنت الشعوب الصينية بهذه العبارة : مدرسة صغيرة يتعلم فيها الأطفال أحسن من جامعة فيها ألوف الطلبة لا يتعلمون . . ألف مدرسة صغيرة أفضل من ألف جامعة كبيرة ! .

ولذلك فكل أسرة لها مصنع . وكل مصنع هو مدرسة ومعمل ومعبد وسوق وحاضر ومستقبل .

ويروى عن كونفوشيوس أنه وجد طفلا يحاول أن يصيد سمكة بيده . فلم يفلح . فما كان من كونفوشيوس إلا أن صنع له سنارة صغيرة جدا . وعلمه كيف يضعها فى الماء . وتركه . فجاء تلامذة كونفوشيوس يقولون له : يامعلم . . إن هذه السنارة لا تصلح ـ فالأسماك هنا كبيرة . ثم إن الثعالب والذئاب تجىء وتسبق الطفل إلى التهامها ! .

وكان رد كونفوشيوس : لو أعطيته سنارة كبيرة ، فليس هذا تعليما . وليس هذا هو العلم . العلم هو أن أعطيه الأداة الصغيرة . . وأترك له أن يصنع الأداة الكبيرة . والعلم أن أضعه على أول الطريق . . لا كل الطريق . . العلم أن أنير شمعة فيعرف معنى النور القليل ليفكر فى النور الكثير ! .

هذه هى البداية . .

فقد بدأت نهضة اليابان والدول الصينية الصناعية بأن ذهبوا وتعلموا . . أو استوردوا المعلمين من كل الدول الأوروبية . . وحفظوا الدرس جيدا . ثم قاموا بتعليم مئات وألوف غيرهم . . ومن هذه الألوف تولدت شرارة النهضة والتطور . .

هذا هو الفرق بيننا وبينهم . وهذه غلطتنا . ونحن نريد كل شىء أن يكون فى ضخامة

الهرم وطول النيل واتساع الدلتا . . وأن تكون البداية مثل « مديرية التحرير » ومصانع «الحديد والصلب » . . وكانت محاولاتنا الكثيرة الفاشلة . . ولم نبدأ بالمزارع الصغيرة للشبان . وأن نساعد الشبان فى مزارعهم ومصانعهم ومعاملهم الصغيرة ، ماديا وأدبيا . وأن نتأنى وألا يتعجلوا ـ كذلك فعلت اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان . .

فقد آمنوا جميعًا بأن البداية الصغيرة الناجحة ، هى قاعدة الانطلاق إلى الخطوات الكبيرة الواسعة التى تدفعنا إلى الأمام والتى تشجعنا على قفزات أكبر وأعمق . .

ولكننا عكسنا كل شىء . .

فنحن ـ أولا ـ لا نحترم المعلم ، ولا صاحب التجربة . . ونستهين بالذى جاء يعلمنا من الخارج . ولذلك لا نتعلم ولا نستوعب . وإذا بدأنا فالبداية عملاقة ونحن أقزام تماما كالذى يتعلم قيادة الحنطور ثم نضعه أمام عجلة قيادة الطائرة ـ ولا تهم النتائج ! فنحن مستعجلون ! .

أما البداية الصحيحة فهى التى انتهينا إليها أخيرًا : المزارع الصغيرة . . المصانع الصغيرة . وهذه المشروعات الصغيرة يجب أن يكون دعمنا لها كبيرا . لأن هذه هى البداية السليمة ، وهذا الدعم هو الواجب القومى . كذلك فعلت ولا تزال تفعل كل الدول المتطورة جدا فى آسيا . . وليس من شأن الدولة أن تبيع اللحوم والأسماك والسندوتشات . انظروا ما الذى تفعله السيدة تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ، إنها تبيع كل ما تملكه الدولة للشعب ، لتتفرغ لوضع السياسة العامة لكل شىء .

وكذلك كل الدول التى « تتعملق » صناعيا واقتصاديا وماليا فى الدنيا كلها . .

ولا أعرف ، ولا أحد ، ما الذى سيفعله الشباب المصرى فى الأرض الجديدة ، إذا كان إحساسه أن الدولة قد ألقت به مع مظلة دعائية إعلامية ضخمة ثم تركته ينحت فى الصخر . . فقط ! كأنها تخلصت منه . . تخفيفًا لزحمة المرور والمقاهى والأندية فى القاهرة والإسكندرية ! .

أتمنى أن تكون النتيجة بعد سنة أو خمس سنوات ، كالتى عرفناها وانبهرنا بها فى الشعوب الآسيوية . . ولا أقول اليابان ، حتى لا أكون مبالغًا جدًا ، ولا أقول كوريا الجنوبية حتى لا أكون فشارًا جدًا ، وإنما أشير إلى تايوان لكى أكون لا معقولا !

قلبك بيوجعني : عليك وعلينا !

لو تسألنى : عن أى شىء أنت نادم ؟

أقول لك : لأننى لم ألعب بدرجة كافية !

فلا عرفت المشى ولا الجرى ، ولا مارست السباحة .

وكل الذى تعلمته هو أن أقلد التماثيل فأجلس صامتا لا أتحرك ، وأن أجلس صامتا أستمع لما يقوله الآخرون فى كتبهم . . وأن أقلد الأشجار آكل وأعيش وأتنفس لكى أموت واقفًا فى مكانى . كأننى الأنبياء الذين يدفنون حيث يموتون !

ولو سألتنى عن الناس الذين أكرهم كالعمى ، لقلت لك هؤلاء المدرسون الطيبون الذين تركونى أقرأ ومنعونى من اللعب . ظنا منهم أن اللعب لهو ، وليس رياضة وعلما وفنا ومشاركة جماعية وتضحية من أجل هدف عام . . وكنت كلما ارتديت ملابس اللعب ، تقدم المدرسون يقولون : لا أنت تلميذ جدع . . لا تضيع وقتك فى الكلام الفارغ . . اقرأ شيئًا ينفعك وأبعد عن زملائك اللى مش نافعين !

ضحكوا على . فكنت الأول فى جميع مراحل التعليم . وقالوا : إن السبب هو أنه لم يغلق كتابا ولم يضرب كرة بيده أو برجله أو برأسه ؟!

وأذكر أن الكاتب الروسى جوركى عندما سافر إلى أمريكا حاول الأمريكان أن يبهروه فأخذوه إلى الملاعب ورأى الناس تلعب بقوة وعنف والجماهير تصرخ والشباب جميل والبنات جميلات . . والكل يصرخ فى الملعب ، فى المدرجات . . وانتقلوا به إلى حمام السباحة إلى البلاج . والكل فى صحة وعافية وصراخ . سألوه وهم يتوقعون منه أن ينظم مارآه شعرا فقال . لابد أنكم شعب حزين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنكم تلعبون أكثر مما تعملون .

ـ ولكن هؤلاء يعملون بقية أيام الأسبوع .

ـ ولكن لا يصح أن تلعبوا يومًا واحدًا . . ساعة تكفى . . وبعد ذلك يجب أن يذهبوا إلى الحقول والمصانع . . لهذا نحن لا نحب الحياة الأمريكية !

غلطان ياأستاذ . فأنت لا تعرف معنى الحياة ولا الراحة ولا المتعة ولا الشباب والجمال . . وأهم من كل ذلك أنت صاحب العبارة التى تقول : إن الحرية شىء نادر ولذلك يجب أن نوزعها بالبطاقات !

هذا فى روسيا الشيوعية أيها الكاتب العظيم . أما فى بلاد الحرية فمن حق الذى يعمل أن يلعب ومن حق الذى يلعب أن يتفوق . . وأن ينام سعيدا بعد ذلك !

إن اليابانيين نادمون جدا . فهم يصنعون جميع لعب الأطفال ولا يستهلكونها . . وهم الذين شغلوا كل الأطفال بألعابهم السحرية الالكترونية . . أما هم فلا يلعبون لماذا ؟ لأن الطفل اليابانى قد انتقل من الطفولة إلى الرجولة المبكرة دون أن يمر بمرحلة الطفولة الطويلة والشباب . ولذلك فاليابانيون يستدركون الآن ما فاتهم فيلعبون وهم كبار .

ولذلك لا يعرفون كيف يلعبون . وقد أدرك علماء النفس والتربية أن مشاكل الرجل اليابانى الآن أنه لم يكن طفلا . ولذلك يعيدون إليه الطفولة واللعب الطويل . فمن غير اللعب لا طفولة ولا شباب ومن غير الشباب لا شىء إلا الشيخوخة المبكرة . . والشيخوخة سواء كانت مبكرة أو متأخرة فهى الشيخوخة . .

والمثل الآن يقول : قل لى متى لعبت وماذا لعبت أقل لك اسم المرض الذى سوف تصاب به فى الشيخوخة !

فنحن المفكرين الذين نشبه (الكاتب المصرى الجالس القرفصاء) ينصحنا الأطباء بأن نحرك أقدامنا وأيدينا وأصابعنا . . وهذا هواللعب الوحيد الممكن الآن . فقد تأخرنا كثيرًا . . وفاتنا أن نلعب فلم نلحق قطار الحياة والحيوية والشباب والجمال وندمنا على الذى لم نفعل والذى فعلنا . .

فإن كنت تلعب يهمنى جدا أن أشجعك . . وألا تلعب يهمنى جدا أن أفرش لك الطرق وردا إلى الملاعب ذهابا وإيابا ، فالملاعب هى مصنع الصحة والعافية وهى أم الديمقراطية حيث الفوارق تذوب . . وحيث لا مسافات بين المتفرجين . . وحيث العمل جماعى والفرجة جماعية ، والتعصب أبيض . . ويجب أن يظل أبيض . .

أذكر أن صديقا أمريكيا طلب منى أن أعلمه عبارة واحدة إذا قالها فإن الناس يضحكون له ويرحبون به فقلت له : الأهلى هديد . . الأهلى هديد .

وقابلته بعد ذلك بأسبوع وسألته : كيف كان صدى العبارة ؟

فقال : أحيانا يضحك الناس . . وأحيانًا يرفضون أن يساعدونى ويغضبون . . فما معنى هذه العبارة !

إن هؤلاء الناس قد جعلوا للتعصب لونا آخر غير اللون الأبيض ، فأفسدوا الرياضة وأضاعوا النكتة !

وأنا يهمنى مستقبل . . ولذلك يهمنى أن الشباب الذين هم حملة المشاعل من بعدنا . والذين سوف يصححون أخطاءنا ، ويقومون انحرافنا ، ويترفقون بعثراتنا . . وأهم من كل ذلك : سوف يبنون مصر . .

إن عقلك يشغل عقلى ، وقلبك يوجع قلبى . . وبدايتك آخرتى ، وحاضرك مستقبلى .

ومستقبلك هو مجد هذا البلد ! .

ما الذي يُقال عند منتصف الليل؟!

ما الذى تقوله للأطفال عند منتصف الليل ؟! لابد أن الكثيرين من أبناء الجزيرة العربية قد شاهدوا برنامج صدام حسين مع الأطفال العراقيين . والعالم كله لن ينسى لقاءه مع أطفال الرهائن الأوروبيين . . . ومع طفل واحد بالذات حاول أن يكون لطيفًا معه ولكن نظرة الطفل لصدام حسين هى التى نشرتها كل الصحف والشبكات أياما طويلة . . . فالطفل قد جمع فى نظرته : الخوف والكراهية والتحدى . . .

أما نظرة صدام ففيها القسوة والوحشية والكذب !

أما لقاؤه بأطفال العراق فكان من نوع خاص . . إنه جلس إلى مستقبل العراق يحدثهم عن ماضيه القريب وحاضره . . . ويسأل ويرد هو معظم الأحيان ، والأطفال يردون أحيانًا سؤال، هو الذى يسأل : من الذى ضرب العراق ودمرها على رؤوس أطفالها . . . على رؤوسكم ورؤوس إخوتكم الصغار وأمهاتكم وآبائكم ومدارسكم وهدم مصانع الحليب وحطم الجسور ؟ ويرد الأطفال : بوش . . .

ويعود يشتم جميع الدول العربية واحدة واحدة . . . ويتهمها جميعا بأنهم عملاء الأمريكان لأنهم استعانوا بقوى الدنيا لوقف المذابح والانتهاكات الوحشية لأبرياء الكويت . . .

ويقول لهم صدام : المصريون مثلا . . . والسعوديون . . . جميعا مع بغداد . . . الشارع العربى كله مع العراق . . . ولكن حكام هذه الدول هم الذين أرغموا الشعوب على كراهية العراق وعلى استدعاء ٣٣ دولة لتحطيم القوة العسكرية العراقية . . حتى لا يكون عراق . . . وحتى لا يكون لكم مستقبل !

هؤلاء الأطفال لا يعرفون أن العراق بفضل الله من أغنى دول العالم ، أغنى دول العرب ففيها البترول وفيها الأنهار وفيها الشعب وفيها الأرض الخصبة . . . كل ذلك لم يقتنع به صدام

حسين . . . وإنما جشعه وطمعه جعلاه ينسى ما فى يده وينظر إلى ما فى يد الآخرين . . . ولذلك قرر أن يبتز بترول الكويت وينهب بترول السعودية . . .

وقال للأطفال : هل تعرفون مصر ؟ طبعا تعرفونها . . . بلد الحضارة والأهرامات وسوف ترونها قريبا إن شاء الله عندما نستعيد قوتنا وجيشنا ونكمل بناء مصانعنا الحربية . . !!

يقصد أنهم سوف يدخلون مصر غزاة ومنتصرين على الجيش المصرى ؟ . تصور !!!

أما مصر . يقول صدام حسين . فالشارع المصرى كله مع بغداد . . . كله . . ولكن الرئيس حسنى مبارك ضد بغداد ومع واشنطون . . . وكذلك الحكومة والجيش المصرى لأنه موظف لدى الحكومة يأتمر بأمر حسنى مبارك . . . ولو ترك الجيش المصرى لضميره فسوف ينضم إلى العراق فى تطهيرها لجزيرة العرب والأرض المقدسة من الكويتيين والسعوديين ؟!

هذا ما يقوله صدام حسين للأطفال عند منتصف الليل . . . أى إن الأطفال يجب أن يسهروا وألا يناموا وألا يذهبوا إلى مدارسهم قبل أن يسمعوا هذه الأكاذيب والأوهام . كأنّ صدام حسين لم يكفه ما فعله بآبائهم وأمهاتهم فاتجه إلى إفسادهم هم أيضًا . . .

هو طبعًا يتحدث إلى آباء وأمهات هؤلاء الأطفال ، وإلى الشعوب العربية ولحسن حظ صدام حسين وقتها أنه لم ير ولم يقرأ الاحتقار والاستنكار والشماتة فى وجوه الملايين الذين رأوه .

بداية النهاية
وعودة الغائبين

إذا كان للكويت ألفان من الأسرى والرهائن فى العراق . . فإن لأهل العراق ١٥ مليونا هم سكان العراق الذين لا يعرفون كيف يهربون . . لهم أيضا ألوف الأسرى فى السعودية يأكلون ويشربون ويندمون على مهل . . ويبوسون القدم ويبدون الندم على أنهم مشوا عميانا وراء صدام حسين . . . ويستحلفون كل سعودى وكويتى ألا يعيدوهم إلى بلادهم ، فالنار هى العراق وجهنم هى بغداد ، وعزرائيل هو صدام . . إذا كانت الحرب قد انتهت فى الكويت وإذا كانت النار والدخان المتصاعد من الآبار قد خمدتا وإذا كان الهواء أصبح نقيا ، وإذا كانت الأسماك فى الخليج قد استعادت صحتها ، وأعيدت فى شباب وعافية على الأطباق فى مطاعم الهوليداى . فإن البسمة لم تعد بعد إلى وجوه أهل الكويت . . ولكنهم يجدون فى محلاتهم السوبر ماركت كل ما يحتاجه أى إنسان . . . ولو كنت كويتيا لانحنيت على الأرض التقط ذرات التراب واضعها كحلا فى عينى سعيدًا بهذا البلد الذى وفر لى الطعام والشراب والمستقبل والأمان واحترام العالم لشجاعة أبنائه وإعجاب العالم برجال المال والبنوك والاقتصاد الكويتيين ، فهم على أعلى مستويات القدرة والاقتدار والبراعة والعالمية . ثم هذه النهضة الصحفية فى الكويت . . فقد عادت صحفها كما كانت . . . بل أضيفت لها صحف جديدة فى ظروف مستحيلة . .

وكان ذلك تحدّيا لليأس ، وانتصارًا للموت . . . وتأكيدا للروح الوطنية . . . إن بيوتا كويتية لا تستطيع أن تقيم حفلاً عائليًا ، حزنًا على أبنائها الأسرى حزنا على الغائبين . . إنهم أحياء فى العراق ، ولكنها حياة كالموت أمّا الشعب العراقى إلى جانب أنه يائس خائف فهو جائع والسبب هو صدام الذى تسلطن عليه عشرين عامًا بالحديد والنار وحبال السحل والشنق . مهما حاول أهل الكويت أن يبدوا سعداء بالحرية فإن فى أعماقهم حزنًا ويأسًا وقلقًا وخوفًا . . . صحيح أنه لا معنى للخوف الآن . . ولكن سوء الظن والشك وعدم الثقة بالصديق والشقيق هو الذى يحكم العلاقات الإنسانية فى الكويت .

ولا ينكر أهل الكويت كيف تجلت الأخوة العربية الصادقة فى السعودية
واحد عنده قصة عن المعاملة الكريمة التى لقوها فى السعودية وكيف أيقنوا أن
لهم . . . وأن السعوديين هم أهل النخوة والكرم . . وكيف أنهم فى مصر قد و
وأشقاء . . وأن الذى وجدوه فى مصر ومن مصر قد هوّن عليهم أهوال الغربة
وعندما التقى المسلمون من كل الدول الإسلامية فى الكويت تعالت أصواتهم تن
معاملة الأسرى . . وإن إعادتهم إلى أهليهم هى قمة الرحمة ومن أهم تعاليم الإ
يعودون . . وسوف يكتمل الشملان العائلى والوطنى . . لا محالة إنها مسألة وق
بدأت ، وكذلك العد التنازلى فى بغداد والليل الأسود قد انقشع ، فقد أضاء
والقنابل . . ولم يبق إلا طلوع الفجر . . وسوف يطلع على العائدين إلى زوج
وأمهاتهم . . وسوف تكون حكايات وذكريات . . وسوف يندمج الجميع فى
شكراً لله أن عادوا وأنهم أحياء فى بلد قد وفر ودبر لهم كل ضرورات الحياة الرضية

نسيت كأس العالم وذهبت إلى المسرح!

كنت كلما رأيت الكابتن محمد لطيف أقول له : أنا تلميذك . .

ولست مبالغا فى ذلك . فأنا لم أعرف مبادئ كرة القدم إلا من تعليقاته على المباريات . . وكان يسعده ذلك . . فيحدثنى عن آخر أخبار وأسرار كرة القدم . واعترف أننى لم أكن أفهم الكثير مما يقول . فهو تصور أننى تلميذ متفوق فى مدرسته . . ولذلك فهو قد كافأنى على ذلك بأن نقلنى إلى الجامعة دون أن أحصل على الإعدادية أوالثانوية العامة !

ولما قابلته فى يوليو ١٩٦٦ فى لندن أمام مبنى الإذاعة البريطانية راح يحدثنى عن كأس العالم وعن القنابل التى سوف تنفجر . . وإنه حزين على إصابة « بيليه » . . فقد كسره لاعب برتغالى متوحش . .

وأقسم بيليه بالله العظيم ثلاثا ألا يشترك فى كأس العالم . . وحدثنى عن حكايات لم أستطع فهمها أو متابعتها . . فهو يصر على أننى طالب فى الجامعة الكروية وأنا مصر أن أظل فى رياض الأطفال !

قال لى : عندى لك هدية .

قلت : شكرًا .

قال : ثلاث تذاكر فى المقصورة . . واليوم نهائى الكأس بين ألمانيا وانجلترا . . فرجة . . أهم حدث فى الدنيا هذا العام . . وإليك التذاكر . . أنت طبعًا عارف الطريق إلى الملعب سوف أكون فى انتظارك . . وإلى جوارنا فلان . . وأمامك فلان . . ووراءك فلان . . وسوف تكون على مسافة متر واحد من الملكة والأسرة المالكة . . أنا عندى اعتقاد أن ألمانيا سوف تغلب . . وإن كان الفريق الإنجليزى بمدربه الجديد قد استعد لهذا اليوم من ثلاث سنوات على الأقل !

وذكر عددًا من الأسماء وتعليقات الصحف . لا أعتقد أننى أستطيع الآن أن أستعيد منها

اسما واحدًا . . ولكن الكابتن لطيف كان حسن الظن بى جدًا . . وهو يرى اهتمامى بما يقول دليلاً على حبى وفهمى لكرة القدم . . ولو عرف الحقيقة لأحزنه ذلك كثيرًا . . فأنا أحسن الاستماع . . ولكن استماعى إليه لا يدل على أننى أتابع ما يقول . . ولا أننى أفهم ما يقول . . ولكنى سرحان جدا ومشغول بأشياء أخرى فى دماغى لا تقل أهمية عن الذى يقول !

وسكت كابتن لطيف ثم قال : أقول لك . . تيجى معايا تسلم على الإخوان هنا . . أخذوا شقة قريبة جدًا . . ما رأيك ؟

ولم يكن لى رأى . فأنا أريد أن أستمع إلى حكايات الكابتن لطيف . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أعرف أننا ذاهبان إلى شقة فيها شبان مصريون . . فالرائحة صارخة أمام الباب . . وعلى الباب وعلى السلم . . إنها خليط من التقلية والملوخية والفسيخ والملوحة والمش . . وأحيانا تهب رائحة الفنيك . . وأحيانًا رائحة يسمونها فى الريف « العتر » وهى خليط من النعناع والشيح البابونى . . ولابد أن تضع يدك على معدتك حتى لا تقفز إلى فمك . . ثم من فمك . . أعوذ بالله . . وانفتح باب الشقة . . لا . . لم ينفتح . . بل كان مفتوحًا . . ودفعناه ودخلنا . . كأننا دخلنا « حوش » فى مقابر الإمام الشافعى . . وأحسست أن أنصاف العراة الذين رأيتهم ليسوا إلا مجموعة من الحانوتية ضبطتهم الشرطة وهم يستخرجون جثث الموتى ليبيعوها لطلبة كلية الطب . . صحيح لم نر أحدًا من الموتى . . ولكن الروائح تدل على أن الجثث كانت هناك . . ثم تخلصوا منها !

وقدم لى الكابتن لطيف المواطنين أنصاف وأرباع العراة : كابتن حسن . . كابتن شوقى . . كابتن بيومى . . أكبر المشجعين بسطويسى . . أمال فين فهمى عمر . .

قالوا : ذهب يشترى كبده !

وهذه أول كذبة !! فالكبدة لا تباع هنا فى لندن . . فلا أحد يأكل الكبدة فى أوروبا كلها . . لأن الكبدة عبارة عن (مصفاة) الجسم وفيها كل السموم . . ولذلك يرمونها للكلاب . . وأحيانًا يشفقون على الكلاب . .

ولذلك فأى إنسان يستطيع أن يذهب إلى المذابح ويحمل مئات الكيلوجرامات وله الشكر وسألت : من الذى يطهو الكبده ؟

فأشاروا إلى الحاج عبده أستاذ الكبده والكوارع ولحم الرأس والعكاوى . . وكلها موجودة . . وفى طريقى إلى دورة المياه وجدت أشكالاً سريالية من اللحم والعظم وسيقان الملوخية . . وبقايا الصلصة . . وليست هذه صفيحة زبالة . . وإنما هى صفيحة ملوحة أتوا بها من الصعيد . . وهذا الذى وضعوه فى بنطلون إحدى البيجامات هو خبز رقاق . . وخبز

بتاو . . وكشك اشتروه من بقال يونانى . . وهذه العلبة ليس بها ورنيش أحمر . . وإنما هو شطة ليبية يسمونها « الهريسة » أى التى هرست فى الزيت حتى صارت عجينة !

ووراء الباب حقنة شرجية معلقة مع فوطة باهتة الألوان . . ياخبر أسود . . وهذه أمواس حلاقة على الأرض . . وهذا موس وحزام من الجلد لكى يشحذوا عليه الموس . . إذن لقد أتوا بحلاق القرية . . والحنفية مفتوحة . . والسيفون له صوت . . والدش يشر . . فهم الذين أفسدوا هذه الأدوات بسرعة غريبة . . وفوجئت بأن الباب قد انفتح . . فالحمام ليس له ترباس ولا مفتاح !!

ولم أجد مقعدًا واحدًا . . فالمقاعد قد أدخلوها المطبخ ليضعوا فوقها الحلل . . ولم ألاحظ وجود سرير . . فهم ينامون على الأرض . .

وإذا كانت الروائح زاعقة . فهى كالأصوات . . فالجميع يتكلمون فى وقت واحد ويصرخون وتنطلق منهم أسماء غريبة انجليزية والمانية ومن البرازيل ومن الأرجنتين . . وهم جميعًا سوف يتناولون غذاءهم مع الشاى اللى هو . . والقهوة اللى هى . . ويحبسون بالشطة والليمون مع واحد كوكا . .

والخروج من هذه الشقة إلى الشارع هو الانتقال من القبر إلى غرفة الإنعاش . . من تحت الأرض إلى وجه الدنيا ! .

فهل الرائحة موجودة حتى آخر الشارع أو إن الرائحة قد اعتصمت بالأنف والملابس فلن تتركها إلا فى القاهرة . . ولذلك كان لابد أن أعود إلى البيت لآخذ دشا وأغير ملابسى . . أو ألقى عليها زجاجة كولونيا . . بعد الاعتذار لسائق التاكسى وعامل الأسانسير اللذين رأيتهما يهرشان فى أنفيهما . . وأنا أعرف السبب حتى اضطررت عندما تضايق الناس أن أتبرع لهما بالقول بأننى طبيب عائد لتوه من إحدى العمليات . قالت لى سيدة : طبيب بيطرى طبعًا !

ـ نعم . . كنت أعالج كلاب وخيول جلالة الملكة !

فبرقت العيون احترامًا لكلاب وخيول الملكة وعفوا عن رائحتى مهما كانت كريهة ! أوع تنسى ـ قالها الكابتن لطيف !

وذهبت إلى المسرح . .

وكانت مسرحية « الشعر » إحدى المسرحيات الحديثة . . الممثلون عراة ملط . . منظر قبيح . . منفر . . وتمنيت لو أننى ذهبت إلى مشاهدة كرة القدم . . وتضايقت من رائحة العرق . . ومن الكلام الذى يسد نفسك أكثر من رائحة العرق . . وفى أنفى رائحة الملوخية

كأنها عطر الشانيل والأربيج إذا ما قورنت بالألفاظ العريانة والممثلين الأكثر عريا . . ولكن من الضرورى أن أقف على الاتجاهات الحديثة فى المسرح !

وما زالت عبارة الكاتب السويسرى ديرنيات فى أذنى ؟ المسرحية التى لا تعرض فى مسارح بريطانيا ، فكأنها لم تولد !

فلندن هى أم المسرح . . وملعب المواهب ، وكعبة العبقريات الأدبية .

وقال كابتن لطيف : صديقك على قنديل هنا أنت عارف أنه حكم دولى وعنده حكايات لذيذة . . سوف نلتقى غدا ونسمعها منه !

ولابد أن الكابتن لطيف قد تضايق لأننى لم أذهب . . فكأس العالم هى أهم حدث فى الدنيا ـ هذا رأيه ؟!

فلا أحد يتحدث عن ديجول الذى اختير للمرة الثانية رئيسًا لفرنسا . . وعبد الرحمن عارف الذى اختير رئيسًا للعراق .

وأنديرا غاندى التى اختيرت رئيسة لوزراء الهند . .

ولا المعركة بين إسرائيل والأردن بالقرب من الخليل . . .

ولا أحد يتحدث عن الأديبة فرانسواز ساجان التى أصدرت كتابا جديدًا بعنوان . الحصان أغمى عليه !

ولا عن مسرحية « زهرة الصبار » تأليف أبى بروز .

ولا أحد يتكلم عن الإنجاز العالمى لشركات ألمانيا (هوخ ـ تيف) التى نقلت آثار أبى سمبل من تحت إلى فوق حتى لا تغرقها بحيرة السد العالى . .

ومن الذى يهمه أن يعرف أن المايسترو الروسى شاستاكوفيتسش قد عزف السمفونية الأولى لوالده فى موسكو . . ولا أن حفيد الموسيقار الألمانى فاخنر قد مات . .

ولا أن الطبيب العالمى ديبكى قد أجرى عمليات فى القلب وأنه أدخل فى القلب صمامات من البلاستيك ـ أعظم إنجاز طبى فى العالم الآن . . وهذا الطبيب ديبكى هو الذى جاء لانقاذ شاه إيران فى مستشفى القوات المسلحة فى مصر بعد ذلك . .

الكابتن لطيف يرى أن انتصار ألمانيا وانجلترا فى الكأس هو أعظم حدث فى عام ١٩٦٦ . . بينما فى نفس الوقت أطلق الروس المركبة الفضائية لونا ٩ فهبطت بهدوء على سطح القمر !

وأطلق الروس كلبتين تدوران حول الأرض . .

وخرج من المركبة الفضائية الأمريكية جمينى ١٢ رائد الفضاء الدرين ليمشى فى خارجها ١٢٦ دقيقة !

وفى الرياضة انتصر كلاى مرتين على خصمه كوبر . .

وبطل العالم فى الشطرنج اسباسكى انتصر على مواطنه تال . . وفى لبنان أعلن بنك انترا إفلاسه التام . .

ومات فنان الكارتون العالمى والت دزنى . .

وأهم خبر صحفى هو أن صحيفة التايمز البريطانية كانت تضع الإعلانات فى صفحتها الأولى . . وقررت أخيرًا أن تكون الأخبار فى الصفحة الأولى !

ويرى الكابتن لطيف أن هذه الأحداث العالمية لا تهم أحدا !

لقد تعلمت من كابتن لطيف معنى « التسلل » . . وأنا قد ضبطت الكابتن لطيف أكثر من مرة يتسلل . . وإنه يشوط فى الأوت . . فقد انتشرت موضة « المينى » فى لندن ومنها إلى كل الدنيا . . وهذه الموضة اخترعتها واحدة انجليزية اسمها مارى كوانت ومعها الحق فى اختراعها . . فالفتاة الإنجليزية تتميز بجمال الوجه وحلاوة الساقين . . وقد ضبطت الكابتن لطيف يسرح ويتسلل . . ولم تكن معى صفارة لأوقف اللعب . . وفى إحدى المرات طلبت إليه أن نجلس فعندى صداع . . وكان الهدف أن يسكت عن الكلام وأنا أيضًا . . ونتفرج ونتحسر فى صمت .

قال لى : مالك ؟

قلت له : كما ترى !

قال : ما الذى أرى ؟

قلت له : اطلع من دول يانمس . . ترى هذا الذى أرى . . والذى جاء السياح من أركان الدنيا لكى يتفرجوا عليه .

ـ مش واخد بالى !

ـ غلط . . لازم تأخذ بالك . . خد بالك . . وخد نفسك . . وخد راحتك . . ما حدث واخد منها حاجة . .

ـ على رأيك !

ـ الله !

ـ الله . . جول . . كل خطوة جول . .

ـ فين ؟

ـ فى عينى . . فى قلبى !

ـ . . . .

* * *

وفى اليوم التالى قابلت الكابتن لطيف . . وقال لى : إن الناس كانت عيونها ستخرج منها كلما رأوا هذه المقاعد الخالية . . وكنت أشير إليهم بأن أصحابها سوف يعودون حالا . . وفى منتصف الهاف تايم الأول . . جاءت ثلاث فتيات واستأذن فى الجلوس . . طبعا جلسن . .

وسألته : وماذا دار بينكم ؟

ـ ولا حاجة . . فكلنا وراء الكرة فى الملعب ! ولكن .

ـ ماذا ؟

ـ فى نهاية الماتش . . تعانق كل الناس فرحا بانتصار انجلترا . .

ـ وكان نصيبك كم قبلة ؟

ـ اللى فيه القسمة !

ودخلنا معا هيئة الإذاعة البريطانية هو يتحدث عن الكأس وأنا أتحدث عن المسرحية . . هو سعيد بما رأى وأنا سعيد بما رأيت . . وما عرفت . . ولكن كنت مثل الذى نقلوه إلى أحد المستشفيات وكان لابد أن يقول ويصف . . لم أكن سعيدًا بما رأيت . ولكن كان لابد أن أعرف فعرفت . وقرفت . .

وفى مطعم صغير بميدان « الطرف الأغر » جلست مع الكابتن لطيف . . هو يتكلم . . ويتكلم . . ودخل جماعة طوال شقر الألوان والشعور ذهبية . . قلت : ألمان !

وكانوا من الألمان . . والتعاسة على وجوههم . .

واقتربوا منا والتصقت المناضد . . ولاحظوا أننى أتابع ما يقولون . فسألونى : إن كنت أعرف الألمانية فقلت : نعم . .

وسألونى : رأيت الماتش ؟

ـ أبدًا .

ـ كنت تتوقع أن ينتصر الإنجليز ؟

ـ ايوه مع الأسف !

وأسعدهم أسفى على أن الألمان لم ينتصروا . .

قال أحدهم : وأنا لم أذهب لهذا السبب . .

وقالت واحدة : وأنا لم أذهب . . فأنا لا أستطيع أن احتمل النصر أو الهزيمة . . لا انتصارنا ولا هزيمتنا . . لأننى فى مثل هذه الحالات أفقد أعصابى تماما . . فأخى واحد من اللاعبين . .

ثم ذكرت اسمه . . وراح الكابتن لطيف يتحدث عنه وعن أسلوبه فى اللعب وعن عيوبه واندهشت الفتاة أن أخاها هكذا معروف ومشهور فى العالم . .

وقدمت لها الكابتن « لطيف » . .

وقلت لها : عاشق لألمانيا ولكل ما هو ألمانى . . ولا ينقصه إلا .

ـ ماذا ؟

ـ العروسة . .

قالت : أنا !

قال لها : أنت ماذا ؟

قالت : أتزوجك فورًا ما دمت تحب أخى لهذه الدرجة !

دعنى أصف لك عروسة الكابتن لطيف : طويلة شقراء زرقاء العينين . . شعرها خيوط من ذهب . . شفتاها . . عنقها . . فى العشرين من عمرها . .

ولما وضع الكابتن لطيف يده على رأسه . . ظننت أنه يريد أن يلفت نظرها إلى أنه أصلع . فقالت له بسرعة : بابا كان أصلع وأنا أحب والدى !

ولما رأته يحدثنى بما معناه أنه كبير فى السن . . وأنه وأنه . . قالت بسرعة : وأنا لا أحب الشبان . . وليست عندى مشكلة . . البيت . . والفلوس . . ولا مانع أن أعيش فى إيران !

فقلت لها : إننا من مصر !

فقالت : وأنا أعبد الفراعنة . . رمسيس الثانى . . واخناتون وتوت عنخ آمون . . وخرنبيت !

ولم يعرف من هو خرنبيت هذا . . ولم نشأ أن نسألها عن هذا الملك الفرعونى . . فليس هذا وقته . .

ولما نهض الكابتن لطيف هربا من الموقف . قالت : وأنا أحب الرجل الحاسم الذى يتخذ قراره بسرعة ! فهل أنتم ذاهبون إلى السفارة لتوثيق الزواج !

وأصر الكابتن لطيف على أن يتكلم باللغة العربية . وكلامه كان معناه : فى عرضك طلعنى من الورطة دى . . إنها فتاة صغيرة جميلة متهورة . . وأنا كما تعرف . .

فقالت هى بسرعة : لا مانع . . سوف انتظر . . لابد أن لك ظروفا تجعلك تتأنى فى اتخاذ قرارك . . هذا تليفونى فى لندن حتى منتصف أغسطس وهذا تليفونى فى ميونخ . . سعيدة فى انتظار قرارك . .

ولما أخفى الكابتن لطيف رأسه فى يديها القويتين لم تجد هى إلا قمة رأسه فقبلته فيها !

قال : هل يصدقنى أحد لو قلت لهم ما حدث ؟ ياخبر . . إنا فى مصر لا سعر لنا . . تراب . . وأقل من التراب !

ونحن فى الشارع قال لى : نعود إلى كأس العالم . .

قلت : أنت الذى تعود . . أما أنا فدعنى أفكر فى هذه الفتاة . . وكل الفتيات . . انظر . . انظر . . الله . . سبحان الله . . ولا إله إلا الله . . قال الشاعر القديم وهو يتحدث إلى الله صانع الجمال ولا يزال كلامه صحيحًا إلى يوم القيامة .

خلقت الجمال لنا فتنة

وقلت : ياعبادى اتقون

وأنت جميل تحب الجمال

فكيف عبادك لا يعشقون ؟!

مات الذى أضحكنا
عاش الذى أسعدنا !

الشخص يموت . .

الشخصية لا تموت . .

محمد عبد الوهاب عيسى الشعرانى قد توفى إلى رحمة الله . . ولكن الموسيقار الملحن المطرب عبد الوهاب لا يموت . . فنحن هذه الأيام نحتفل بمرور قرنين من الزمان على وفاة معجزة الموسيقى موتسارت . . لأننا نحتفل بعيد ميلاده ، فهو لم يمت . . ولكن فولفانج أماديوس موتسارت بن ليوبولد قد مات يوم ٥ ديسمبر ١٧٩١ . وكذلك سيد درويش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد والسنباطى وفريد الأطرش وكل الذين ماتوا فى العشرين عاما الماضية طه حسين والعقاد والحكيم ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ويوسف وهبى . .

فالذى لا يموت محمد عبد الوهاب الرجل الجاد فى حياته الفنية . . المجتهد المجدد . . ولكن محمد عبد الوهاب الذى كان يخاف من أنفه على حنجرته قد مات . . محمد عبد الوهاب الذى عاش بالعقل فمات بالقلب . . عبد الوهاب الذى عشنا على موسيقاه وألحانه أكثر من سبعين عاما ، سوف يعيش سبعين عاما أخرى سبعين مرة . .

فقد كنا نعيش فى عصر محمد عبد الوهاب . .

وسوف يقال كلام كثير عنه . . فنيا وماديا وتاريخيًا . . وسوف تقال ألوف القصص والحكايات ، فقد كان على صلة بألوف الناس ألوف الأيام . .

كنت أقول عن محمد عبد الوهاب إنه كالعملة الفضية . . فيها فضة لكى تلمع وفيها نحاس حتى لا تتآكل . . فعبد الوهاب الفنان اللامع هو الفضة . . وعبد الوهاب التاجر الشاطر هو النحاس . . فلولا النحاس لتآكل وتلاشى عبد الوهاب ، ولولا الفضة لصدئ عبد الوهاب . .

وعندى عشرات الحكايات والنوادر عن علاقة أكثر من أربعين عاما . . كثير منها لا يقال، فهى شخصية جدًا عنا وعن غيرنا من أهل الفن والسياسة . .

(١)

طلب منى الرئيس السادات أن أستمع معه إلى موسيقى النشيد الوطنى المأخوذ من أغنية «بلادى بلادى» لسيد درويش . . وجاء محمد عبد الوهاب وكان يمشى ببطء . . ويرى بصعوبة . وقد وقف الرئيس السادات يندهش لهذا الذى يراه . . فالرجل الذى أضاء الليالى وأسعد القلوب وأبكاها عشرات السنين لا يرى شبرا واحدًا أمامه . . ولكن العقل فضى والقلب حديد . . قال محمد عبد الوهاب : يافخامة الرئيس لقد عملنا لحنا واحدا ثلاث سرعات . . والأمر لك فى تقرير ما الذى تراه مناسبًا !

وبدأنا نسمع اللحن السريع . . ثم اللحن الأبطأ . . وأخيرًا اللحن البطىء . . وقال السادات لعبد الوهاب . أيها تفضل يامحمد . .

قال عبد الوهاب : أنت صاحب القرار يافخامة الرئيس !

قال السادات : ما رأيك أنت يا أنيس ؟

قلت : اللحن المتوسط . .

قال السادات : لا . . بل اللحن البطىء . . فنحن نريد الهدوء والسلام . . لا نريد دعوة للحرب . . تعبنا والله يا محمد . . الناس تعبت يامحمد . . نريد أن نهدئ اللعب لنتفرغ للجد . . أسمعنى اللحن البطىء . .

وسمعنا اللحن البطىء مرة ، ، وثالثة . . ورابعة . فقال السادات : أيوه كده تمام . . كده كويس يامحمد . . خلاص على بركة الله !

وضحك محمد عبد الوهاب وهو يخرج ورقة من جيبه : لقد كسبت الرهان يافخامة الرئيس . . فقد تراهنت مع زوجتى . . أنا قلت إن فخامتك سوف تختار اللحن البطىء . . وقالت هى : أبدًا سوف يختار اللحن السريع . .

وضحك السادات وهو يقول : طبعًا لو كانت الستات بتحارب لاخترن البطىء . . ولكنهن لا يحاربن . . إنهن يردن نحن أن نحارب لكى يتخلصن منا . . هاها . . هاها !

(٢)

التقيت مع محمد عبد الوهاب فى فندق بلودان بسوريا . . متعة وسعادة أن ألتقى بمحمد عبد الوهاب . . فالحديث لا ينتهى والنكتة والقفشة والجديد فى الألحان والموسيقى . . طلبته بالتليفون فقال : تعال فورًا . .

وذهبت إليه وبسرعة أعطانى صينية ألومنيوم . . وهو أخذ صينية . وقال لى : تعال نزف نهلة . .

نهلة القدسى هى عروسة . .

وتقدمتنا نهلة القدسى . . ونحن وراءها . . عبد الوهاب يغنى ويطبل ويقول : واتمخطرى ياحلوة يازينة . . يا وردة من جوه جنينة . .

وأنا أردد وأطبل . . وعبد الوهاب يرفع يديه بالصينية ويطبل ويغنى وأستمع طبعا . .

ونظرت إلينا نهلة القدسى وقالت : زفة فقايرى !

قلت : زفة من عبد الوهاب لا تقدر بمال . . وزفة يكون فيها العريس والأوركسترا والمطرب محمد عبد الوهاب . . ومحمد عبد الوهاب يقول : وأنيس منصور الكورس ! إيه أكتر من كده؟!

وضحكت نهلة القدسى وهى تقول : زلة لسان . . عروس وغلطت . . آسفة ! دستوركم يا أسياد !

واقترب منى محمد عبد الوهاب وهو يقول : ساذجة نهلة . . وضحكنا عليها . . وعملنا لها زفة مجانا !

(٣)

قال لى محمد عبد الوهاب : إن الزمن فى خدمة الفنان . . فالفنان لا يموت . . والأعمال الفنية أطول عمرا من الفنان . .

ولذلك فعبد الوهاب لا يستعجل مطلقا فى التأليف والتلحين . . كل شىء على مهله جدا . .

وفى إحدى السنوات كان محمد عبد الوهاب فى باريس . . وسافر من باريس إلى ميناء مرسيليا بالقطار . . وتوقف فى أحدالفنادق قبل السفر . . ولكن محمد عبد الوهاب دخل الحمام . . وغاب وغاب . . حتى أبحرت السفينة . . ولم يجرؤ أحد أن ينبهه إلى ذلك . . فهو لا يحب أن يوقظه أحد إذا نام ، ولا أن يدق عليه الباب وهو فى الحمام ، ولا أن يقاطعه وهو يلحن أو يدندن . .

وكان يتحدث فى بساطة فى الحمام بالتفصيل ومستخدما الكلمات التى لا يطيق أحد الاستماع إليها ـ وكذلك كان الموسيقار موتسارت . .

قال محمد عبد الوهاب : هناك كل يوم باخرة . . ولكن لا أضمن الراحة فى الحمام . . ولذلك فالحمام أهم من الباخرة مهما استغرق ذلك من وقت ! .

(٤)

فى يوم طلب منى محمد عبد الوهاب أن أجىء إليه فورًا لأمر هام . . وذهبت ووجدته قد ارتدى ملابسه . . ولف كوفية حول رقبته ورأسه . . وقال : سيارتك فيها بنزين ؟

قلت : طبعا . لماذا ؟

قال : عندنا مشوار بايخ . . كم الساعة الآن . .

قلت : منتصف الليل إلا قليلا .

وجلس محمد عبد الوهاب إلى جوارى وأغلقنا نوافذ السيارة تماما . وطلب منى أن نذهب إلى العجوزة . . وكان شتاء مظلما باردا . وهناك بعض الريح . . وطلب أن نقترب من مستشفى الجمعية الخيرية وأن ندور حوله . . ثم أن نتجه مباشرة إلى حيث مديرية أمن الجيزة . . وكانت الشوارع مظلمة تماما . سألنى : أنت شايف ؟

قلت : لا . .

قال : ولا أنا طبعا . . ما تعرفش عنوان أى واحد مفتح يدلنا على الطريق . . هاها . . هاها . .

سألت : بيت من ؟

قال : واحدة أنت عارفها « . . . » .

فقلت : يا أستاذ . . إنها تسكن فى المهندسين . . مسافة بعيدة جدا من هنا .

واتجهنا إلى حى المهندسين . . ولكن الدنيا قد تغيرت . . فأنا لم أرها منذ وقت طويل . . ظهرت عمارات وفيلات وانفتحت شوارع وانشقت ميادين وبرزت من تحت الأرض أشجار وأزهار ومواسير مياه وأعمدة نور . .

قلت : يا أستاذ إن أى بيت تدخله سوف يحتفى بك حفاوة عظيمة . .

فصرخ عبد الوهاب : مغامرات لا . . هل تذكر رقم تليفونها . .

قلت : أبدا . . ولكن أعتقد أن هذا هو البيت . . الدور الخامس . . إنه هذا البيت !

الآن الساعة الواحدة إلا قليلا . . البواب نائم والكلاب تنبح . . وضوء خافت عند مدخل العمارة . الأسانسير يعمل لحسن الحظ . . ووجدنا اسم زوجها مكتوبا على الباب .

وانطلق صوت الجرس رفيعًا نحيلاً ومعه صوت كلب صغير . . ولكن لا حركة فى البيت . . وعاد صفير الجرس والكلب . . وانفتحت شراعة الباب ومعها : ياخبر . . الأستاذ عبد الوهاب . . يادين النبى . . إيه السعادة دى . . يادكتور . . يادكتور الأستاذ عبد الوهاب عندنا . . اصح بسرعة . .

والسيدة كانت نائمة ، وهذا واضح من إحمرار عينيها وشعرها المنكوش . . ووجهها الذى غسلته من الأحمر والأبيض . . وجاء الدكتور هو الآخر بالروب فوق البيجاما وأصلح شعره بيده . . أهلا يا أستاذ . . أهلا يا أنيس . . أهلا أهلا . . خطوة عزيزة . .

وكان عبد الوهاب قد تضايق من رائحة البيت المكتومة ـ طبعًا مكتومة . . فقال : أنا مش حاقعد كتير . . أنا عاوز علبة (عسل أسود) . . إلخ . .

لا يهم الكلام الذى قيل بعد ذلك . . ولا يهم كم من الوقت جلسنا حتى تدخل سيدة البيت وتأتى بعلبة العسل الأسود التى كان من الممكن أن يطلبها محمد عبد الوهاب بالتليفون . . لا من هذه السيدة وإنما من محافظ قنا ، فيبعث له بمركب قد امتلأ ببلاليص العسل !

وأخذ عبد الوهاب العلبة ملفوفة فى جريدة . ونزلنا . وقد تجهم عبد الوهاب . وجلس فى السيارة . ثم قال : مالك واقف ليه ؟

قلت : ما معنى هذا ؟

قال ؟ مالوش معنى يا أخى . . نزوة فنان . عندك مانع ؟!

. . . .

(٥)

قال لى : ما رأيك ؟

قلت : موافق . ويسعدنى ذلك . .

طبعا يسعدنى أن أستمع إلى فايزة أحمد « تغنى لمحمد عبد الوهاب : ست الحبايب . . أجمل لحن وأروع موسيقى وأجمل صوت . . وكان من الضرورى أن أذهب فى الصباح المبكر إلى الاستديو . . الدنيا برد . . وارتديت البالطو ووضعت منديلا على أنفى . . ووجدت محمد عبد الوهاب قد سبقنى إلى الاستديو . . والفرقة الموسيقية كلها . . وفايزة أحمد . . وطلب محمد عبد الوهاب من الفرقة كلها : قراءة الفاتحة . .

وقرأنا الفاتحة . . ولا صوت ولا نفس . . وأشار عبد الوهاب إلى الفرقة أن تبدأ فى موسيقى

ست الحبايب . . الله . . الله . . على الموسيقى . . الله الله على صوت فايزة أحمد . . الدموع فى عينى . . ومن الذى لا يبكى ست الحبايب حتى الموت وعلى موسيقى عبد الوهاب وصوت فايزة . . وفجأة صرخ محمد عبد الوهاب : يابنت الـ . . يلعن . . يابنت ستين . . يلعن أبو . . يا . . يا . . يا . .

ما هذا . . نحن قد فرغنا توا من قراءة الفاتحة . . وهو قد فرغ من تلاوة بعض الآيات القرآنية .

ـ إيه يا أستاذ . . ماذا حدث ؟ .

ـ الزفته دى . . أنا قلت لها . . ما تاكليش حاجة بالليل . . يلعن . . ويلعن أبو . . واليوم الأسود اللى شفتك فيه . . امشى بره يابنت الـ . .

ـ مش فاهم يا أستاذ إيه اللى حصل ؟

قال : أنا قلت لها تيجى هنا على لحم بطنها . . لا أكل ولا شرب ولا سجاير . . ولا رقص ولا لعب . . تتخمد فى السرير بدرى وتظل حتى الصباح . . ولكنها أكلت وشربت بنت الـ . . بنت الـ . . ولذلك فصوتها أضعف . .

واتجهت إلى فايزة أحمد أسألها : إيه يا فايزة . . إيه اللى جرى .

قالت : غضب عنى . . أكلت . . وشربت . . لم أكن أتصور أن الأستاذ سوف يكتشف ذلك !

وقد تعبت فى إقناع عبد الوهاب بأن يسامح فايزة أحمد . . أبدا . . دماغه وألف سيف إنه لن يجعلها تغنى « ست الحبايب » . . فى عرضك يا أستاذ . . فى طولك . . رأسك أبوسها . . علشان خاطرى .

قالت فايزة : سوف أصوم من اليوم . . سأموت من الجوع . . قل للأستاذ يربطنى بحبل ويضعنى تحت السرير . . ويرمى لى كل يوم لقمة عيش موافقة . . حقك علىَّ يا أستاذ . . اضربنى . . حقك علىَّ . . إيدك أبوسها !

وبعد شهر وافق عبد الوهاب وقرأنا الفاتحة . . الله على الموسيقى الله على صوت فايزة أحمد . . لا نهاية للدموع على ست الحبايب يرحمها الله .

(٦)

اتصل بى السفرجى من بيت محمد عبد الوهاب وقال لى : البقية فى حياتك .

ـ خيرًا .

_ أم الأستاذ تعيش أنت .

_ وأين هو ؟

_ هو طلب منى الاتصال بك . . لقد ذهب إلى القرافة .

وبسرعة ذهبت إلى بيت عبد الوهاب . . إلى غرفة نوم الأستاذ .

فوجدت الغرفة مكركبة . . المصحف على السرير . . وصورة والدته . . وبطرمان عسل النحل والزبادى . . والمصحف . . وكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » وقصاصة من مقال باللغة الإيطالية عن شخصية محمد عبد الوهاب . المقال الإيطالى يقول : رجل وامرأة يحكمان الذوق العام فى العالم العربى . محمد عبد الوهاب وأم كلثوم . . وعبد الوهاب هو المبدع . . هو الضوء وأم كلثوم هى الصوت . . فأم كلثوم صوتها ينتشر على ضوء محمد عبد الوهاب !

ومع هذه القصاصة هذه العبارة : عزيزى أنيس . . احتفظت لك بهذه المقالة القصيرة . . إن الكاتب الإيطالى يقلدك فى الكتابة !

وواضح أن محمد عبد الوهاب قد قام بإخراج الجو العام فى غرفته بعد حادث الوفاة .

(٧)

كنا نتعشى فى بيت فاتن حمامة . . وكان عبد الوهاب بلا سيارة فطلب منى أن آخذه فى سيارتى . وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية وأنا سوف أموت من التعب . . فأنا أنام فى الساعة الحادية عشرة والنصف . . وفى نفس الوقت لا أعرف كيف أقاوم النوم . . وبين لحظة وأخرى أدخل الحمام وأرش الماء على وجهى . . لقد انصرف الضيوف جميعا ولم يبق إلا عبد الوهاب وأنا . . وكان عبد الوهاب يتكلم فى التليفون . .

لقد كان عبد الوهاب يحاول أن يعثر على أحد من الأصدقاء لكى يوصله إلى البيت بدلا منى . . فلقد قيل له إننى مزكوم !

ولم يجد عبد الوهاب أحدًا .

فقال لى : اسمع . . أنت تنزل قبلى وتنتظرنى أمام الأسانسير فى الدور الأرضى . . فأنت مزكوم .

قلت : أبدا . . لو كنت مزكوما ما نزلت من البيت أبدًا . فأنا موسوس مثلك تماما . . ولو كنت أنت مزكوما ما وقفت معك ولا ثانية !

ونزلنا نحن الاثنين ووقفنا أمام باب الاسانسير . . وطلب منى أن أقترب وأن ألصق ظهرى

بظهره وأن أردد وراءه هذه العبارة التى يستخدمها عبد الوهاب لاكتشاف الزكام . قال : قل ورائى . . من منكم محمد محمود .

فقلت . قال : أعد مرة أخرى وبصوت مرتفع قليلا .

وقلت . فقال هو : حرف الميم مضبوط تمامًا . . هيا بنا .

(٨)

من عادة محمد عبد الوهاب أن يدعو الأصدقاء لسماع ألحانه الجديدة أو مقطوعاته الموسيقية . . ويعرف رد الفعل ومدى تأثيرها فى الناس .

دعانى لكى استمع إلى أغنتين لعبد الحليم حافظ : أغنية ظلموه . . وأغنية يا قلبى ياخالى . . وأعجبتنى أغنية : ياقلبى ياخالى .

فقال عبد الوهاب : أنت ذوقك مثل ذوق أولادى . .

ولكن الأغنية التى سوف تكتسح هى : ظلموه . وهى التى اكتسحت فعلا لما فيها من حزن وشجن يتفقان مع المزاج الشرقى والمصرى بصفة خاصة . .

ثم استدعانى عبد الوهاب وكذلك نهلة القدسى وكان لابد أن أحضر فورًا لكى أسمع أغنية من غير ليه !

واستمعت إلى الأغنية الرائعة . . الأغنية التحفة . . قمة الأداء الغنائى . . واللياقة الموسيقية . . والنضج الفنى . .

وكأن محمد عبد الوهاب يؤدى امتحانًا صعبًا . . كأنه يغنى لأول مرة . . أو يواجه الناس لأول مرة . . وقدمت لى السيدة نهلة القدسى كعك العيد .

فقلت : بل هذه الأغنية هى كعك العيد . . أو هى العيد . . وبعد العيد لا كعك !

وضحك عبد الوهاب وهو يقول إنها مجموعة أغنيات وليست أغنية واحدة !

إنها تحفة واحدة أو عشرون تحفة معا !

وقال لى الأمير عبد المجيد أمير المدينة المنورة إن لديه هذه الأغنية بصوت عبد الحليم حافظ . . ولكن عبد الحليم حافظ لم يغنها .

وطبيعى خشى عبد الوهاب أن يموت اللحن مع عبد الحليم حافظ . . فقام بتركيب اللحن مع الكلام وتعشيق كلام الأغنية مع اللحن .

وقال بعض السخفاء كيف يغنى رجل فى التسعين عن الحب ؟

ولم يقل لنا هؤلاء السخفاء : ما هى السن المناسبة للغناء عن الحب . . وما هى السن المناسبة لسماع مثل هذه الأغانى !

الحب ليست له سن ، كما إن الإبداع ليست له سن . . والفن لا عمر له . . وإنما العمر للفنان الذى يولد ويموت . . ولكن الفن يعيش إلى الأبد . . فالفن له شهادة ميلاد وليس له تصريح بالدفن !

(٩)

لحظة تاريخية لم يسعد بها إلا قليلون جدًا . . أن تسمع إلى محمد عبد الوهاب على العود يقول : إنت عمرى . . وأم كلثوم تردد وراءه . . وهو يقول لها : الله ياسومة . . الله .

وتغنى هى : اللى شفته .

ويقول : الله ياسومة . . تانى ياسومة . . اللى شفته قبل ما تشوفك عنيه . . عمر ضايع يحسبوه ازاى علىّ . . اللى شفته .

لا أعرف كيف أصف ولا كيف أحكى . . ولا كانت معى كاميرا تصورنا معا . . وأنا أقول : الله يا أستاذ . . الله ياست . . الله الله !

وبعد ساعتين من الأبدية . . من السعادة والهناء والنقاء والبهاء . . قال لى عبد الوهاب . يالله بينا .

ـ على فين .

ـ أنا ميت من الجوع .

ـ أنا شبعت .

ـ يانهار أسود . . وأنا اللى حا كل الأكل الخسران لوحدى .

ـ خسران ؟

ـ طبعا . . أنت فكرك حد حيرضى يأكل الرقاق العجين غيرك . . معمول لك مخصوص ! أنت الوحيد اللى بتأكل العجين والمظلط فى مصر كلها !

فأنا لا آكل أى طعام ناشف أو مقرمش . . أفضل الطعام العجين الذى ليس له صوت بين الأسنان . . ولذلك فكثير من الأصدقاء يداعبوننى بأن يرسلوا الحلويات المعجنة . . لأن أحدا لن يأكلها غيرى !

وعندما جلست إلى المائدة كان الطعام كله ناشفا محمرا مقرمشا . . وقمت إلى الحنفية وبللت الخبز وأتوا بالشوربة ووضعتها فوق الرقاق . . وفى اليوم التالى جاءنى السكرتير يقول . سفرجى الأستاذ عبد الوهاب عاوزك . .

قلت : يتفضل .

وجاء السفرجى فى مكتبى وفتح صندوقا وقال لى : الأستاذ بيقول آدى الشوربه وآدى الرقاق تفضل حضرتك ضع كمية الشوربة اللى أنت عاوزها !! .

(١٠)

وأنا طفل كنت أغنى لمحمد عبد الوهاب . . فى الحفلات المدرسية . . وفى المناسبات الاجتماعية أغنى متطوعا . وطلعت فى دماغى أن أكون مطربا . . ولم أكن أغنى إلا لمحمد عبد الوهاب : خائف أقول اللى فى قلبى . . ياجارة الوادى . . ياوابور قل لى . . ياورد . . أنت وعزولى وزمانى . . الصبا والجمال .

وأنا طفل كان عندنا خادم وكنت أجد صوته جميلا فكنت أجلس فى البلكونة وهو يجلس على الأرض ويغنى وكنت ألقى له بقوالب السكر والبرتقال والفطير . . كل يوم حتى منعتنى أمى من الجلوس فوق والمطرب تحت . . فكنت أجلس إلى المطرب وأغنى له . . وكنت أستعين لتكبير صوتى باستخدام غطاء ماكينة الخياطة وكان أسطوانيا خشبيًا فأضع رأسى فيه وأغنى . .

وخايف أقول اللى فى قلبى من أحب الأغنيات وأعمقها أثرا لحلاوة اللحن والموسيقى والكلام . .

وفجأة ظهرت بيننا اسطوانة صغيرة لأغنية خايف أقول اللى فى قلبى وياجارة الوادى . . وأسهار بعد أسهار من الحان محمد عبد الوهاب وصوت فيروز . . وكان صوت محمد عبد الوهاب واضحًا بين الكورس . . كانت قنبلة سنة ١٩٦٣ . . وسمعتها مائة مرة . . ونقلتها وتنقلت بها بين البيوت ليسمع الناس صوت عبد الوهاب وهو يردد وراء فيروز . . تصور عبد الوهاب وراء فيروز .

وضاعت الأسطوانة . . أو ادعى أحد الأصدقاء أنه وضعها على مكتبى فى غيابى . فسرقوها . ومعهم حق . . ولم يصدقنى عبد الوهاب . فأقسمت له . وكنت صادقا فقد استولى عليها المرحوم كامل الشناوى وراح يداولها بين الناس . . واختفت الأسطوانة . . وادعى كامل الشناوى أننى « اقتبست » الأسطوانة ـ أى سرقتها . . وأقسمت . وغضبت . فما كان من

محمد عبد الوهاب إلا أن قال لى : ولا يهمك . . عندى أسطوانة أخرى أحسن وأجمل . صوت فقط ومن غير موسيقى . . وإذا سمعتها فسوف تطير فى السماء . . اسمعها الآن .

ووضعت السماعة على أذنى : الله يا أستاذ . . الله . . يا عظمة . . الله . . الله . . وبسرعة ذهبت إلى محمد عبد الوهاب وقلت له : تتصور أنى وجدت الأسطوانة فى تابلوه السيارة . . إنه مقلب !

فضحك عبد الوهاب وهو يقول : وهذا مقلب أيضًا . . فأنا كنت أغنى لك بالقرب من التليفون . . فقلت مقلب ومقلب . . خالصين . . هاها . . هاها .

* * *

يرحمه الله لقد أسعدنا عشرات السنين . . أسعد مئات الملايين . . وسوف تظل سعادتنا ما دام فنه الجميل حيا بيننا !

إلّا الكلام عن الموت !

كان محمد عبد الوهاب يكره الكلام فى موضوعين : الفلوس والصحة ـ فلوسه هو وصحته هو . .

أى كم عنده من الفلوس ؟ وهو رجل بخيل ، وله أصدقاء من الملوك والأمراء ينفقون على رحلاته وجلساته . . وكم يكسب من وراء ألحانه واسطواناته ؟! وكيف احتفظ بصحته هذه ؟ البشرة وردية والذاكرة قوية . . هل هو الطعام المسلوق ؟ هل هو النوم الهادئ ؟ هل هو نقص الهموم؟

ولذلك كان إذا تحدث أحد عن الفلوس والصحة ، فإن محمد عبد الوهاب بسرعة يغير مسار الحديث حتى لا يدور حوله ويخنقه . . ولذلك يهرب من المكان لأى سبب أو يدفع أحدًا لأن يحكى حكاية أو يثير قضية ، حتى لا يكون محمد عبد الوهاب موضوعًا للبحث وإن كان يجب أن يكون مدارًا للإعجاب وعظيم الاحترام . . أو هو يسرح بعيدًا . .

وأنا أشارك محمد عبد الوهاب فى خاصية (السرحان) . . فأنا أيضًا أسرح ، ويكون السرحان نوعا من الهرب من سخافة الكلام أو انشغالا بها فى داخلى من الكلام . . فهو نصف مستمع أو ربع منتبه أو ليس هنا على الإطلاق . . والسرحان نعمة وإن كان بعض الناس يتضايقون من ذلك ويرونه نوعا من اللامبالاة أو الإهمال . ولذلك تعلمت شيئًا آخر هو التظاهر بالاهتمام الشديد . . مع أننى لا أعى شيئًا مما يقال ، ولولا ذلك لنفدت طاقتى ولم يبق منها شىء أقرأ أو أفكر به . .

وكان محمد عبد الوهاب أستاذًا فى ذلك . . فهو « يدندن » . . وتكون الدندنة هى القدر المقبول عند الناس جميعا . .

وتزداد الدندنة علوا إذا دار الكلام حول الموضوعات التى يكرهها ، ولا يعرف كيف يدفعها بعيدا عنه . .

وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ يؤمنون بالحسد . . أم كلثوم بنت بلد ريفية تقول فى سرها : الآيات القرآنية : « سلام قولاً من رب رحيم » . . « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . . « ومن شر حاسد إذا حسد » . .

وكان محمد عبد الوهاب إذا أحس بأنه هدف للحسد فإنه يدندن . . أو يتمتم . . ثم يختفى فى غرفته ليقرأ القرآن الكريم . . أو يردد دعاء قد حفظه عن شوقى أمير الشعراء . .

أما عبد الحليم حافظ فكان يضع الأحجبة فى جيوبه . . وأحيانا حول رقبته . . وقد أعطاه حاخام فرنسى حجابا من جلد الغزال عليه كلمات عبرية . . والحاخام هو الذى قال لعبد الحليم حافظ : احترس من واحدة اسمها أم أمين . .

ونقلت هذه الحكاية عن عبد الحليم حافظ وأنا لا أعرف من هى « أم أمين » . . ثم اكتشفت لسوء الحظ أنها السيدة الفاضلة حرم الأستاذ محمد الموجى . وقد طلب عبد الحليم حافظ من أخته أن تغير مفارش السرير وكل غرفة النوم ، خوفا من أم أمين ـ وكلها نصائح الحاخام الإسرائيلى الذى قدمه بليغ حمدى لعبد الحليم حافظ أيام كان مريضا فى باريس ؟!

وفى ذلك الوقت كان الخلاف شديدًا بين بليغ حمدى ومحمد الموجى !

وكان محمد عبد الوهاب يتضايق من الإخوة اللبنانيين إذا رأوه يأكل بشهية مفتوحة أن يقولوا له : صحتين !

ولم يكن قصدهم من هذه التحية الشعبية أن محمد عبد الوهاب يأكل كما يأكل رجلان، أو ليس فى صحة جيدة واحدة وإنما فى صحتين . . لا شىء من ذلك . . وإنما هى عادة عندهم كأن يقولوا : مرحبتين . . أهلين . . صحتين !

ولكن بسبب إحساس محمد عبد الوهاب أن الناس يحسدونه على صحته ، كان يضيق بمثل هذه التعبيرات التى ظهرت على أهل سوريا ولبنان من مئات السنين !

وأذكر أننى قلت لمحمد عبد الوهاب ولم أكن حاسدا : أنا أقول لك يا أستاذ . . أنت لست مريضا بالبرد . . وإنما أدوية الوقاية من البرد هى التى ترهقك . . إنها الوقاية وليس المرض . . تماما كما يحمل إنسان شمسية كبيرة وثقيلة ويمشى بها فى الشارع للوقاية من الشمس : فالعرق الذى على وجهه ليس سببه الشمس . . وإنما المجهود الذى يبذله فى حمل المظلة التى تقيه من الشمس !

ويدأ محمد عبد الوهاب يدندن فعرفت أنه ظن أننى أحسده . . مع أننى لم أكن مشغولا بصحته ، وإنما بتفسير الذى يصيب محمد عبد الوهاب عند قدوم الشتاء من كل عام . . وهو ما يصيبنى أيضًا . . وقد ظللت المريض النموذجى للدكتور محمد عبد الوهاب . . هو الذى

يعالجنى من البرد . . أو من الخوف من البرد . . وهوالذى يبعث لى بالحبوب والحقن الحديثة التى استخدمها قبلى . . ويريدنى أن استخدمها وأن أصف له تماما ما الذى أصابنى بسببها حتى يستفيد من تجربتى !

وفى يوم قلت لمحمد عبد الوهاب إننى لم أعد فى حاجة إلى هذه العقاقير للوقاية من البرد فقد وجدت مشروبا ألمانيا أفضل . . ولكننى أعطيت العقاقير للشاعر كامل الشناوى فظهرت عليه أعراض الأنفلونزا . . وكان محمد عبد الوهاب فى بيروت . . فلم ينم له جفن . . وظل يطلب جميع أصدقاء كامل الشناوى فى التليفون ويسألهم عن صحته . . ولم يسأله هو . . واختلفت الحكايات عن سبب إصابة كامل الشناوى بالأنفلونزا إلى أن قالت له أم كلثوم . يظهر واحد دكتور حمار أعطاه دواء لمنع الحمل . . هاها . . هاها !

ولم يجرؤ محمد عبد الوهاب أن يسأل كامل الشناوى عن الذى أصابه . . وإنما راح يشيع أنه كلما طلب كامل الشناوى انقطع الخط . . إلى أن طلبته أم كلثوم وقالت له : كامل الشناوى عندى ويريد أن يسلم عليك . .

ودار هذا الحديث بينهما :

كامل الشناوى : ازيك يامحمد . . الأنفلونزا عاملة معاك إيه ؟

ـ ليس عندى أنفلونزا . .

ـ ولكن الدواء الذى بعثت به لأنيس منصور مكتوب عليه أنه يصيب بالأنفلونزا لمدة ثلاثة أيام وبعد ذلك لا يصاب الإنسان بالأنفلونزا لمدة ثلاث سنوات . . آه . . مكتوب عليه كده . . ألم تأخذ هذا الدواء بعد ؟ . .

محمد عبد الوهاب : . . . .

كامل الشناوى : آلو . . يامحمد . . جرى إيه ؟ مالك ؟ خلاص ما دمت لم تصب بالأنفلونزا فهى لن تصيبك إلا بعد ثلاث سنوات . . آلو !!

ولكن محمد عبد الوهاب أصابه الفزع ولم يعد قادرًا على الكلام . ولم يفلح كامل الشناوى فى إقناعه بأنها مداعبة !

أما خوفه من الحرب فلا نهاية للحكايات التى تروى عن محمد عبد الوهاب . . فقد حدث فى حرب ١٩٦٧ أن فكر محمد عبد الوهاب فى أن يهرب إلى أى مكان فى الدنيا . . ولكنه لم يجرؤ على ذلك . . وفى يوم اتفق كامل الشناوى مع المذيع الشهير جلال معوض أن يسجل شريطًا بصوته فيه نشرة الأخبار . . وفى هذه النشرة أن قوات من المظلات مجهولة نزلت من الطائرات فوق الزمالك . . وبالقرب من بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب . . وفى يوم كان محمد عبد

الوهاب يركب سيارة عبد الحليم، وأدار عبد الحليم حافظ الشريط . . وفى الموعد المحدد لنشرة الأخبار كان جلال معوض بصوته القوى الرهيب يعلن آخر الأنباء . . وفقد محمد عبد الوهاب صوته . . وأشار إلى عبد الحليم حافظ أن يتوقف بسيارته وأن يعود إلى أى مكان خارج القاهرة . . وذهب لون محمد عبد الوهاب . . وكنا نحن فى سيارات متعددة وراء سيارة عبد الحليم حافظ . . ولما وجدنا نضحك لهذا المقلب . . تضايق . . ولم نفلح فى تهدئة محمد عبد الوهاب !

* * *

أما أخبار الموت فمن الصعب أن يستمع إليها محمد عبد الوهاب . . وإذا أراد أحد أن ينقلها إليه فيجب أن يعمل لذلك ألف حساب .

وفى يوم دعانا محمد عبد الوهاب إلى العشاء عنده . . وكنا نعلم أنه ليس لديه طعام كاف . . فاتفقنا ـ كامل الشناوى وكمال الطويل وعبد الحليم حافظ وكمال الملاخ وأحمد رجب وأنا ـ على أن نهرب من هذه الوليمة الوهمية وأن ندعوه لتناول العشاء فى أى مكان آخر . . أو نحمل إليه طعاما وندعوه لتناول العشاء معنا .

وكان المفروض أن نؤكد له جميعًا أننا قادمون . . ولم نتصل به . . فقام هو واتصل بنا ، ولم يجد أحدًا . . وأخيرًا وجدنى وسألنى إن كنا سنجىء فى الموعد المحدد ليلاً فقلت له . طبعا . . والله يا أستاذ اليوم كان يوما فظيعا . . فقد سرنا فى ثلاث جنازات وسرنا وراء ثلاثة نعوش . . وأعصابنا . . وحالتنا النفسية . . آلو . . آلو . .

لقد ترك محمد عبد الوهاب السماعة إلى جوار التليفون . وأسعدنى ذلك . واتصلت ببقية الأصدقاء وقلت لهم : لا عشاء فى بيت محمد عبد الوهاب !

وأخذنا طعامنا معنا . . وذهبنا فى الوقت المتفق عليه إلى بيت عبد الوهاب . . وهناك قال لنا الخادم : ولكن الأستاذ سافر إلى الإسكندرية !

* * *

ولما ماتت أم كلثوم كانت الحالة النفسية لمحمد عبد الوهاب سيئة جدا . . ففى الصباح الباكر قال له أحد الأصدقاء : حياتك الباقية يا أستاذ . . لقد ذهب العظماء جميعا . . فلم يبق إلا أنت . . ربنا يعطيك طولة العمر ! وكان هذا الدعاء كافيا لأن يعتكف محمد عبد الوهاب فلا يرى ولا يسمع أحدا من الناس !

ولكن كان لابد أن يقول وأن يعلق وأن يبدى حزنه على عظيمة الغناء العربى . وقال كلاما جميلا . . إلى أن قال له زميل صحفى : أظن يا أستاذ أنت برضه مبسوط ولو قليلا !

-إزاى ؟!

-يعنى أم كلثوم كانت منافسة قوية لك على عرش الطرب !

-هذا صحيح . . كما أن العبط منافس لك على عرش الصحافة !

* * *

ولما مات عبد الحليم حافظ كان حزن محمد عبد الوهاب عظيما . فقد كان عبد الحليم حافظ أجمل الأصوات العربية وأرقها وأعمقها وأكثر حزنا وأسى . . قال لى محمد عبد الوهاب: هذه خسارة قومية . . وخسارة شخصية . . هل تعرف كم عدد الذين ماتوا بالبلهارسيا ؟ لا أحد يعرف . . ولكن أشهر المصابين عبد الحليم حافظ . . لو عرفت هذه الدودة الحقيرة أى جوهرة أكلت من الداخل . . لو عرفت مدى فداحة الفن ، لترفقت بنا وتركت لنا عبد الحليم حافظ الذى لن تعوضه مصر بعد مائة سنة !

وكنا عشرة نجلس حوله . . وتبارى الجميع فى وصف أخلاقيات وذكاء عبد الحليم حافظ . . وفجأة قال واحد منا : ولكن عبد الحليم حافظ تعلم منك الكثير . . حب العمل والتفانى فيه . ولكن لم يتعلم منك الحرص على صحته . . فهو يسهر كثيرًا وينام قليلاً . . لقد كان وجهه فى الأيام الأخيرة . . لقد كانت عيناه . . يداه . . نظراته . . لفتاته . .

وهنا أحس محمد عبد الوهاب أن المقارنة بين صحته وصحة عبد الحليم حافظ ، فبدأ يدندن ويقرأ : « قل أعوذ برب الناس » . . « ومن شر حاسد إذا حسد » . .

ثم أوى إلى غرفته وبعث لنا بمن يعتذر عنه بسبب وعكة مفاجئة . . ولم نكن قد أكملنا نصف الساعة فى جلوسنا معه !

ولما توفيت فايزة أحمد طلبت محمد عبد الوهاب فى فندق الانتركونتيننتال فى بارس : آلو .

-أنا نهلة . . إزيك . .

-إزيك انت . . أين الأستاذ ؟

- سوف أوقظه حالا . . إنه يبحث عنك منذ أمس . . وسأل إن كنت ستمر علينا فى باريس . . إنه ينتظرك . . وقد حجز لك الغرفة المجاورة لنا . . لحظة واحدة . .

محمد عبد الوهاب بصوته المتميز يقول : هالو . .

-أهلا يا أستاذ . .

-حبيبى . . أهلا ياحبيبى . . أنت زعلان من باريس وإلا إيه ؟ .

- أنا أقدر ؟! إن سحر الدنيا كله فى باريس !

ـ إذن فأنا فى انتظارك . . حجزت لك الغرفة المجاورة . . وإذا كنت عاوز جناح أحجز لك . . بس قل لى إمتى حتيجى . .

ـ أنا مسافر إلى لندن ، وبعد ذلك سوف اتصل بك من هناك . . وأقول لك على الموعد . . يا أستاذ ماتت فايزة أحمد تعيش أنت ! وكنا نتوقع ذلك . وأنا أعرف أنك كنت على اتصال يومى بها . . هيه قالت لى امبارح وأول امبارح . . ولابد أنك كنت تتوقع ذلك . . الأعمار بيد الله . . الله يرحمها . . خسارة فادحة . . وقد تعذبت فى الأيام الأخيرة . . وكنت أراها وأزداد حزنا عليها . . فهى لا تعلم بالضبط ما الذى تشكو منه ؟ ولا ما هو مرضها ؟ وحتى عندما بدأ شعرها يتساقط بسبب العلاج الكيميائى اقتنعت بأن شعرها يسقط لكى ينبت شعر جديد أسود وسوف يكون أطول وأجمل . . كانت تروى ذلك وهى على يقين تماما . . الله يرحمها . .

وسكت محمد عبد الوهاب ولم يرد . . ولكنه قد تدرب على الحديث مع الصحفيين من كل لون وحجم . . ويعلم أن كل كلمة سوف يقولها فهى للنشر . . ولذلك ظل يفكر فى كل الذى يقول . . وقال لى : إن فايزة أحمد هى إحدى محطات إطلاق الصواريخ . . انطلقت منها إلى السماء والدوران حول الطرب العربى . . إنها فنانة فيها صدق الفنان وكبرياؤه وجنونه . .

وبعد أن انتهى تأبين محمد عبد الوهاب لفايزة أحمد فى التليفون تغيرت نبرة صوته تماما وقال لى : هه . . متى تجىء إلى باريس ؟ سوف تجد هنا عددا من أصدقائك . . ومحبيك . . وهنا المكتبات والأسطوانات وهنا الفن والجمال والحضارة . . ما رأيك ؟ . . إلخ . .

وكانت تجلس أمامى المذيعة المشهورة نادية صالح . . وكانت قد جاءت لتجرى حديثا معى عن فايزة أحمد . . ولكنى لم أكن قادرًا نفسيا على أن أقول لها شيئًا . . فأنا أحببت صوت فايزة أحمد ، ولا أزال أرى أنه أجمل صوت بعد أم كلثوم . . وكذلك كان رأى أم كلثوم . .

وقلت لنادية صالح : عندك سبق صحفى . . سبق إذاعى عالمى . . إليك التسجيل الكامل لحديثى مع عبد الوهاب عن فايزة أحمد !

فمحمد عبد الوهاب خبير بمثل هذه الأحاديث . . فبعد أن قال ما يعلم علم اليقين أنه سوف ينشر فى الصحف ، تكلم عن الموضوعات التى لن تنشر . . ولكن بصوت آخر ونبرة أخرى . .

* * *

محمد عبد الوهاب مثل توفيق الحكيم لا يحب أن يقول : إنه يقرأ لفلان من الأدباء أو الشعراء ، حتى لا يتهمه أحد بالسرقة . .

وعبد الوهاب لا يذكر موسيقارًا عالميا واحدا ، حتى لا تشير الأصابع إلى أن محمد عبد الوهاب قد أخذ عبارة من بيتهوفن فى أغنية أحب عيشة الحرية . . أو عبارة من أوفنباخ أو موتسارت أو فردى أو غيرهم فى كثير من أغانيه . .

ولم ينقذ توفيق الحكيم من الهجوم العنيف عليه واتهامه بالسرقة إلا الرئيس جمال عبد الناصر . فعندما ذهب إلى روسيا وجد أن الروس ينسبون كل الاختراعات التى فى الدنيا إلى علماء روس . . مع أنها اختراعات ألمانية وفرنسية وأمريكية . . فلما عاد من روسيا وجد الحملة ضارية على توفيق الحكيم ، فأمر بوقفها فورًا قائلاً : إن الروس يضيفون إلى حسابهم كل ما اخترعه العالم ، ونحن نجرد توفيق الحكيم من كل شىء . . ونضيفه هو إلى العالم ، ونحذفه من تراث مصر . . فالروس يزعمون أنهم الذين اخترعوا الطيارة والراديو والتليفون والقطار والصواريخ ونحن نعلم أنهم الأمريكان والإنجليز والألمان !!

وكان على حق !

ولكن الرئيس عبد الناصر لم يتحرك لحماية محمد عبد الوهاب من الحملة الضارية الظالمة للأستاذ الكبير محمد التابعى . . سلسلة من المقالات الطويلة بعنوان « فن حرامية » . . يعنى محمد عبد الوهاب هو الحرامى الذى سرق كل أغانيه وموسيقاه من الشرق والغرب . . وقد نقل الأستاذ التابعى ومن ورائه صحف أخبار اليوم ، كل ما يقوله الملحنون الشبان والحاقدون على محمد عبد الوهاب . . وكانت حملة الأستاذ التابعى معناها : أن محمد عبد الوهاب لص . . وأنه يقتبس بعنف . . ودارت المناقشات حول حدود الاقتباس المشروع ، والاقتباس غير المشروع ، أو ما هى حدود الاقتباس ؟ وما هى حدود السرقة ؟

ويقال إن حملة التابعى ضد محمد عبد الوهاب كانت شخصية . . وقيلت أسباب تافهة جدا !

وكتبت مقالا أدافع فيه عن محمد عبد الوهاب . واتهمت الأستاذ التابعى بالظلم . . وإن محمد عبد الوهاب رجل مثقف ورجل مؤرخ أيضًا وكذلك توفيق الحكيم . . وإنه يتأثر بالموسيقى حوله . . وينقل ما يعجبه ويربطنا بالغرب فى عبارة سهلة جميلة . . وإن محمد عبد الوهاب يمثل مرحلة الترجمة فى الموسيقى العربية كلها . . وإنه ليس من الطبيعى أن يظهر فى مصر بيتهوفن ما دام لم يظهر فيها فلاسفة من مثل كنت ونيتشه وشوبنهور ، ولم يظهر فيها ساسة من طراز بسمارك وهتلر ، وعلماء من طراز همبولت واينشتين . . ولذلك يجب ألا نطلب من محمد عبد الوهاب أن يكون بيتهوفن . . فهذا غير طبيعى . . تماما . . كما نلقى بذور الصنوبر والبلوط فى صحارى مصر ونتوقع منها أن تنبت وتزهر وتثمر !!

وكانت حملة عنيفة جدا . . وكان محمد عبد الوهاب فى غاية الضيق . . ولكنه قال : إن ما

يكتبه محمد التابعى يهم بعض القراء ، أما الذين يتذوقون الغناء والطرب فعندهم طلب واحد : هو أن يقدم لهم التابعى ألحانا بصوته لا تتأثر بالشرق أوالغرب !!

وماتت الحملة ضد محمد عبد الوهاب ، وعاشت ألحان محمد عبد الوهاب . . مرحلة غنية حية من مراحل الغناء والموسيقى المصرية .

وفى ذلك الوقت نشط أساتذة ومؤرخو الموسيقى الغربية . وقالوا إن محمد عبد الوهاب مطرب وليس موسيقيا . بل ليس فى مصر موسيقار واحد . . فأساس الموسيقى عندنا هى الألحان . . أما الموسيقى الغربية فهى بناء هندسى معمارى فخم ، وذلك ما لم نعرفه فى مصر . وإنما الأوربيون فقط !

وذهبت ضوضاء المؤرخين وبقى محمد عبد الوهاب : الموسيقار المطرب الملحن الفنان الشامل !

* * *

ومحمد عبد الوهاب مثل أم كلثوم . . يعتمد فى ثقافته على السماع . . أى على الذى يقال حوله فى الصالونات . . ولأن محمد عبد الوهاب ضعيف النظر ، فهو يعيش بأذنيه . . وهو يحب أن يعرف . . ولذلك فهو يسأل رجال الدين ورجال السياسة والأدب والفن والفلسفة . . فهو يكلم رجال الدين عن السياسة ورجال السياسة عن الدين ورجال الفن عن الفلسفة . . وهو حريص على أن يبدو مختلفا . .

ولكن محمد عبد الوهاب ينظر إلى كل معلوماته التى يتلقاها على أنها كلام قابل للتلحين . . فهو يسمع ما يقال ثم يديره فى رأسه ويقلبه ويبدله ويغير فيه . . ويضيف إليه من عنده ويكرر ذلك كثيرًا . . ولأنه يكرر ذلك فإنه ينسى من قال هذه المعلومات المختلفة . .

وكان محمد عبد الوهاب يطلبنى فى ساعات متأخرة من الليل ليقول لى رأيا فى إحدى النظريات الفلسفية . . وكنت أندهش لذلك . . فمحمد عبد الوهاب ليس فى حاجة إلى معلومات فلسفية . . وإذا لم يقرأ عن الفلسفة فلا ضرر من ذلك . . ولن يقلل من قيمته أنه لا يفهمها . . كما أننى لا أشعر بأننى دون خلق الله إذا لم أفهم نظرية النسبية أو نظريات نشأة الكون ؛ فالعلوم محيطات واسعة ومن المستحيل الإلمام بها . . ولا أحب لمحمد عبد الوهاب أن يحشر نفسه فى نظريات الفلسفة . . أنا أعرف وهو يعرف أنه محدود المعلومات . . وأن الذى يعجبنا فى محمد عبد الوهاب هو صوته وذوقه الموسيقى . . وليس أى شىء آخر . .

وفى يوم ضايقنى جدًا وتحيرت ما الذى أقوله له ، وأخيرًا قلت له : هذا موضوع صعب ومتخصص جدًا . . وأنا أحتاج إلى مجهود كبير لكى أجعله سهلا مثل عباراتك الموسيقية . .

وضحك محمد عبد الوهاب وقال : ياسيدى افرض أننى حمار . . هاها . . هاها !

وتضايقت أكثر . . وقررت أن أشرح له . . وأنا أعلم أن هذا الكلام سيجعله بلا نوم حتى الصباح : اسمع يا أستاذ . . إذا نحن وقفنا إلى جوار طفل بعد ولادته بلحظات . . فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بأنه سيكون محمد عبد الوهاب أو العقاد أو شوقى . . طويل العمر أو قصير العمر . . سليما أو مريضا . . غنيا أو فقيرًا . . لا أحد يستطيع أن يقطع بذلك . . ولكن شيئًا واحدًا يمكن أن نقوله ونحن على يقين من ذلك وهو : أن هذا الطفل سوف يموت . . فالموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى حياتنا . . وأنا وأنت سوف نموت بعد يوم . . بعد سنة . . الآن . . أو بعد دقائق . . فالموت هو الحقيقة . . آلو . . آلو . . يا أستاذ ! .

ووضع محمد عبد الوهاب السماعة إلى جوار التليفون وذهب يتلو القرآن حتى الصباح !

* * *

وفى إحدى المرات ذهبنا لتناول الغداء ومعى صديق سفير لمصر فى إحدى الدول الآسيوية . . وأسمعنا محمد عبد الوهاب لحنا جديدًا . . وأسعدنا ذلك . . وفجأة فتح محمد عبد الوهاب موضوعا غريبا عن سرعة الضوء فى الكون . . وأن الضوء هو أسرع شىء فى الكون . . وأن هناك علماء يرون أن الضوء ليس أسرع شىء فى الكون . . وإنما هناك نشاط إشعاعى أسرع . . وإن فى القرآن الكريم آيات تدل على ذلك . . وإن هذه الآيات لا يتذكرها الآن . . وإن الإنسان أصله قرد . . وهناك نظريات أفضل من نظريات دارون فى علاقة الإنسان بالقرد . . وإن هذه النظرية لا تخالف الأديان كلها . .

وكلها موضوعات من الصعب أن يقطع فيها الإنسان برأى . . فلا هو من علماء الفيزياء والرياضيات ولا هو من علماء السلالات الإنسانية . ولا أحد يريد أن يسمع محمد عبد الوهاب المفكر المثقف الذى يعرض علنا قضايا خلافية حادة بين علماء الدنيا . .

وأخيرًا اهتديت إلى الحيل التقليدية التى تجعل محمد عبد الوهاب يسكت بسرعة . . قلت له : تعرف يا أستاذ . . أنا نسيت أن أقدم لك السفير حمدى المنشاوى سفيرنا فى أندونسيا . . وهو من أسرة دينية وعنده شفافية روحية عجيبة . . فقد همس فى أذنى فى الدقائق التى جلسنا فيها وحدنا هنا فى الصالون فى انتظار حضورك أن فى البيت ٥٦ عفريتا . . نصفهم من الإناث . . وهم جميعا ــ الآن ــ يرددون أغانيك . . ومن العجيب أنهم كانوا يرددون عند دخولنا أغنية : النيل نجاشى . . حليوه أسمر . . عجبنى لونه . . ذهب ومرمر . . أرغوله فى إيده يسبح لسيده . . وأن السفير قد عرف المقعد الذى تجلس عليه . . لأنه رأى تسعة من العفاريت يجلسون حوله . . ثمانية على الكرسى . . وواحدة تجلس عند قدميك . . ومن

الغريب أن العفاريت قد عادوا من دفن واحد منهم . . وصديقى يسألنى إن كنت تحب أن ترى واحدا منهم الآن ؟ !

أما الصورة التى كان عليها محمد عبد الوهاب فدعنى أصفها لك : لقد ارتدى محمد عبد الوهاب قميصًا وبنطلونًا وكان مشرق الوجه . . ولكن بدأت الخلايا المضيئة فى وجهه تنطفئ واحدة واحدة . . حتى شحب الوجه كله . . وظهرت قطرات من العرق . . وارتد إلى الوراء ومدد رجليه إلى الأمام ونظر ناحيتنا كأنه يتساءل لماذا جئنا ؟ ومتى سننهض إلى غير رجعة ؟ وإن كان الذى يقوله السفير صحيحًا ؟ وإذا كان صحيحًا فكيف يأخذ معه كل هذه العفاريت إلى خارج البيت . . فليس فى حاجة إلى المعجبين من العفاريت !

وبعد لحظات طويلة قال محمد عبد الوهاب كأنه يتكلم من تحت الماء : كيف تموت العفاريت . . إن الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر قال لى مرة : إن العفاريت لا تموت . . لأن حياتهم الطويلة هى سلسلة من العذاب الذى لا ينتهى إلا يوم القيامة !

قلت : يا أستاذ لقد جاء صديقى السفير لأنه من أشد الناس حبا لك . . لقد جاء ليخلص البيت من كل هذه العفاريت . . أما حكاية العفريت الذى مات هنا ودفن فى إحدى الغرف . .

ونهض عبد الوهاب واقفًا : يا نهار أسود ومطين . . عفريت ميت هنا ؟! ألم يجد مكانًا آخر ؟ وطبعا سوف يجيء ملايين العفاريت من كل الدنيا لزيارة قبره وقراءة الفاتحة على روحه المهببة !!

. . ولم ينس محمد عبد الوهاب هذا المقلب !

يرحمه الله . . أما فنه فباق . . ما دام هناك طرب وموسيقى وذوق . . أما الإنسان الظريف اللطيف ابن البلد الصديق الودود والطبيب المتطوع لعلاج كل أوهام البرد والزكام ، فهو الذى لن نسمع له بعد اليوم كلمة : هالو . . يقولها بطريقة خاصة متميزة . . فقد كان محمد عبد الوهاب حريصًا على أن يختلف عن كل خلق الله . . قولا ووهما وفعلا ولحنا !

فريدريش ديرنمات : في البدء كانت النكتة!

فى يوم جاءنا الأديب العظيم مالرو وكان وزيرًا للثقافة الفرنسية وأقام له د. عبد القادر حاتم حفل غداء . وألقى كلمة قال فيها : إنه من محاسن الصدف أن ظهرت الترجمة العربية اليوم لرواية « المشوار الطويل » من ترجمة الأديب فؤاد كامل عبد العزيز وهى من أروع أعمال مالرو عن ثورة الصين . .

فقلت للدكتور حاتم : أنت أعلنت عن عمل عظيم لمالرو ، وعن غلطة عظيمة لك . .

فسألنى ما هى ؟ قلت : إنك لم تستأذن فى الترجمة ولم تعطه حق الأداء العلنى !

* * *

وفى أول لقاء لصديقى الأديب الإيطالى البرتومورافيا قلت له : من محاسن الصدف أن تظهر اليوم بعض قصصك بالعربية من ترجمة الأديب حلمى مراد .

فأخرج مورافيا قلما وورقة ليكتب اسم المترجم ودار النشر . فسألته : ولماذا ؟ قال : لكى أحصل على حقى كمؤلف !

ثم أخذ القلم كأنه سيجارة رديئة لها رائحة كريهة عندما قلت له : ولكننا لم نوقع بعد على اتفاقية برن التى تعطيك أى حق . . فنحن أحرار نترجم . نقتبس . . نسرق ولا ينطبق علينا أى قانون . . تماما مثل روسيا وأمريكا ! .

ولما قابلت صديقى الأديب السويسرى فريدريش ديرنيات فى الفيلا الجميلة التى يسكنها على سفح جبل فى مدينة نيوشاتل قلت له : إن مسرحيتك « علماء الطبيعة » قد ظهرت على المسرح . وهى من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى .

كان سعيدًا جدا . وكتب اسم المترجم واسم المسرح الذى ظهرت عليه . .

ولما وصلت إلى القاهرة وجدت الناشر السويسرى قد بعث بخطاب طويل إلى وزير الثقافة

المصرى يطالب بحق الأداء . . ولكن المسرحية عادت علينا بخسارة مادية . . فالمسرحية فلسفية جادة ، ولم تلق ترحيبًا ولا إقبالا فى مصر . .

ولم تشأ وزارة الثقافة المصرية أن تقول هذه الإهانة . والتزمت الصمت . وكان الصمت إهانة له . . بينما خسارة المسرحية إهانة لنا ! .

ودخل اسم ديرنمات فى عالم الثقافة المصرية كشىء غريب . . وقد تصوره بعض المثقفين أديبا لا معقولا . . مثل يونسكو وبيكت وغيرهما . ولكن اسم ديرنمات انتشر ، دون أن تكون لدى أحد أية معلومات كافية عنه . .

حتى إن الكاتب الساخر أحمد رجب قد « فبرك » مسرحية من فصل واحد باسم « الهواء الأسود » وراح يعرضها على المثقفين المصريين لإبداء الرأى فيها . فكان إعجابهم بها شديدًا جدا . وعلى الرغم من أنها نكتة . . فإن المسرح القومى فى بغداد قد عرضها على أنها أحدث أعمال الأديب السويسرى ديرنمات . .

وترجمت أنا لديرنمات مسرحيات ، رومولوس العظيم بطولة صلاح منصور وزوز نبيل . . وزيارة السيدة العجوز . . وهبط الملاك فى بابل . . وزواج السيد مسيسبى . . وفرانك الخامس . . والشهاب بطولة د. إبراهيم سكر وظهرت على مسرح الجيب . . ثم ظهر تمصير لمسرحية هبط الملاك فى بابل بعنوان « سلطان زمانه » بطولة عبد الله غيث . .

وترجمت له عددًا من الروايات أيضًا ، يونانى يتزوج يونانية . . والمحاجر . . والجلاد . .

وأصدرت عنه دراسة ظهرت فى مجلة « الاتجاهات الأدبية » فى سويسرا موضوعها . «ديرنمات عربيا » . .

* * *

كان الطريق إلى بيت ديرنمات ثعبانيا . ولا يمكن إلا أن نكون فى حالة من الرعب . . فالطريق صاعد والأتوبيس - لا شىء غير الأتوبيس - سريع جدًا ويتلوى ويتكسر والأتوبيسات القادمة يكاد يصطدم بعضها ببعض . ولكن لم يقع حادث واحد من خمسين عاما . . والوادى سحيق . . وكان الخيار أمامى : إما أن أتوقع صدمة من الأتوبيس القادم . . وإما أن أتوقع دحرجة هذا الأتوبيس إلى مئات الأمتار بين الغابات . . فاخترت أن أرى الأتوبيسات التى لها شكل القذيفة وسرعتها . .

ولم نجد أحدًا نسأله : أين يسكن فريدريش ديرنمات (٦٩ عاما) . . ومضينا على أقدامنا فى طريق محفوف بالغابات . . والصمت بارد . . والبرودة منعشة . . وأخيرًا وجدنا سيدة قالت : ديرنمات ينتظرك ! .

وكان يرافقنى سفيرنا فى سويسرا صديقى المرحوم توفيق عبد الفتاح . . الذى شاء تواضعه العظيم أن يقوم بدور المصور لنا . .

فريدريش ديرنيات . قصير القامة . دماغه كبير مستدير مثل كرشه تماما . . وصوته منخفض غليظ . . قبيح ؟ نعم . . ومنظاره كبير . . وكأنه طفل قادنا إلى الغرفة التى يكتب فيها . . فهو رسام أيضًا . . ولذلك فالمنضدة التى يكتب عليها هى منضدة رسم . . وهو يرسم شخصياته بالفرشاه قبل أن يكتب عنها . ولذلك فكل مسرحياته قد امتلأت بالرسوم الكاريكاتورية . . والغرفة لها نافذة زجاجية واحدة . . الحائط كله من الزجاج يطل على الغابات وعلى المنحدرات الجبلية . . وليس فى الغرفة إلا عشرات الأقلام والفرش . . لقد رأيت مثل هذا المنظر من قبل فى بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا . فقد أدهشتنى الأقلام الرصاصية الكثيرة جدا . والأحذية الكثيرة جدا على الأرض . . تماما كالأستاذ العقاد الذى تغطت غرفة نومه بالأحذية الواسعة لأنه يضيق بالأحذية الضيقة . .

ثم قال لنا إن هذه الفيلا الصغيرة قد أعدها للقراءة والكتابة . . وأشار إلى الطابق العلوى فقال : إنه للكتب والقواميس . . أما فى غرفة الكتابة فلا يوجد كتاب واحد . . ثم قال إن هناك فيلا أخرى للأسرة . . للزوجة والأولاد والضيوف . . وبين فيلا الكتابة وفيلا النوم يوجد حمام سباحة صغير . . وكأنه يتحدث إلى نفسه فقال : إنه عندما يكون مشغولا بفكرة مستعصية عليه ، فإنه يستحم . وبمجرد نزوله إلى الماء ، فإن الفكرة تتولد . . كأن أفكاره نوع من السمك لا يعيش إلا فى الماء . . وحتى لا يخرج من الماء ليسجل هذه الفكرة فإنه قد ابتدع لنفسه منضدة عائمة . وعلى المنضدة توجد ألواح من البلاستيك يسجل عليها أفكاره وهو فى الماء . . وقد اخترع له أحد أصدقائه أقلاما يمكن أن تكتب فى الماء . . وقد اخترع له حبرا إذا تبلل بالماء فإنه يثبت على أى سطح حتى لو كان معدنيا . .

أما زوجته الأولى فهى ممثلة . وقد توقفت عن التمثيل واكتفت بقراءة مسرحياته وإبداء الملاحظات عليها . ومتابعة ظهورها على المسرح واتفاقها مع الممثلين والمخرجين ! .

وقال لى ديرنيات فى حسرة : تصور أن عدد النقاد الأجانب الذين يحرصون على لقائى أضعاف أضعاف النقاد السويسريين . . وإننى لم ألق احتراما عظيما فى بلدى إلا بعد أن ظهرت مسرحياتى فى لندن . . وإلا بعد أن نقلت الصحف السويسرية رأى الإنجليز . . وقد أيقنت فعلا أن كل نبى فى وطنه مهان . . . وأن زمار الحى لا يطرب أهل الحى ، وإنما أهل الأحياء الأخرى . . وأن الدخان القريب يعمى . . يعمى لأنه قريب . . ولابد أن يكون الدخان بعيدًا نهارًا كما كان يفعل النبى موسى عليه السلام فى سنوات التيه . . فقد كان يطلق الدخان نهارًا ، ويشعل النار ليلاً حتى يهتدى إليه بنو إسرائيل ويمشوا وراءه أربعين عامًا . .

بهذه السهولة وجدت نفسى بين أسرته . وهم يسألوننى عن الأدب والفن فى مصر . . وسألته : إن كان قد قرأ أدبا مصريا معاصرا ؟

قال : أبدا . .

سألت : ألم يسمع عن الحكيم ؟ .

ـ أبـدًا .

ـ ولا طه حسين ؟

ـ أبدا . قرأت فقط بعض أجزاء . . ألف ليلة وليلة .

وخشيت أن أسأله إن كان قد سمع عن أستاذنا العقاد ـ رغم أن العقاد قد مات . فقد غضب منى الأستاذ العقاد عندما سألت عنه سومرست موم ، وكان فى فندق سميراميس القديم . فقال : إنه لم يقرأ إلا ألف ليلة وليلة ! .

وكتب العقاد مقالا غمزنى فيه وضايقنى وقال : لو أن أحدًا لم ير الشمس ، فليس عيبا فى الشمس ، ولكن الرجل أعمى أو أعمش . . أو محرر فى أخبار اليوم ! .

فقلت للأستاذ العقاد : أو هو سومرست موم !

* * *

وفريدريش ديرنمات ابن نكتة . ، . رغم أن شكله أو صوته لا يدل على ذلك . . وهو يبحث عن النكت فى التاريخ ويجعلها « عقدة » أعماله المسرحية :

مثلا : حكاية الفنان اليونانى الذى أحرق بيته وقتل أبويه وظل يبكى لأنه أصبح يتيما فقيرًا .

هذه هى « عقدة » مسرحية « رومولوس العظيم » . آخر ملوك الأمبراطورية الرومانية الغربية الذى دخل حروبا لا مبرر لها لكى يضعف روما ويجعلها على البلاطة . . ويصفيها قبل أن تصفيه ويحاكمها ويدينها قبل أن تدينه وتقضى عليه . .

وقال النقاد الفرنسيون عنها : إنه يقصد الجنرال ديجول . .

وقيل جمال عبد الناصر .

ومن الممكن أن يقال الآن إنه كان يتنبأ بصدام حسين أيضًا ! .

وكذلك نكتة الرجل العاطل المحكوم عليه بالإعدام وفى حاجة إلى بعض المال فراح يشارك فى حفر قبره . . وهى « عقدة » مسرحية (زيارة السيدة العجوز) عن السيدة الغنية التى جاءت تنتقم من حبيبها الخائن . . فقررت المدينة إعدام هذا الرجل . . فكان كل يوم يمر على أهل المدينة ، وهم يحفرون قبره ! .

ونكتة الشحاذ الهاوى والشحاذ المحترف . . فالشحاذ المحترف أبرع . ولكن الشحاذ الهاوى لا يعرف فنون التسول فكان أكثر فقرا فاستحق جائزة السماء . . وهذه « عقدة » (هبط الملاك فى بابل) . .

ونكتة القضاة المحالين إلى المعاش جلسوا يتسلون فى بيت فى قمة جبل . . فهم يقلبون فى دفاترهم القديمة وينصبون المحاكمة كل يوم فيقوم بعضهم بدور القضاة والمحامين ووكلاء النيابة والمتهمين . . حتى جاءهم رجل يدق بابهم يسأل المساعدة لسيارته التى توقفت فجأة . . فانتهزوا هذه الفرصة وظلوا يستدرجونه حتى عرفوا أنه قاتل هارب . . واستدرجوه أكثر حتى اعترف بأنه قاتل مع سبق الإصرار والترصد . . وأدانوه ونفذوا فيه حكم الإعدام ! !

والرجل الذى استأجر حمارًا . ثم جلس فى ظله . فجاءه صاحب الحمار يقول : لم نتفق على الجلوس فى ظل الحمار . . فأنا أجرت لك الحمار فقط أما الجلوس فى ظله ، فيجب أن تدفع عليه أجرًا إضافيًا . قصة . ونكتة . وتمثيلية إذاعية جميلة . .

* * *

ديرنيات كانت زوجته الأولى ممثلة والثانية مخرجة للتلفزيون الألمانى . . تغيب عنه أربعة أيام كل أسبوع ثم تجىء إلى جوار فراشه فى نهاية الأسبوع . فعلت ذلك أيضًا عندما كان ديرنيات فى أسوان فقد غابت ليلة مع أحد أبناء النوبة ! .

ومات ديرنيات قبل حضورها بيومين . مات وحيدا ـ دون أن يدرى به أحد . . فقد كان مصابا بالسكر . . وكان قد تعاطى حبوبا فنام وجاءت إغماءة السكر . . فنام ومات دون أن يدرى أنه مات ! .

وألبرتو مورافيا كانت زوجته الأولى ألزه مورانته أديبة . . وزوجته الثانية أديبة . داتشامارياني . . وزوجته الثالثة راقصة . . ومات هو الآخر فى الحمام . . وبعد يوم طويل عرفت الزوجة أنه مات ! .

* * *

سألت ديرنيات : ولماذا الكوميديا ؟

قال : لأنها أنسب شىء لهذا العصر الذى نعيش فيه .. ففى زماننا الكثير من القلق والخوف . . ولابد أن نخفف عن الناس بالضحك عليهم والسخرية منهم . .

فقلت : لابد أن نزغزغ الناس بسكين . .

فوقف يقول : بشرط ألا نجرح ونسيل دما . فالدماء كثيرة أيضا !

سألته : هل أنت فى صحة جيدة ؟

قال : لا .

قلت : سويسرى ليس فى صحة جيدة ؟!

قال : والسويسريون يموتون أيضًا !

ثم اعتدل فى جلسته ليقول : عندى إحساس أننى من الناحية الأدبية قد أوشكت على النهاية . . فلم يعد عندى شىء أقوله . . ولست آسفا على ذلك . . فالذى قلته كثير . . وسوف يعيش طويلا . . ولست أستطيع أن أكون فى صحة جيدة . . فليس من الممكن أن تصعد جبلا عاليا ولا تلهث . . هل أنت وجودى ؟

قلت : نعم . . ولكن أدخلت تعديلات كثيرة على فهمى للفلسفة الوجودية التى أنتمى إليها . .

قال : وكيف ترانى ؟ .

قلت : أنت نفسك شخصية وجودية فى مسرحية اشترك فى تأليفها الأدباء شكسبير وموليير وبرخت والفلاسفة هيدجر وياسرز وسارتر .

قال : . . وأنا ! .

الفراعنة اكتشفوا استراليا واكتشف العرب أمريكا ؟

الرحالة البرتغالى فاسكوداجاما (١٤٦٩ ـ ١٥٢٥) قد اختاره الملك أمانويل السعيد ليدور حول أفريقيا . . فوصل رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ بمجموعة من السفن بها ١٦٠ بحارًا .

ثم واصل سيره فى المحيط الهندى حتى وصل إلى مدينة كلكتا . وفى هذه المدينة استقر البرتغاليون . تركوا عددًا من البحارة اغتالهم الهنود . وحاول داجاما أن يعود إلى كلكتا . فتكاثر الهنود عليه . وعاد إلى بلاده ليستعد بسفن وبحارة أكثر وأسلحة أكثر فتكا . .

وعاد داجاما بعد عشرين عاما ليكون نائبًا للملك البرتغالى على شرق الهند . ومات بعدها بأسابيع .

فمتى ظهر الرحالة العمانى ابن ماجد ؟

الحكايات كثيرة . وبعضها خرافى أيضًا . فيقال إن ابن ماجد كان فى زورق صغير . وكادت الأمواج تقضى عليه . ولكن داجاما هو الذى أنقذه . وقرر ابن ماجد ، امتنانا لهذا القبطان أن يساعده فى اكتشاف السواحل الأفريقية والآسيوية أيضًا . ويقال أيضًا إن ابن ماجد كان مرحا . وكان جميل الصوت يغنى ويرقص . وعندما ظهر ابن ماجد وسط البحارة البرتغاليين عرفوا المرح . . وكان يطهو لهم الأطعمة الشرقية . وفى نفس الوقت كان على دراية بفن الملاحة ومواقع النجوم . ونظر داجاما إلى ابن ماجد على أنه ساحر شرقى متعدد المواهب . فجعله مساعده الخاص !

ويقال إن ابن ماجد هذا عندما وصل إلى الهند وقعت مشادة بينه وبين داجاما . هذه المشادة انتصر فيها على الرحالة البرتغالى الكبير . . لدرجة أن البحارة الذين كانوا يكرهونه قد أودعوه السجن . واختاروا ابن ماجد قائدًا لهم !

وهذه الحكاية غير معقولة . ولكن المعقول هو أن رجلا آخر اسمه داجاما ظهر فجأة على

مسرح العمليات البحرية . فعندما نزل داجاما إلى الساحل الهندى فوجئ برجل أبيض له لحية. هذا الرجل وقف لتحيته على الشاطئ ، ومعه ورد وزهور وهدايا من حاكم الإقليم الهندى . ونزل فى أثره البرتغاليون واعتقلوه . من هو ؟

إنه يهودى جاء من بولندا . اعتقلوه وباعوه فى سوق العبيد .

وانتقل من سيد إلى سيد حتى وصل إلى الهند . كيف ؟ هذه قصة أخرى . ولا أحد يعرف الاسم الأصلى لهذا البولندى . ولكن داجاما أعطاه اسمه بعد أن تحول إلى الديانة المسيحية . اسمه الجديد جاسبر داجاما .

ولا نجد لهذا الشخص الغريب أى أثر إلا فى دوائر المعارف اليهودية فقط . فالموسوعات اليهودية تتحدث عن جاسبر هذا فتقول إنه ساعد داجاما . كما أنه ساعد الرحالة الإيطالى أمريكو فسبوتشى الذى اكتشف أمريكا . واتخذت أمريكا اسمها منه . . ويقال إنه هو الذى ساعد على اكتشاف أمريكا . وإن لم يساعد أمريكو ـ وهى عادة يهودية أن يجدوا شخصا يهوديا وراء كل حدث وقع فى التاريخ ، فإن لم يكونوا هم الذين اكتشفوا أمريكا ، فقد كانوا هناك أو ساعدوا على ذلك!

وجاسبر هذا هو الذى اصطدم بابن ماجد ، ويقال تشاجرا ، ويقال تقاتلا بالسلاح . وجاسبر هو الذى اعتدى على ابن ماجد دون سبب واضح إلا الحقد عليه . وانتصر الرحالة الكبير للبحار العربى ابن ماجد ، وحبس جاسبر بعد أن جلده وحرمه من الطعام والشراب أياما !

* * *

وفى رواية « الشطة ووجع القلب » للأديب الإيطالى أرنولدو باريزى ، التى يتحدث فيها عن الرحلات البحرية واكتشاف آسيا والتوابل والحرير ، نجده فى الفصل السادس يتحدث عن ذلك الفتى الأسمر العربى ذى الشعر الكثيف والأنف الكبير والعينين الواسعتين ، الذى لا يكف عن الضحك والغناء والصلاة أيضًا . ويصوره رجلاً متسامحًا لطيفًا . حتى إذا اعتدت عليه زوجته بالضرب كان يضحك ويقول لها : ولكنك تموتين جوعًا إذا قتلتنى . . ثم ينهض يصالحها ويقبل رأسها ويديها ويدعو لها بالصلاح والتقوى ، ويطلب إليها أن تؤدى الصلاة ولكنها ترفض . ويطمئن هذا الشاب العربى الأسمر طويل البال حين يقول لها . ولكن الله هداك إلى الإسلام . . وسوف يهديك إلى الصلاة والصوم والحج إن شاء الله !

وأخيرًا اتفقا : أن يطلق زوجته الثانية الهندية . وطلقها . ولكنه رأى أن تعيش هى وأولادها معه . فى خدمة زوجته الأولى .

وفى هذه الرواية أن الزوجة الأولى هى ابنه جاسبر داجاما ، اليهودية التى أسلمت ؟!

وعندما طلق زوجته الهندية المسلمة ، عادت زوجته « زليخة » ـ وهذا هو اسمها العربى ولا يعرف اسمها البولندى ـ إلى الصلاة والصوم ، ويقال إنها ذهبت مع إخوتها المسلمين إلى الحج (؟!)

ولكن هذه الرواية لم تذكر اسم ابن ماجد . . ولعل المؤلف الإيطالى قد فضل أن يسميه داماجيو ، لأنه أقرب إلى الأذن الإيطالية من ابن ماجد العربية . فهو ـ إذن ـ البحار العمانى ابن ماجد . .

وربما كان هذا هو أساس الخلاف بينه وبين جاسبر داجاما ـ أى الخلافات التى كانت بين ابن ماجد وزوجته .

ويقال أيضًا فى كتاب « قصص بحرية » للمؤرخ جوريس دى ملجا : إن ابن ماجد قد اشترط فى رحلته مع داجاما أن يصحب معه زوجته . ولما قيل له إنه لا مكان للمرأة بين ١٢٠ رجلاً . كان رد ابن ماجد أنه يخاف الفتنة . وأنه لا يريد أن يرتكب معصية . . ثم إن زوجته هى الأخرى خبيرة فى شئون الطهى والصيد والملاحة والسياحة والقتال . . ويقال إنه أراد أن يدلل على شجاعة زوجته ، وكانت فى العشرين من عمرها ، فانزلوها إلى البر . . وبعد ساعة عادت تجر أسدًا قتيلاً ! . .

والقصة تبدو غير معقولة . ولكن المؤلف يقول إنه سمعها بأذنه من بعض القبائل العربية فى حضرموت بعد وفاة ابن ماجد بتسعين عاما . .

* * *

وليس صحيحا ما قيل من أن ابن ماجد سافر إلى البرتغال والتقى بالملك . وعرض عليه الملك أن يكون برتغاليا وأن يكون قائدًا لأسطول كبير ، وأن يزوجه إحدى الأميرات بشرط . . أن يتحول إلى الكاثوليكية !

أرجو قراءة كتاب « مغامرات هندية » تأليف خوسيه ديات داباربا . .

ولابد أن يستشعر الإنسان الحزن على إهمالنا لتاريخنا . فلا نجد أبطالنا ، ولا نرد على أكاذيب الحاقدين علينا . وما أكثرهم وما أكثر إهمالنا وبلادتنا أيضًا .

وسوف أنقل لك هنا حوارًا ، حتى لو لم يكن صحيحًا فقد أعجبنى ، وهو بين ابن ماجد وداجاما فى إحدى الليالى القمرية ، وقد لعبت برأسيهما الموسيقى وغيرها . . ودارت عيونهما مع الراقصات الهنديات السمراوات الرشيقات العاريات . .

والآن أصف لك المكان ، كما جاء فى الفصل السابع من رواية « الشطة ووجع القلب » . على الشاطئ تحت أشجار جوز الهند ، والناس يتحركون فى الظلام والظلال . وأصوات القرود والطيور الجارحة تتردد أصداؤها وتضيع مع موجات البحر . . وروائح الزيت والبخور والعفونة فى كل مكان . والرحالة البرتغالى ، كما هى عادته ، يروى مغامراته ، وما الذى رآه فى نومه وكيف أن مريم العذراء قد ظهرت له أكثر من مرة تؤكد على اقتراب الشاطئ . وأنها هى التى هدته وسط الظلمات . وأنها هى التى أكدت له أنه سوف يكون الملك .

وبعد أن فرغ من حكاية هذه الملحمة التى ضاق بها البحارة . بعد أن سمعوها ألوف المرات ، التفت داجاما إلى ابن ماجد وقال له .

وأنت لم تقل لى شيئًا عن رحلاتك . .

أ . م: رحلات محدودة . فليست عندى هذه السفن الضخمة التى تستطيع أن تعبر المحيط . .

د . ج : ولم يكن عندك طموح .

أ . م : عندى ولكن لا أستطيع أن أحققه . . وفى الكتب التى معى أن الطريق الذى سلكناه هو الصحيح . وأعتقد أن هناك طريقا إلى الجانب الآخر من الكون إذا اتجهت إلى الصين . . ومنها شرقا . . إلى أقصى الشرق . .

وتقدمت الهنديات يحملن المشروبات المخمرة ، فأخذ داجاما وعاء كبيرًا وشرب منه . والثانى ألقاه على رأسه وجسمه . ويقال إن ابن ماجد فعل نفس الشىء (؟!) .

وجاءت فتاة هندية جميلة ووضعت قدميها فى وعاء من الخمر . . وراح داجاما يغسل قدميها . . ثم يقبل القدمين ويمتص أصابع قدميها ويديها . . ويدعو ابن ماجد أن يفعل ذلك حتى لا يغضب الهنود . ولكنه لم يفعل مشيرا إلى أن دينه يمنعه من ذلك .

ووقف ابن ماجد يصلى . . أو يؤذن للصلاة ، وكان الليل قد انتصف (؟!) ثم أشار إلى بعض الهنود أن يقفوا وراءه . . وتقدمت فتاتان فقط . إحداهما زوجته والأخرى أختها . وركعوا وسجدوا (؟!) .

* * *

وإن لم يكن هذا الحوار صحيحًا .

فإن المؤلف يصف ابن ماجد ، ولكنه لا يدرى أن الخمر حرام عند المسلمين . ولا يعرف بالضبط متى يكون الأذان والصلاة . .

ولكن أهم ما جاء فى هذا الحوار هو أن ابن ماجد قد أشار إلى أن الجانب الآخر من الكون ـ أمريكا الآن ـ يمكن اكتشافه إذا سارت السفن فى اتجاه الصين شرقا ، وعبر المحيط الهادى . أى اكتشاف السواحل الغربية لأمريكا ، وليست السواحل الشرقية التى اكتشفها كولومبوس وأمريكو فسبوتشى .

هذا هو أخطر ما جاء فى هذه الرواية التى بها بعض الواقع ، والكثير من الأخطاء والخيال . . من يدرى ، لو أن أحدًا تعمق ما جاء فى هذه الرواية ، وراح يبحث عن المصادر التاريخية للمؤلف ، فربما كشف لنا أن العرب هم أول من عرف الطريق إلى أمريكا . . من يدرى ربما يكشف لنا أنهم وصلوا إليها قبل الإيطاليين .

إننى شخصيًا قد لاحظت أن البحارة والصيادين فى جنوب الهند فى مدينة كوتشين التى مات فيها داجاما ، ومدينة ترانفتكور ، ينطقون بكلمات فرعونية قديمة .

من يدرى ربما وصل الفراعنة إلى هذه المنطقة .

وقد وجدت فى استراليا وفى مدينة برث غربى استراليا بعض النقوش الفرعونية . . وبعض الكلمات الهيروغليفية . . وقد لاحظ المؤرخون الإنجليز أن الفراعنة وصلوا إلى استراليا . .

سيادة الرئيس عبد القيوم :
عفوك عن هذه السيدة !

كنت فى جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ عندما وقع انقلاب فى جزر المالديف . . وهى حوالى ألفى جزيرة إلى الشمال الغربى من سيلان . وقبل هذا الانقلاب كنت أعتقد أن « مالديف » هو اسم الرجل الذى رسم خريطة العالم . . وأنه وقع باسمه على جانب من الخريطة . ولكن عندما نشرت الصحف أنباء الانقلاب عرفت أن مالديف . دولة . . وأن الشعب يعيش على مائتى جزيرة فقط . وأن دينها الإسلام . ولغتها خليط من السنهالية والعربية . وأن البرتغاليين والهولنديين والإنجليز قد تناوبوا حكم هذه المواقع البحرية الهامة . . وأنها استقلت تمامًا سنة ١٩٦٥ . وأصبحت دولة من دول العالم الثالث . .

وكان الإنجليز قد اتخذوا من إحدى جزرها قاعدة عسكرية . ثم عدلوا عنها . وطلب الروس أن يستفيدوا من هذه القاعدة ، ولكن الحكومة اعتذرت . ورفضت أيضًا الانضمام إلى الكومنولث . وكان نظام الحكم فى المالديف ملكيا . . فقد حكمها عدد كبير من السلاطين . وتحولت إلى جمهورية لمدة سنة فيما بين ٥٣ و ١٩٥٤ . . ثم عادت سلطنة . . وتحولت إلى النظام الجمهورى نهائيًا . وكان الرئيس إبراهيم ناصر أول رئيس لها سنة ١٩٦٨ . .

والرئيس مأمون عبد القيوم هو الرئيس الثانى منذ سنة ١٩٧٨ . .

والجزيرة العاصمة ثلاثة أمثال مساحة طابا ، أى كيلو مترين ونصف . . وعدد سكانها فى مثل عدد موظفى الإذاعة والتلفزيون أى حوالى ثلاثين ألفا . . وهى جزر استوائية تعيش على الأسماك وجوز الهند . والسياحة من أهم مواردها . وروادها من الرومانسيين الألمان الذين يختارون كل سنة جزيرة مهجورة ويقيمون عليها الخيام ، ويعيشون حياة الإنسان الأول حرًا عاريًا . .

وقد زارها الرحالة العربى ابن بطوطة وأقام فيها وكان قاضيا بين الناس . وأسعدته الحياة البسيطة الهادئة . واستراح إلى صفاء قلوب الناس وعميق إيمانهم .

وجزر مالديف هى إحدى الدول الصغيرة جدا فى العالم . .

مثلها جمهورية « أندورا » الواقعة بين أسبانيا وفرنسا وعدد سكانها ٣٥ ألفا من الأسبان . ولكن لغتهم الكاتلان . . وهى دولة قديمة . يرأسها رجلان : كبير الأساقفة وهو أسبانى ورئيس جمهورية فرنسا . وتنص المعاهدات المبرمة بين الدولتين على أن تدفع إمارة أندورا مبلغ دولارين كل سنتين للحكومة الفرنسية ؟!

وعندما اعتذرت للأسقف الأعظم عن لغتى الأسبانية قال : الفرنسية تكفى . . أنت هنا تتكلم الكاتلان ؟

أى إنهم لا يتكلمون الأسبانية ولا يريدون ولا يحبون ! ويتردد عليها مليون سائح سنويا .

ومثلها أيضًا إمارة ليختنشتين الواقعة بين سويسرا والنمسا . . يحكمها أمير ألمانى وعدد سكانها خمسة وعشرون ألفا . أذكر أننى جلست فى أحد مطاعمها . وكان جارى دائم الاعتذار ولا أعرف لماذا ؟ . ولاحظت أن فى يده جنزير بسكلت . . وأنه ينظفه ويحدث بعض الأصوات . وهمس الجرسون فى أذنى : إنه الأمير . .

أى ملك هذه الإمارة الصغيرة !

* * *

ومثلها أيضا جمهورية « سان مارينو » وهى إمارة تقع فى شمال إيطاليا وعدد سكانها ١٥ ألفا . ولغتهم ومعاملاتهم إيطالية . وكانت تعيش على كازينو قمار . أغلقوه . وتعيش الآن على السياحة . وتجرى فيها انتخابات نصف سنوية لاختيار واحد من الأميرين اللذين يحكمانها بالتناوب !! .

قلت لأحد بائعى الكتب : وأى فرق بينكم وبين إيطاليا . . إنكم تتكلمون الإيطالية . .

فقال مستنكرا : من قال ؟! إننا نتكلم السان مارينيز .

أى اللغة الخاصة بسان مارينو . . ولابد أن تضحك . . تماما كما تقول لواحد من سوهاج : ولكنكم تتكلمون العربية مثلنا !

فيرد غاضبا : بل الصعيدية !

ولكن هذا الاعتداد والاعتزاز بالنفس هما اللذان جعلاهم يقيمون لأنفسهم إمارة مستقلة عن إيطاليا من مئات السنين ! .

ولم أندهش عندما زارنى بعد عودتى من رحلتى حول العالم فى يناير سنة ١٩٦٠ اثنان من الشبان . طالبان أزهريان . آسيويان . دخلا على استحياء . وتكلما عن رحلتى وعن الذى

رأيت . . ووجدتنى أتكلم وأقول وأعيد . . وأتمنى لو أقوم بهذه الرحلة مرة أخرى وعلى مهل . . وكررت لهما ما تمناه طه حسين ، وجاء فى مقدمة كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » فقد تمنى لى أن أقوم بمثل هذه الرحلة فى الدول الأفريقية والعربية . . وتمنيت أنا أن أظل ساكتا سنة أخرى . . أحاول أن أهضم كل هذا الذى ابتلعت فى القارات الخمس . . ولكن لم تمض سوى أيام حتى سافرت إلى الكونغو مع قوات الطوارئ المصرية بقيادة اللواء سعد الدين الشاذلى . .

وتساءلا : إن كنت أشعر بملل إذا سافرت إلى نفس البلاد . .

قلت : أبدًا . . بل أستطيع أن أرى المكان مائةمرة ولا أزهق . . وأسمع اللحن والأغنية والقصيدة ولا ملل . . وآكل الطعام الواحد عشرات المرات ولا أقول له : أفٌ . . فليس من السهل أن أمل . . وإنما أنا انشغل تماما بالنظر إليه والاستماع والتذوق وأجد جديدًا . . بل إننى أستطيع أن أجلس على المقعد الواحد ساعات دون أن أتحرك . . فأنا كسول الحركة . نشيط الفكر . .

فوجدتهما يضحكان كأنهما يخفيان شيئًا . أو يريدان شيئًا ولكن يترددان . فسألتهما : ماذا؟

قالا : جئنا ندعوك لزيارة بلادنا . . إنها صغيرة . . ولكنها بلادنا . . وشعبنا خليط من الهنود والزنوج والعرب . . مسلمون سنيون . . صغار ولكن لنا تاريخ . . وتاريخنا فيه الكثير من المواقف الكريمة . . والبطولة أيضًا . . ولكن لأننا بعيدون جدًا عن العين وعن الأذن . . فإن أحدًا لا يدرى بنا . . ولكننا ندرى بكم . . وبك . . ولذلك جئنا ندعوك . .

قلت : وأنا أقبل الدعوة فورًا . .

قالا : ألا تريد أن تعرف بلادنا ؟ .

قلت : . . ما دامت بهذه الصفات . . وما دمت لم أرها ، فأنا مستعد تماما للسفر اليوم أو غدًا . . وبملابسى هذه وبلا حقائب . أين ؟

قالا : جزر المالديف ! .

واعتذرت لهما عن جهلى السابق بهذه البلاد . . وإن كنت أعرف أصدقاء لى من بورسعيد ومن السويس من عائلة السلطان الديدى . . والذى أضحكهما هو أننى تصورت أن النقط التى جاءت تحت كلمة « مالديف » فى الخريطة قد ظننتها بقعا وقعت من ريشة الرسام . مالديف !

أحد هذين الشابين هو مأمون عبد القيوم ـ الرئيس الحالى لجمهورية المالديف !

ولما جاء الرئيس مأمون عبد القيوم إلى مصر بادرت إلى زيارته فى قصر الضيافة مع الصديق المرحوم كمال الملاخ . وعانقت الطالب الشاب ولكن لم أجد إلا رئيس الدولة . . لقد اتخذ شكلا آخر . أطلت النظر إليه . . ذهبت الابتسامة ومعها الشباب . والتفت البدلة حوله إطارًا من القماش الصلب . . وظهرت النظارة الزجاجية حائلاً شفافا بينه وبين الناس . . ونظرت إلى الكرسى ، إنه يحاول بصفة مستمرة أن يملأه . . وقد ملأه بالفعل . . ووجدته يتحدث عن الإصلاح فى التعليم والتربية الإسلامية . . وإنه سوف يستعين بالخبرة المصرية . فى كل شىء . . فقد عاش فى مصر وتعلم فيها . . وآمن برسالة الأزهر . . وإنه سوف ينقل كل ذلك إلى بلاده لتبقى لؤلؤة مضيئة وسط المحيط البوذى والكونفوشى والماركسى فى آسيا . . فالحضارمة ـ أبناء حضرموت ـ قد نقلوا إلى بلاده الإسلام فى القرن التاسع الميلادى . وأصبحت الآن هى الديانة الوحيدة . .

ولاحظت أنه استضاف عددًا كبيرًا من الناس . ونسى أن يدعونى . . فالدعوة التى وجهها لى عندما لم يكن يملك ، نسيها عندما أصبح المالك الوحيد . وفهمت المعنى ، ولم أندهش .

ومددت يدا أصافح الرئيس مأمون عبد القيوم التلميذ المخلص لمصر ، والرئيس العاشق لشعبه ، وبيدى الأخرى قدمت له مظروفا به شكوى . وقلت : سيادة الرئيس عندما يتسع وقتك أرجو ألا يضيق صدرك بهذه الشكوى ، إنها لمواطنة من المالديف حسنة الظن بى . وعظيمة الأمل فيك . والسلام عليكم ورحمة الله . .

أما الشكوى فهى من طالبة من بنات المالديف مات أبوها وأمها وإخوتها . . ولم يبق لها أحد . ولذلك قررت أن تبقى فى مصر . وقد حولت إحدى الهيئات الخيرية مبلغًا من المال إلى بنك العاصمة مالى . . وهى ترجو الرئيس عبد القيوم أن يعيد لها هذه الأموال لتستأنف بها حياتها فى مصر بعد أن وافقت على أن تكون الزوجة الثالثة لأحد الوزراء . حتى هذا الوزير مات . .

هذه الفتاة اسمها فاطمة مالديف قد هاجرت إلى أمريكا مع زوجها وزميلها فى الأزهر . وانجبت منه ثلاثة من الأولاد . . أحدهم رأيته معها فى حفلة أوبرا عايدة عند الهرم . .

وقد كتبنا جميعا خطابا إلى الرئيس مأمون عبد القيوم نطلب الصفح عنها ، فقد اشتاقت لبلادها وتريد أن تبنى بأموالها مسجدًا ومدرسة . . وكان خطاب الاستعطاف بامضاء : توفيق الحكيم وصلاح طاهر وكمال الملاخ وأنا .

شكرًا للرئيس عبد القيوم فقد أذن لها . . وحمدا لله على سلامته وسلامة بلاده من هؤلاء المرتزقة الذين حاولوا قلب نظام هذه الجوهرة الإسلامية المستنيرة فى غياهب المحيط الهندى ! .

الحب الأبوى أنقذ الملايين !

فى سنة ١٩٤٢ عند العلمين وقعت أحداث غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية . . فعند العلمين أصبح واضحا تماما أن قوات مونتجمرى أضعاف قوات روميل . . فالإنجليز جمعوا قوات جديدة وأسلحة كثيرة . . ولذلك كان النشاط واضحًا على الجبهة البريطانية . . أما الجبهة الألمانية فهى نحيلة جدا . . عبارة عن خط مقاومة منفرج . . فالفيلق الافريقى بقيادة الجنرال فون توما لم يعد قادرًا على الصد والرد والتقدم . والقوات الإيطالية تقاوم بشجاعة وبسالة نادرة . وهى تقع إلى جنوب القوات الألمانية . . ولكن فى مواجهة الحشود الإنجليزية ففنيت القوات الإيطالية . . واحترقت دباباتها تماما . أما كبار القادة الإيطاليين فقد كانوا جميعا فى المواقع الأمامية . . وكانت روحهم القتالية عالية جدًا . .

وعلى الرغم من الإرهاق الذى أصاب قوات الفيلق الافريقى الألمانى فإنهم يحاربون بشجاعة وقدرة فائقة . ولم يكن يعلم منهم إلا القليلون أن هتلر لن يمدهم بمؤن جديدة . . وأن روميل قد طلب مزيدًا من الذخائر ، ولكن أحدًا لا يستجيب له . كأنهم يقولون له . تصرف أنت !

ولكن التفسير الحقيقى هو الحقد على روميل ثعلب الصحراء الذى أصبح أسطورة العالم كله . . إذن فالقادة حول هتلر يريدون القضاء عليه . . ولم يكن ذلك واضحا . . وإنما صرحوا بهذا الحقد فيما بعد . .

وفى هذا اليوم جمع الجنرال فون توما قائد الفيلق الافريقى أركان حربه ، تحت إحدى الخيام . وطلب من الطاهى أن يعد طعاما جيدًا . . ومزيدًا من البيرة والنبيذ . ثم استدعى الحلاق وجلس أمامه . وحلق لحيته وهذب شعره . . وأمسك قطعة من القماش مسح بها حذاءه والحزام . . وقام بتلميع الزراير فى الجاكت . . ثم استأذن من قواده أن يأخذ دشا باردًا . . وجلس القادة يأكلون ويشربون والقنابل والرصاص ينهال من كل الاتجاهات . . والدبابات تزمجر والانفجارات تتعالى . . ويخرجون من الخيمة بالمناظير المعظمة يعدون

الدبابات التى احترقت . وكانت سحب الدخان والرمال متداخلة . . حتى أصبح الأفق أسود أزرق أحمر أصفر . . موت . . نار . . وموت وأشباح فى كل مكان . . وجلس القادة يتكلمون فى كل شىء . . ولكنهم لا يريدون أن يتكلموا فى موضوع واحد يخافون أو يفزعون من الاقتراب منه . . وبعضهم يحاول أن ينسى أو يجعل الآخرين ينسون أن قائدهم قد غاب كثيرًا . . ماذا جرى بعد أن حلق ذقنه ورأسه . . وبعد أن كوى ملابسه ومسح حذاءه . . . وقبل أن يصل أى واحد منهم إلى نتيجة سريعة ، وجدوا الجنرال فون توما قائد الفيلق الأفريقى قد ارتدى ملابسه كاملة . . فى غاية الأناقة والوجاهة . . ووضع النياشين والرتب على صدره وعلى كتفيه . . وهو مالا يحدث أثناء الحرب إلا نادرًا . . ولم يشأ أن يشاركهم طعاما أو شرابا وإنما نطر الأكواب والأوعية أمامهم وقال : الآن . . جاء وقت العمل . . أنت تذهب إلى منطقة الضبعة . . وأنت تعود إلى المؤخرة وتشكل قيادة . . وأنت جهاز الإرسال لست فى حاجة إليك . . اذهب إلى الغرب .

ثم أشار إليهم جميعا أن يتوقفوا لحظة وطلب أن يقتربوا . . أن يقتربوا أكثر وقال . . لقد أصدر هتلر قرارًا مجنونا بعدم الانسحاب !!

ثم أشار إليهم جميعا أن يذهب كل واحد فى طريق . . وأسرع القادة . . هذا بسيارته وهذا سيرا على قدميه . . والثالث يجرى إلى مكان بعيد . . ووقف الجنرال فون توما . . وأخرج صورة من جيبه ونظر إليها ثم قبلها . ومزق بعض الأوراق . واحتفظ بهذه الصورة بين بطاقاته الشخصية . وأشار إلى سائقه . . ثم ركب السيارة واختفى وسط عواصف من الرمال والدخان والشظايا والصرخات فى كل مكان .

* * *

وعند الفجر ذهب أحد القادة يبحث عن الجنرال فون توما . . ولكن أحدًا لم يقل له شيئًا مفيدًا . . فمن عادة الجنرال فون توما أن يكون فى المقدمة . . وأنه فى كثير من الأحيان كان يضع من العلامات ما يدل على رتبته . لأنه كثيرا ما كان يساعد الجنود الصغار على الحركة وعلى التقدم . . وحين يفقدون الاتجاه كان ينظر فى البوصلة ويشير إليهم . . وفى هذه الحالة الجنونية كان الجنود فى حاجة إلى أن يعرفوا من الذى يأمر ومن الذى يوجه . . وأهم من ذلك أنهم ليسوا وحدهم . . وأن قادتهم معهم على الرمال وسط التراب والهباب . . وكان ذلك يرفع معنويات الجنود وصف الضابط والضباط . . فقد عودهم روميل أن يفعل ذلك . . وقبله كان نابليون أيضًا . .

وعند شروق الشمس رأى الجنرال باير لاين ، أحد أركان حرب قائد الفيلق الأفريقى دبابة تحترق ولا تزال النار تتدفق منها . . ولمح إلى جوارها واحدًا طويلاً ممشوق القوام كأنه

عمود من الملح . . وقد ارتدى البالطو الثقيل وأمسك فى يده حقيبة من القماش الخشن . . . وكان جامدًا لا يتحرك . . إنه الجنرال الألمانى رتر فون توما . . واقترب منه جندى بريطانى ومعه مدفع رشاش . . وجندى ثان وثالث . .

وذهب هذا الضابط مسرعا بسيارته إلى الغرب والرصاص كالمطر حوله والشظايا تتطاير فتصيب سيارته . . ولكنه لم يتوقف رغم كل ذلك . . واتجه مباشرة إلى مركز قيادة الفيلد مارشال روميل . وروى ما حدث . وماذا فعل الجنرال فون توما . . لم يظهر شىء على وجه روميل . فقد كان وجهه صارما . مع أنه كان يسمع هذه المعلومات لأول مرة . . ولم ينطق بكلمة واحدة . عندما دخل أحد الجنود وقدم له برقية . . البرقية إنجليزية قد التقطتها القوات الألمانية وأفلحت فى فك رموزها . . البرقية تقول : لقد استسلم لنا جنرال ألمانى اسمه رتر فون توما !

وترك روميل البرقية تسقط من يده . . وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى . . أما القادة فلم يجرؤ واحد أن ينظر إليه وتمنوا أن يأمرهم بالخروج لأنهم يخشون أن يقول لهم شيئًا أكثر إيلامًا !

فى ذلك اليوم استطاع القائد الإنجليزى مونتجمرى أن يقول : إن الفيلق الأفريقى قد انتهى !

واعترف الألمان بذلك أيضًا !

وفى ذلك الوقت كان الألمان يطلقون على لندن صواريخ من بعد . . الصواريخ تهبط عليهم نارًا ودمارًا . . ولا يعرفون من أين تجىء ولا كيف يتوقعونها . . ولا كيف يواجهونها . . إنهم يجدونها فوق رءوسهم . . ثم زلزالا على الأرض . .

ثم قام العلماء الألمان بتطوير هذه الصواريخ فجعلوها تطلق أصواتًا مروعة عند هبوطها . . وقبل انفجارها . .

ثم أدخلوا عليها تعديلا آخر جعلوا لها أجنحة وذيلا . . ثم جعلوها أطول وأعرض وأكثر امتلاء بالمواد الناسفة المدمرة . .

وقبل ذلك نشر الألمان الألغام على كل الشواطئ البريطانية وبالقرب منها . . وفى المياه الضحلة . . ثم نشروا قنابل الأعماق . . ثم اخترعوا الألغام الممغنطة التى إذا اقتربت منها سفينة قفزت إليها وأصابتها . . وغرقت عشرات من السفن ومئات الألوف من أطنان الطعام والذخيرة . وكان هدف هتلر هو أن يحطم معنويات الإنجليز فى كل مكان . . فلم يكن هتلر يتصور أن فى الإمكان احتلال الجزر البريطانية . . لا بحرا ولا برا ولا جوا !

وعقد تشرشل اجتماعا طارئا لمجلس الوزراء . وقبل أن يفتتح الجلسة أعلن فى غضب

وضرب المائدة بيده وقال كلاما عنيفا معناه : إذا لم يخرج علينا العلماء الإنجليز بحل هذه الأسلحة السرية بحرا وجوا وبرا فلنستعد جميعًا للهزيمة .

وانتشر العلماء الإنجليز فى كل المواقع أملا فى العثور على لغم لم ينفجر . . أوالعثور على شظايا الصواريخ . . أوالعثور على الصواريخ التى سقطت فى البحر ولم تنفجر . . لابد من حل . . أما الألغام فقد عثروا على واحد منها على سواحل اسكتلندا . . وكان البحر قد ألقى به إلى الشاطئ . . ثم انحسر الجزر وبقى اللغم وحده . . ودارت حوله أيدى الخبراء وعرفوا سره . . انتهى هذا السلاح الخطير . . فاخترع الإنجليز أسلحة مضادة . . ووضعوا الصفائح الممغنطة على جوانب السفن وعند قاعها . . ثم اهتدوا إلى شبكات ممغنطة . . واهتدوا إلى عمل مجالات مغناطيسية حول السفن . . فيكون التنافر بين الألغام والسفن . . فلا تنفجر . .

وعاد الألمان إلى حيل أخرى . . فكانوا يسقطون الألغام بالمظلات من الجو . . فينزل اللغم فوق السفينة أو إلى جوارها أو فى انتظارها أو تحتها . . وكان من الصعب إصابة هذه الألغام فى الجو . . طيار واحد حاول وقد وصفوه بأنه أعظم متفائل فى الحرب العالمية الثانية . . هذا الطيار ظل يحلق فى الجو حتى رأى صاروخًا ألمانيا يقترب فراح يطلق عليه النار . . طبعًا لم يصبه . . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يصادف لغما هابطا بالمظلة فحاول اعتراضه . . فإذا به يفاجأ بأن اللغم يستدير هابطا وفى اتجاهه . . فهرب الطيار . . ولم نعرف حتى الآن مانوعية هذا اللغم . . هل هونوع جديد قد جربه العلماء الألمان ثم أبطلوه . . لا أحد قد كشف هذا اللغز !

وفى اجتماع مجلس الوزراء البريطانى دخل تشرشل متهللا سعيدًا . وكان لابد أن يفسر لهم سر هذه البهجة . قال : لقد وقع فى الأسر جنرال ألمانى فى منطقة العلمين . . اسمه الجنرال فون توما . وهو الذى كشف لنا عن قاعدة إطلاق الصواريخ الألمانية . . القاعدة على بحر البلطيق . .

وبسرعة تشكلت لجان . . وبسرعة تبادلوا البرقيات مع ايزنهاور قائد قوات الحلفاء . وذهبت الطائرات تستكشف القاعدة . وعادت بصور القاعدة السرية . .

وفى اليوم التالى قامت ٦٠٠ طائرة قاذفة قنابل متجهة إلى قاعدة الصواريخ وكانت عندها أهداف محددة . .

أولا : ضرب أماكن سكنى العلماء الألمان . . وهم فرنر فون براون ورجاله . . وهو الذى اخترع الصاروخ . وعندما سلم نفسه بعد ذلك للقوات الأمريكية نقلوه ومعه كل العلماء إلى هيئة الفضاء الأمريكية ، وهو الذى أطلق أول قمر أمريكى وهو الذى اخترع الصواريخ التى حملت الرواد الأمريكان إلى القمر . .

ثانيا : ضرب مصانع الصواريخ وتحطيمها تماما .

ثالثا : ضرب قواعد إطلاق الصواريخ . .

ولكن الألمان كانوا قد احتاطوا لذلك فأقاموا مصانع فى أماكن أخرى . . فى أعماق المدن البلجيكية والهولندية . . وعادوا يطلقون الصواريخ أعنف وأقوى . ولكن الحلفاء قد اتخذوا قرارًا بالإبادة . . فأزالوا وأبادوا العلماء والفنيين . .

وبعض هؤلاء العلماء سقطوا أسرى عند الروس وساعدوهم على سباق الأقمار الصناعية حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى . .

وعندما بدأ السباق بين الأمريكان والألمان ظهرت نكتة تقول : إن قمرين أحدهما روسى والآخر أمريكى التقيا فى الفضاء . . فتكلم الروسى باللغة الروسية وتكلم الأمريكى بالإنجليزية . . فلم يفهم أحدهما الآخر . . فقال أحدهما للثانى : إذن لنتكلم الألمانية !

* * *

بقى لغز واحد لم ينكشف إلا أخيرا جدا وهو : لماذا لم ينتحر الجنرال رتر فون توما . . أو لماذا لم يرفض تنفيذ أمر هتلر بعدم الانسحاب ؟

وقيل فى تفسير ذلك اجتهادات كثيرة . من بينها أن روميل طلب إليه أن يبقى فى موقعه . . وقيل أيضًا إن روميل هدده بأنه إذا لم ينفذ الأمر فإنه سوف يعدمه فى الجبهة . . ولكن الذين عرفوا ما أصاب روميل بعد ذلك . . عندما خيره هتلر بين إعدامه وانتحاره ، فاختار الانتحار، يستبعدون أن يكون هذا سلوك روميل مع قائد من أبرع مساعديه فى معركة العلمين وقبلها . .

إن ابنة الجنرال فون توما هى التى كشفت السر . فقد كان بينها وبين والدها اتفاق سرى . ألا ينتحر إذا انهزم . ولكن أن يستسلم إذا كان هذا هو الحل الوحيد الشريف . لأنها قررت ألا تعقد زفافها فى غيابه . . وأنه إذا مات فلن تتزوج . وكانت ابنته هذه هى كل من تبقى له فى دنياه . . فالكل ماتوا فى الحرب وبلا حرب . . ولم يبق من كل أسرته إلا هذه الفتاة التى تركها وهى فى السادسة عشرة من عمرها . .

ولو كان الجنرال فون توما قد انتحر ، لتأخرت معرفة أسرار قاعدة الصواريخ سنة أو سنتين . . ولكن استسلامه أنهى الفيلق الأفريقى وأنهى السلاح السرى الذى أطلقه فون براون على بريطانيا ! .

وعندما زفت ابنته كان من بين الواقفين وراء العروسين شخص غريب . . سألوه : من

أنت ؟ قال : أنا أحد الذين يكنون لها عظيم الامتنان فلولاها لانهدمت لندن على الملايين من سكانها . . ولكن حب والدها لها ، هو الذى جعله يعيش ويكشف سر الصواريخ ف ٢ . .

ثم أعطاها ورقة فى يدها . الورقة تقول : كان أبوك من أعظم القادة الألمان . ولم يكن خائنًا لبلاده . . وإنما هو لم يكن يعرف أن العلماء الألمان قد استخدموا هذه الصواريخ بعد . . لقد اعتقد أنهم يجربونها فقط . . وكل المعلومات التى أدلى بها كانت عن المصانع والمعامل وأسماء بعض العلماء . أبوك كان خصما شريفا وجنديا نبيلا ، مبروك ياعروسة !

أما الجنرال فون توما فلم يتمكن من حضور الزفاف ، فقد كان مشلولا فى البيت !

صدّقني يا أمير :
لن تدخل الجنّة !

إحدى الإذاعات العالمية سألتني منذ أيام عن الرحلة التى لا أنساها . فكل رحلة لا تنسى . لأنها اكتشاف جديد . وكل رحلة لها طعم ولون وأثر . . والرحلات كالفتيات الجميلات . والشاعر القديم يقول : كل مليحة بمذاق . .

أطول رحلاتى كانت ٢٢٨ يوما سنة ١٩٥٩ حول العالم . وأقصرها كانت ٢٤ ساعة من القاهرة إلى الكونغو سنة ١٩٥٠ . .

وفى عام ١٩٨٣ قمت بدورة حول العالم استغرقت ٢٠ يوما . .

وهناك نوعان من الرحلات : الرحلات التى تقوم بها ، والرحلات التى تقرأ عنها . .

وفى كل الرحلات لا أحب أن أشعر « بالألفة » . . لا أحب أن أشعر بأننى اعتدت على الذى أراه وأسمعه . . لا أحب أن أشعر كأننى فى بلدى وبين أهلى . . فهذا الشعور يفقدنى القدرة على الملاحظة ، ويضيع منى الكلام ويطفئ شوقى إلى أن أعرف . . وينزع ريشى فلا أطير ، ويكسر رجلى فلا أتحرك . . ثم إنه يجعل رأسى أقرب إلى المعدة فأنام وأحلم بأننى رأيت وأحببت وعشت - مع أننى لم أنقل جسما عن سرير ، أو قدما عن قدم . .

ثم إن الذى أشعر معه بالألفة هو الذى أشعر معه بالملل ، فأهرب منه ، وأهرب من نفسى أكثر . . لأن معنى الملل أننى تعبت وأننى زهقت وأننى أريد أن أرجع . . وأنا لا أريد أن أرجع ولا أريد أن أعتاد على الذى أراه ،أو أستريح إلى الذى أسمع أو أننى أحتضن كل الناس . . فالمسافر يجب أن يتعرض دائمًا لإشعاعات جديدة ، لكى يملأ بطارياته العقلية والوجدانية . . فتتجدد طاقته وتتفتح شهيته ، ويحمل متاعه ويرحل ، أو يرحل بلا متاع . فهذا أمتع !

* * *

ربما كانت الرحلة التى لا أنساها عندما كان د . عبد العزيز حجازى رئيسًا للوزراء فسافرت

معه إلى دول الخليج . وفى واحدة من هذه الدول ذهبت معه إلى أحد المستشفيات . المستشفى جميل . نظيف . أنيق . سابق التجهيز . معقم لا يدخله الذباب . . لا يقوى . لا يدخله الهواء الملوث . يستحيل . يدخله المريض من باب فيخرج سليما من الباب الآخر . .

وقف د. عبد العزيز حجازى يسأل الأطباء المصريين : هه . . يا أولاد عاوزين حاجة ؟

قالوا : نعم .

ـ ماذا ؟

ـ مرضى . . ليس عندنا مرضى !!

فالأطباء يدعون الله كل صباح أن تدوس السيارات نصف المشاة فى الشوارع . . أو يغمد واحد منهم خنجره الذهبى فى بطنه . . أو يتهور ويشرب مسحوق البلاتين ـ فهو أكثر السموم شعبية . ولا يعادله عندنا إلا أن يسف الواحد منا تراب جزمته . . أما يوم الهنا والمنى فهو عندما يحمل إليهم رجال الأمن فريقا إيرانيا . . بين الحياة فى إيران والموت فى أية دولة عربية . . وينقلونه إلى المستشفى مفتوح البطن . . ما يزال فيه النبض . . وقد أكلت أسماك الخليج لحم ساقيه وفخديه ومقدمة بطنه . . هنا يشعر الدكاترة بالوليمة الطبية الفخمة !

لأن عندهم مستشفيات وليس عندهم مرضى ، وعندهم خمسة أطباء لكل مريض . . أربعة من هؤلاء الأطباء تعلموا فى أمريكا ؟!

وجلست إلى جوار أحد الأمراء الطيبين . فقد اختار مكانا له يسند ظهره إلى صورة عظيمة له. وراحت عينى تنتقل بين الأصل والصورة . ووجدت الأصل قد ارتدى « زنوبة » . . ووجدت عود كبريت فى أصابعه يسلك به أذنيه . ووجدت أصابع يديه توقظ أصابع قدميه . . ثم انتقل عود الكبريت إلى ما بين أسنانه . . بقايا لحم من الأمس . . أما الهواء الذى هب على أنفى فجأة فهو بسبب محاولة الأمير أن يضغط العباءة على جسمه . . أما الرائحة فهى خليط من البخور والتمر حنة وصدأ الحديد والجبن القديم وعرق العافية . .

ولم أطق . فقلت له : ياسمو الأمير أحب أن أؤكد لك . . أنك لن تدخل الجنة . . فالله لا يدخل عباده الجنة مرتين . ولا يشويهم فى النار مرتين . . مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة . . يعنى أنا سوف أدخل الجنة إن شاء الله ، وقد شاء ألا تدخلها أنت . تكفيك هذه الجنة التى أنت فيها ولا تدرى . . كيف ترتدى زنوبة وأنت تملك ألوف الملايين . . نعم ألوف الملايين . . لماذا لا تطلب إلى الشركات اليابانية أن تصنع لك زنوبة موسيقية تقلب محطاتها بأصابعك . . وفى نفس الوقت تهرش أصابعك ؟ . . ثم بدلا من عود الكبريت حائرًا بين أنفك وأسنانك وأذنك ، يستطيع الألمان أن يخترعوا لك فرشاة أسنان تنقلب إلى عود من المطاط الناعم يدخل

أذنك ، ثم يتحول إلى بخاخة عطرية فى أنفك . . أو لماذا لا تطلب من السيرك القومى الروسى أن يبعث لك بعصافيرالجنة تقوم بتسليك أسنانك . . كما تفعل طيور النورس بتسليك أسنان التمساح ؟ . . ممكن . . ثم هذا الجلباب ، ياطويل العمر ، تستطيع مؤسسة « ناسا » للفضاء أن تصنع جلبابا مكيف الهواء والضوء والضغط . . وفى استطاعة هذا الجلباب أن يطير بك فى الفضاء فترى شعبك من فوق . . ثم تهبط عليه . . وفى ذلك تأكيد لعظمتك . . قدرة الدولار على أن يصنع المعجزات ، وقدرة العلم على أن ينجز أعظم النزوات . . ففى جلبابك يتعانق المال والعلم . . يتعانق العقل والجنون . . اعملها يارجل لا تضيع وقتك فى التفكير فى الآخرة . . فلا أمل لك فى الجنة . . ادخل جنتك هذه ، واترك لنا جنتنا . . ما الذى أرغمك على أن تعيش نار الفقراء يا غنى ؟ وإن كنت مهتما بالفقراء فلنقتسم وندخل النار معا !.

أما الابتسامة على وجهه فتساوى مليون دولار . . ابتسامة هادئة بريئة ـ كأنه طفل قد وجد ثدى أمه أخيرا . . أما اللمعان فى عينيه وفى أسنانه ، فالشاب فى العشرين ، أما ذراعه التى التفت حولى فقد أذابت الفوارق بينى وبينه . . بين صاحب الدولار الواحد وصاحب الألف مليون . . ثم أشار إلى فيلا أنيقة فجاءت نحونا . . إنها سيارة كاديلاك ورولز رويس معا . . واسم الدلع : كاد ـ رويس ، وانفتح الباب لأدخل أولا . ودخلت . وتبعنى هو . فسقط منديله على الأرض وشددته بقوة حتى لا يمد يده فيلتقطه . .

وصرخت فيه : أين الدولفين ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ كان يجب أن يمشى وراءك سرب من حيوان الدولفين يلتقط لك المناديل ويمد رأسه ويلقى بالمنديل على أنفك . . ثم يمسح لك أنفك وشفتيك . . ودموعى . . ويساعده دولفين آخر فيأتيك بمنديل ثان وثالث . . ولا مانع من دولفين على يسارى يقوم بنفس العمل.

ـ لا دولفين . .

ـ إذن لابد من استيراد عشرين أو ثلاثين . . فورا . اعملها يارجل . النار مثواك . . صدقنى !.

ـ يا أخى أنتم المصريين تحبون الضحك .

ـ لا أضحك وإنما أنا جاد تماما كما إنك أغنى منى ألف مليون مرة !

وتوقفت السيارة ومرت أمامنا بنت حلوة . . طويلة سمراء واسعة العينين مضمومة الشفتين

كأنها تقبل الهواء بيننا أو تقبل واحدا منا . . والعنق ملفوف طويل ثم إنها هندية الملامح بعد ذلك . . أما الابتسامة فمصرية . .

قلت : ياسمو الأمير أعجبتك هذه الصبية ؟!

قال : أستغفر الله . .

قلت : إذن لقد انطبق عليك الحديث النبوى الشريف : لك النظرة الأولى وعليك الثانية لقد أخطأت ولذلك تستغفر الله . وتنطبق عليك كلمات السيد المسيح : من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنما زنا بها . . فكان لابد أن تستغفر . أليس كذلك ؟

ـ يا راجل اتق الله . .

ـ بل كان يجب أن تتقيه أنت ياطويل العمر . . ومع ذلك ففى بريطانيا أجمل الوجوه ، وفى إيطاليا أجمل العيون ، وفى فرنسا أجمل الشفاة ، وفى أسبانيا أجمل السيقان ، وفى ألمانيا أجمل الأكتاف ، وفى روسيا أجمل بشرة ، وفى السويد أجمل صدور . . والله يقول : مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانكم . . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . يجب أن تتخذ قرارا اليوم ، فلم يبق لك فى هذه الجنة التى لا تدرى بها إلا سنوات معدودة . . اسمعها منى . . لا تضيع وقتك فى النظر إلى زنوبة . . بين الشباشب أو بين النساء ! .

وفى الليل دعانى إلى العشاء . . البيت فخم واللمبات فى السقف : سماوات من النور . . وجنات من العصافير والطيور . . وصور هذه الطيور قد انتقشت على السجاجيد العجمية التى تغوص فيها الأقدام . . بل ـ والله العظيم ثلاثا ـ وجدت مصطبة أمامى . . ولاحظت أن هذه المصطبة عبارة عن عشرين سجادة حريرية لم يجدوا لها مكانا فوضعوها بعضها فوق بعض . . ولو ظهرت سجادة واحدة منها فى مصر لأقيمت لها الحفلات ولاستقبلوها بالطبل والزمر وأم كلثوم فى مقدمة المستقبلين تغنى : افرح ياقلبى . .

وبعد ذلك يعلقونها على الحائط ، تحية وإعظاما لهذا النوع من السجاجيد الفارسية النادرة . .

ثم جاء من يصب الماء على يدى قبل تناول الطعام بأصابعى . . الإبريق من الذهب الخالص والطست . . واندهشت كيف يغسل الناس أيديهم التى اختلطت بالذهب . وسألت فى أى شىء يشرب الناس . . أو يشرب سمو الأمير نفسه ؟ . .

وسألت الخادم الهندى : ألا توجد لحوم أخرى غير الخراف ؟

فسألنى : ماذا ؟

قلت : أريد أن آكل لحم الخنزير محشوا بالجوز واللوز والبندق والفستق !

وضحكت . ولكنه لم يضحك . وإنما سحب الخروف الراقد أمامي ونقله بعيدًا . .

ولم أمد يدى إلى أى نوع من أنواع اللحوم . ولم يشأ سمو الأمير أن يقترح طعامًا أو شرابا أو لحما . . وتنوعت الأطباق وتكسرت بعضها فى بعض . . فقد وضع الخدم الهنود أطباقًا كثيرة . . ولما ضاقت بها الصوانى كدسوها الواحد فوق الآخر . . الله أعلم إن كان هذا الذى أمامى أرزًا بالبهارات . . أو شطة بالأرز والأناناس أوالموز أو جوز الهند . . المهم أن كل هذه الأطعمة قد اختلطت معا . . تماما كاختلاط كل الأجناس البشرية فى قصر الأمير وأمام القصر أيضًا . . فالناس هنا بيض شقر . . وسود غطيس . . وصفر وسمر . . وكلهم فى الخدمة . ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى يعملونه فى هذا القصر . . ولا أدرى كيف يميزون الخادم من الحارس من الطاهى من السكرتير ومن الابن والأخ . . ومن الضيوف ، وكنت الوحيد الذى يرتدى الجاكتة والقميص والبنطلون وفى حالة ارتباك يؤكد أنى ضيف لا يعرف كيف يكون ضيفًا يأكل وهو ساكت . . ويجلس وهو ساكت ، ويسمع وهو ساكت . . ويحمد ربنا أنه جلس إلى جوار هذا الأمير بالذات . .

الحمد لله . . لقد امتلأت تماما . . وأريد أن أجلس على الأرض وأرجع بظهرى إلى الوراء لكى أعطى للكرش فرصة أن يأخذ راحته مقوسا منفوخا . هنا عرفت لماذا امتلأت كتب الأدب العربى بالأمير الذى يضحك . . فإذا ضحك انقلب على قفاه . . . لأنه لا يستطيع أن ينقلب على وجهه ، فكرشه يضغط على رئتيه فيموت . . فيقال فى الكتب العربية : وظل يضحك ويضحك حتى استلقى على قفاه !

وسمعت هرجًا ومرجا حولى . . ووجدت الخادم الهندى يحمل صينية عليها خنزير . . . خنزير ؟ نعم خنزير مصنوع من الجلد وأتى به لكى آكل ما أستطيع منه . . وكانت زلومة الفيل هى التى يجب أن أرفع عنها السدادة ليتساقط اللوز والجوز فى يدى ـ وضحكت كثيرًا واستلقيت على قفاى . .

وفى الطائرة سألنى د. عبد العزيز حجازى عن أشياء كثيرة وعن هذا الأمير . . ود. حجازى هو رجل لطيف رقيق ، ولكنه يختفى وراء واجهة لها لون الذهب وبرودة البلاتين . . وإذا جلست إلى جواره فإنك تسمع صليل الأرقام فى دماغه . . ولكن أؤكد لك أن له قلبا . فأنا أعرفه منذ سافرنا إلى أوروبا ، شبابا صغارا سنة ١٩٥٠ . . ثم عاد فسألنى عن حقيقة ما حدث مع الأمير . .

سألته : ماذا قال لك ؟

قال : إنك جننت الأمير . . ووجعت بطنه من الضحك .

قلت : لم أكن أقصد إضحاكه إنما قصدت أن أوجع بطنه وقلبه على حالته التى تبعث على اليأس . . فهو رجل « مكوش » على الدنيا ، ويريد أن يكوش على الآخرة . . هل هذا معقول؟!

وعاد د. عبد العزيز حجازى يسألنى : هل صحيح أنت طلبت إليه أن يلقى زوجته فى البحر ويتزوج من جميلات أوروبا ؟!

قلت : هذا أجمل ما سمعت . أشكرك فأنا لم أطلب إليه أن يفعل ذلك . ولا أستطيع أن أقول . ولكن هذا يدل على رغبة عميقة عنده فى أن يجد سببًا وجيها للزواج من أربع أوروبيات فى وقت واحد . . هانت . . إذن فسوف يفعلها ! إنه لن ينام الليل سيظل كلامى يكوى دماغه وبطنه ، ولن يستريح حتى يعدد زوجاته . . إنها خطوة حضارية نحو الاستمتاع بالدنيا ، يأسا من الجنة فى الآخرة . وهذا بالضبط ما قصدت !

ثم جاءت المضيفة توقظنى وتهمس : الكابتن مجدى يريد أن يتحدث إليك !

وذهبت إلى الكابينة للقاء الكابتن . إنه شاب أسمر لطيف ـ يرحمه الله . . جلست إليه أشكره على الوليمة الفخمة التى دعانى إليها بالأمس . . فقد قامت المضيفات الخمس بدور ستات البيوت وقدمن لنا لحم الغزال والأرز بالجوز واللوز والبندق والصنوبر وقدمن السمك المدخن . . ثم فرقعن زجاجات الشمبانيا الفرنسية الذهبية . . وكانت الموسيقى والرقص . وجاءت جبال التفاح الأمريكى والأناناس والكريز والآيس كريم فى قلب جوز الهند . . وشكرته من كل قلبى ومعدتى على هذه الوليمة التى لم أر لها نظيرًا فى حياتى . . وكان الكابتن مجدى يذوب رقة وخجلا سعيدًا . . وكان مساعده وكذلك المضيفات . . وتمنيت أن أراه فى مصر لنلتقى ونقضى ليلة أخرى ، سعيدة المشاعر ، وإن لم تكن بها كل هذه الأطايب النادرة . .

وعدت إلى مكانى من الطائرة . وأعلنت المضيفة ضرورة ربط حزام المقعد لأننا على مدى دقائق من مطار القاهرة الدولى .

وفجأة ظهر الكابتن مجدى . وقال لى : إنما جئت لأشكرك باسم طاقم الطائرة ، مضيفات ومهندسين وملاحين . . أشكرك على هذه الوليمة التى لم نر لها نظيرًا فى حياتنا . .

قلت : بل الشكر لك . . لكم .

قال : بل لك وحدك !

وكانت المفاجأة قال لى الكابتن مجدى : أنت تعرف أنك كنت ضيفا على الدولة . . أما نحن فلا . .

قلت : لا أفهم .

قال : لقد طلبنا كل هذه المأكولات الفاخرة والفواكه النادرة والحلوى اللبنانية والشمبانيا الفرنسية والسيجار الهافانى على حسابك أنت . . فأنت صاحب الوليمة !!

وارتطمت الطائرة بالأرض . . وأحسست أنه رأسى قد دشدشته المفاجأة . . وضحكنا . فقد وصلنا مصر . وكان الذى لا أنساه : كيف أنسى أننى تعشيت مرة واحدة بعشرة آلاف جنيه استرلينى ؟!!

فــريدة ..
وملكاتــ أخــرى!

(١)

قرأت فى الصحف الإيطالية أن جلالة الملكة ميمى ماتت . . نظرت فى الصورة . إنها مستديرة الوجه سوداء الشعر والعينين . . الحاجبان غليظان والشفتان . وبسرعة أحسست كأننى أعرفها . . طبعا لا أعرفها . ولكن شيئًا ما فى داخلى اتجه إليها . . تعمقتها بعينى ثم اتجهت جميعًا إليها . . وركبت القطار لكى أمشى فى جنازتها . وفى ذلك الوقت من الخمسينيات كنت غارقا فى الفلسفة الوجودية . وكنت قد أصدرت أول كتاب عن «الوجودية» باللغة العربية . . إنها ميمى ملكة الغجر .

وفى ذلك الوقت كنت أرى ـ ولا أزال ـ أن الإنسان غجرى بطبعه . يعيش وحده . ويتمنى العزلة . ويرى فيها حريته . . حريته من الارتباط بالناس والضيق بهم . وإن كل المفكرين يعيشون على حافة المجتمع . . فى مواجهة المجتمع وضده وخوفا منه وتحديا له . . ولم تفارقنى هذه المعانى حتى أصدرت كتابا بعنوان « نحن أولاد الغجر » . .

وبعد ساعتين وصلت إلى مدينة سورنتو الإيطالية الجميلة . وعنوان الملكة فى يدى . وأدركت طابورًا طويلاً يمر أمام جثمانها ويلقى عليها نظرة ووردة . وفعلت . وكانت دموعى فى عينى ، دموعى علىَّ وليس عليها . . فكل الأحرار ملوك بلا عروش ، فإذا ماتوا فالذين يعزونهم ، يعزون أنفسهم أولا وفى غيرهم بعد ذلك !

(٢)

أما الملكة المتألقة من لحم ودم فهى الإمبراطورة ثريا . فقد أوفدتنى « أخبار اليوم » لأحضر طلاقها من إمبراطور إيران . وكان ذلك فى مدينة كولونيا بألمانيا . . بينما ذهبت الزميلة خيرية خيرى زوجة المرحوم على أمين لتشهد هذا الطلاق فى طهران . .

وعندما ذهبت إلى السفارة الإيرانية أطلقوا علينا الكلاب وخراطيم المياه . . وتفرق الصحفيون من كل الدنيا . وسمعنا همسات تقول : إنها فى فندق كذا . . لا . . فى مطعم كذا . .

وجاءت صحفية إيطالية تقول : إنها فى صالون كذا . .

وذهبت إلى الصالون . . ورأيت الإمبراطورة ثريا اسفندياري لحما وشحما ودما ولمعانا فى عينيها وشعرا كستنائيًا مسترسلا ، وساقين رفعتهما إلى ما فوق المرآة تكشف وتكشف ما لم أتمكن من رؤيته بوضوح . . وكأن الطلاق لا يهمها ، ولذلك رفعت ذراعا وساقا وقالت لنا ما معناه . العاقبة عندكم جميعا .

ثم أغلقوا باب الصالون !

(٣)

ولما زرت الملكة نازلى فى هوليوود . لا أحببتها ملكة ولا ملكة سابقة . وكانت قد تقدمت بها السن . . وبدت سيدة ارستقراطية تلفت النظر إلى جمال ساقيها . . فلم أر إلا أظافرها المكسرة . . لعله نقص فى الكالسيوم . . ووعدتها بألا أكتب شيئًا عما دار بيننا . . وقد وفيت بالوعد !

(٤)

أما الإمبراطورة فرح ديبا فقد رأيتها هنا فى القاهرة مرتين : المرة الأولى عندما خرجت مع زوجها الإمبراطور من بلادهما لآخر مرة وهبطا فى مطار أسوان ليجدا الرئيس السادات فى انتظارهما . . وكانت الشمس المخنوقة تنعكس على طائرة الإمبراطورة ووجه الإمبراطور والحاشية . . فى ذلك اليوم كان غروب لكل شىء . . فلا كان الإمبراطور ملكا ، ولا كانت الملكة إمبراطورة . . كانت نهاية يوم ومرحلة وأبهة !

ثم ذهبت لأقابل الإمبراطورة فرح ديبا بعد وفاة الشاه ، وكنت آخر من رآها وجلس إليها . تغير كل شىء ، الفستان أسود والوجه أصفر ، وتجردت يدها وأذناها وعنقها من كل ما يلمع ويتألق . . حتى نور عينيها قد انطفأ هو أيضًا . . وكذلك كان الحوار بيننا : جملا قصيرة . تنتهى قبل أن تبدأ . . وكانت تسعل . . فكان سعالها المتقطع مثل نقط بغير حروف . . انتهى كل شىء . . فلا معنى ولا أمل . وعندما جاءت القهوة . لم أمد يدى . . فلا أعرف إن كانت لها أو كانت لى . . فالجرسون الضخم قد وضع الفنجان على منضدة أقرب إليها . . ولذلك لم أمد يدى ولا هى . وكنا نجلس متقاربين فصوتها خفيض . وكان الدخان بيننا .

فلم أعرف إن كنت أنا الذى أدخن أو هى . . أو إن الدخان كلام فى الهواء . وكان كلاما فى الهواء . فقد رجتنى ألا أكتب سطرا واحدًا مما قالت ، فهى لا تريد أن تسىء إلى المخلصين من أتباع الشاه فى إيران . ولا تريد أن تستعدى الإيرانيين على أولادها !.

(٥)

ولم أكن أعرف الملكة فريدة . . ولكنها أرسلت فى طلب بعض كتبى . وأهديتها بعض هذه الكتب . . والبعض قدمته لها ، وقيل لى إنها تمنت أن يكون الإهداء إلى جلالة الملكة فريدة. لا مانع فقد كانت ملكة لمصر . وكانت محبوبة من كل الناس ولا أزال أذكر صورة زفافها الجميلة على غلاف مجلة « سمير التلميذ » التى كان يصدرها بابا صادق . . وكنا أطفالا . وكنا نحبها ونحب الملك الشاب « فاروق » .

ثم رأيت أحد معارضها . .

ولاشك أنها فنانة . وأنها تحاول . وأنها صادقة . ولوحاتها كانت تكتسب قيمة أكبر لأنها من رسم ملكة مصر . وكانت هى تعلم ذلك ، فكانت لا توقع على لوحاتها إلا بعد بيعها . .

وكانت بيننا مكالمات تليفونية طويلة . ولم يكن يضايقها فى مصر إلا قذارة الشوارع والمحلات . ولم تنته دهشتها ولا دهشتى ، من كيف أن عجزا تاما قد أصابنا عن نظافة بلدنا ونظافة كل مكان . . وتندهش أكثر كيف يخرج أى إنسان ببنطلون ليس مكويا . لا يهم أن يكون جديدًا . المهم أن يكون مغسولا . وفى استطاعة أى إنسان أن يضع بنطلونه بين المراتب ليجده فى الصباح مكويا . ثم كيف لا يكون حذاؤه ولا تكون أظافره نظيفة ؟

وكانت تعيش على معاش شهرى قدره مائتا جنيه ـ هو أجر ترفض أن تأخذه أية خادمة الآن إذا جلست عندك طوال النهار ، أما إذا باتت فهى تتقاضى ٣٠٠ جنيه . . هذا إذا لم يكن فى البيت أطفال . فإذا كان طفل واحد فهى تعمل نصف يوم . . وعلى آباء الطفل أن يبحثوا له عن « داده » .

أما شقتها فى المعادى ، فلا أحب أن أصفها . . ولا السلالم التى تفضى إليها ولا البيت ولا الشارع .

ولقد نقلت إلى الرئيس حسنى مبارك حالتها السيئة ومطلبها المتواضع فى أن تكون لها شقة صغيرة . ومعاش أكبر . ورأيت لوحاتها الأخيرة . . وقد تم إعدادها للعرض . . كل ألوانها رمادية حالمة ، وكانت حريصة جدا على الإضاءة التى سوف تسقط على اللوحات . . أو تسبح فيها اللوحات . قلت لها : هذه أرواح هائمة فى النور والظلال !

فقالت : إذا كان هذا شعورك فأنا قد نجحت . فهذا بالضبط ما أردت أن أقوله !

واعتبرت هذا التعليق نجاحا لها ، أو حفلة تكريم تلقائية . واكتفت بهذا التكريم . وقررت ألا تعمل شيئًا فى ذلك اليوم على أن تستأنف الاستعداد لإقامة المعرض فى اليوم التالى !

ولم أكن عرف أنها تغالب المرض . .

فلا شىء يبدو عليها . فما تزال ممشوقة القوام . عالية الكتفين والرأس . . مشدودة الساقين . . ولا تزال ملكية الخطوات والعبارات والنظرات . . تمشى كأنها فى موكب ملكى . وتصعد السلالم كما كانت تصعد سلالم قصر عابدين . فإذا التفتت إليك وأنت تتحدث معها ، كانت بهية الطلعة . ملكة . كانت وما تزال .

وفى يوم شكت لى من أن أحد البوابين قال لها : يامدام .

فغضبت وقالت له : اسمع ياتقول لى جلالتك . . ياتقول لى أفندم . . لكن يامدام لا . . لقد سمعتك تقول لبواب آخر : ياباشا . . فكيف يكون هو باشا وأكون أنا مدام ؟!

فقال لها : حاضر ياهانم .

قالت : ولا هانم . . قول لى : افندم !

فرد عليها : حاضر ياجلالتك .

وسافرت إلى فرنسا للعلاج . . وحددوا مرضها بأنه سرطان فى الدم . وأن العلاج ممكن . هم قالوا . وهى آمنت . . وظلت تقاوم المرض . وهى على يقين من الشفاء . ولم يكن يبدو عليها أى أثر لهذا المرض . إلا بعض الشحوب . فإذا أضيف إلى مرضها مرض اثنتين من بناتها ، وإنه مرض لا شفاء له أيضًا ، فإنها ولا شك فى غاية الشجاعة وقادرة على احتمال الهوان النفسى والجسمى . . ولكنها لا تشكو .

وثقل عليها المرض . فانهارت تحته . ودخلت أحد المستشفيات . ثم سافرت بعد ذلك إلى أمريكا . وفى أمريكا صارحوها بأن الدم الذى أدخلوه فى جسمها فى مصر كان ملوثًا .

وكتبت فى « الأهرام » أقول إن مرض الكبد الوبائى الذى أصيبت به إلى جانب سرطان الدم كان بسبب هذا الدم الملوث الذى نقلوه إليها فى أحد المستشفيات !

وسألنى د. راغب دويدار وزيرالصحة ، فذكرت له اسم المستشفى الكبير ، وأزعجه ذلك .

وسألت د. دويدار : هل معقول أن تتولى إحدى السفارات العربية علاج الملكة فريدة على نفقتها ؟!

ونقلت للرئيس حسنى مبارك أنها لا تعالج على نفقة الدولة .

وكلمنى د. راغب دويدار ليقول لى إنها عولجت بعد ذلك على نفقة الدولة . وإنها الآن تحت الرعاية الكاملة . وإن الشفاء من عند الله .

وتضاربت الأقوال حول صحتها . وسألت شقيقها الزميل المصور الفنان شريف ذو الفقار. فأكد لى أنها تتحسن . وأنه رآها . وأنه على يقين من شفائها . وذهبت ورأيتها . ورفع الأطباء أيديهم ، كما فعلوا قبل ذلك عند موت أبى وأمى وأختى وعلى أمين وإحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم قائلين : إنها زى الفل !

وفريدة كملكة انتهت منذ زمن طويل . ولكن الذى بقى هو لوحاتها . . فريدة الفنانة أطول عمرا من فريدة الملكة . . ومن يزور المتاحف سوف يجد صور الملوك والملكات . . لقد عاشوا على الجدران وماتوا فى الواقع . . ماتوا جميعا أشخاصا وعاشوا لوحات . . فالفن هو الذى أطال عمرى الملك والملكة . . وإذا كان الفنان هو الملكة فقد طال عمرها مرات : طال عمرها لوحة وطال عمرها فنانة !

فالملكة ماتت أولا . .

والإنسانة ماتت ثانيا . .

والفنانة لم تمت . .

والناس يعاملون الملوك والملكات كأنهم مؤسسات . . أو كأنهم تماثيل أو أهرامات فيقولون: جلالتك . . وعظمتك . . جلالتك أمرت . . جلالتك شئت ـ كأن صاحب الجلالة غائب . . فلأنه غائب لا ينطق ولا يشارك فى الحديث .

ولكن لاحظت أن الملكة فريدة كان وجهها يحمر إذا قيل لها : الفستان بسيط وجميل . . أو أنت غيرت لون أحمر الشفاه هذه المرة . . والحلاق أضاف بعض الشعرات البيضاء هنا وهناك فهى فى غاية الجمال !

كل ذلك ذهب وبقيت هذه الصورة الرمزية من حب الناس ومشاعرهم الطيبة . فسار فى جنازتها من لا يعرفها . . فهى أول ملكة مصرية تموت فى القاهرة ـ الملكة نازلى ماتت فى أمريكا. وزوجها الملك فؤاد مات سنة ١٩٣٦ عن ٦٥ عاما ، ولا أحد يذكر كيف كانت جنازته . . والملك فاروق مات فى روما عن ٤٥ عاما ، ودفن فى القاهرة بلا جنازة سنة ١٩٦٥ . يرحمها الله : فقد عاشت محبوبة وبقيت فنانة !

مع أجمل تحيات أخبار اليوم !

حصلت على كل الجوائز . . إلا واحدة !

جائزة الدولة التشجيعية عن كتابى حول العالم فى ٢٠٠ يوم سنة ١٩٦٣ .

وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ .

وجائزة الإبداع الفكرى لدول العالم الثالث سنة ١٩٨٣ من البرلمان الهندى . كنت العربى الوحيد الذى فاز بها . تسلمها نيابة عنى السفير عمرو موسى والأديب حمدى الكنيسى مستشارنا الإعلامى فى ذلك الوقت .

وعندما كنت طالبا جاء ترتيبى الأول فى الابتدائية وفى الثقافة العامة وفى التوجيهية وفى الليسانس . . وفى الليسانس حصلت على جائزة مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة الإسلامية . وجائزة لطفى السيد فى الميتافزيقا وجائزة لامونت فى الفلسفة الإنجليزية . . ولم أحصل على مقابلها المادى إلا عندما كتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد مقالا فى الأهرام يلفت النظر إلى أننى تخرجت وعملت صحفيا ولم أحصل على هذه الجوائز بعد !

ولما عملت محررًا فى الأهرام سنة ١٩٥٠ ترجمت « مذكرات روميل » . ومذكرات (ثلاثة ضد روميل) . . وكوفئت على ذلك بمبلغ مائة وخمسين جنيها سافرت بها إلى أوربا ، لأول مرة فى حياتى . . إلى اليونان وإيطاليا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وانجلترا والسويد . . وقد رأيت مدينة الإسكندرية من الطائرة . ولم أكن قد رأيتها قبل ذلك .

وكان مثل هذا المبلغ يكفى للسفر والإقامة وشراء الهدايا وبعض الفكة تبقى فى جيبك للذكرى ! !

ولا توجد « وصفة سحرية » لكل هذا الاجتهاد إلا أننى كنت أشعر دائمًا بأننى تلميذ صغير ولا يزال هذا شعورى !

وعندما عملت فى « أخبار اليوم » توالت الجوائز التشجيعية . . بل لم أجد إلا التشجيع المستمر . . ولحسن حظى كنت أكثر ارتباطا بعلى أمين ، لا بمصطفى أمين . فعلى أمين أكثر تشجيعا وأسهل فى التعامل معه . . وفى ذلك الوقت ترجمت مذكرات « دوقة وندسور » والمكافأة كانت ثمن سيارة فيات . . ثم ترجمت العدد الأول من مجلة «المختار » كل العدد وحدى ، فلم يكن للمجلة فى ذلك الوقت محررون أو مترجمون . . وكانت المكافأة ٢٥٠ جنيها سنة ١٩٥٣ وليست بالمبلغ القليل .

وكان أمل كل محررى أخبار اليوم أن يلقوا تقديرًا من مصطفى أمين . فهو الصحفى مائة فى المائة . ولذلك فالذى يرضيه صعب جدا . والذى يعجبه لابد أن يكون أقرب إلى المعجزة . ولذلك فتقدير مصطفى أمين صعب المنال .

وجاءتنى الفرصة . فقد قرر شاه إيران طلاق زوجته ثريا اسفندبارى . وسافرت إلى ألمانيا لأحضر الطلاق . واستطعت أن أحصل على نص المكالمة التليفونية بين الشاه وزوجته الإمبراطورة . والمصادفة التى كان لها الفضل الأول ، فقد كنت أسكن فى فندق صغير . وكانت جارتى تعمل فى صالون الحلاقة الذى تتردد عليه الإمبراطورة ثريا . ونقلت لى كل ما دار بينها وبين الإمبراطور .

وبعثت بنص المكالمة . ونشرها مصطفى أمين فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم . وكانت لى مكافأة مالية : خمسون جنيها فى سنة ١٩٥٦ .

أما المرة الثانية فهى عندما كتبت مقالا صفحة « ونص » عن نشاط بعثة الشباب المصرى فى مهرجان الشباب فى موسكو . . وكيف أن عددا من الفتيات نزلن بقمصان النوم يرقصن فى محطات السكك الحديدية . . وكان المقال قنبلة تفجرت شظايا فى كل بيت . وقد غضب وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت كمال الدين حسين . وهدد بالعقاب والفصل والسجن . . وعندما وصلت البعثة إلى ميناء الإسكندرية كان الصحفيون فى انتظارهم . . والتقطت الصور للراقصات . . وطلب منى مصطفى أمين أن أوقع على هذا الموضوع الخطير. ولكنى اعتذرت ، فأنا جمعت معلومات فقط . . ولم أكن فى موسكو . . وكانت المكافأة الأكبر مائة وخمسين جنيها !

أى تقدير مضاعف : أدبى ومادى .

ولم يعرف صديقى عادل طاهر إلا أخيرًا أننى أنا الذى كتبت هذا الموضوع . . ولذلك أصر على أن يحبسنى فى مكتبه وأن نتناول غداء معا ونرى الفيلم الذى يعرض انضباط الشباب المصرى فى موسكو . . وكيف أنه أقام محاكمة ميدانية لمعاقبة كل من يخطئ أو يخرج عن الصف لأى سبب !

وقد كتبت مقالات مسلسلة . ونشرت قضايا مثيرة . . وعالجت مشاكل حساسة جدا بجرأة وتمنيت أن تلقى إعجابا من مصطفى أمين . ولكن باعدتنا هموم الدنيا وازدحمت الطرق بيننا ذهابا وإيابا . . وكنت حريصًا على أن أفتح أذنى لأصداء ما كتب فى « أخبار اليوم » ومن الزملاء هناك وأتساءل : وماذا قال مصطفى أمين ؟

وأخيرًا جاءت جائزة « أخبار اليوم » لا عن مقالات ولا عن دراسات ولا عن قضايا مثيرة تعرضت لها وواجهت بها وأثرت وأقلقت فالتفتت الملايين إلى الذى كتبت . . ولكن جاءت عن كل كتبى . . ووجدت الأخوين حافظ صاحبى جريدة الشرق الأوسط ومجلة سيدتى ومجلة المجلة من الفائزين . إذن مصطفى أمين لم يعاملنى ككاتب وإنما كمؤسسة أدبية . شكرا !

* * *

ولا توجد « وصفة سحرية » وإنما شعورى كان دائما أننى أديب صغير ـ ولا يزال هذا هو إحساسى العميق حتى الآن !

وعندى تعليقات مكتوبة بخط الرئيس السادات على كثير مما كتبت . . وعندى تسجيل صوتى للرئيس السادات على مقالاتى « فى صالون العقاد ـ كانت لنا أيام » التى نشرتها فى مجلة « أكتوبر » وقد أسمعت هذا التسجيل الصوتى لعدد من النقاد الكبار ، وسوف يجىء وقت أضع فيه هذا التسجيل مع « صالون العقاد » إن شاء الله .

وعندى خطابات بخط يد توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وخطابات أرسلها طه حسين ود . عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة فى مصر والعالم العربى . والذى أطلق عليه طه حسين لقب : أول فيلسوف مصرى .

ولكن . . . .

ولكن كنت أتمنى أن يقرأنى الأستاذ عباس العقاد . فأول كتاب صدر لى سنة ١٩٥١ كان بعنوان « وحدى . . ومع الآخرين » . . ولم أقدمه للعقاد ولا قرأه . فلم يكن إلا محاولات فى التأملات النفسية والفلسفية والأدبية . وبعد ذلك صدر لى كتاب « الوجودية » ونفد فى يوم واحد ، وأعيد طبعه ثلاث مرات فى أسبوع واحد . ولم يقرأه العقاد . ولو قرأه لاختلف معى . . وقد اختلفنا كثيرًا حول الفلسفة الوجودية . وكان العقاد يرى فيها انحرافا عن المنطق والذوق السليم . ويرى أن بها تضخيما للحرية الفردية . خصما من احترام المجتمع والدين والقيم الأخلاقية . فلم يقرأ هذا الكتاب .

وكنت قد قررت فيما بينى وبين نفسى ألا أقدم للعقاد كل كتبى التى صدرت حتى بداية

الستينيات . فنحن مختلفان ، وليس من الممكن أن يقدر العقاد ما أكتب . ثم إننى لا أنسى كيف أن العقاد قد صدمنى بعنف فى يوم من أيام سنة ١٩٤٩ . عندما نشرت مقالا فى جريدة « الأساس » عن : معنى الفن عند تولستوى . وفى صالونه الأدبى يوم الجمعة قال لى . يامولانا مقالك عن تولستوى أعجبنى جدا . . أعجبنى أسلوبه !

وتمنيت أن تبلعنى الأرض . ولكنها لفظتنى إلى الشارع إلى البيت ، دون أن أمر على مكتبى ، حزينًا . فالعقاد أعجبه أسلوبى . أى إن إعجابه كان بالأسلوب الذى يشبه أسلوبه . ومعنى ذلك أن أسلوبى جاف خشن كأنه من الأسمنت المسلح . كأسلوبه هو تماما . وتضايقت وحزنت على نفسى . كيف أننى لم أتخلص من المصطلحات الفلسفية التى يصعب فهمها عند عامة الناس . ورويت هذه الحادثة كثيرًا وخاصة فى كتابى « فى صالون العقاد ـ كانت لنا أيام » وأمسكت المقال وجعلت أعدل وأبدل وأحذف وأختصر وأوضح فيه . أكثر من عشرين مرة . وفى فترة التعديل هذه لم أذهب إلى مكتبى ولا كتبت سطرًا واحدا ولا قرأت . . وبعد أن غيرت مقالى تماما . . كنت أعرض المقال الأصلى والمقال المعدل على الزملاء . . وكانوا يندهشون لهذا الفارق الهائل . وكان الوضوح والجمال والنعومة فى مقالى المعدل!

وكنت أرى الأستاذ العقاد عنيفا فى نقده كل الناس وكل الأشياء وكل مخلوقات الله وآلهة الأساطير . . وكان ذلك يعجبنى ولكنه يخيفنى .

وفى يوم أجرت معه الزميلة « مديحة عزت » حديثا وسألته عنى . فإذا بالعقاد يقول : من هذا الأنيس منصور ؟!

من هذا ؟ أنا أحد العشاق لك ولفكرك عشرين عاما لم أتخلف يوما عن صالون الجمعة . ولكنه العقاد . . ووجدت أن الحق معه . . فهو يعرفنى جالسا مستمعا متكلما أحيانا . ولكن لم يعرفنى بعد كاتبا أو مؤلفا . فأنا لم أقدم له كتابا واحدا ولا سألته رأيه . بينما بعض الزملاء يفعلون . وقد ضايقه ذلك . . ولكننى لم أشأ أن أكون فى مهب الطوب والسهام والرصاص الذى يطلقه فى كل الاتجاهات .

وعاتبت الأستاذ العقاد ، فنفى أن يكون قد قال كلاما من مثل ذلك ؟!

وكتبت مقالا فى « روز اليوسف » بعنوان « عباس محمود العضاض » وقلت فيه إن الأستاذ العقاد مثل كل الأجهزة الضخمة لها مواسير عادم كبيرة . ولابد أن يكون هذا الكلام قد خرج منها ! وغضب الأستاذ العقاد واعتذرت له ونفيت أن أكون قد قلت مثل هذا الكلام ولكنها الزميلة : مديحة عزت ! .

وفى يوم نشر « المصور » حديثا للأستاذ العقاد عن رأيه فى أساليب : التابعى ومصطفى

أمين وعلى أمين وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكل وأنا . وقد جاملهم جميعا ، فيما عدا الاثنين الأخيرين . . فقد كان حادًا وعنيفا . . وكان رأيه فى أسلوبى انطباعا عن المقالات الصغيرة التى كنت أنشرها فى باب « أخبار الأدب » فى صحيفة « الأخبار » ومعنى ذلك أنه لم يقرأ لى مقالاتى فى « أخبار اليوم » و « يوميات الأخبار » وآخر ساعة والجيل . وتضايقت أكثرا

فمن الممكن إذن أن يكون الإنسان قريبا جدا من الأستاذ ، وبعيدا جدا أيضا . . نحن نراه بوضوح وهو لا يكاد يرانا .

وفى يوم حاولت أن ألفت نظر الأستاذ العقاد ، فقد نشرت عرضا لكتاب له عن أبى نواس فى مجلة « كتابى » التى يصدرها الأستاذ حلمى مراد . . وقد أعجبه العرض . ثم قال : كأننى الذى كتبت ذلك يامولانا ! كأننى هو ؟! أى إننى فقط قد أعجبته لأننى ظله . . صداه . . صورة منه . . وأتعسنى ذلك كثيرًا !

وأتعسنى أكثر أن توفيق الحكيم طلب منى أن أقوم بتلخيص بقية كتب العقاد وأعرضها . قائلاً . إنهم فى بريطانيا يفعلون ذلك بكل مسرحيات شيكسبير وروايات دكنز وغيرهما .

وانزعجت جدًا . . فأى دور هذا ؟ أن أكون مدرسا فى مدرسة العقاد . . أن أحذف من عمرى وأضيف لعمر العقاد ؟ لا يمكن .

وفى ذلك الوقت سمعت من كامل الشناوى ، أنهم كانوا يطلبون إليه فى شبابه أن يلقى قصائد شوقى . . فكان يفعل أحيانا . وأكثر الأحيان يرفض أن يكون « مقرئا » فى كل صوان يقام لشوقى . . فكامل الشناوى شاعر أيضا !!

ومات العقاد سنة ١٩٦٤ ولم يقرأ لى إلا قليلا . . والقليل الذى قرأه لا يعجبه ؟ لأننى اختلفت معه فلسفيا ، هو يدعو إلى المنطقية التحليلية وأنا أدعو إلى الوجودية . . والعقاد لا يعرف الحل الوسط : إما أن يكون هو أو ظله ، أو لا تكون . وهكذا لم أكن !

وكنت أتمنى أن يعرفنى كاتبا مفكرا مجتهدا . . معبرا عن جيل آخر وزمان مختلف .

* * *

وفى يوم كنت أروى كل ذلك للدكتور زكى نجيب محمود وهو أحد أصدقاء العقاد ، وقد ترجم له بعض كتبه وخصوصا كتاب « فى بيتى » فإذا بزكى نجيب محمود له شكوى . وفى أعماقه حزن يعاوده من حين إلى حين .

فزكى نجيب محمود يرى أنه من أحسن كتاب « المقال » فى الأدب العربى الحديث . وإنه قد تعلم فى انجلترا ، وأهم ما تعلمه من الإنجليزية هو فن كتابة المقال . وهو يعتقد أن المقال بالمواصفات العالمية هو الذى كتبه ونشره فى عدد من كتبه فى ذلك الوقت وخاصة كتابه « جنة

العبيط » وزكى نجيب محمود شديد الأسف ، لأن الأستاذ العقاد لم يلتفت إلى هذا الجديد الذى أدخله على المقال . سواء فيما كان ينشره فى مجلة « الثقافة » أو فى كتبه ! !

ولأن العقاد هو الذى كان يهمنا أكثر من أى أحد ، فقد أحسست كأننى لم أكتب . أو أننى كتبت ولكن قارئًا عظيماً لم يعرفنى . أو لم أقع تحت عينيه . إما لأننى تهيبت ذلك ، وإما لأنه مشغول هو الآخر بنفسه وبجده ومشغول بانشغال الناس به .

هنا فقط اكتشفت عظيما آخر . وقد حزنت كثيرًا أننى لم أعرفه من قبل : طه حسين . فعندما كتبت أضيق بالأستاذ العقاد ، كنت أذهب إلى طه حسين . . والله ما ألطفه ما أرقه ما أكثر حنانه ما أعمق أبوته . . ولكن استغراقى فى فكر العقاد وشخصيته قد صرفنى وأعمانى عن غيره من المعاصرين . . ولذلك أقبلت على طه حسين . وكان تعويضا عظيما عن خسارتنا فى العقاد وبالعقاد . وهو الذى طلب أن يكتب مقدمة لكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » فما أجمل وأعمق وأروع الذى قال . . ومن المؤكد أننى لم أكسب العقاد ، ولم أخسر طه حسين . . فخسارتى فى العقاد كبيرة . ومكسبى بطه حسين قليل . . ولكنه القليل الذى يساوى الكثير العميق الباقى .

* * *

وعلى الرغم من كل هذه الجوائز ، وكل هذه الكتب ، والعظماء فى حياتى أعرفهم وألقاهم وأقرأ عنهم وأقرأ لهم . فما يزال فى داخلى كاتب صغير . أما هذا الكاتب الصغير فهو الذى يصحو فى الرابعة من فجر كل يوم يقرأ ويكتب ويحار ويتعذب ، كأنه ما كتب ولا قرأ ولا نشر . وإنما هو فى امتحان يومى . . بل فى مباراة ليس لها كأس ولا دورى . . ولأننى هذا المفكر الصغير فقد أسعدتنى جائزة مصطفى أمين .

شكرا لعميد الصحافة الحديثة . . .

بنت ١٤

عندما نقول بنت ١٤ نقصد أية فتاة شابة جميلة . . آخر جمال ونحن بذلك نتصور شكل القمر عندما يكون عمره ١٤ يوما فهو البدر فى تمامه . . أى أقصى ما بلغه القمر من الكمال والاستدارة .

والضوء . . وبنت ١٤ هى البدر . . .

هى بنت ١٤ . أى جميلة شابة ومجلة « الشباب » قد ولدت لمؤسسة الأهرام على الكبر . فيوم مولدها كان الأهرام قد أكمل المائة سنة . . وما دامت قد ولدت للأهرام وهو فى هذه السن ، فلابد أن تكون الفتاة الدلوعة اللى شايفة كيفها فى الأكل والشرب والفساتين والسفر . . . إنها التى على الحجر .

ولكن بنت ١٤ هذه لم تكن دلوعة فى أى وقت . فأبوها قد أضاف عمره إلى عمرها فهى بنت ١١٤ عاما : وقورة جادة لا تكشف عن ساق ولا عن صدر ولا تمشى تتقصع وتتموج . . ولا هى ترقص وتستعرض وتشرب وتدخن وتكون مجنونة وتنكش شعرها وتكشف صدرها وتعرى ساقيها . .

شابة . . حلوة . . تفعل ما بدالها . . وعندما تكبر فإن والدها ينبهها إلى ضرورة أن تلايمها شوية . .

حتى الذين يتولون تعليمها وتدريبها وتقدم الدنيا لها وتقدمها للدنيا كلهم من العواجيز . . أصغرهم عنده خمسون أو ستون سنة !

وعلى الرغم من أن الحب والهيام والعشق والخيال والسرحان هى طعامها اليومى ـ أو يجب أن يكون طعامها كل ليل فإن شيئا من ذلك لا نجده أمامها . . كأنها عرفت كل ذلك قبل أن تولد . وهذا يكفى .

والحقيقة أنها لم تعرف ذلك . . ولكن الذين يدربونها على الحياة والحب قد زهقوا من الحياة

والحب والزواج والحرية . . ملوا . . قرفوا . . ولذلك فهم لا يحدثونها . . لا يكررون أنفسهم . . وكل هؤلاء قد نسوا أن الذى عرفوه وقرفوا منه . هى لم تعرفه . . ولكنهم فرضوا عليها مزاجهم . . هم أكلوا وشبعوا . . فلم يقدموا لها طعاما . . هم شربوا وانتفخوا وأحبوا وكفروا . . وزهقوا . . ولذلك اكتفوا بتجاربهم وحرموها من تجاربها . . كأنهم عاشوا نيابة عنها، وضاقوا نيابة عنها . . وأكلوا عمرها وآمالها وخيالها . . إنهم ينظرون إلى أنفسهم فى المرآة فيجدون أنهم كبروا ثم يخفون عنها المرآة حتى لا تنظر فيها لترى أنها لا تزال صغيرة !

والإغريق عندما جعلوا إله الحب طفلا صغيرًا كانوا فى غاية الحكمة . . فالحب عيل . . يغضب بسرعة ويفرح بسرعة . . تسعده ظلطة ملونة فى الأرض أكثر من قصر . . فلا تضحك من الفتاة التى تقول لك : أفضل سندوتش فول وأتمشى على الكورنيش مع شاب فى مثل سنى ، على ديك رومى فى سميراميس مع رجل غنى جدا لا أحبه . . مجنونة ؟ نعم . هل تصدقها ؟ نعم . . هل تسخر منها ؟ لا . . ما هذا ؟ هذا هو سنها . . منطقها . . عقلها فى قلبها ، وقلبها فى عقلها . . إنها بنت ١٠ + ٤ = ١٤ ربيعا . . وأنت ابن الخمسين خريفا أو ستين شتاء .

وزوجة معاوية بن أبى سفيان ضربت المثل الرفيع لكل فتاة ، بعد ذلك تزوجها ولكنها لم تحبه يوما واحدًا . . ثم طلقها عندما سمعها تتغنى بالرجل الذى أحبته . . ابن عمها . . هذه الفتاة اسمها ميسون :

واكل كسيرة فى كسر بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيف
وكلب ينبح الطراق دونى ... أحب إلى من نقر الدفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلى من قصر منيف

أى أن « فتفوتة » من رغيف أفضل من الرغيف نفسه مع معاوية . . والكلب الذى ينبح الناس وهى فى خيمة حبيبها أحب إليها من الطبل والزمر فى قصر الملك الذى لا تحبه !

وفى التوراة سفر اسمه « نشيد الإنشاد » هذا السفر فيه مجموعة الأغانى الشعبية التى كانوا يرددونها فى الأفراح . . بطلة هذه الأناشيد فتاة اسمها شولا ميت . . ضمها الملك سليمان بالقوة إلى حريمه . فغنت وتغنت بحبيبها الراعى الأسمر ذى الشعر المجعد : طعم حبيبى شفتا حبيبى . . شعر حبيبى . . فهى بنت ١٤ وهو ابن العشرين . . وهو حبيبها . قل عنها مجنونة . فليكن . ولكن هذه هى سنها وشبابها ومنطقها . .

إنك تمر على الأطفال فى الشارع تجدهم فى غاية السعادة يتخانقون على غطاء زجاجة كوكا . . تندهش كيف أنهم يتقاتلون على شىء تافه . . فعلا تافه عندنا نحن الكبار ، ولكنه كنز عند الصغار !

كثير من الناس كانوا يعترضون على سلوكيات الأميرة البريطانية ديانا . . إنها صغيرة . . تنزل الأسواق تشترى ما تريد . . وهى ملكة المستقبل . ولكنها شابة تريد أن ترى الناس وأن يراها الناس وأن تكون على حريتها . . إنهم يريدون أن يضعوها فى قفص من ذهب . ولكنها لا تريد لا القفص ولا الذهب . . كيف يكون فستانها مفتوح الصدر ؟ عيب ! كيف عارى الظهر ؟ عيب ! كيف عندما يبكى طفلها وسط أمراء الأسرة المالكة لم تجد طريقة لإسكاته إلا أن تضع إصبعها فى فمه ؟ فيسكت . وهو ما تفعله كل أم . وهو سلوك سريع تلقائى . . لا تفعله إلا أم بسيطة . ولكنهم يستنكرون ذلك . فليستنكروا . . ولكنها أم تريد أن تسكت طفلها . فنجحت فى ذلك !

والكاتب الأمريكى أمرسون له حكاية طريفة . كانت عنده حظيرة للمواشى . ومن بين الأبقار عجل صغير ويريده أن يخرج من الحظيرة ، ولكنه لم يستطع . . فطلب إلى أولاده أن يساعدوه فحاولوا فكان العجل أقوى ونادى الخادمة . فتقدمت الخادمة ، وفعلت بالضبط ما فعلته الأميرة ديانا مع طفلها . وضعت الخادمة أصابعها فى فم العجل فراح يرضع أصابعها . . وخرج معها !

واندهش امرسون وقال : كل هذه الكتب التى قرأتها فى الفلسفة وفى الأدب وفى الطب لم تساعدنى . . واستطاعت هذه الفتاة بالتجربة والفطرة والبساطة أن تحقق هذه المعجزة !

ومن ٢٥ قرنا قال أستاذنا سقراط يشكو الشباب فى زمانه فقال : شباب هذه الأيام لا يحترمون الكبير . ويستخفون بالسلطة . ويضعون ساقا على ساق . . ثم يتكلمون بصوت مرتفع . إنهم شباب ولابد من وضع الضوابط لهم !

أى لابد أن يكونوا وأن يعيشوا شبابهم وبعد ذلك نبصرهم بعواقب الانفلات . .

والفيلسوف الوجودى سارتر قال : الشباب هو مرض الطبقة البورجوازية . .

يعتقد أن تقليد الشباب ، من أعراض انحلال الطبقة الغنية فى أوروبا . .

أو بعبارة أخرى : التصابى هو المرض . . أما أن يكون الإنسان شابا فليس مرضا . . وأن يتصرف كالشباب ليس مرضا . . ولكن أن يكون شيخا يتصابى ، هذا هو المرض .

وقد استطاع الشباب أن يفرض على الدنيا موسيقاه وأغانيه وأزياءه وجنون السرعة وإدمان السجائر . . والتحلل من قيود الماضى والحاضر والانطلاق إلى المستقبل . .

ولو عاش كثير من الشبان حياتهم لتغيرت الدنيا . .

يقول علماء النفس لو أن هتلر تركته أمه يمص أصابع قدميه ما أحرق الدنيا كلها . . أى لو

تركته أمه يفعل كما يفعل الطفل عندما يستلقى على ظهره ويشد إحدى ساقيه حتى يضعها فى فمه . . ولكن هتلر لم يتمكن من هذه اللعبة . . أو لم يعش هذه الطفولة . فقد حرم من الأمومة . فقد كانت أمه تعمل فى بيوت الأغنياء فى فيينا . . وكان أبوه فى السكة الحديد . . فهتلر قد حرم الأم ومن الأمومة . . فنقل هذا الحرمان إلى عشرات الملايين من الأطفال !

وكثير من الفنانين أيضا وهم فى الرابعة عشرة وجدوا أنفسهم يعملون فى الورش والمصانع كالكبار تماما . .

الفيلسوف الفرنسى روسو ذهب ليعمل فى الرابعة عشرة فى ورشة للنجارة . . ومن تجربته كطفل أو كشاب صغير محروم من الشباب ولذات الشباب كتب روايته الشهيرة ، فى تربية الطفل والشاب ، وقد نشر هذا الكتاب وهو فى الخمسين من عمره . وكان روسو قد أنجب أطفالا كثيرين ولكنه هجرهم عندما ولدوا . . وكان يقول : إننى أرسلتهم إلى بيوت اللقطاء . .

ومن رأيه : أننا يجب أن نترك الطفل بلا مدرسة . يعيش على حريته وعلى طبيعته حتى سن الخامسة عشرة . . وبعد ذلك نضبط غرائزه ونحدد طاقاته ، لكن المهم أن يكون ابن الطبيعة أولا . . وبعد ذلك ابن المجتمع أو ابن الدولة والنظام . . فالإنسان يولد سليما ، ولكن المجتمع هو الذى يصيبه بالأمراض . .

ويقول : لا تضغط على الطفل . . لا تفرض عليه عقابا . ويكفيه عقابا إذا أخطأ أن يحمر وجهه خجلا !

ومن رأيه : أن الحياة فى الريف أفضل من الحياة فى المدن . . والحياة فى الغابة أفضل من الحياة فى الريف . المهم أن يكون على طبيعته على فطرته . .

وفى الرابعة عشرة حقق عدد من الشبان النابهين معجزات علمية . . فالفيلسوف الإنجليزى بنتام دخل الجامعة فى الثانية عشرة من عمره .

والفيلسوف هوبز دخل الجامعة فى الثالثة عشرة .

وميكل انجلو الرسام الإيطالى العظيم عمل صبيا لفنان آخر وهو فى الرابعة عشرة . .

والفنان الفرنسى رنوار بدأ يرسم وهو ابن ١٤ .

والرسام الفرنسى تولوز لو تريك سافر كثيرا فانكسرت ساقه . . وبعد علاج ساقه انكسرت الأخرى . وكان ابن ١٤ . وظل طوال حياته متوقف النمو . . ولكن بدأت معجزته الفنية فى سن مبكرة جدا . .

والموسيقار النمساوى العظيم موتسارت كتب ٧٤٠ صفحة موسيقية وهو فى الرابعة عشرة . . وألف سيمفونيتين ومنحه البابا وسام الفارس الذهبى . .

والموسيقار الألمانى شومان كتب أول سيمفونية وهو ابن ١٤ .

والأديب الإنجليزى هـ . ح . ولز عمل صبيا عند ترزى وهو ابن ١٤ وبدا الصفحات الأولى من أول عمل أدبى له . .

وأديبنا الكبير خليل جبران وضع مشروع كتابه الشهير « النبى » وهو ابن ١٤ .

وشوقى أمير الشعراء كان دائم النظر إلى فوق . . ولكن الخديو نصح والديه أن يلقيا جنيهات الذهب تحت قدميه . . حتى يهبط بصره إلى الأرض . . ففعلها مرة وكان فى الرابعة عشرة من عمره . . . ولكن ظل يبحث عن ذهب وماس المعانى فى السماء . .

والحب والجمال والحرية ونمو الشخصية والأحلام والانطلاق وملايين الآمال وكنوز المستقبل كلها فى سن ١٤ . .

وليس صدفة أن تكون جولييت فى الرابعة عشرة عندما أحبها روميو وهو فى السادسة عشرة . . وعندما ولدت جولييت كانت أمها فى الرابعة عشرة أيضا . .

ولا يهم ما الذى فعلته جولييت فى مواجهة المجتمع العجوز . . إنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها . . فالمجتمع أقوى والخلافات العائلية والطبقية والمذهبية أقوى ، فكان انتحارها إهانة للمجتمع وعارًا تاريخيًا . ولكن هذا بالضبط ما يفعله ابن وبنت ١٤ فالحب قوى والخيال جامح . ولكن المجتمع أقوى وأعنف وأقسى !

روميو وجولييت . .
وليلى والمجنون . .
وقيس ولبنى . .
وكثير وعزة
والقديس ابيلار وهلويزة
والشاعر دانتى وبياتريتشه
والشاعر بترارکه ولورا
والفيلسوف كيرلجورد ورجينيا

وألوف من الشبان النابهين والفتيات الصغيرات الجميلات كتبوا تاريخ الحب والخيال والفطرة . وعاشت قصصهم مئات السنين بعدهم . .

قال أمير الشعراء شوقى :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا	ما لقلبينا عن الحب غنى
غننا بالحب أو غن بنا	نحن فى الحب حديث بعدنا

وقد جاء موسيقيون عباقرة وخلدوا حب روميو وجولييت . . فكتبوا الأوبرات الرائعة . . منهم : برليوز وجونو وDليوس وبرنشتين وتشايكوفسكى وبروكوفييف . . كأنهم جميعا يعتذرون لبنات ١٤ عما أصابهن من عذاب وهوان . . وهذه الأوبرات والباليهات هى أبدع ما صنع الإنسان . إنها اعتذار الشيخوخة للشباب . . اعتذار الواقع المرير ، للخيال الحرير . .

ولم تكن شهر زاد إلا طفلة صغيرة أيضا فى الرابعة عشرة من عمرها . . واستطاعت بموهبتها وسحرها أن تنقذ كل الفتيات من جنون الملك الذى خانته زوجته فقرر أن يقتل كل زوجاته . . وكان يقتل واحدة كل ليلة . . حتى جاءت بنت ١٤ وأنقذت الألوف من بنات جنسها وفى مثل سنها ، وأكبر وأصغر . .

ففى كل يوم تحتفل واحدة أو واحد بعيد ميلاده الرابع عشر . يقول الشاعر القديم . .

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بمـا فعل المشيب !

ويجب ألا نصدق الفتيات الصغيرات عندما يذهبن إلى الحلاق ويصبغن بعض الشعيرات باللون الأبيض . . إنهن لا يردن الشيخوخة المبكرة . . إنهن فقط يتلاعبن باللون . . ويجب ألا تصدقنا الفتيات عندما نصبغ شعورنا باللون الأسود أو البنى ـ فنحن لا نتلاعب بالشباب وإنما نحن نتمناه ونتوهمه ونبكى عليه . .

يجب ألا نجعل الشباب يأسف على شبابه وهو يعيش فيه . .

يجب ألا نجعله يشعر بأن الشباب مرض يستوجب العلاج ، أو غلطة تستحق العقاب . .

الملك والملكة .. وأنا

كان لابد أن نذهب إلى محطة حديد (أبو حمص) لكى نقف تحية للأمير فاروق العائد بعد وفاة أبيه الملك فؤاد . . وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف معنى كلمة ملك . . ولكن لابد أنه أكبر واحد فى مصر . . وكنت قد انتقلت من مرحلة أن والدى هو أكبر رجل فى الدنيا إلى مرحلة أن شيخ الخفر أكبر من والدى . . مع أن والدى فى ذلك الوقت كان مأمور تفاتيش زراعة عدلى باشا يكن . . ولكن كنت أرى أن شيخ الخفر أكبر وأقوى . . .

هل لأن له زيا خاصا وشاربا طويلاً . . وأن عددًا من الخفراء يمشون وراءه . . أو يقفون عندما يجىء أو أنه دائم الشخط والنطر . . إذن فالملك أقوى من الجميع . .

وجاءت قطارات كثيرة من هذه الناحية ومن الناحية الأخرى . . وأنا أحب شكل القطار وصوته . . وصوت العجلات على القضبان واللمعان فى زجاجه . . وإنه يجىء من المجهول ويذهب إلى المجهول . . ولا أضيق برائحة الفحم الذى ينبعث من القطار . . وأكثر شىء يبهرنى فى القطار هو منظره وهو واقف فى المحطة وصوته وهو يستعد للرحيل . . فهو يبذل مجهودًا قويًا لكى يمشى . . ويجرى وينطلق ويختفى . ومنذ ذلك الوقت وأنا أجد متعتى الكبرى فى السفر بالقطارات بين العواصم الأوروبية . . متعة أن أركب القطار بين الغابات فوق الجبال فى داخل الأنفاق وتحت الجسور وفوقها . . وأن أنظر من نافذة القطار أراه ثعبانا يتلوى وينسحب وينفذ كالسهم ناعما سحريا . . وكم نمت فى القطار بين باريس وفيينا وبين براغ وروما . . وبين برلين وكوبنهاجن . . إنه أروع وسيلة للمواصلات اخترعها الإنسان . . لقد وجدت للموسيقار الروسى بورودين ألف عذر . . فقد كان يحفظ جداول القطارات . . وكان يقف بين ضيوفه ويصرخ : لقد تأخر ثلاث دقائق . . لقد تأخر . . شىء عجيب !

ويندهش الضيوف ويسألونه ويكون الرد مفاجأة لهم . . فهو يعرف مواعيد القطارات كلها . .

مواعيد القطارات المتجهة إلى موسكو والخارجة منها إلى كل المدن الروسية !

وقد استقر هذا الانبهار فى أعماقى منذ الطفولة . . ولذلك كان شعورى غامرًا فى انتظار القطار الذى ينقل أقوى شاب فى مصر . كان يدرس فى بريطانيا ، ولما مات أبوه الملك فؤاد جاء ليجلس على عرش مصر . . يا ترى كيف يكون شكل القطار . . لابد أن يكون مختلفا أكثر لمعانا وأسرع . ولم يخطر على بالى فى ذلك الوقت إن كان سيقف أو ينزل منه الملك الجديد ويصافح تلاميذ المدارس . . لقد انشغلت عنه باكتشاف هام جدًا . . . فقد وجدتنى أمسك يد طفلة صغيرة شقراء . . وشعرها ذهبى وعيناها زرقاوان . . أول طفلة بهذه المواصفات . . وظللت أضغط على يدها . . وأرفعها أتأملها . . وتخيلت أننى أستطيع أن أرى الأشياء وراء يدها كأنها زجاج . . ونظرت إلى وجهها إنه جميل . . وعيناها عميقتان . . هل ابتسمت هى . هل ابتسمت أنا . . هل كان فى نيتى أن أشاركها السميطة التى فى فمها . . وعندما اقتربت منها لم يكن فى نيتى أن أقبلها . . ولكنى قبلتها . . طفل يقبل طفلة . . وفجأة وجدت قلما على وجهى . . وتركت يدى الطفلة . . والطفلة هى الأخرى تركت يدى . . ووجدتنى ملتهب الوجه وحدى . . هل وسط هذا الحريق الذى اشتعل فى رأسى جاء قطار الملك . . وهل رآه الأطفال . . وهل رآهم . . وهل نزل الملك فاروق ليصافح الأطفال ؟ لا أعرف . ولكنى وجدت نفسى فى الطريق وحدى إلى البيت . . لأقول لأمى إننى اصطدمت بأحد الأطفال فاحمر وجهى . .

ولا أذكر أننى تحدثت عن الملك الذى مات والذى جاء يجلس على مقعده حاكما لمصر . . ولكن ظللت سنوات طويلة ، كلما ذكر اسم الملك فاروق تسحبت يدى لتغطى خدى . . أو تلمسه كأن خدى قد التهب فجأة ، وخشيت أن يراه الناس فحاولت إخفاءه !

إذن لابد أن تقبيل طفلة من طفل فى مثل سنها عيب . . أو غلطة . . هل لأن ذلك حدث أمام الناس . . هل لأن القبلة لم تكن بريئة . . لا أعرف وهل العقاب جاء لأننى قمت بعمل إرادى واع تماما ؟! على كل حال إن القلم على خدى كان عقابا لوعى جنسى مبكر . . ولكن علماء النفس يرون تصرفات الإنسان منذ الرضاعة حتى التدخين كلها جنسية . . فليست هذه القبلة فقط . . وإنما وضع يدها فى يدى . . والاقتراب منها بسبب وبغير سبب . . ثم إن الطفلة لم تكن تأكل سميطا وإنما هى تمسح فمها بيدها من حين إلى حين . . وتخيلت وأنا طفل أنها تأكل شيئًا ، وأننى أريد أن أشاركها هذا الشىء !

وبعد ذلك ظهرت صور الملك فاروق على أغلفة المجلات المدرسية . . ومجلات الأطفال . . ثم صورة الملكة فريدة . . وكانت جميلة . . ولها ابتسامة حلوة . . وهى شديدة الاحتشام . .

والملك الجديد جميل الصورة واقفا إلى جوارها . . واقفا وهى جالسة . . على عكس العادة

الفرعونية القديمة . . أن يجلس الملك وتقف الملكة وتضع يدها على كتفه . . تماما مثل تمثال نهضة مصر . . فالفلاحة المصرية وضعت ذراعها على كتفه . . والذراع الأخرى رفعت بها ثوبها . . ومنظر تمثال نهضة مصر لا يدل على أن الفلاحة تريد أن توقظ أبا الهول . . وإنما هى تطبطب عليه كأنها تقول له : خليك نايم ياخويا . . يعنى اللى قاموا خدوا إيه . . صحتك بالدنيا يا ضنايا ! .

ولا أظننى رأيت الملك « فاروق » قط . . وإنما فى السينما فقط . . وفى المجلات . . وكذلك أميرات الأسرة المالكة . .

ثم الصور والحكايات المثيرة التى تنشرها (أخبار اليوم) عن الملك فاروق . . وكلها حكايات غريبة عجيبة . .

وهى تحكى أن الملك الشاب مستهتر . . ذئب . . وأنه يطارد الراقصات فى كل مكان . . وكل مكان فيه باب سرى لدخول وخروج الملك دون أن يدرى به أحد . . وإن الملك يلعب القمار وإنه يسرق الولاعات الذهبية التى تعمد الناس أن يتركوها له . . فهو من الناحية النفسية مصاب بمرض اسمه العلمى (كليبتومانيا) ـ أى جنون السرقة !

وفى ذلك الوقت كنت غارقا فى دراسة الفلسفة ـ والفلسفة الوجودية بصفة خاصة . . وفجأة أطلق الملك (الصالح) لحيته . . وقيل إنه من سلالة رسول الله عليه الصلاة والسلام . كيف؟ فى ذلك الوقت لم أستطع أن أعرف فقد كنت مشغولا بالفلاسفة سارتر وهيدجر والشيخ حسن البنا . وكنت واقعا فى قوة جاذبية الأستاذ العقاد . .

وفجأة قرأنا أن الملك قد طلق زوجته الملكة فريدة . ولها حكايات وحكايات . . وإنه عندما قرر الطلاق جاء فى بيان القصر الملكى . لقد شاءت إرادة الله ـ أى شاءت إرادة الله أن يكون طلاق . . وأن يكون زواج جديد لتلميذة فى المدرسة السنية اسمها ناريمان وهى التى أنجبت له الولد الوحيد ليكون وليا لعهد مصر . . فالملوك يحتاجون إلى الولد الذى يرث العرش . . وأعطته الولد الذى تمت ولادته قبل حريق القاهرة بأيام . ذلك الولد هو الأمير أحمد فؤاد الذى جعلته ثورة يوليو ملكا على مصر . . ثم عينت وصيا عليه ضابطا هو رشاد مهنا . وهذا الولد جعلوه ملكا سابقا وهو رضيع أيضًا !

وخرج الملك الرضيع من مصر ولم يعد إليها إلا لكى يمشى فى جنازة والده الملك فاروق (٤٥ سنة) ـ وكان الرئيس السادات هو الذى وافق على نقل جثمانه بالطائرة وأن تقام له جنازة ويدفن فى وطنه مصر . . وإن من حق كل مصرى يموت فى الخارج أن ينقل جثمانه على نفقة الدولة إذا لم يكن قادرًا على أن يعود على نفقته . . فقد تأثر السادات بما حدث للزعيم المصرى

محمد فريد الذى مات ولم يجد أحدًا ينقل جثمانه بعد أن ضحى بكل ما يملك من أ

وفى سنة ١٩٥٢ قررت أن أترك العمل فى جريدة (الأهرام) وأن ألتحق بأخبار ال
فى جريدة الأخبار الجديدة . . وأول شيء فعلناه هو أن أقوم بإجازتى السنوية . .

وسافرت إلى أوروبا على ظهر الباخرة اسبريا ضمن مجموعة تضم د. عبد العزي
رئيس الوزراء السابق ود. عبد المنعم البنا رئيس البنك المركزى ود. حسن عثمان عا
الذى ترجم (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالى دانتى والذى توفى يوم مات طه
يدر به أحد سنة ١٩٧٣ . . وعددا من ضباط البوليس أذكر منهم اللواء حسنى
الذى نظم لنا هذه الرحلة فهو د. مراد كامل أستاذ أساتذة اللغات الشرقية . . و
١٧ لغة قديمة وحديثة بلهجة مصرية صميمة ؟!

وفى الباخرة سمعنا أخبارا تقول إن ثورة وقعت فى مصر . . ولم أعرف معنى ثو
مثل الثورة الفرنسية ؟ مظاهرات . . مذابح وإعدام للملك والأسرة المالكة . . ثورة

وكل من على الباخرة يتحدث عن الثورة الفرنسية . . ولكن ليست لدينا أية معا
الذى حدث فى مصر وكيف حدث . . حتى وصلنا إلى الشاطئ الإيطالى
الصحف . . ورأيت صورة لواحد اسمه محمد نجيب . . شكله سودانى . . . . هو
بالثورة . . يعنى ماذا عمل ؟ لا أعرف . . والصحف الإيطالية تقول كلاما عاما .
وجدنا الجانب الفكاهى للثورة فمعنا اللواء حسنى نجيب . . وقدمناه للناس ع
زعيم الثورة المصرية . . وقد انفتحت لنا أبواب كان يجب أن تظل مغلقة بسبب أ
لقائد الثورة المصرية . . وكنا نتلقى التهانى على قيام الثورة . . ولم نكن نعرف ما ا
لمن يهنئنا بالثورة . . هل نقول له : عقبال عندكم . . هل نقول له كنا نعرف أن
قادمة لا محالة . .

سمعت بعض الزملاء يقولون إنهم كانوا يتوقعونها . . وكل واحد عنده حكاية
ولكن ظللت طوال الوقت لا أعرف بالضبط ماذا حدث . . وفى الأيام التالية و
للدبابات فى الشوارع وضباطا وجنودًا . .

أما أشهر رجال الثورة فهو أنور السادات . . فقد كان مشتغلا بالسياسة ومته
الوزير أمين عثمان . . وكان هاربا من البوليس . . أما بقية الأسماء التى ظهرت فى
فلم يكن من بينها واحد يعرفه الناس . . فجمال عبد الناصر كان مجهولا من كل
وظل مجهولا إلى سنوات من الثورة ، عندما أسفر عن وجهه وعن دوره فى الإعد
والقيادة . . فهو قائد الثورة الحقيقى !

وانشغلت تماما عن الذى حدث فى مصر . . فما حدث قد حدث . . وليس لى دور . . ولا أعرف كيف أفكر . . وسوف تظهر المعالم أوضح فيما بعد . . وانشغلت بكل ما أحب فى إيطاليا والنمسا وألمانيا . . ورحت أتمسح بعقلى وقلبى فى كل رموز الحضارة الأوروبية . . هنا . . فى هذا البيت . . وفى هذا الشارع وفى هذا المتحف وفى تلك المكتبة . . وعلى المقهى وفى مواجهته وعند النافورة وحولها . . وجعلت قلبى كرة فى شوارع روما تتدحرج مع شارع ناسيونالى وتتخبط فى شارع دلكوريسو . . وتستحم فى نافورة الطرق الثلاثة . . وتنزل قطرة قطرة من نافورة ايسدرا . . ما هذا الذى فى روما . . ما هذا الذى يتولانى . . ما هذا الذى يذيبنى ويجعلنى ماء ويجعلنى نبيذًا . . وينفخنى نسيما ويثيرنى عطرا . . ويطلقنى شعاعا تائها ضائعا . . ويتمنى أن يظل كذلك إلى الأبد !

وفى يوم قابلنى الصديق الصحفى الفريد عبد السيد ودون مناقشة اتجهنا إلى حدائق بور جيزى فى روما . . فى مكان قريب من سفارتنا الجميلة . . ودون اتفاق دخلنا كباريه (فيلا فرانكا) . .

الكباريه صغير غامض المعالم . . هامس الألوان . . ساحر الموسيقى ، قلت له : ما رأيك ؟

قال جميل . .

ودخلنا . . ولم يكن فى الكباريه الصغير أحد سوانا . . هل لأن الساعة مبكرة . . هل لأننا هربنا من المطر الغزير فدخلنا أقرب مكان . . هل تعبنا من المشى . هل الكلام بيننا طويل ونريد أن نكمله جالسين . .

وفجأة وجدت الفريد عبد السيد قد نقل مقعده فى مواجهتى . . وظهر عليه اضطراب شديد . . مالك ؟ قلت له فقال : الملك ؟

قلت : مش فاهم !

قال : الملك أمامك !

قلت : من هو الملك ؟

قال : فاروق يا أخى ؟

ونظرت . . ووجدت الملك « فاروق » . . ومن حين إلى حين أنظر إليه . . فالمسافة بيننا حوالى مترين . . الملك جالس مع عدد من الرجال . . ومن بينهم سيدة سمراء . . وهذا الذى يجلس ناحيتنا هو سكرتيره أمين فهيم . . والذين جلسوا فى المنضدة التى وراءه هم من الحرس الإيطالى . . وكان الملك منهمكا فى الكلام . . يشرح ماذا حدث فى مصر . وكانت

هذه أول رواية عن ثورة مصر أسمعها من ملك مصر . . وكان صوته مرتفعًا وهويتحدث الإيطالية بطلاقة مع استخدام بعض الكلمات الإنجليزية والفرنسية . . وكان يضحك عاليا .

وقال الفريد : تفتكر ايه اللى يقدر يعمله فينا الملك ؟

قلت : ولكن الحراس حوله قد يتخيلون أننا جئنا من مصر لنقتله !!

وفجأة جاءت إحدى الفتيات وجلست تقول لنا : أنا وواحدة زميلتى قد تراهنَّا . . هى تقول إنك أنت مصرى (وأشارت بيدها ناحيتى) وأنت يونانى (وأشارت إلى الفريد) . .

أما إن الفريد شكله يونانى أو أسبانى فهو صحيح . . وأما إننى أبدو مصريا فهو صحيح أيضا ، ولكننا بسرعة أنكرنا ذلك وأنا قلت لها : إننى من أصل إيطالى . . ولذلك أتكلم الإيطالية بطلاقة . . ولكنى من الأرجنتين . .

فقالت بالأسبانية : أنا أتكلم الأسبانية . . فقلت بسرعة : ولكنى أفضل الإيطالية ! ثم تكلمت بالعربية مع الفريد : وبعدين فى المصيبة دى ؟

فقالت الفتاة : هذه لغة عربية . . فأنا لى أصدقاء من السعودية ومن لبنان . . وأعرف بعض الكلمات . .

ثم نهضت وفى هذه اللحظة فكرنا أن نهرب من المكان . . فقد تخيلت أشياء كثيرة . . من بينها أن الملك عرف أو تأكد أننا مصريان . . أو أن الفتاة أخبرت أحدًا بأننا نتكلم العربية . . وسمعنا الملك « فاروق » يقول بالإيطالية : طبعًا لا يهمنى . . وماذا يريدون أكثر من ذلك . .

هؤلاء الأولاد . . لقد أخذوا كل شىء . . وسوف يخربون مصر . .

فقلت لزميلى : إنه متأكد أننا مصريان . . وأننا جئنا وراءه هنا . . وأننا موفدان لاغتياله . . وكلما نظرت إلى حراسه والسلاح الذى فى أيديهم شعرت بالفزع . . ما رأيك ؟

ولم نكن قد طلبنا طعاما بعد . . وبسرعة نهضنا . . وخرجنا ليغرقنا مطر غزير . . لقد كنا نحتاج إلى هذا المطر فالذى فى رأسى وساوس ومخاوف ولا نعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا ؟

ومشينا بسرعة واتجهنا يمينا ويسارا ويمينا . . وكانت الدنيا مظلمة تمامًا . . والسيارات سريعة مجنونة . . وكانت تطلق علينا كرابيج من المياه التى تجمعت فى الشوارع . . فالمطر من فوق ومن تحت . . . وكان المطر باردًا . . وتوقفنا لنعرف أين نحن من وسط المدينة . . ومن فندق (سانتا كيارا) الذى نزلنا به . .

قلت : أنا معى عنوان فتاة كانت معنا على ظهر الباخرة . . إنها موظفة فى أحد المستشفيات . . وأعتقد أنها قريبة من هذا المكان . . ما رأيك ؟

ولم ينطق بكلمة وتوغلنا فى الظلام . . الشوارع نوع من الظلام الملتوى . . أو إنها صور وأشكال وألوان من الغموض الذى تظهر فيه أضواء خافتة . . كأنها بوارق الأمل . . أو نوع من اليقين . وأخرجت الورقة من جيبى . . وقرأت العنوان . .

أما الذى سوف نقوله لها فهو أننا كنا قريبين من البيت ولم يخطر على البال أن أمطارًا غزيرة سوف تسقط . . ولأننى مسافر غدا إلى النمسا . رأيت من الواجب أن أمر عليها للسلام والتحية . . أو إن ملابسنا قد تبللت ولم نستطع أن نجد « تاكسى » وأملنا أن تساعدنا فى استدعاء تاكسى . . وبعد دقائق نصافحها ونعود إلى الفندق . .

وانفتح باب شقتها وظهر رجل طويل عريض . . قدمت له نفسى وقلت إنما جئت لتحية الآنسة سيلفانا ماريللى وقد التقيت بها على ظهر الباخرة قادمة من قبرص وهى إيطالية فرنسية الأصل . . فضحك الرجل الذى اندهش لرؤيتنا وقال : تفضلوا . . إن زوجتى سوف تحضر حالا . .

زوجته ؟ إنها لم تقل لنا إنها متزوجة . . وليس معقولا أن تكون قد تزوجت فى الأيام الثلاثة الماضية . . وجاءت سيلفانا . . لقد كانت أكثر جمالاً . . ورشاقة وسعادة وقدمتنى لزوجها . . وقالت : صحفى وأديب وفيلسوف وعنده حكايات لا أول لها ولا آخر . . وقد كاد يقتلنى من الضحك فكل الذى كان يحكيه من التاريخين الإيطالى والفرعونى . .

وقدمت لها صديقى ثم كانت المفاجأة التى جعلتنى أذوب فى مقعدى . . واقترب منا زوجها واسمه نانينو أو نللينو . . كارولينو . . وقال : شىء عجيب جدًا . . ومصادفة لا يتصورها العقل . . لقد رأيتكما فى كباريه (فيلا فرانكا) فأنا أعمل حارسا للملك فاروق !

أما الذى قاله حتى مددت يدى مصافحا مودعا شاكرًا ، فلا أذكر منه شيئًا . فالرجل مهذب ولكن كرجل أمن ، كلامه غليظ وأكثره يحمل لهجة الشك وسوء الظن . .

ولم نشأ أن نطلب مساعدة فى استدعاء تاكسى . . ومشينا ومشينا وكان المطر قد تضاءل . . ولكن ملابسنا مبللة . . ودخلنا أحد المطاعم ننفض عنا المطر ونشعر بالدفء . . . ونحمد ربنا على سلامتنا ونجاتنا . . من أى شىء ؟ نجاتنا من أيدى البوليس الذى يحرس الملك «فاروق» ؟!

وقد أدعى ضباط مصريون كثيرون بعد ذلك أنهم الذين وضعوا السم للملك فاروق فى طعامه !

وتشاء المصادفة أن أسافر إلى جزيرة كابرى . . وأن أركب الحنطورة إلى أعلى مكان فيها . . حيث توجد مطاعم كثيرة . . واخترت واحدا وكانت صاحبته سيدة عجوزًا . . ومعها

ابنتها . . ويقولون حفيدتها . . أما الابنة فهى نموذج للفتاة الإيطالية . . طويلة سمراء ممتلئة من كل مكان من جسمها . . الساقان ملفوفتان مستديرتان . . وقد تعرى أكثرهما . . فهى ترتدى بنطلونا قصيرًا كالذى كانت ترتديه الممثلة سلفانا مانجايو فى فيلم « مرارة الأرز » وكذلك النهدان بارزان . . متمردان . . وبينهما يتدلى عقد له حبات كبيرة . . كأنها حبات المشمس وبين الحين والحين تمد يدها لتخرج إحدى الحبات من بين نهديها . . كأنها تتعمد ذلك . . وعنقها الطويل قد تغطى بعقد ملفوف عدة مرات . . ومن أذنيها تدلى قرط كبير يلامس كتفين عاريتين . . أما البلوزة فهى مفتوحة من الظهر . . وعيناها واسعتان عسليتان تنظران إلى عينيك . . وشعرها كستنائى منكوش . . وهى تطل بوجهها الجميل الوحشى من وسط هذه الغابة من الشعر والورد تعلقت على جانبى الوجه . . وسألت الفتاة الجميلة : ماذا تريدين ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ عندما تستخدمين كل هذه الأسلحة الفتاكة . . ماذا تريدين من الناس ؟

وتعالى صوت جدتها وهى تقول : أجيبى عن هذه الأسئلة . . قولى . . أنت كل يوم تجلسين أمام المرآة ساعة ترين وجهك وظهرك . . وتقفين على المقاعد لكى ترى ساقيك من الأمام ومن الخلف . . ثم تنظرين بعينيك إلى المرآة كأنك تريدين إغراءها . . أجيبى عن هذه الأسئلة . . ماذا تريدين . . أنت لا تريدين الزواج ! إذن لماذا كل هذه الألوان فى كل مكان من جسمك ؟! أجيبى .

قالت : أبدًا . . ولا حاجة . . إننى أجد متعة فى النظر إلى نفسى فى المرآة وسعيدة بأننى جميلة . . أن أحدًا لا يقاوم النظر ناحيتى . . لا أحد . . حتى الذى يتظاهر بأنه يتجاهلنى إذا نظرت إليه فجأة وجدته يتفحصنى من فوق لتحت . .

قلت : أنت مجرمة !

ـ وأنت جرىء !

ـ أنت جمالك يغيظ أى إنسان !

ـ وأنت ماذا تريد ؟

ـ من واحدة مثلك .

ـ نعم .

ـ مجرد النظر إلى هذه الألوان البديعة . . إلى هذه الخطوط الناعمة الموسيقية فى كل ملامحك . . أنت غجرية . . أنت مجنونة الجمال . . أو جمالك يدفع إلى الجنون . .

ـ كفى . . لا تقل . . فأنا أعرف ما سوف تقوله بعد ذلك أنتم جميعا تقولون عبارات واحدة . . . إن الرجل إنسان ممثل . . منذ يومين قابلت ملكا مطرودا من بلده . . قابلته تحت الماء . . كان يتفرج على جسمى تحت الماء واستخدم منظارًا كبيرًا . . ولما خرج من الماء قال لى لو رأيتك قبل الزواج لجعلتك ملكة على مصر ! وأنت ماذا تريد أن تقول ؟!

ـ ولا حاجة . . ليس عندى ما أقوله لك . . إلا أننى لو كنت غنيا لأقمت لك فندقا على النيل فى مصر .

ـ فى مصر أيضا ؟

ـ نعم . . لأننى مصرى . .

ـ أنت تعرف هذا الملك إذن ؟ . . إنه يتوقف كل يوم ويبعث لى بتحيته . . ويشترى أى شىء ثم يدفع أضعاف أضعاف الثمن . . وقد طلبت جدتى أن أذهب إليه وأن أقبله شاكرة .

ـ وفعلت ذلك ؟

ـ لا . . إن جدتى تحب الفلوس . . ولا مانع عندها أن أفعل أى شىء مقابل مبلغ من المال . . ولذلك فأنا أحب نفسى وأحترمها وأحتقر جدتى . . ولولا أنها تحبنى وأنها التى ربتنى بعد موت أمى لتركتها منذ وقت طويل ! هل أنت غنى ؟

ـ جدًا . . .

ـ وما هى مشاريعك ؟

ـ أن أعيش سعيدًا بما عندى من المال . .

ـ ما دمت قد ذكرت السعادة فأنت من المؤكد فقير جدًا . . لأن الأغنياء يريدون أن يكونوا أكثر ثراء وذلك بالعمل واستخدام أموالهم . . أما الفقراء أمثالنا فهم الذين يدفعهم اليأس إلى الكلام عن السعادة بإنفاق ما فى الجيب لأنهم لا يضمنون ما فى الغيب . .

ـ أنت فقير قطعا !

ـ نعم . . .

ـ الآن أستطيع أن أحبك . .

ـ تحبين فقيرًا لا تعرفينه ؟!

ـ وأنت ألا تريد أن تحبنى . . مع أنك لا تعرفنى ؟!

ـ أنا أحب أن أتفرج عليك . . تحفة . . فنية . . ولكن لا أستطيع أن أحملك إلى بلدى . .

أخشى أن تأكلك الذئاب . . أخشى ألا تصلى سليمة إلى مصر . . فإذا وصلت فسوف أتحول إلى خفير يحرسك . . أنت جميلة زيادة عن اللازم . . وجمالك سوف يدعو اللصوص . . سوف يجذبهم . . وهم معذورون إذا سرقوك أو حتى قتلوك .

ـ يعنى إيه ؟

ـ ربنا يحميك . . .

ـ من إيه ؟

ـ ربنا يحميك وخلاص !

ـ تأكل إيه ؟

ـ أى حاجة من ايديك وعلى مرمى من عينيك . . أى حاجة !

ـ انتظر قليلا وسوف يجيء الملك . . إنه يستحم هناك (وأشارت إلى مكان بعيد فى البحر) . . ماذا تريد الآن ؟

ـ أريد أن أساعدك . .

وبسرعة ألقت فوطة وقطعة من الإسفنج . . لا أعرف من أين أتت بها . . وأشارت إلى الأكواب والأطباق . . ثم رمت بمقشة إلى الفريد عبد السيد . . ودخلت المطعم الصغير . . وأشارت إلى ما يجب أن يعمله كل واحد . .

وفجأة ظهر الملك فاروق .

وقال لها بالإيطالية : أنت وجدت عددًا من المساعدين ؟

قالت : أنا سعيدة بذلك . . تفضل جلالتك . . هات يا انيسينو (تقصدنى أنا) مقعدًا هنا . . ومنضدة هناك . . وبسرعة . . وبسرعة . .

والآن أرى ملك مصر بوضوح شديد . . ليس طويلا كما كنت أتصور . . وإنما هو متوسط القامة وله كرش عظيم . . وكرشه يتحرك يمينا وشمالا . . ثم إنه غير قادر على أن يضع ساقا على ساق . .

وساقاه نحيفتان جدا مثل ساقى جمال عبد الناصر . والشعر كثيف فى صدره . وليس كذلك فى ذراعيه أو ساقيه . . وهو أصلع تماما . . وله شارب صغير خفيف . . وعلى شفته السفلى علامة . . لعلها « عضة» أو هى بالفعل . . وهو يلمسها بأصابعه من حين إلى حين . . وتظهر على وجهه آثار السعادة بذلك . . وهو يحاول أن يلفت النظر إليها . . وقال للفتاة واسمها سيلفانا : إن واحدة فى مثل جمالك هى التى حاولت أن تجعلنى بغير شفتين . .

فقالت : وجلالتك ماذا فعلت لها . . ما الذى أكلته منها . . أو إنك لم تجد فيها شيئًا يستحق الأكل ؟!

فقال : ولكن الرجل المهذب لا يأكل المرأة . .

ـ فعلا . . لا يأكلها ولكنه يقتلها . . هاها . . هاها !

ـ إذا كانت فى مثل جمالك . (وأشار ناحيتنا وبرقت عيناه وقال) من أى البلاد هما ـ من أى البلاد ؟ من مصر !

وقفز الملك من مقعده . . وأحس كأنه انفضح . . أو كأنه تحول فجأة إلى واحد من الناس . . واحد مثل بقية الناس . . يعاكس الجميلات . . ويتباهى بأنه يعرف غيرها . . ويدعوها إلى أن تكون مثل الأخريات . . ولم يشأ هذه المرة أن يشترى شيئًا أو يدفع شيئًا كما اعتاد فى كل مرة . .

ولم يشأ الملك فاروق أن ينظر ناحيتنا أو يعلق بشىء . . وإنما وضع قبعته الضخمة ومنظاره الأسود ومضى بالمايوه المشجر ووراءه الحراس ، ونحن ننظر إليه بشجاعة ولا مبالاة . . ورأينا فتاة شقراء تلحق به . . وتضع يدها على كتفيه ويلف ذراعه حولها . . ويختفى وسط الألوف لا يدرى به أحد !

وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى أرى فيها الملك « فاروق » الأول . . والأخير !

. . وعملت محررا فى (روز اليوسف) إلى جانب اشتغالى محررا بجريدة الأخبار ومدرسا للفلسفة بالجامعة . . ولم تنقطع صلتى بسيلفانا . . ولا انقطعت خطاباتها . . ولا أحلامها . . وأحلامنا المشتركة . . ثم إننا سافرنا معا إلى برلين وإلى موسكو . . وكانت تحلم بأننا التقينا بالبابا وقلت له وقال لنا . . وأننا التقينا بسقراط . . وقالت له وقلت له . . كل ذلك فى خطابات جميلة بديعة تحفة من الأدب الإيطالى الحديث .

وطلبت إلى سيلفانا أن تبعث لى كل يوم بأخبار الملك فاروق وكنت أنا الوحيد الذى فى روز اليوسف ينشر أخبار الملك فاروق وسامية جمال وكانوا يسمونها راقصة مصر الرسمية . . وكانوا يضعون العلم المصرى فوق الفندق الذى تنزل به فى مدينة دوفيل الفرنسية . . وكنت أنشر كل ما تبعث به سيلفانا . هكذا : باريس من سيلفانا ماريللى . . روما من سيلفانا ماريللى . .

وفى ذلك الوقت كنت أتقاضى ثلاثة جنيهات فى الأسبوع من روز اليوسف . . ووجدت من حقى أن أطالب بمكافأة أكبر . . فذهبت إلى صديقى إحسان عبد القدوس ورئيس تحرير روز اليوسف . .

فقال : إن ماما هى وحدها التى لها هذا الحق !

أى السيدة روز اليوسف وحدها التى تملك رفع المكافأة . وبعد مناقشة طويلة وشاقة رفعت المكافأة إلى أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان ذلك حدثا كبيرا لم يستطع أحد أن يصدقه فى روز اليوسف . . لدرجة أن المرحوم العقيد عبد المنعم السباعى الذى كان يتقاضى عشرة جنيهات فى الشهر عن بابه المشهور « جراح قلب » وقف بملابسه العسكرية على المقعد وراح يرقص طربا واحتفالا بهذه العلاوة الضخمة !!

والفضل يرجع إلى سيلفانا ماريللى وحدها . .

ولما خشيت أن يستخدم أحد اسم سيلفانا ماريللى كتبت مقالا فى (أخبار اليوم) أتحدث فيه عن مصرع سيلفانا ماريللى فى حادث سيارة !

وكانت السيدة ناريمان مدعوة لتناول الشاى عندنا ، فلم تحضر ولم تعتذر . وعرفت أنها لا تزال تضيق بمثل هذه الأخبار التى نشرتها فى نفس اليوم فى مجلة (أكتوبر) . ومن الطبيعى أن تكون حزينة على الرجل الذى أحبته وجعلها ملكة على مصر وابنها ملكا .

وكانت قد أرسلت ناريمان صادق أحد ابنيها لترتيب لقاء بيننا لأعاونها على كتابة مذكراتها . . وقد أدى هذا الخبر إلى إلغاء هذا المشروع !

ولم يكن اسم سيلفانا ماريللى إلا واحدا من الأسماء المستعارة التى اتخذتها فى حياتى الصحفية . . فقد كتبت تحت أسماء كثيرة : شريف شريف . . وهالة أحمد . . وعلا جعفر . . وصلاح الدين محمد وسيلفانا ماريللى . .

وظللت أتابع أخبار الملك فاروق ومذكرات عشيقاته الإيطاليات والاسبانيات والأمريكيات . . والمذكرات المفبركة عن الحياة مع الملك فاروق . .

ولكن الملكة فريدة قد وعدتنى بأن تفضى إلى بأسرار كثيرة لم تنشر . . وتهيأت لذلك تماما . . فأنا احترم الملكة فريدة وأجد متعة فى الحديث إليها . . وهى أيضا واتفقنا على موعد . . وكان المرض أسبق إليها . . واستأنفنا الحديث وهى على فراش المرض . . فكان الموت أسبق إليها . . فماتت وأسرارها معها . .

كان الملك فاروق قد قرر أن يموت مظلوما مجهولا للشعب الذى حكمه ستة عشر عامًا . . كان شابا محبوبا ورجلا بشوشا . . تغلب عليه الذين حوله حتى أفسدوه ومصر كلها . . فكان لابد من ثورة . . هذه الثورة قد أتت لمصر بأكثر من ملك ، لم يكونوا أحسن حالا من فاروق . . ولا كانت مصر أسعد حظا وقد رأينا من رجال ثورة يوليو العجب العجاب . . فكأننا تخلصنا من ملك واحد لناتى بعشرين ملكا أكثر بطشا وعداء للشعب الذى أتى بهم إلى الحكم !

وفى يوم كنت فى باريس . وقال لى صديق : تحب تشوف ملك مصر ؟

ـ تقصد الأمير أحمد فؤاد ؟ طبعا إنه فصل غامض من تاريخ مصر . . لقد قرأت عنه ولكن لم أره . . وكان من الممكن ألا أراه لو كان ملكا لمصر . . اللهم إلا إذا كنت رئيسًا للوزراء أو رئيسًا للديون الملكى أو خادما شخصيا له . . فعلا أريد أن أراه وأن أتحدث معه . .

وكانت السيارة قد وقفت فعلا أمام عمارة . . والآن عندما أسترجع ما حدث فإننى لا أعرف كيف أصف لك هذه العمارة ولا بابها ولا مدخلها ولا إن كانت جديدة أو قديمة . . ولا إن كان بها أسانسير . . الآن لا أستطيع أن أتبين شيئًا من ذلك . ولكن وقفنا أمام باب شقة . . ولا حتى شكل الباب أستطيع أن أصفه لك . . فقد كنت فى مهب الرياح التاريخية وفى دوامة الأحداث . .

وانفتح الباب وكان الملك أحمد فؤاد الملك السابق لمصر . . والأمير الحالى . . فى اللحظة الأولى تجد أن بينه وبين والدته الملكة ناريمان شبها فى الوجه ولون البشرة وربما فى العينين أيضًا . . فإذا استدار فأنت ترى والده الملك « فاروق » . . عريض الكتفين متوسط القامة . . يكاد يكون أصلع . . أما لهجته فعربية مصرية واضحة .

وكنت أظن أنه قد نسى اللغة العربية . . فأكثر أفراد الأسرة المالكة فى مصر كانوا يتكلمون العربية بصعوبة ، ولكن اللغات الأخرى يتكلمونها بطلاقة . . بما يؤكد أنهم منفصلون عن الشعب . . أو أنهم ليسوا من الشعب ولا يريدون . .

والشقة صغيرة . . والجدران عليها صور محمد على والخديو إسماعيل وجده الملك فؤاد ووالده الملك فاروق . . وصور أخرى صغيرة لوالدته . . وله أيضًا . بعض هذه الصور ليست واضحة . . ولعلها مأخوذة من المجلات . وهذا يدل على أن الأمير أحمد فؤاد منفصل عن مصر وأنه غير قادر على أن يحصل على صور أو لوحات أو وثائق تجعله يعلقها على الجدران . .

ومن أول لحظة تشعر أن الأمير أحمد فؤاد يريد أن تكون صلته بمصر أكبر . . أو يكون هو نفسه فى مصر . . فهو مصرى ومن حقه أن يعيش فيها . . ولا ذنب له فيما حدث . . ثم إنه ليس الملك السابق الوحيد فى أوروبا . . فهناك ملوك كثيرون وأمراء . . وبعضهم له قوة ويطالب بالعرش . . ولكن الملك السابق ـ أى ملك سابق ـ لكى يعود إلى بلاده لابد أن تكون له قاعدة شعبية ضخمة . . قاعدة حزبية تأتى به حلا لمشاكلها . . كما حدث فى أسبانيا . . أعادوا الملكية بعد الرئيس فرانكو . وكان من الممكن إسقاط فرانكو وإعادة الملكية . . لولا أنهم انتظروا فرانكو حتى يموت . . ولكن الأمير أحمد فؤاد ليس عنده أى أمل ولا عنده إمكانية أن يعود إلى عرش مصر . . انتهى . وهو يريد أن يعيش فى مصر بعض الوقت أو معظم الوقت . وهذا حق له .

وكأنه أراد أن يؤكد لى أنه لا يزال فى مصر أو قريبا منها لأنه مصرى ، فراح يستعرض آخر الأحداث فى مصر . . وحبه لمصر ، وقلقه عليها . . كأى مواطن مصرى . .

ثم عرفت منه أنه يريد أن يسمع صوت والده . . أى يحصل على تسجيل صوتى له . . ووعدت أن أحقق له هذه الرغبة . وإن كنت على يقين من أننا لن نجد فى أرشيف الإذاعة صوت والده وهو يتحدث إلى الشعب ويبدأ حديثه هكذا عادة : شعبى العزيز . .

بينما جمال عبد الناصر كان يقول : أيها الأخوة المواطنون ـ تماما كما يفعل رجال الثورة الفرنسية .

ففى العصر الملكى : نحن شعب الملك . . وفى عصر الثورة : نحن أخوة مواطنون . .

والسادات كان يبدأ أحاديثه إلى الشعب هكذا : باسم الله . .

وسألت عن تسجيلات بصوت الملك فاروق ، فلم أجد . وليس غريبا فالإذاعة والتليفزيون قد مسحتا الكثير جدا من التسجيلات التاريخية ـ حلا لأزمة نقص الأشرطة الصوتية والضوئية . فقد مسحتا الأحاديث النادرة مع طه حسين والعقاد ـ وقد استطعت أن أحصل على هذين التسجيلين من التليفزيونات العربية . . ومسحتا الحديث النادر مع توفيق الحكيم وعزيز أباظة والتسجيل الوحيد للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى . . وكذلك حسين فوزى . . وغيرها من التسجيلات البديعة . . ولا أعرف إن كنا نحتفظ بتسجيلات الملك فاروق . . إنها موجودة فى التليفزيون الفرنسى والبريطانى والأمريكى . . ولا أظن شيئًا من ذلك فى مصر ـ فنحن بلد حريص على أن يمسح ذاكرته بيده وبمنتهى الإخلاص !

وجاءت الأميرة فضيلة زوجة الأمير أحمد فؤاد . . جميلة متوسطة القامة . . فرنسية متحشمة . . ولكن من الممكن أن تجد بين المصريات شبيهات لها . . فهى تميل إلى الامتلاء . . وهى (هانم) فى حركاتها . . من الممكن أن تجد واحدة شبيهة بها بين العائلات الارستقراطية فى مصر . . وهى تتكلم الفرنسية فقط . . ربما بعض الكلمات العربية . . ولكنها أوروبية تماما . .

وكان من الممكن أن تكون ملكة لمصر . .

وليس فى البيت خادم أو خادمة . . هو الذى يأتى لك بما تريد . . أو هى ، والشاى قدمته الأميرة . . والأمير قدم الفناجين . . ولم يتوقف الأمير عن الكلام عن مصر . . وكانت شكواه المعقولة هى أنه ليس لديه جواز سفر دبلوماسى . . وليس فى ذلك أى ضرر وخوف أو حتى مجاملة لو أنه حصل على ذلك . . إننا نعطى جواز السفر لبوابى السفارات المصرية فى الخارج . . وهو يريد أن يكون له بيت . . شقة . . فيلا فى مصر وهذا حقه ، فإن كثيرًا من الأجانب يملكون ما هو أكثر من ذلك !

ولم نتمكن من رؤية ولديه الصغيرين فقد قالت لنا الأميرة فضيلة إنهما نائمان . . ومعنى ذلك أنه لا يصح لنا أن نوقظهما من النوم . ولو كان ذلك فى أسرة مصرية لذهبت الأم وقالت لكل منهما : انهض . . قم . . سلم على عمك . . قم . . اغسل وجهك . . قم !

ومن الممكن أن ينهض الطفل وهو فى ضيق شديد ويسلم على عمه . . وهو لا يعرف من هو هذا العم . . ولا معنى إيقاظه من أحلى نومة . . وبعد أن يتم السلام على المجهول يذهب الطفل ويستأنف النوم فإن تذكر ما حدث وسأل : من هذا الرجل ؟

ـ رجل مين ؟

ـ ألم يكن هناك رجل جاء من مصر وأنتم ايقظتمونى لكى أسلم عليه . .

ـ آه . كان فيه واحد من مصر . . من شعب مصر . . أراد أن يراك . .

ـ بس كده !

ـ آه بس كده

ـ وهل سيجىء مرة أخرى ؟

ـ لا . . مرة واحدة وخلاص !

والصحف الفرنسية تنشر صور الأميرة فضيلة مع زوجة الرئيس فرانسوا ميتران . . وتصفها الصحف بأنها ملكة مصر السابقة !!

وتغضب الأميرات المصريات الأخريات من هذا اللقب . فلم تكن ملكة فى أى وقت ولكن هذا اللقب تضعه الصحف الفرنسية كنوع من المجاملة لبنت بلدهم . . وحدثت خناقات كثيرة بين الأمير أحمد وأخواته وعماته بسبب ما تنشره الصحف الفرنسية . . بل إن والدته الملكة السابقة ناريمان كانت تقول : أنا الوحيدة التى من حقى أن أوصف بأننى الملكة السابقة لمصر . . أما زوجتك فلا كانت ملكة سابقة ولا هى ملكة لاحقة . . إنها أميرة والسلام!

وكثيراً ما غضبت الملكة ناريمان وعدلت عن السفر لرؤية ابنها بسبب ما تفعله الأميرة فضيلة . . أو تظن أنها تفعله بالاتفاق مع الصحف الفرنسية !

ما رأيك لو تناولنا الغداء معا ؟ ـ سألنى الأمير أحمد فؤاد . .

وأسعدنى ذلك . وكان هو الذى يقود سيارته . ووجد صعوبة فى أن يركن السيارة تحت المطر . ثم ركنها وأغلق الباب وتقدمنى إلى مطعم صغير جميل هادئ . وسألنى ماذا آكل . لم نختلف كثيرا فأنا لا آكل اللحوم ، وهو ليس حريصا عليها وأنا أفضل الصلطة على أى طعام آخر . وهو أيضًا . وأنا لا أشرب القهوة ولا شايا بعد الأكل . وهو حريص عليهما !

واكتشفت كذب ما قيل عن هذا الشاب من أن له طموحا أن يصبح ملكا لمصر . غير صحيح . وقالوا إن أحد الفلسطينيين قد استولى على دماغه وخياله . . وأقنعه بأن العودة إلى عرش مصر ممكنة . لا شيء من ذلك قد حدث فهو شاب ذكي وهو عاقل . وهو على يقين من أن مرحلة تاريخية قد انتهت تمامًا . وإن التاريخ لا يمشي بظهره !

وقالوا إن والده الملك « فاروق » قد أوصى له بعدة ملايين من الدولارات وإن الوصية قد تركها عند أمير موناكو . . واشترط أبوه أن تسلم له الثروة عندما يبلغ كذا وثلاثين عاما . وإنه رجل غنى جدا الآن . . وإن كان لا يساعد أخواته غير الشقيقات وكلام كثير قيل عن ثروة الأمير أحمد فؤاد وعن الملوك والأمراء العرب الذين يساعدونه ماديا ، وكل ذلك وغيره من الحكايات لا يمكن التأكد من صحتها . . ما دام الأمير أحمد فؤاد يهز رأسه ولا يقول شيئًا إذا سئل عن شيء من ذلك . .

والأمير أحمد فؤاد لأنه مصري لم يعش في مصر فهو لا يعرف البيروقراطية المصرية التقليدية ، ويندهش كيف أنه طلب من السفارة أن تبلغ الرئيس « مبارك » عن حاجاته إلى جواز سفر دبلوماسي ثم لا يتلقى ردا لعدة سنوات . . ومن المؤكد أن السفارة المصرية قد أبلغت هذه الرغبة إلى وزارة الخارجية في مصر . . ووزارة الخارجية قد نقلت أو لم تنقل هذه الرغبة إلى رئيس الوزراء . . ورئيس الوزراء . . قد نقلها إلى الرئيس . . إنها مسألة طويلة جدًا ولها محطات عديدة . . ولا أحد يعرف كم من الوقت قد توقفت هذه الرغبة في كل محطة . . ولا أحد يعرف عدد المحطات والعقبات التي تتولد من تلقاء نفسها أمام مثل هذه الرغبة المتواضعة . . ويعاود الأمير طلبه وتعاود السفارة التذكير بما سبق أن بعثت به قبل ذلك عشرين مرة . وليس هذا الموقف من البيروقراطية المصرية خاصا بالأمير ، وإنما هو موقف ثابت تحرص عليه بالنسبة للستين مليون مصري وعشرات الملايين من الأجانب !

ولابد أن هذه البيروقراطية الفرعونية هي التي دفعت الأمير إلى أن تلد زوجته مولودها الثالث في المغرب ، وليس في مصر ؟

* * *

الصدفة هي التي جعلتني التقي بواحدة نشرت مذكرات تقول : إن الملك « فاروق » قد وعدها بأن تكون ملكة على مصر ـ هذا الوعد جاء بعد خروج فاروق من مصر .

ومن الغريب أن مجلات إيطالية قد نشرت لها هذه المذكرات .

الفتاة اسمها روزانا اميليو فاركي وهي إيطالية الوجه والصدر والساقين والعينين وفرنسية المرح والخفة وإنجليزية البشرة وألمانية المعلومات . . ولم يطل عمر الملك فاروق لكي تتحقق أحلامها المصرية . .

فقد كنت أزور مدينة السينما فى روما . . ووجدت فتاة قد جلست تحت الشمسية وحولها كاميرات ورجال كثيرون . . وأمامها تمثال فرعونى . وحاولت أن أفهم دون أن أسأل أحدا من الناس . . ولكنى لم أستطع .

وسألت فقالوا لى : أنت لا تعرفها . كيف ؟

ـ لا أعرفها . .

ـ كان من الممكن أن تجلس على عرش مصر . .

ـ من هى ؟

ـ واحدة وعدها الملك فاروق بالزواج وأن يجعل منها ملكة لبلادك . .

ـ لقد وعد كثيرات . . وكثيرات ادعين الصداقة والعشق والحب والأولاد من الملك فاروق . . ولا أستبعد أن تكون هذه واحدة منهن . . .

ويبدو أنها لمحتنى من بعيد فاقتربت منى وقالت : السلام عليكم . .

قالتها بلهجة خواجات . . ولكن تريد أن تفهمنى أنها استعدت للعرش ، ولذلك بدأت تتكلم لغة الشعب المصرى ابتداء من السلام عليكم إلى « خليتك بافية » ـ خليتك بعافية . قالتها عندما لم تجد أثرا طيبا لمحاولتها أن تنطق بكم كلمة عربية باعتبارى ممثلا للشعب الذى سوف تكون ملكة عليه .

ويبدو أن سائقا مصريا . . أو بوابا فى السفارة المصرية حاول أن يعلمها اللغة العربية لتدخل فى الدور وطلبت من المخرج أن أجلس إليها . وجلست إليها وقلت : إن العرش الذى تجلسين عليه الآن أعظم وأجمل وأروع .

قالت : أى عرش .

قلت : الجمال والدلال والرشاقة .

ـ أنت ترى ذلك ؟

ـ الدنيا كلها ترى ذلك . . لو كان هناك استفتاء شعبى . .

ـ يعنى لا أمل ؟

ـ فى ماذا ؟

ـ فى أن أكون ملكة على مصر ؟

ـ طبعا لا أمل ! ولكن ممكن فقط فى أحد الأفلام !

وضحكت ورفعت طرف ثوبها للتحية كما كان يفعل الملوك الفراعنة . . وجلست تحت الشمسية ووضعت على رأسها تاج الملك مينا الذى وحد الوجهين البحرى والقبلى . .

وسألت صديقا يعمل فى مدينة السينما الإيطالية : إيه الحكاية ؟

ـ أبدا . . زوجة المنتج . . وهى تتخيل أشياء كثيرة . . وكان يحبها ولا يزال يشفق عليها . . وهو يخشى أن يتركها وحدها فى البيت . . فهو يأتى بها كل يوم إلى مدينة السينما ويصورونها فى الدور الذى تحبه . . وهى اليوم تحب أن تكون ملكة لمصر . . فقد رأت الملك «فاروق» مرة واحدة . . وأظنه قد ابتسم لها وقبل يدها . . ومن يومها وهى تنتقل بين عروش العالم . . ولكن طال حلمها بمصر ، ولذلك لم تغير التاج الذى تضعه . . ونحن وراءها دائخون كما ترى !

ولما صافحته مودعا جذبنى قائلا : فى عرضك ؟

قلت : ماذا ؟

ـ كيف تعود إلى مصر دون أن تستأذن من ملكة مصر . . فى عرضك . . إننى جاد . . فإذا لم تفعل فسوف تهدم الدنيا فوق دماغنا . .

وذهبت إليها أقول : السلام عليكم . . خليتك بعافية . . أريد أن استأذن فى العودة إلى مصر . .

فظهر الامتعاض على وجهها . . وأدارت عنقها الجميل ناحية أخرى لكى أنظر إلى جسمها الفاتن . أى والله . . وأهز رأسى أسفا على الساكن المريض فى هذا القصر البديع الوجه والشعر والعينين والشفتين والكتفين والنهدين والساقين واليدين . .

ثم تفضلت مشكورة ونظرت ناحيتى بعد أن فكرت طويلا . وقالت : السلام عليكم نحن نوافق على عودتك إلى مصر . .

ـ شكرا لجلالتك !

بل يجب أن تطفئ الشمس!

تنبيه : هذا الكلام لا يهم الذين لا يعملون وليس فى نيتهم أن يعملوا . فالإحصائيات الرسمية تقول إن دقائق عمل أى مصرى هى ٢٦ دقيقة فى اليوم الواحد . ولذلك فهم فى راحة . . أو بطالة مستمرة لا تحتاج إلى راحة ، لأنهم لا يتعبون . ولكن كلامى أتجه به إلى الذين يعملون أو فى نيتهم أن يفعلوا ذلك . ففى الراحة كل يوم أو كل أسبوع أو كل سنة . إنعاش للجسم والعقل لاستئناف العمل بصورة أخرى .

* * *

بعض الشعوب القديمة رأت الراحة واجبًا مقدسا . فمن يعمل يجب أن يستريح . فإذا استراح أرضى ربه وملائكته . . اليهود قالوا إن ربهم خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع . . وعلى المؤمنين أن يفعلوا ذلك أيضًا !

وأكبر الكبائر عندهم من يعمل يوم السبت ـ من غروب الجمعة إلى غروب السبت ـ حتى الدجاجة إذا باضت يوم السبت فبيضها حرام ! .

والصينيون لهم قصة معروفة عند بناء سور الصين العظيم (٥٠ ألف كيلو متر) أقيم من ٢٣ قرنا فى حجم هرمنا الأكبر ثلاثين مرة ، وإذا تحولت أحجار السور العظيم إلى حائط فإنه يلتف حول الأرض بارتفاع خمسة أمتار وعرض متر واحد . وكان الصينيون يعملون ليلا ونهارًا . . أو على الأصح نهارًا ونهارًا . فالشمس لم تكن تغرب عليهم . . وإنما كانت عندهم تسع شموس إذا غربت واحدة أشرقت واحدة أخرى بسرعة . وهكذا يقيمون حائط الصين بلا توقف . فإذا سقط أحد العمال فإنهم يدفنونه فى داخل السور . . وكان العمل شاقا وعذابا متصلا . فالناس لا وقت عندهم للأكل ، وإذا كان وقت للأكل فلا وقت للهضم . . والحدائق حولهم جافة بسبب الشمس المشرقة أبدا ، والأنهار جفت بسبب حرارة الشمس . . وقد نظر الإله « ايرلانج » من سمائه فتضايق لهذه الوحشية الإنسانية ، وقرر أن يعلم هؤلاء البشر مبادئ الرحمة . . فحول نفسه رجلا له لحية بيضاء واقترب من رئيس العمال وقال له : ألا

توجد رحمة فى قلبك . . كيف تستعبد الناس وتهدمهم وتبنى سورًا . . كيف تهدم إنسانا وتقيم حجرا . . اعطهم وقتا للنوم . . اعطهم وقتا للراحة . . استرح أنت أيضًا !

فقال رئيس العمال : أيها العجوز اذهب بعيدًا وإلا أدميت ظهرك . . ثم دفنتك معهم فى داخل السور . . امش !

ولكن الإله « ايرلانج » قفز فوق أحد الأحجار وقال للعمال : أيها العمال . . حان وقت الراحة . لا عمل . . استريحوا . . اشربوا . . كلوا . . ناموا . . لا تخافوا . . أنتم كثيرون ورئيسكم واحد فقط . . أنتم الأقوى . . أنتم تعملون . . هو لا يعمل . . إنه يتفلسف . . إنه يخافلكم ويأكل ويشرب وينام !

وتوقف العمال ومدوا أيديهم إلى الماء . وإلى الطعام . . ثم ناموا . .

وأثناء نومهم حمل الإله جبلا فى يده اليمنى وواحدًا آخر فى اليد اليسرى . وكلما ظهرت شمس ضربها فسقطت وانطفأت حتى بقيت شمس واحدة . . إذا غربت كان الظلام وكان النوم وكانت الراحة .

لقد أطفأ كل الشموس حتى بقيت واحدة . . حتى هذه الواحدة يجب أن تنطفئ لينام الناس ! ولما عرف العمال الراحة فى النوم ، كانت أجسامهم أقوى ورءوسهم أخف وكان إنتاجهم أعظم ، وفراغهم من السور أسرع !

لقد عرفوا الراحة ، لأنهم عرفوا التعب ! ولأنهم أطفئوا الشمس !

* * *

وعندما كنت فى جزيرة تايوان الصينية قالوا لى : إن كلمة « إجازة » ليست موجودة فى اللغة الصينية . . فهم يعملون فقط . . والراحة تكون أثناء العمل . ولكن عندما عرفوا الحضارتين الغربية والأمريكية دخلت هذه الكلمة لغتهم بشكلها . . أى كلمة « ويك إند » أى نهاية الأسبوع . وأصبح يوم الإجازة هو أروع أيام الأسبوع !

* * *

وكان الإغريق يجعلون للعمالقة من طراز « سيكلوب » عينا واحدة فى منتصف الرأس . وكان هؤلاء العمالقة يعملون فى صناعة أسلحة الحرب من الحديد يضعونه فى النار . . وكانوا لذلك لا يعرفون النوم . . وإنما لا يتوقفون عن الحديد والنار . . يضعون الحديد فى النار فيلين . . ويجعلون له أشكالا وأحجاما . .

ورأت الآلهة أن هؤلاء العمالقة فيهم قسوة وغلظة . . فخلقوا لهم عينا أخرى . . واحدة يعملون بها والثانية ينامون بها . . نصف يوم . . ونصف يقظة . .

وبعد ذلك اهتدى آلهة الإغريق إلى خلق العيون الإنسانية بلا أجفان . . ولذلك كان البشر لا يعرفون كيف ينامون فخلقوا الأجفان ـ فالأجفان كأنها ستائر على نوافذنا تحجب الضوء حتى ننام . .

تحول دون النور والعين . . وكانت الأجفان أغطية على إنسان العين لينام . . ليعرف النوم بعد اليقظة . . والراحة بعد التعب . . فلا ليل دائم ولا نهار أبدا . . فالإنسانية عرفت الإبداع عندما عرفت الراحة . . ويوم كانت لا تنام كانت لا تعرف إلا الحديد والنار ! .

* * *

ولكن مع تنظيم ساعات العمل ، وساعات الراحة أيضًا ، أصبحت الإجازة واجبة . . سواء كان الإنسان قادرًا على الاستفادة منها ، أو اكتفى بالجلوس فى البيت والنظر من النافذة أو إلى التلفزيون أو « اللطعة » على المقهى أو « الصعلكة » فى الشوارع . . إنها حق وهو حر فى استغلال هذا الحق . .

وظهرت شركات ووكالات لاستغلال الأجازة فى الرحلات أو السياحة أو الرياضة . . فى داخل البلاد أو خارجها . . وإذا كان الإنسان صاحب الحق لا يعرف كيف يستغله ، فإن خبراء آخرين قد تخصصوا وتفننوا فى الاستفادة منه ومنك . .

ونفس الشركات هى التى قامت عليها الفنادق وكل صناعة السياحة . . لأنها علم وفن استغلال الإجازتين الأسبوعية والسنوية . .

ونحن نندهش جدا كيف أن الأجانب يحجزون مقدما ـ سنة أو سنتين ـ رحلاتهم إلى مصر . ووجه الدهشة أننا لا نعرف لماذا هم يفعلون ذلك . . هم يفعلون ذلك لأن حياتهم كلها منظمة . منضبطة . ولأن كل شيء يجب أن يكون معروفا : المكان والزمان والميزانية . . لأن هذه الرحلة ليست هى النشاط الوحيد فى حياتهم . هناك أنشطة أخرى مرتبطة ومنضبطة . وهناك أقساط يجب دفعها لكل أدوات البيت . . أو ثمن السيارة . . أو مجوهرات الزوجة . . أو روشتات الدواء . . ولذلك فهم يخططون لسنة ولخمسة أعوام . . هذا سلوكهم فى الحياة . . والحياة الأمريكية أو الأوربية كلها خطط وميزانيات . . يضعونها ويتأكدون من ذلك وينصرفون إلى اهتمامات أخرى . وليس عندهم مثل هذه العبارات : خليها على الله . . أو بالبركة . . فالله موجود عندهم كما هو عندنا . . ولكن الله أعطاهم عقولا علمية . . لا تترك أى شيء للمصادفة . . فليس فى الكون كله مصادفة . . فكل شيء له أول وله آخر . . وكل شيء أرقام وحسابات . . معروفة البداية والنهاية . . وليس هناك أى مكان لمعجزة . . كثروة تهبط من غير مقدمات ومن غير سبب . لا شيء من هذا . ولذلك فنحن نندهش لما يفعلون ، وهم يندهشون لدهشتنا هذه . . لأنهم لا يتصورون أى أسلوب آخر للحياة والعمل والراحة ! .

وفى كل اللغات الأوربية تعبيران لا معنى لهما عندنا . . عبارة : ماشى . . أى يمشى وفقا للخطة . . وسوف يمشى . ويجب ألا نشغل بالنا . .

وعبارة أخرى : لا مشكلة . . أى أنه لا توجد مشكلة ليس لها حل . أو كل ا
وضعت ولا خوف من أية مشكلة . وهم يعنون ذلك . . فعلا لا مشكلة من أى نو
كل شىء قد جربوه وأتقنوه وإذا تعثر شىء وجدوا له حلا . . فلا قلق ولا خوف . .
للسائح : سوف تجد لك مكانا فى الطائرة على اليسار فى منطقة ممنوع التدخين فيها و
تأكل اللحوم سوف تجد سمكا ـ وفعلا يجد كل هذا . . وهو متأكد تماما من كل د
ويقولون له : سوف تجد واحدا فى انتظارك ومعه جدول الرحلة وأرقام الغرف التى ينزل
وفعلا يجد كل ذلك بمجرد وصوله . وهو متأكد من ذلك . . فلا ينبغى أن يفكر .
يصح أن يشغل باله . وفعلا لا يشغل باله ، لأن أناسا كثيرين قد انشغلوا واشتغلوا نيـ
وبفلوسه . وهذا هو علم وفن الراحة فى كل الدنيا ! .

ولا أريد أن أقارن لك بين ما يحدث عندنا وما هو حادث عندهم . فأنت تعرف و
لأن أقول لك ما أنت قرفان منه . . وأنا أيضًا !

* * *

يحكى لنا عميد المؤرخين فى العالم ارنولد توينبى الذى ولد مع مؤرخنا عبد الرحمن
فى سنة واحدة أن حادثًا صغيرا قد وقع فى نيويورك قلعة الرأسمالية الأمريكية والعالمية
الحادث كان فى سنة ١٩٤٩ مضى ولم يلتفت إليه أحد . . ولكنه من أهم الأحداث
دلالة على تطورات العالم الغربى . . الحادث هو أن رجال الأعمال وجدوا أن الإجازة الأ
طويلة أكثر مما يجب وأنهم يريدونها أن تقصر بضع ساعات . أما الإغراء فهو دفع أجر
للسكرتيرات . فليس فى استطاعة رجال الأعمال أن يعملوا دون سكرتيرة تكتب عل
وتختزل وتبعث بالبرقيات عبر العقول الالكترونية إلى كل الدنيا . فعرض رجال الأعـ
السكرتيرات مضاعفة الأجر يوم السبت . . لا كل يوم السبت ولكن بعض يوم السـ
وكانت المفاجأة الكبرى . اعترضت السكرتيرات . ورفضن رفضا باتا !

فما هو المعنى ؟ المعنى أن السكرتيرات يفضلن الراحة على العمل . يفضلن الراـ
الفلوس . . عندما وضعت الفلوس فى كفة والإجازة فى كفة ، رجحت الإجازة . . وعلى الر
أن الفلوس هى إضافة إلى رصيدهن ، فإنها خصم من حياتهن . من الراحة من المتعة . . مـ
تقرير المصير . . من الاستقلال . . من الحكم الذاتى لحياتهن الخاصة . . انها استهانة بـ
أصحاب رءوس الأموال . . ورفض تام لعملية تحويل السكرتيرة إلى إنسان آلى يعمل ليلاً
فى خدمة الصنم الذى اسمه الفلوس . . والإله الجديد الذى اسمه صاحب رأس المال !

ولما حاول أصحاب رءوس الأموال أن يضاعفوا الأجر الإضافى ، كان الرفض تدعيما لهزيمة الفلوس أمام الراحة . . أو حق الإنسان فى الراحة . .

أكثر من ذلك قررته السكرتيرات . . لقد تظاهرن فى يوم الإجازة ورحن يدرن حول المؤسسات . أى إنهن لا يفعلن فى الإجازة أى شىء . . وإنما يرفضن الفلوس ويرفضن الاستعباد ويتظاهرن احتقارًا لذلك !

* * *

وهناك قصة شهيرة يرويها المفكر السياسى الإغريقى ديموستين ، وهى أن رجلا استأجر حمارًا ليسافر به من مدينة أثينا إلى مدينة ميغارا . . وكان صيفًا حارًا . وفى الطريق أوقف الرجل الحمار ونام فى ظله . عندها وقف صاحب الحمار يصرخ قائلا : لم نتفق على ذلك !

أى لم يتفق الاثنان على أن ينام الرجل فى ظل الحمار ، فإذا فعل فلابد من دفع مبلغ إضافى . وتشاجر الرجلان . عندها انطلق الحمار هاربا !

وهكذا أصبح لدينا ثلاثة حمير . . اثنان يتشاجران تحت الشمس المحرقة حول معنى استئجار (الحمار) دون الاستفادة من (ظل) الحمار . . وطبيعى أن يكون للحمار ظل ، ما دامت هناك شمس فى السماء . . وما دامت هناك شمس فلابد أن يستظل الإنسان بأى شىء . . أى يستريح بعض الوقت من ويلات الطريق . . حتى ولو كان فى ظل حمار !

جوربى ٩٠ و ٩١

بمنتهى الصراحة نحن ذهبنا إلى الغداء مع الرئيس السوفيتى جورباتشوف ، لم أر أحدا غيره . . لا زوجته رئيسا . . ولا وزير خارجيته ـ حينئذ ـ الضاحك أبدًا . . شيفرنادزه . . فما الذى رأينا ؟

إنه كما تراه فى التليفزيون متوسط القامة والوزن . . ولونه وردى وبشرته ناعمة كفتاة بنت ١٤ . . وعيناه لامعتان . . وهو كثير الحركة . . فهل هناك أى مظهر من مظاهر العظمة ؟ لا شيء . .

وفى جبهته « وحمة » ولا أحد يعرف ما الذى توحمت عليه السيدة والدته . . لعلها توحمت على البرق . . أو على النيازك فى السماء . . ويقولون : على الفراولة التى رأتها فى أحد الأفلام الأمريكية . . ويقولون على حزام لإحدى راقصات الباليه فى مسرح البولشوى الرائع . .

ولكن أحدًا لا يعرف بالضبط . . من هذا الرجل ؟ ولا من أين جاء ؟ ولا كيف صعد من المجهول إلى قمة القمم . . إلى أن يكون من أعظم الرجال فى تاريخ الإنسانية . . ولا أحد قد عرف من السيدة مرجريت تاتشر كيف رأت فيه نجما ساطعا . . وكيف نصحت صديقها الرئيس ريجان أن يضع عينيه على هذا الزعيم السوفيتى وأن يمد له يده بسرعة . . وكانت مرجريت تاتشر بعيدة النظر . ولا يزال جورباتشوف يذكر لها ذلك مع عظيم الامتنان . وكذلك الرئيس ريجان يدين لها بهذا الفضل . . فقد وفرت عليه وعلى العالم كله الكثير من الجهد فى معرفة المدخل الصحيح للكرملين ومستقبل أوروبا .

جورباتشوف قد أكمل الدور الذى بدأه الزعيم الفلاح خروتشيف الذى هاجم ستالين فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى . . جبروت ستالين وإرهاب ستالين وجمود الفكر الشيوعى فى عهد ستالين وبعد موته أيضًا . واقتلع تماثيله من كل مكان . . ومسح اسمه من الكتب ومن الجدران كما كان يفعل ملوك مصر الفرعونية . . وتكاثر الخصوم حول خروتشيف حتى أقالوه وتركوه يموت على مقعد فى إحدى الحدائق العامة . . ولم يدفنوه مع العظماء فى الكرملين

وجاء من بعده ثلاثة ـ ترويكا ـ حكموا الإمبراطورية السوفيتية حكما جماعيا . ثم انفرد برجنيف بالسلطة فكان أسوأ من ستالين . .

ولكن تحت الجليد وبعيدًا عن موسكو ، كان هناك فكر يتجمع ويتصاعد وينتظم . وكان هذا الفكر قائمًا على أنه كفى خداعا وكذبا على الشعوب السوفيتية . . وكفى بلطجة من الدول الأوروبية الشرقية ودول العالم الثالث التى تعيش عالة على الاتحاد السوفيتى الجائع والمتخلف عن أوروبا الغربية وعن أمريكا طبعا . . وإذا كانت روسيا قد سبقت فى عالم الفضاء . . فإن رواد الفضاء سعداء بارتفاعهم إلى السماء لكى يرفعوا أصواتهم بالشكوى إلى الله أنهم جياع على أرفع المستويات !

وأعظم نكتة قيلت فى روسيا وضايقت القيادة السوفيتية ما قالها أحد الفلاحين عندما رأى سفينة الفضاء السوفيتية تدور حول الأرض وفى داخلها جاجارين أول إنسان فى الفضاء . قال الفلاح : يابخته إنه يعيش وحده فى غرفة بعيدًا عن روسيا !

فهذا الفلاح لم ير فى هذه العظمة العلمية والاقتدار التكنولوجى إلا أن واحدًا يسكن وحده فى غرفة . . فهذه حالة نادرة فى روسيا . . فمن الممكن أن يتم الطلاق بين رجل وامرأته ولكن يظلان ينامان فى غرفة واحدة وعلى سرير واحد . . وإذا أراد أحد أن يستضيف صديقًا بعض الوقت فهو يستأذن الآخر . . وإذا كان عندهما أولاد ، ناموا تحت السرير أو على الأرض!

حتى جاء جورباتشوف وأعلن أن الاتحاد السوفيتى قد مات . ولا أمل فى إحيائه إلا . .

إذا اعترف الشعب بالفساد والرشوة والتسيب .

وإلا إذا خلع كوادر الحزب الجاهلة المرتشية . .

وإلا إذا اعترف بانحراف الشباب وانتشار المخدرات . .

وإلا إذا أفاق الشعب السوفيتى الذى أدمن الخمر فلم يعد قادرًا على العمل . .

وإلا إذا خلع الحذاء الشيوعى الذى لبسه فى دماغه . . فالشيوعية لم تحقق للناس أى مكسب . . فالشعب السوفيتى وكل الشعوب التى تدور حوله والمرتبطة بذيله هم مجموعة من الفلاسفة الجياع . . شطار فى الكلام ، وعاجزون فى الحصول على الطعام . فما حاجة الاتحاد السوفيتى إلى كل هذه الدول التى تعيش على معدته الخاوية . . إن هذه الشعوب كالأطفال لا تريد أن تنفطم أبدا . . لقد كبرت وشاخت ويجب أن تبحث لها عن « مرضعة » أخرى . . كفى . . فهذه الشعوب لا شبعت ولا الاتحاد السوفيتى شبع . .

ولذلك قرر جورباتشوف أن يطلق سراح هؤلاء الأطفال أو هؤلاء التنابلة قائلا : كفى . . ابحثوا لكم عن أم . . أخرى . . أمريكية . . ألمانية . . إلى هنا وكفى !

وبسرعة تمردت الشعوب الشيوعية على الماركسية وعلى حكامها الطغاة . . وتحررت من كل صور ستالين . . واتجهت إلى حيث النور والطعام والحرية والتقدم . .

وهدم الألمان حائط برلين الذى يفصل بين الثراء الغربى والفقر الشرقى . . وانفتحت ألمانيا على ألمانيا . . أعظم حادث سياسى فى أوروبا . . بلا دماء . . واتحدت ألمانيا . . وأمامها طريق ليس طويلا لتضييق الهوة الاقتصادية والسياسية والتربوية بين أولاد القهر الألمان الشرقيين وبين أولاد الحرية والإبداع والثراء . .

وتساقطت الدول الشيوعية الواحدة بعد الأخرى . . واستقلت عن روسيا وانفصلت واختارت بحريتها زعماءها الجدد . . انتهى !

وكوبا التى كانت تنظر لها روسيا على أنها كوكب آخر . . وخازوق تجلس عليه أمريكا الرأسمالية . . كانت تنفق عليها ثلاثة ملايين دولار يوميا . . ولكن لم تستطع كوبا أن تحقق رفاهية للشعب الكوبى . ولا أن تكون نموذجا تحتذيه دول أمريكا اللاتينية . . فهى دولة قصب السكر ، ولكنها لا تذوقه . . كأنها مصابة بالسكر ! والشعب الكوبى ينتج البن ولا يشرب القهوة ، وينتج أعظم الطباق ، ولا يدخنه !

وبعد أن تخلى السوفيت عنها ، فلم يعودوا يقدمون لها بترولا ، أعلن كاسترو أنه سوف يشجع على تربية الحمير لتجر العربات . والخبثاء يقولون : وأين كانت هذه الحمير التى ظهرت بهذه السرعة !

وانتهى جورباتشوف من الجهاد الأصغر ـ جهاد الشيوعية خارج روسيا ـ ليواجه الجهاد الأكبر ضد الشيوعيين السوفييت .

أولا : لا شيوعية . .

تصور الزعيم الشيوعى يلغى الشيوعية فى روسيا . . تماما كما نحرم قراءة القرآن الكريم فى الكعبة !

والحرية فى تشكيل الأحزاب من كل لون . . والتخلص من القيادات الفاشلة . . وتحويل القطاع العام إلى قطاع خاص ـ يعنى الذين اخترعوا القطاع العام قد تخلصوا منه . .

ولا أزال أنادى فى مصر بأن إكرام الميت هو دفن القطاع العام . . ولكننا لم نقرأ جيدًا تلك الصفحات الخالدة التى كتبها جورباتشوف بمنتهى الحكمة والعظمة !

وقرر التخفف من أعباء المركزية . . فعلى الجمهوريات السوفيتية أن تدبر نفسها إلا فى الحرب والسياسة الخارجية . . ويلقى جورباتشوف مقاومة فى بلاده . . طبيعى . فالرجل مفاجأة كبرى للشعوب الشيوعية .

والعالم كله ينظر إلى جورباتشوف ويصفق إعجابا به . . فلم يحدث فى تاريخ الإنسانية أن استطاع رجل واحد أن يغير التاريخ وأن يدفعه إلى الأمام دون قطرة دم . ولكن استطاع ذلك جورباتشوف . .

والغرب كله كان يتشكك فى هذا الرجل أول الأمر . . وقالوا : إنه شيوعى يريدأن يقفز قفزة كبيرة . . لتصبح روسيا بلا أعباء خارجية دولة عظمى !

ولكن جورباتشوف عبقرية فذة يستحق التشجيع . والتشجيع هو إعطاؤه المال والقروض ومعونات الغذاء . .

ثم هذه الحرية الهائلة فى الصحف وفى التليفزيون وفى البرلمان . . هل كان فى استطاعة أحد قبل جورباتشوف أن يقول : إنه جائع ! أبدا . . ولكنه الآن يقول ويطالب بخلع جورباتشوف . . وتنشر الصحف ذلك . . وتنشر الجرائم والحوادث وجلسات البرلمان التى يتلقى فيها جورباتشوف النقد العنيف ـ تصور !

لقد وقعت جميع الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى فى حيرة شديدة . إلى من يتجهون ؟ وماذا يقولون عن أنفسهم ؟ وهل روسيا لم تعد تهتم بالشيوعية ؟

كثير من الأحزاب الشيوعية هاجمت جورباتشوف واتهمته بالخيانة . . بخيانة الشيوعية ! تصور !

وفى رواية (الإخوة كرامازوف) للكاتب الروسى العظيم دستوفيسكى حكاية بديعة . . وهى أن المسيح عليه السلام هبط مدينة أشبيليه فى يوم أحد . وأحس به الناس فتركوا الصلاة وساروا وراء المسيح ـ هذا طبيعى ـ مبهورين بالحدث الجليل . وفوجئ كبير القساوسة بأن الناس انصرفوا عن الصلاة . فذهب إلى السيد المسيح الذى كان يرتدى الجلباب عارى الصدر حافى القدمين . . وكان القس قد ارتدى ملابسه القرمزية وقد تدلى الصليب الذهبى من عنقه، واقترب من السيد المسيح وقال له : ياسيدى إن الدنيا تغيرت . . وأنت الآن تصرف الناس عن الصلاة . . ولم يعد أحد يصدق عبارتك الشهيرة : بأنه لن يدخل السماء غنى إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة . . إن الأغنياء هم الذين أقاموا لك الكنائس . . ثم إننى لا أستطيع أن أمشى عاريا . حافيا مثلك . . فإما أن تخرج الآن من هذه البلدة . وإما أن أحبسك فى السجن بتهمة الخروج عن المسيحية !

وهم الآن يتهمون جورباتشوف بالخروج عن الشيوعية !!

العالم كله يقف وراء جورباتشوف الذى فتح المعابد لكل المؤمنين من كل الأديان فى بلاده. . إن هواء منعشا يهب على الدنيا كلها . . والذى أشار إلى الهواء أن يتحرك وإلى

الأوكسجين أن يتخلل الهواء فى كل الاتجاهات هو رجل واحد هو « جوربى » أعظم رجل فى العالم . . وقد حصل على جائزة نوبل للسلام فى سنة ١٩٩٠ ومن حقه أن يحصل عليها فى سنة ١٩٩١ أيضًا وبمنتهى الجدارة ومع عظيم الاحترام والامتنان !

* * *

لقد استمعت مع الصديقين جمال بدوى رئيس تحرير (الوفد) وفيليب جلاب رئيس تحرير (الأهالى) إلى محاضرة فى موسكو موضوعها أن نظرية البرسترويكا التى نادى بها جورباتشوف قد سبقه إليها أنور السادات . فالسادات هو الذى أشار ، وهو الذى فتح الطريق . . وجاء جورباتشوف ليفتح الميادين ويسقط الحوائط ويزيل العوائق وأشاع النور فى عواصم الدنيا وفى الجمهوريات السوفيتية أيضًا !

وفى عيد الثورة السوفيتة الماضية انطلق الرصاص على جورباتشوف . . كأنهم يريدون أن يلقى مصير السادات . . لولا أن منصة جورباتشوف كانت عالية جدًا ، والقاتل غشيم . .

حسنى مبارك :
نائبًا ورئيسًا ..

(١)

بدأ الحكم الجمهورى فى مصر بداية مسرحية . .

فقد وصف جمال عبد الناصر حاله هو وزملائه الثوار بأنهم مثل (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) ـ وهى مسرحية للأديب الإيطالى بيراندللو . . أى أن لديهم أفكارًا وغضبا وأملاً فى الإصلاح ، ولكنهم لا يعرفون كيف ينظمون أفكارهم ويجعلونها برنامجًا للعمل . . أى إنهم (ثورة خام) تحتاج إلى تصنيع وتسويق بعد ذلك !

ثم اختار عبد الناصر اللواء محمد نجيب ليكون أول رئيس لمصر . . لأنه أكبر سنا .

وكان المفروض أن يقوم محمد نجيب « بدور » الرئيس المصرى ، لا أن يكون الرئيس المصرى . . وعندما اندمج محمد نجيب فى دور الرئيس واعتقد أنه الرئيس كان لابد من ضربه على دماغه حتى يفيق . . ولن يفيق . . ولذلك تمت تنحيته عن خشبة المسرح وإسدال الستار ليظهر الرئيس الحقيقى وليس الرئيس المسرحى . .

ومحمد نجيب مثل البطل فى إحدى المسرحيات كان يقوم بدور الإمبراطور . . وعليه تاج الملك والصولجان والملابس الذهبية . . وهو امبراطور ما دام على المسرح . . ولكن إذا نزل إلى الشارع وطلب من الناس أن ينحنوا له كأى إمبراطور فإن الناس يسخرون منه ويقولون : العبيط أهوه . .

لماذا ؟ لأنه اندمج فى الدور جدًا حتى توهم أنه إمبراطور بالفعل . . والحقيقة أنه إمبراطور . كده وكده !

واحد فقط من الثوار هو الذى فهم معنى الإطاحة بمحمد نجيب . . إنه أنور السادات . . الذى أدرك أن طرد محمد نجيب هو مثل « ذبح القطة » فى ليلة الدخلة . . ففى الريف ينصحون العريس بأن يذبح قطة أمام العروس لكى تخاف بعد ذلك طوال حياتها !

وأنور السادات هو الوحيد الذى أدرك هذا المعنى .

وهو الذى أيقن من أول لحظة أن الرئيس هو جمال عبد الناصر ، ولا أحد غيره . . وأن ثورة يوليو هى ثورة عبد الناصر . . وأنه لن يطيق أن يرفع أحد رأسه إلى ما يقرب من رأس عبد الناصر ، أو يعلو عليه ـ إلا أطاح به !

وقد استأذنت الرئيس السادات فى أن أعبر عن هذا المعنى على طريقتى فقلت له وأعجبه ذلك : إن المسمار الذى له رأس هو الذى يمكن خلعه . . أما الذى لا رأس له ، فهو الذى يظل غائرًا يصعب خلعه . .

وقرر أنور السادات أن يكون بلا رأس ، فعاش طويلا . ثم إن أنور السادات كان يؤكد لجمال عبد الناصر بأنه شخص لا خطورة له .

وأكد له أنور السادات ـ بخبث الفلاحين ـ أنه إنسان مريض . . وأنه لن يعيش طويلا . . ثم إنه أوصى جمال عبد الناصر بأولاده من بعده . .

إذن فالسادات لا خوف منه ولا حياة له . ولذلك بقى نائبا لجمال عبد الناصر . . وأساء جمال عبد الناصر فهم أنور السادات . فإذا كان عبد الناصر هو الزعيم فأنور السادات هو السياسى الذى عاش متآمرا يحسب ألف حساب لكل الناس حوله . . يعطيهم الأمان وهو لا يثق فيهم . .

فعبد الناصر اختار محمد نجيب ساترا . . واختار أنور السادات ستارا وممثلا يلعب بعيدًا ويستدعيه عندما يريد . . بل إن أنور السادات قد ذهب بعيدًا جدًا فى أعماق الريف يهتف بعظمة جمال عبد الناصر بعد الهزيمة العسكرية . . بالضبط فى الوقت الذى احتاج فيه عبد الناصر إلى ترضية وتعزيز . . بينما وقف بقية الثوار شامتين وخائفين ومتربصين ومتلصصين .

واختار أنور السادات حسنى مبارك لأسباب أخرى . . اختاره نائبًا لثقته فيه وإعجابه به . فهو أحد أبطال حرب أكتوبر . وهو الضابط القائد الذى يتمتع بسمعة طيبة وسلوك محترم . ثم إنه رجل لم تفسده السياسة . . وهو جاء إلى الحكم من فوق . . من أنور السادات ومن سلاح الطيران . . ومن انتصارات أكتوبر . .

فهو الرئيس الوحيد الذى تولى الحكم عن ثقة تامة به . . وبعد ذلك عن إيمان من الشعب بأنه سوف يكون الحاكم الحكيم الهادئ بعد ذلك ـ فكان ما اعتقده الشعب ! .

(٢)

يقال إن رجلا عجوزًا ذهب لتحية الرئيس الأمريكى لنكولين . وكانت العادة أن يقف الرئيس على منصة . ويمر الشعب أمامه يراه ويحييه ولكن لا يصافحه ، فلما اقترب العجوز رفع قبعته وقال له : ياسيادة الرئيس أنا جئت إليك من مكان بعيد . . إننا هناك نؤمن بأن الله والرئيس هما وحدهما القادران على حل مشاكلنا .

فضحك الرئيس لنكولين وقال : معك نصف الحق !

أى إن الله وحده القادر على الحل وليس الرئيس !

والرؤساء أمام أحداث التاريخ ومشاكله أشكال وألوان وأحجام وقدرات . . هناك ثلاثة أنواع من الرؤساء :

رئيس يصنع الأحداث . .

ورئيس تصنعه الأحداث . .

ورئيس يركب الأحداث . . أو يسايرها ويستأنسها ليصبح قادراً على ترويضها وحلها . .

ولكن كيف نفرق بين الرؤساء . . وكيف نتنبأ بسلوك الرئيس ومواجهته للقوى والضغوط والمتغيرات فى عصره ؟

يجب أن نعود إلى (شخصية) الرئيس . . فكل شىء سوف يتغير إلا شخصيته . . فالشخصية هى صفات ثابتة فى كل إنسان ، وسلوك ثابت أمام المتغيرات . .

ولكى تفهم شخصية الرئيس يجب أن تعود إلى أيام لم يكن فيها رئيسًا : كيف رأى الدنيا . . كيف فهمها ، كيف كان سلوكه معها ، كيف استجاب للمناخ الشعبى ، كيف شعوره وهو يؤدى عمله ؟! هل هوالرجل الساخط على أعباء الحياة ، أو هو الرجل الذى يقبل المشاكل على أنها واقع ويحلها سعيدًا بذلك ، لأنه من الواجب أن يفعل ذلك . .

وأخيرًا هل هذه الشخصية تلهم الناس الثقة فيه والاطمئنان إليه ؟

كل التحليلات تؤكد أن حسنى مبارك كان ضابطا (منضبطا) . . كان مقاتلا مائة فى المائة . . ولذلك كان متفوقا فى عمله ومتميزا فى أدائه . . وكان يسعده أن يكون كذلك .

(٣)

أذكر أن حسنى مبارك وهو نائب للرئيس كان فى مهمة إلى السودان . ولم يكد يصل الخرطوم ويلتقى بالرئيس نميرى حتى اتصل تليفونيا بالرئيس السادات . وكنت أسمع الرئيس يقول :

أيوه كده . . كويس ياحسنى . . تمام . . تمام ياحسنى . . ريحتنى . . طيب ياحسنى . شكرا .

وأوضح لى الرئيس السادات ما الذى فعله حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية .

قال : إن حسنى يتصرف بالضبط كما كلفته « تمام كده » . . ويمكن الاعتماد عليه مائة فى المائة . . وأداؤه لمهمته هادئ رزين وحاسم . ولو كنت فى مثل هذا الموقف فإننى لن أفعل أفضل من ذلك . .

ومرة أخرى أوفد الرئيس السادات نائبه حسنى مبارك فى مهمة إلى أمريكا . واتصل به تليفونيًا وهو يعلم طبعًا أن المكالمات مسجلة ومرصودة . .

وسمعت السادات يقول له : آه . . يعنى أنت ؟ تمام كده . . السفير . . لا يستطيع أن يستوعب كل هذا . . إنه ينظر إليها من جانب واحد . . تمام . . برافو ياحسنى لمّا ترجع ، أنا فاهم . . أنا فاهم . . لا . . كده أحسن قوى قوى . . تمام برافو عليك . . طيب مع السلامة .

واستوضحت الرئيس السادات فقال : إن حسنى كان فى مهمة صعبة . والأمريكان أناس ظراف لطاف . . ولكن فى الحقيقة خبثاء وعندهم معلومات من كل ناحية . . والتعامل معهم يجب أن يكون بحذر شديد . . ولكن أهم شىء فى التعامل معهم هو أن تجعلهم يثقون بك . . وحسنى مبارك هو موضع ثقة تامة لأنه لا يلف ولا يدور وإنما يقول ويناور وينتظر . . ولذلك فهو أحسن من أبعث به إلى أمريكا . . وبينى وبينك أنا ليست عندى هذه الحيوية التى عند حسنى . . إنه ملىء بالحيوية ، وفى نفس الوقت بالهدوء والرزانة . . تمام كده . .

وحسنى مبارك هو النائب الوحيد الذى كان يلم بكل تفاصيل الحكم فى مصر . . فهو الرجل الثانى الذى تجمعت لديه كل المعلومات وكل المشاكل . . وهو الذى يعرف كل ذلك يعرضه على الرئيس الذى هو صاحب القرار .

ولذلك فالذى يعرفه النائب أضعاف الذى يعرفه الرئيس .

وهو الوحيد الذى يعرف الموضوع ويعرف القرار ويشارك بالرأى والمشورة . .

وهو النائب الوحيد الذى يشغل هذا المنصب عن ثقة تامة به .

وهو النائب الوحيد الذى تدرب على فن الحكم وعقده ومشاكله قبل أن يكون رئيسًا . . فأنور السادات نفسه لم يشارك فى الحكم . . وإذا كان أنور السادات يقول إنه مسئول عن كل قرارات عبد الناصر . . فلكى يثبت شيئًا وينفى شيئًا آخر . . لكى يثبت أنه كان شريكا فى الحكم ، وبالتالى فى المسئولية ولكى ينفى أنه كان بعيدًا عن صنع القرار . . أى قرار !

فاختار أنور السادات أن يكون المسئول عن القرارات الخاطئة . . لأن هذا أفضل من أنه لم يكن له دور . . لا فى الطور ولا فى الطحين .

ولكن حسنى مبارك كان مختلفا عن نائب رئيس الجمهورية أنور السادات .

وقد عرف حسنى مبارك نائب الرئيس الكثير من الوجوه والخطوط التى ظهرت بعد ذلك أمامه مرة أخرى عندما صار رئيسًا لمصر . . ولذلك كان عنده متسع من الوقت ليرى ويفكر ويقرر ويدبر . . وهذا بالضبط ما لم يتح لجمال عبد الناصر وأنور السادات . . ولذلك عندما

جاء حسنى مبارك إلى الحكم كان على فهم ودراية بمعالم القيادات السياسية والإدارية والفكرية التى سوف يتعاون معها والتى سوف يدير بها مصر ويواجه العالم العربى .

ومن أهم ما يمتاز به سلوك حسنى مبارك أنه رجل بسيط .. بساطة القائد يجلس مع جنوده على الأرض ويأكل ويشرب معهم ويشترك فى قضاياهم ومشاكلهم .. بساطة القادة والجنود على أرض المعركة ، وفى الخندق الواحد وتحت النار ووسط الدخان والجثث .

كانت للرئيس السادات عادة أنه إذا أراد شيئًا فإنه يصدر به أمرا فورًا فيقول لى مثلا : قل لحسنى .

أى أنا الذى أقول لحسنى مبارك كذا وكذا .. السادات يقولها ببساطة .. ولكنها ليست بسيطة إذ كيف أقول لنائب رئيس الجمهورية إن الرئيس يقول لك كذا وكذا .

ولماذا لا يقول له الرئيس ما يريده مباشرة فهو الرئيس وحسنى مبارك نائبه .. وأنا كيف أدخل بين الاثنين .

ولكن بعد أن أمر الرئيس السادات أن أقول لنائبه كذا وكذا .. فلابد أن أقول له ..

ويكون حديثى مع حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية هكذا : ياسيادة النائب .. أناكنت مع الرئيس السادات وناقشت موضوع كذا وكذا .. ومن رأيه كذا .. وأعتقد أنه سوف يتحدث إليك فى هذا الموضوع ، وأظن أنه سوف يكتب إليك كذا وكذا .

وكان حسنى مبارك لا يرى فى هذه المكالمة ما يحرجه .. ولكنه يتقبل ذلك ببساطة ولا يرى أننى (واسطة) بينه وبين الرئيس .. ولا يرى أن الرئيس لم يشأ أن يكلمه وإنما كلف واحدًا آخر ..

(٤)

إن شخصية الرئيس مبارك يجب أن ينظر إليها من هذه النواحى ..

هل هو إيجابى ؟

كيف يواجه المشاكل والمتاعب ؟

ما هى صورة العالم أمامه ؟

ما هى طريقته فى التعامل مع الواقع والمتغيرات ؟

كيف يواجه مصادر القوى المحتملة فى بلده وفى العالم ؟

ثم ما هو الجو العام لتوقعات الناس فيه ؟ أو إلى أى حد يثق الناس فى قدرته على تحقيق رغباتهم ، وأن يكون مصدر الثقة والأمان لهم ؟

حسنى مبارك رجل واقعى . . وهو لا يذهب إلى النظريات والخيالات لكى يحل مشكلة من المشاكل . . إنه يذهب إليها . . ويرى حجمها . . ويشير إلى حلها السريع أو بعد فترة من الزمن . . وهو لا يعطى للواقع حجما أكبر أو ألوانا وردية أو سوداء . . وإنما بالضبط يعطى للأشياء حجمها الصغير أو الكبير .

ثم إنه لا يذهب إلى المشاكل فى زفة إعلامية أو مظاهرة من الشعارات أو عبر غابة من النظريات .

فهو فى أول حديث إلى الشعب طلب إلى الناس أن تساعده على أن يحقق الاستقرار . . فقد جاء إلى الحكم بعد اغتيال الرئيس السادات . . ومن مظاهر الاستقرار أن السلطة انتقلت بهدوء إليه . . واستقرت ثابتة بين يديه وعلى يديه وتحت قدميه .

والاستقرار واستمرار الاستقرار ، واستقرار الاستمرار : هو اللحن المميز لكل أحاديث الرئيس إلى الشعب . .

ولا يزال الاستقرار هو واقعنا وأملنا أيضًا . . ولذلك برزت شعبية وزراء الداخلية أو عدم شعبيتهم . . ولا أحد يعرف أسماء وزراء المالية أو الاقتصاد أو السياحة أو الصحة أو الرى فى السنوات الماضية . . ولكن كل الناس يتذكرون أسماء ممدوح سالم والنبوى إسماعيل وأبو باشا وأحمد رشدى وزكى بدر وعبد الحليم موسى . . وقبلهم شعراوى جمعة وزكريا محيى الدين . .

فهم الذين يواجهون مشكلة عدم الاستقرار وتحقيق أسمى أمانى الشعب والحاكم : الأمن والأمان . .

والمثل الإغريقى القديم يقول : الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب . . ولكى ينبت العشب على الحجر ، لابد أن يستقر الحجر ويسكن وينزل عليه المطر ويضرب بجذوره فى ذرات الحجر . . ولو دار الحجر لتحطمت أوراق العشب . .

أما نظرة حسنى مبارك لمصر وللعالم فهى : أن مشاكلنا صدى لمشاكل الدنيا . . وأننا لسنا وحدنا . . وما يحدث فى أى مكان لابد أن يكون له أثر فينا . . ولكن لابد أن نعمل وننتج حتى لا نتوقف . . وإذا توقفنا فإننا نجمد . . وإذا جمدنا فإننا نموت . فالطريق إلى الأمل هو العمل . . والطريق إلى الرخاء هو الإنتاج وفائض الإنتاج . .

ومصر دولة عربية ، كانت وسوف تبقى . . ولابد أن تعود كما كانت عربية . . وعاد العرب إلى مصر ، أو عادت إليهم . . واتسعت رقعة مصر وترامت حدودها . . ثم إن العرب عادوا إلى الذى رفضوه من قرارات مصر بشأن السلام . . وعادت أرض مصر إلى مصر مقابل

السلام مع إسرائيل . . وقبل أن يشيع السلام كانت المفاوضات معها . . أى الجلوس معها . . وهو ما يتمناه العرب وتحاوله أمريكا الآن . .

وعاد العرب إلى أسلوب مصر . . فالأمة العربية كلها يسودها المنطق المصرى فى حل مشاكل السلام بالمفاوضات وليس بالحرب !!

(٥)

وعندما وقعت أزمة الخليج . . وعدوان العراق على الكويت ، وقفت مصر سياسيا وإعلاميا وعسكريا مع السعودية والكويت ضد العراق . . إلى جانب أعظم قوة فى العالم . . أمريكا وحلفائها . .

وكانت معركة مصر فى جامعة الدول العربية ضد العراق وأعوانه فى الأردن والسودان واليمن . . وانتصرت مصر للحق وللحرية . . وكان موقف مصر هو نقطة تحول فى أمن الشرق الأوسط . .

أما الموقف فيتسم بالواقعية والشجاعة والمصرية والعروبة . . وهو موقف يحسب لحسنى مبارك فى الصدق والإخلاص . .

أما قوى العالم كله : فلاشك أن أمريكا هى أقوى وأغنى دولة فى العالم . . وهى مصدر القرار والاستقرار . . وهى التى تساعدنا اقتصاديا .

أما الاتحاد السوفيتى فهو دولة كبرى مثل الصين وألمانيا وبريطانيا وفرنسا . . ولم يعد دولة عظمى . . والاتحاد السوفيتى السابق ، له نفوذ أدبى وله حق الفيتو فى مجلس الأمن . .

وبقية الدول الكبرى تمشى فى الفلك الأمريكى .

وإسرائيل لها علاقة خاصة بأمريكا ، علاقة ليس لها نظير فى الدنيا . . وهى قوة إعلامية واقتصادية وبرلمانية . . ولا تزال كلمات الرئيس تيتو هى الحكمة : من أراد أن يلقى بإسرائيل فى البحر فليلق أولا بأمريكا .

والمثل يقول : من هو الذى أطول من العملاق ؟

الجواب : القزم الذى يركب كتفى العملاق .

أى إسرائيل وهى على كتفى أمريكا .

ولما قيل لفتاة جميلة كيف تزوجت رجلا قصير القامة . . قالت : صحيح أنه قصير ولكنكم لم تروه عندما يقف فوق فلوسه ، كم يكون طويلا جدا .

وكذلك إسرائيل وهى عندما تقف فوق بنوك أمريكا وأوروبا والبورصة !

وقد أضاع العرب والفلسطينيون وقتا طويلا فى الكلام وفى الخلافات والشقاقات . . والوقت . . الآن . . أثمن وقت وأحسن وقت لكى نحقق شيئًا حتى نهاية القرن . . ولذلك كانت دعوات الرئيس مبارك فى كل مكان بحل المشكلتين الفلسطينية والسورية بالتفاوض كما جربنا ذلك . .

وقد مسح حسنى مبارك الكثير من الإهانات الشخصية . . مسحها بيد التسامح وبيد المصلحة الوطنية . . ابتلع الإهانات الشخصية من أجل مصر ومن أجل قضية السلام . فصافح من لم يستحق المصافحة وعانق من لا يساوى وزنه ترابا . .

فعل ذلك بنفس البساطة ، وبنفس الاقتناع بأن القضية ليست شخصية . . وإنما وطنية وقومية وعالمية . . من أجل استقرار الحبوب فى الأرض لتضرب بجذورها التى نمت وزهورها وثمارها . .

أما مناخ التوقعات . . أو المزاج العام للشعب وهو يتطلع إلى الأداء الرئاسى ، فقد خلقته الإنجازات السابقة لمبارك عندما كان نائبا ، ثم بعد أن أصبح رئيسًا . .

فالناس ينظرون إلى الرئيس على أنه فوق ، ولكنه فى نفس الوقت قريب منهم . . ويستلهمون الثقة منه . . وكذلك الإقبال على الحياة . . ويرون فى صحته استقرارهم . . وفى ضحكاته وابتسامته ولطفه دليلا على أنه مطمئن إلى ما يجرى فى مصر وحولها . . وأنه ليس عصبيا ولا متطرفا ولا متقلبا . . وإنما هو قوى ، ولذلك فهو أكبر من الأحداث . . ولأنه دائم الابتسامة أى إن مزاجه معتدل ، وليس قلقا ولا خائفًا . . إذن فهو إنسان متفائل . . ولو كان قلقا لظهر ذلك على حركاته العصبية . . ولو كان حزينا لا متقع وجهه ، واكفهرت معالمه . .

إن الرئيس عبد الناصر تحامل على نفسه مريضًا وذهب للوداع الأخير لرؤساء العرب . . لقد مات فى أحضانهم . . ولأنه يعرف أن الشعب يستمد صلابته من قوة الرئيس . . ولذلك وصف الرئيس عبد الناصر أنتونى إيدن بأنه رجل خرع ـ بكسر الخاء والراء .

وتحيرت وكالات الأنباء والصحف العالمية فى ترجمة هذه الكلمة . ولكنه كان يؤمن بأنه مرآة الشعب . . فالشعب يرى نفسه فى ملامحه وفى قوامه وقوته . . ولذلك يجب أن يظهر عكس ما يبطن . . أن يتظاهر بالصحة وهو مريض ، وبالهدوء وهو يتمزق من داخله .

والرئيس مبارك أبسط جدا مما يبدو فى الصور وأكثر مرحا وأكثر تفاؤلا . . وهو يرى أن هذا هو الدواء الذى يجب أن يشيعه بين الناس لكى يتحملوا أعباء الحياة . . وإذا كانت أعباء

حسنى مبارك هى حكم مصر ومشاكل العرب والعالم ، فليس ذلك سببًا لأن يبدو عاجزًا عن حمل الأمانة . . وإنما يجب أن يبدو قادرًا ، ليفعل الناس مثله ، وأن يبدو متفائلاً ليحذو الناس حذوه .

وليس الفرق بين الحرير والخيش أن الحرير بلا عقد ، وأن الخيش هو البارز العقد ، أبدًا . وإنما الحرير أكثر عقدا . . ولكن هذه العقد ناعمة ومتلاحقة حتى تبدو للعين وللأصابع أنها ليست هناك . . والحقيقة أنها هناك ولكنها ناعمة ، وبمئات الملايين . . وكذلك وجه الحاكم وأسلوبه وسلوكه له ملمس الحرير ونعومته . . ولكن لا نهاية للخيوط المتقاطعة والمترابطة والعقد .

هذه هى الصورة التفصيلية لحسنى مبارك نائبًا ورئيسًا لمصر وزعيما عربيا وشخصية عالمية .

(٦)

والرئيس مبارك قد تعلم فى الاتحاد السوفيتى . . وهو أقدر الناس على معرفة العقلية السوفيتية . . والعسكرية الروسية . . وهو قد عاش فى موسكو فى (عز) الشيوعية التى بدأت تنتعش فى مصر وفى العالم العربى كله .

وبعد أن رأى ما حدث أخيرًا فى الاتحاد السوفيتى ، فإنه يقبل يديه ظهرًا لبطن على نعمة الديمقراطية المصرية التى أرساها عاما بعد عام . .

فمصر تنعم بالديموقراطية وحرية التعبير . . وحرية شتم الرئيس ورجاله فى كل صحف المعارضة ، وفى البرلمان ، وفى الصحف القومية أيضًا ـ بلا خوف من كاتب على مصيره ، بعد أن رفع القلم وجف الحبر وتم توزيع الصحف بين الناس . . ولا خوف على الذين يسخرون من رؤساء مصر بمن فيهم حسنى مبارك على المسارح الكوميدية فى مصر . . لا خوف . وإنما هو الأمان المستمر . الأمان المستقر .

وبعد كل التساؤلات عن مصر اليوم ، وسنوات حكم الرئيس مبارك ، قد شغلنى سؤال عابر لمندوب التليفزيون المصرى للرئيس جورباتشوف فى موسكو .

السؤال بسيط وغريب ويشبه الأسئلة التى تجىء فى برامج المنوعات فى التليفزيون . وسيادتك تقول لمحمود ياسين ماذا ، وتقول لعادل إمام ماذا ، ولمحمود عبد العزيز ماذا ؟

ويكون السؤال عادة محرجا ومفاجئًا .

ومندوب التليفزيون وجه هذا السؤال للرئيس جورباتشوف الذى خرج من مصيبة شخصية وكارثة للقوميات السوفيتية وزلزال عالمى . . خرج كأنه نوح عليه السلام وسط الطوفان

الديموقراطى الذى هدم الشيوعية على أدمغة الحزب الشيوعى فى روسيا وفى أوروبا وفى العالم كله .

السؤال هو : ما الذى تقوله سيادتك للرئيس حسنى مبارك والشعب المصرى .

وارتبك المترجم الروسى . . ولم يستوعب السؤال . . وجاء مترجم آخر ينقل السؤال إلى أذن جورباتشوف وينقل كلام جورباتشوف إلى أذن الرئيس مبارك . . أما نحن فلم نفهم ماذا قال جورباتشوف .

ولكن انشغلت بالذى يمكن أن يقوله . . أو بالذى يمكن أن أقوله أنا نيابة عن جورباتشوف . . فلو كنت جورباتشوف لقلت للرئيس مبارك : سيادة الرئيس مبارك صديقى وأخى أهنئك على أنك لم تكن شيوعيا . . ولا كانت بلادك . . ويجب أن تحمد الله على أن عبد الناصر عندما أدخل الشيوعية إلى الشرق لم تلق الشيوعية إلا صدى ضئيلا فى كل مكان . . وكان الإسلام أقوى أعداء الشيوعية . . فهوالذى صدها عن بلادك وعن بقية بلاد المسلمين . احمدوا ربنا ، فقد أغناكم عن الجوع الذى ألجأنا إلى التسول ، والتسول الذى أورثنا الهوان . . فقد كانت ألسنتنا أطول من أيدينا واليوم أيدينا أطول من ألسنتنا . . وبجاحتنا أقوى من كبريائنا ، فنحن اليوم نطلب مساعدة الدول التى حاربناها بأحقر الأسلحة سبعين عاما . . نطلب الرغيف من أمريكا ومن ألمانيا ومن بريطانيا ومن فرنسا . . واليابان تساومنا ، لا مساعدة إذا لم نعطها الجزر التى استولينا عليها فى الحرب العالمية الثانية . وكان أملنا دائما أن تنهار أمريكا وأن يقف بوش وماجور وميتران وكول أمام الكرملين يقولون . لله يا أسيادنا لله . . حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة . ثم نقفل الباب فى وجوههم . . ونضمهم للسيرك القومى انتصارا للشيوعية على الرأسمالية . . وانتصارا للحزب على الديموقراطية . . وارتفاعا بماركس ولينين وخورشوف على محمد وعيسى وموسى . . وتفضيلا للكرملين على الكعبة . . ولكتاب رأس المال على القرآن . وأنت تعلم ياسيادة الرئيس ، وقد عشت فى موسكو بأن الشيوعية طردت الله من بلادنا وأنكرت الأنبياء ودفنت الكتب المقدسة . . وأغلقت المساجد والكنائس والمعابد ، وفتحت بيوتا للجان الحزب وأمراء الحزب الشيوعى . وعلى الرغم من أن الشيوعية لا تؤمن بالله واليوم الآخر وأنبيائه وكتبه . . فإنها قد خلقت لها مقدسات أخرى : فالتاريخ هو الله والكتب هى « رأس المال » والأنبياء هم ماركس وانجلز وستالين ولينين وخروشوف واليوم الآخر له معنى آخر عندنا . . وهو أن العالم ينتهى نهاية سعيدة ، وذلك عندما تنهار الرأسمالية وتزول الفوارق بين الطبقات ولا يكون هناك أدنى صراع ولا يكون غنى ولا فقير . . فالناس جميعا سواء . . هذه هى جنة الطبقة العاملة . . هذا هو اليوم الآخر . . فيدخل الشيوعيون الجنة ، ويدخل الرأسماليون النار . وكانت هذه أكذوبتنا

الكبيرة التى ضللنا بها العالم كله . . ولم نفلح فى تضليل مصر وشعب مصر . فمبروك عليك شعب مصر الطيب المؤمن ، ومبروك على شعب مصر رئيسهم الحاكم الحكيم القويم . إن الحرية التى نحلم بها الآن هى واحد على عشرة مما لديكم من حرية وأحزاب وبرلمان . . إن الناس فى بلادنا فى ذهول فقد أصبحت لديهم القدرة على شتم جورباتشوف بلا خوف . . وعلى الثورة ضده واتهامه بأنه ضد البروسترويكا . . التى جاء بها لعلاج أمراض السياسة والاقتصاد فى روسيا وفى كل الدول الشيوعية » !

* * *

ولو كنت من الرئيس مبارك لقلت لجورباتشوف : فعلا نحن نحمد الله كثيرًا على الأمن والأمان والحرية والديموقراطية . . ونحمده على أنه جنبنا ويلات الشيوعية . وأنا أتوجه إلى الشعب الروسى وأقول له : إن رئيسكم هو أعظم رئيس . . فهو لم يكتف بالغضب على الشيوعية ، ولا بالسخط على الحزب ، وإنما هو صاحب ثورة هادئة على كل أنواع الفساد . . ولذلك فقد لقى ما لقيه الأنبياء حين كفر بهم مواطنوهم ـ وعندنا مثل يقول : كل نبى فى وطنه مهان .

وعندنا مثل آخر يقول : زمار الحى لا يطرب .

ولكن الحمد لله لقد استردك شعبك لتكمل رسالتك العظيمة . . فمبروك عليك شعبك الذى عرف قدرك ، ومبروك على شعبك أنه احتفظ بهذا الكنز العظيم ، والضوء الباهر والمصلح الهادئ : الرئيس ميخائيل جورباتشوف » .

ابنتي العزيزة :
أعطيني يدك أقرأ سعادتك !

العمر الطويل لك يا ابنتى . .

والأعمار بيد الله . . والله يمسك الماضى والحاضر والمستقبل ، « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . .

وأبو العلاء المعرى قال . .

مشيناها خطى كتبت علينا   ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت فى أرض سواها

وأنت يا ابنتى أطول عمرًا من آبائك وأبنائك وبناتك وقرائك وعشاقك . . وقال شاعر آخر زهق لأن له ابنة وحيدة ، لا يعرف ما الذى يحدث لهامستقبلاً لو تزوجت غنيًا أو فقيرًا أو واحدًا قليل الأدب . . لقد حار ودار وداخ ولعن الأيام التى رزق فيها بالبنت . . وتمنى لها ما لا اتمناه لك يا ابنتى الوحيدة بين ١٣٠ كتابًا .

قال الشاعر . .
أحب بنيتى وودت أنى
دفنت بنيتى فى جوب لحد
فإما أن أزوجها غنيا
وتبقى عنده والهم عندى
وإما أن أزوجها فقيرًا
فتبقى عنده مثل عبد
وإما أن أزوجها سفيها
فيلعن والدى ويسب جدى
دعوت الله يأخذها قريبًا
ولو كانت أعز الناس عندى !

. . فلك العمر الطويل والعزة والكرامة والأبهة والسعادة وحب الناس وأملهم فيك ياابنتى . . وحبك للناس وآمالك العظيمة فى رضاهم وسعادتهم . . فالسعادة تقبل القسمة على ألف ، وكلما تقاسمها الناس زادت وانتشرت وعمت الجميع وفاضت فى كل قلب هناء وفى كل عين بريقا ، وفى كل عقل نورًا . .

ومنذ سافرت إلى بلاد الصين أخيرا وأنا لا أقرأ إلا الأدب الصينى والتاريخ والأساطير التى هى أحلام الشعوب فى الخلاص من الخوف والمرض والجهل والفقر والقهر والتى هى رموز العلم والأدب والفن والحياة ونهاية العالم ونشأة الكون . . إن الصين كنز لا أول له ولا آخر .

ويؤسفنى يا ابنتى أننى تأخرت فى معرفة أشياء كثيرة فى هذه الدنيا . . تأخرت فى معرفة بعض الناس والعلاقات والأشياء وقراءة المستقبل . . فتأخرت فى معرفة طه حسين أروع الأدباء . . وسبب تأخرى أننى انشغلت بالأستاذ العقاد فحجب عنى أن أرى غيره من مفكرى مصر . . ولكن لم أندم . . فقد كان طه حسين تعويضًا سخيا عن الذى فاتنى . . وتأخرت فى معرفة كامل الشناوى مع أننى قابلته فى مستهل حياتى الصحفية سنة ١٩٥٠ وكان نقطة تحول فى حياتى ، وحياة كثيرين من الصحفيين والأدباء والفنانين والشعراء . . وكامل الشناوى مثل أم كلثوم والسنباطى وأحمد صدقى وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه والهمشرى وصالح جودت والفنان مختار وعلى باشا مبارك ولطفى السيد كلهم بلدياتى . . وتمنيت لو عرفته فى شبابى وطفولتى فهو مثل والدى : رجل يحب الأدب ويتذوقه ورجل لا يحب الفلوس ولا تحبه الفلوس أيضًا . . ولكنه لا يعيش إلا بين قلوب الناس . . وقلوب الناس متقلبة . فكان مصدر العذاب فى حياته أنه يتألب ويتقلب ويتوجع وينزف شعرا ـ وكان أبى شاعرًا رومانسيا وصوفيا بعد ذلك . وكنت أنا أيضًا . لولا أن الفلسفة معشوقتى رفضت أن يكون لها فى قلبى شريك ورفيق !

وتأخرت فى معرفة المرحوم على أمين أحد أعمدة الصحافة الحديثة . مع أننى لقيته سنة ١٩٥٢ وكنت قبل ذلك أعمل فى الأهرام . . من سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ . . وكان على أمين يحب عمله ويرى أن العمل حياة ، وأن الحياة عمل . وأن كل ما عدا ذلك وهم . . فقد ولدنا لنموت ونحن نعمل . ومع أن هذا لا يزال أسلوبى فى الحياة ! ولكن على أمين كان يفعل ذلك لأسباب عملية بسيطة ، وأنا أعمل لأسباب فلسفية . . ولو عرفت على أمين يوم عرفت لطفى السيد ، لكان حالى غير الحال . .

ولكنك أفضل منى كثيرًا ياابنتى فقد عرفت الكثير والكثيرين وأنت ماتزالين صغيرة . .

وبصراحة ياابنتى فأنا نادم على أننى لم أتنبه إلى عظمة الحضارة الصينية . . برغم أننى قرأت طويلاً وعميقًا وكثيرًا ما كتبه الفيلسوف الألمانى اشبنجلر عن انهيار حضارة الغرب وأن المستقبل

للشعوب الصفراء : الصين واليابان . . وأنه خير للإنسان أن يتعلم الصينية الآن وباختياره قبل أن يفرضوها عليه . .

وقد مات أخيرًا صديقى ألبرتو مورافيا الذى ألف كتابًا بديعا عن « حائط الصين العظيم » أروع رحلة أدبية ، أو أروع أدب رحلات . . أو أجمل سياحة عقلية أدبية فنية لعملاق الرواية الأوروبية الحديثة . قال لى مرة ونحن فى فندق سميراميس القديم إنه يتمنى لو كان يستطيع أن يمشى على ساقين صينيتين منفرجتين متوازنتين . . فالدنيا عند الشعب الصينى تمشى على ساقين : السعادة والعلم . . أى كيف يكون الإنسان سعيدًا عالما . . أو كيف يكون مستنيرًا سعيدا . فالسعادة من الممكن أن يعيشها الجاهل . . والعلم من الممكن أن يشقى به أصحابه ولكن المعادلة الصعبة هى أن يتوازن العقل والقلب . . أن يتوازن النور والعمل . . أن يكون الوجه والوجدان توءمين . . وهذا واضح فى كل الوجوه الصينية . . حاول ذلك خمس دقائق كل يوم ، تتحقق لك الحكمة السعيدة . . وهى التى نادى بها الفيلسوف الألمانى العظيم نيتشه فى كتابه الشهير «الحكمة المرحة » . .

حاولى ياابنتى أن تكونى سعيدة عاقلة ، أو تكونى عاقلة سعيدة !

لقد كانت هذه ملحوظة سمعتها من صديقى العظيم البرتو مورافيا . ولكنى نسيتها ونسيت غيرها فى زحمة الحياة العمل ، والعمل الحياة . . أو الحياة الحب والحب الحياة ـ كما يقول شوقى فى أغنية محمد عبد الوهاب الشهيرة :

أنا انطـونيو وانطـونيو أنا ما لقلبينا عن الحب غنى !

هاتى يدك يا ابنتى . .

أنت ولدت يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ . . والأبراج الصينية تقول إنك من مواليد برج التنين .

وأنا من مواليد برج الفأر . .

والأبراج الصينية مختلفة عن الأبراج التى فى الصحف والمجلات إنها : الخنزير والفأر والثور والنمر والأرنب والتنين والثعبان والحصان والأغنام والقرد والديك والكلب . . وهذه الأبراج لا علاقة لها بأسمائها . . وإنما لهذه الحيوانات مدلولات مختلفة تماما فى الأساطير الصينية . .

والذين ولدوا معك فى هذا البرج هم مواليد ١٩٠٤ و ١٦ و ٢٨ و ٤٠ و ٥٢ و ٦٤ و ٧٦ و ٨٨ و ٢٠٠٠ . .

وقد ولد معك عدد كبير من نجوم الشاشة ، وأنت نجمة النجوم . . بل أنت مسرح النجوم وسماؤهم . . ولدت : كليوبطرة وشيرلى تمبل ، وماى وست وبتى جرابل واودرى

هبورن ومارلين ديتريش وجريتا جاربو وأنطونى كوين وكيرك دوجلاس . والساسة الذين ولدوا معك هم تشرشل وجيفارا وهارولد ويلسون وادوارد هيث . .

والأدباء : توماس هاردى واسبورن وتشيخوف . .

والشاعر : اليوت

والفلاسفة : كروتشة واسبنسر وبرجسون . .

وأعظم المهندسين فى العصر الحديث : لوكوربوزييه . .

هاتى يدك ياابنتى . . مكتوب لك أنك طويلة العمر . وأن حياتك ألوان وحوادث . وأنك شديدة التمسك برأيك . وأنك متدينة وأنك صلبة . وتحبين القوة ، وفى الوقت نفسه تحبين المرونة السياسية . . وأنت من الذين يملكون صنع القرار . . وأنك لا تهربين من المسئولية . بل إنك تطالبين كل إنسان أن يحمل مسئوليته على كتفيه وأن يقاتل . ولا يهم أن يكسب فى النهاية . المهم هو أداء الواجب . . ومن الذين ولدوا معك فى هذا البرج جان دارك تلك الفتاة الفرنسية التى دافعت عن فرنسا ضد الاحتلال الإنجليزى . . وماتت على الصليب . . على دينها . . على يقينها . . فكانت النار التى أحرقوها بها نورا للأجيال من بعدها ، وكانت عذابا لضمير الطغاة والظالمين . . وكانت جان دارك طفلة كبيرة ولكن حكايتها تعيش إلى نهاية العالم . . فحكايتها شابة مثلها تتجدد كل عام . .

وكان المفروض أن تولدى يا ابنتى يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧٦ أى بعد الإعلان عن اسمك بشهر ونصف ـ وكان ذلك مستحيلا . .

وأعلن الرئيس السادات فى مؤتمر صحفى فى فيينا وهو من برج الثعبان أن ميلاد مجلة (أكتوبر) سوف يكون يوم ٢٣ يوليو ـ عيد الثورة . وصرخت للرئيس : أن هذا مستحيل ، فأنا لم أعرف فى ذلك الوقت ما اسمك ولا رسمك ولا حجمك ولا أين تولدين . . وكيف ؟ ومن الذى يرعاك ؟

وطلبت من الرئيس السادات أن يمهلنى بعض الوقت .

والطوالع الصينية تقول إن برج الثعبان الذى هو برج السادات وبرج التنين الذى هو برجك يختلفان فى أشياء كثيرة ولكنهما لا يتناطحان . وإنما يتشاجران بعض الوقت لتكون الصداقة صحيحة والعشق عميقا .

فكان ميلادك يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ .

وتقول الطوالع الصينية إن مواليد هذا البرج مع مواليد برج الفأر سعداء . .

ففى ولادتك لقاء بين التنين ـ الذى هو برجك ، والفأر الذى هو برجى .

أنت طبعا تعرفين أغنية المطرب الأمريكى فرانك سناترا « مشوار حياتى » ـ وهو أيضا مولود فى برجك يا ابنتى ـ الأغنية تقول : مشوار حياتى طويل . . طويل سعيد . . سعيد لأنى أحبك . . أحبك لأنك استمرار لمشوارى الطويل . .

المصادفة السعيدة هى التى ولدتك فى برج التنين القوى المحبوب القادر على التحدى والاستمرار فى احترام وإعجاب . .

وكان من عادة الملوك قديما أن يسألوا الذين يتأملون النجوم إن كانت رحلاتهم سعيدة . . أو إن كانت حروبهم موفقة . . أو إن كان هذا الوقت المناسب لبناء مدينة ـ كما فعل جوهر الصقلى عند بناء مدينة القاهرة .

ولو تذكرنا ذلك لسألنا علماء الطابع وقراء النجوم . . ولو فعلوا لاختاروا لك يوم ٣١ أكتوبر أسعد الأيام ، وأروع البدايات لمشوار حياتك وحياة الألوف من الشباب معك وبك ولك . . وملايين الذين يتأملون وجهك الجميل وقوامك البديع من الغلاف إلى الغلاف . .

قال صلى الله عليه وسلم : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » . .

وقد كان الواقع والغيب هما يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ يوم مولدك السعيد المتجدد . . وكل سنة وأنت سعيدة بالناس وهم سعداء بك : طفلة قوية ، وشابة جميلةتقفز كل ١٤ سنة ١٤ خطوة إلى الأمام والأمان ، والسلامة والسلام . .

دعوت الله أن يسعدها قريبا

فقد كانت أعز الناس عندى !

عاشوا فى الحمّام وماتوا أيضـًا !

العظيم ليس عظيما فى كل تصرفاته . . وإنما فقط عندما يفكر أو عندما يدبر . . ولكن فى الأشياء الأخرى لا يختلف عن بقية خلق الله . .

ومنذ أيام ظهرت مذكرات سيريل دافيز ، وهو رجل المخابرات الذى كان يرافق الزعيم البريطانى تشرشل (١٨٧٢ ـ ١٩٦٥) . . يحكى كيف أن هذا الرجل العظيم خرج من الحمام نصف عريان يطارد خادمه الخاص فى كل مكان . . والناس ينظرون إليه فى حالة من الفزع .

فمن عادة تشرشل قبل أن يأكل يستحم . . صباحا وظهرًا ومساء . . فالاستحمام هو الفعل الوحيد المؤكد فى سلوك تشرشل فى أى يوم . . وفى ذلك اليوم خلع ملابسه وفتح الدش فإذا الماء يغلى . وكان ذلك فى جناحه الخاص فى الباخرة « كوين مارى » . أما الذى حدث فهو أن الماء الساخن كان ينزل من الدش طوال الليل . . فلم يكد تشرشل يفتح الدش حتى انسلخ جلده . . فلم يطق صبرا وإنما خرج ببعض ملابسه يبحث عن خادمه الخاص لكى يجعله يخلع ملابسه لتشويه المياه الساخنة . .

وعندما كتب د. موران مذكراته عن الحرب ، وكان الطبيب الخاص لتشرشل قال : إن شيئًا واحدا مؤكدا سوف يفعله تشرشل فى أى صباح . . أن يجلس على « القصرية » ويقرأ التقارير ويؤشر عليها . . ويصدر أخطر القرارات !

فقد كان تشرشل يشكو من إمساك دائم أو إسهال دائم . . وكان هو الذى يعالج نفسه ويتبرع بعلاج كل الذين حوله أيضا ، وكان الجنرال أيزنهاور من ضحاياه !

والحمام كلمة عربية معناها مكان الماء الساخن . ففى اللغة يقال : « حمى » النهار بكسر الميم أى ارتفعت درجة حرارته . . وكذلك حمى الماء . . والرسول عليه الصلاة والسلام هو أول من استخدم هذا التعبير « حمى الوطيس » أى سخن . . وهى عبارة أطلقها الرسول عليه

السلام عند معركة حنين . . وكان يقصد بها أن الحرب قد اشتعلت . والوطيس معناها . الفرن . أى إن فرن الحرب قد اشتعل !

ولكن بعض الناس لا يطيق الماء الساخن . فالزعيم الفرنسى جان ـ بول مارا (١٧٤٠ـ١٧٩٣) كان مصابا بمرض جلدى فكان يقضى النهار والليل مغمورًا فى ماء بارد . يقرأ ويكتب ويناقش . . حتى صديقاته لابد أن ينزلن إليه فى الحمام البارد . . وقد اغتالته الآنسة شارلوت كورداى . . لقد ادعت أنها جاءت لتعالج قروحه الجلدية . . ولكنها قد اتهمته بخيانة مبادئ الثورة الفرنسية !

لقد كان المرحوم يوسف السباعى أكثر ضبطا للنفس من تشرشل . . فعندما كنا فى بلودان بسوريا ، سألنى يوسف السباعى إن كنت قد أخذت حماما . فقلت نعم . فسألنى إن كان الماء ساخنا . فقلت : دافئ جميل . .

ودخل يوسف السباعى تحت الدش وبعد لحظات راح يصرخ . . فقد كان الماء شديد البرودة !

وضحكنا . وبعدها بشهر قرأت إعلانا فى الصفحة الأولى من كل الصحف المصرية هذا نصه : الله يخرب بيتك ياأنيس منصور ، بقلم يوسف السباعى . وانزعجت . ومددت يدى إلى مجلة « التحرير » التى كان يرأسها يوسف السباعى . . فإذا به يحكى مقلب الحمام البارد !

ويقول رجل المخابرات سيريل دافيز إن تشرشل كان يجد الحمام الساخن فاتحا للشهية . . مريحا للأعصاب . . فإذا انشغل تشرشل باتخاذ أى قرار ذهب إلى دورة المياه وبعدها أخذ دشا . . وجلس فى غاية اليقظة والسيجار الطويل بين شفتيه . . ولابد أن تكون بهذا الترتيب : دورة المياه والدش والسيجار !

وأشهر حمام فى التاريخ هو حمام العالم الإغريقى أرشميدس (٢٨٧ ـ ٢١٢ ق . م) . وهذا العالم عاش فى الإسكندرية . . وهو الذى اخترع الطنبور لرفع المياه . . وما يزال مستخدما فى مصر . . واخترع كثيرًا من الأسلحة استخدمها فى الدفاع ضد الرومان . ولما استولى الرومان على بلدته سيراكوزه ذبحوه !

ولكن من أشهر كلمات أرشميدس كلمة : أوريوركا ـ ومعناها : وجدتها !

فقد كان يستحم فى بانيو . . ولما ألقى بنفسه فى الماء ، طفح الماء . . فخرج من البانيو عاريا يقول : وجدتها . . أما الذى وجده فهو أنه لم يكن يعرف حجم الجسم الإنسانى وغيره . . فعرف الآن أن البانيو إذا كان مليئا حتى آخره ونزل هو فيه . . فالماء الذى سقط من البانيو يساوى حجم جسمه تماما !

والكاتب الفرنسي ادمون روستان (١٨٦٥ ـ ١٩١٨) مؤلف رواية سيرانو دي برجراك الشهيرة كان لا يحلو له التأليف والكتابة إلا وهو فى البانيو . . وكان يأكل ويشرب . . واخترع لنفسه صينية من الخشب لكى يضع عليها الطعام وهو فى البانيو . . وكانت عنده مشكلة وهوأنه فى بعض الأحيان يحتاج إلى أن يسجل أفكاره بسرعة . . ويخشى إن هو ارتدى ملابسه أن تطير منه الأفكار . . فكان ينبطح على أرض الحمام يكتب ويكتب . . حتى يعطس فيعود إلى البانيو الذى يكون الماء فيه قد برد ـ ولذلك كان مزكوما دائماً !

أما الأديب الإنجليزى وليام بليك (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) فكان يتمدد فى البانيو ويسند رأسه وينام نوما عميقا . وكانت زوجته تضع الماء الساخن فى البانيو من حين إلى حين لكى تحتفظ له بماء دافئ . . وكانت هى الأخرى تنزل فى بانيو مجاور . . فكان إذا زاره أحد وناداه فكان يرد عليه قائلاً : تعال . . لن تجد هنا إلا آدم وحواء !

والأديب والمغامر والصحفى والموسيقار وذئب النساء وصاحب أطول مذكرات فى التاريخ (١٧ مجلدا) جيوفانى كازانوفا (١٧٢٥ ـ ١٧٩٨) فكان من شدة حبه لذاته وجنونه بنفسه يشرب من ماء البانيو الذى يستحم فيه . . والذى تستحم فيه مئات الجميلات اللاتى عرفهن فى حياته . . وفى مذكراته يقول : للنساء مذاق خاص إذا وضعتهن فى بانيو من النبيذ أو فى بانيو من الشمبانيا . . والله لم يخلق الماء إلا للخنازير والحمير . . أما عصير العنب والتفاح فلكى نجعله شرابا لأجسامنا ومدادا لأقلامنا . . ولذلك فآلهة الإغريق ـ لم يكونوا يفيقون من الخمر !

ومؤلف قصص الأطفال هانس اندرسن (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥) كان دائم السخرية من نفسه . . فهو نحيف جدا ، ولذلك يحشو ملابسه بأوراق الصحف حتى يبدو « ملو هدومه» . . وكان يقول لصاحبة البيت : أريد فنجانا من الماء الساخن . .

فتسأله : ولكن لماذا ؟

فيقول ضاحكا : فقط أريد أن استحم !

ويقول إنه فى إحدى المرات علق على باب الحمام خطابا لصاحبة البيت : أرجو أن تفتحى الباب فإذا وجدتنى لا أتحرك ولا أتنفس فإننى لم أمت . . وإنما أبدو كذلك !

والتاريخ يذكر لنا أن أول من أدخل البانيو إلى أمريكا هو المفكر الأمريكى العظيم بنيامين فرانكلين (١٧٠٧ ـ ١٧٩٠) . فقد نقله معه من فرنسا حيث كان يعمل سفيرا لبلاده . واخترع فرانكلين أشكالا وألوانا وأحجاما من الحمامات . . أما الحمام الذى كان يناسبه هو فقد جعل به منضدة من الرخام بحيث إذا جلس ليكتب فإنه يكون مغموراً حتى رقبته ثم يخرج

ذراعيه من تحت الماء ويكتب . . ولم يفلح فرانكلين فى أن يخترع نوعا من الأقلام لا يفسدها الماء . . وكان إذا أراد أن ينام وهو فى الحمام ، فتح الماء قليلا لينصرف بعضه . . ويهبط حتى صدره . . ثم يضع ذراعيه تحت رأسه وينام ـ أجمل وأسعد نومة !

وفرانكلين له عبارات لها شكل الحكمة ومذاقها . . مثلا : لا شىء فى الدنيا مؤكد إلا الموت والضرائب والحمام اللذيذ !

* * *

لن يختلف الناس كثيرا إذا التقوا فى حمام واحد كلما احترقت أعصابهم !

* * *

أنا لا أعرف فلانا ، فنحن لم نجلس فى حمام واحد !

* * *

أما صديقى الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) فقد عرفته أكثر من ثلاثين عاما . وأنا أول من قدمه إلى القارئ العربى . عندما عرضت ولخصت وترجمت له رواية « فتاة من روما » . أروع ما كتب البرتو مورافيا . وهى تصف رجال ونساء الطبقة الوسطى فى إيطاليا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وقد أدى هجومه على الفاشية إلى اختفائه بين الجبال يتنقل متنكرا وينشر فى الصحف بأسماء مستعارة حتى سقط موسولينى ونقلته القوات الأمريكية ليعيش فى روما التى أحبها ولم يكتب إلا عنها . .

أما روايته الأولى التى ظهرت وهو فى الثانية والعشرين من عمره فهى « زمن اللامبالاة » . . وجاءت بعد ذلك رواية « المنضبط » . . وتوالت رواياته الرائعة وقصصه القصيرة البديعة ـ وقد ترجمت منها ١٣٧ قصة .

وقد التقيت به فى بيته فى روما . وعرفت زوجته الأولى الأديبة السه موارنتسه التى هجرته إلى رجل آخر .

وعرفت زوجته الثانية الجميلة داشيا ماريانى التى ألفت رواية اسمها « الزمن الردىء » وقد تركته لأنها تفضل الشذوذ الجنسى . .

وقابلته بعد ذلك فى برلين وفى هافانا . . ثم فى القاهرة . . ودعوته لزيارة مصر . وعلى الرغم من أن موارفيا هو أعظم الروائيين المعاصرين فإنه لم يفز بجائزة نوبل فى الأدب بعد أن رشحوه سبع مرات . والسبب هو الجنس الصارخ فى كل أعماله الأدبية . . ولأنه أيضًا ليس مؤمنا . . ولأنه كان شيوعيا . . ثم كان فوضويا . . ثم وجوديا .

وموارفيا متشائم . ويؤمن بأن الإنسان تعيس . وأن حضارة الإنسان لم تحقق له أى نوع من أنواع السعادة . . ثم إن الإنسان شرير يزداد شرا . . فقد كان يرمى الناس بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت قنابل ذرية . . إنه نفس الإنسان المتوحش . . ولا تزال الأخلاق والدين غلالة رقيقة زائفة . . فالأصدقاء أعداء تحت التمرين . . والمرأة ولدت خائنة . . فقط اعطها فرصة . . وهو لم يقابل فى حياته امرأة واحدة صادقة . . ولا أحد قابل امرأة صادقة مخلصة وفية . . والفنان قد عاقبه الله بأن خلق له موهبة وحساسية شديدة ثم عاقب هو نفسه بأن تزوج . . وهو تزوج لأنه صدق امرأة كاذبة . . وهو صدقها لأنه يحب المديح والإطراء . . أليس الفنان خالقا مبدعا ؟ ثم أليس الخالق يطلب من الناس أن يصلوا له وأن يعبدوه وأن يشكروه ؟! فالفنان كذلك . . فإذا تزوج انكشف له جوهر المرأة وخداعها فإنه يترك الزوجة وينسى . . أويتركها لكى ينسى فتحتال عليه ثانية وثالثة . . وهو ينسى . . ولكن لا ينسى أبدا أنه نصف إله . . وأنه فى حاجة إلى عباد وإلى مصلين وإلى راكعين وساجدين . . فهو الإله المخدوع والمغفل المقدس ، والحمار الأبدى !

وجدوا ألبروتوموارفيا ملقى أمام البانيو . . وتركوه حتى اليوم التالى . . لقد أصيب بأزمة قلبية .

ولما سئلت الخادمة كيف لم تتنبه إلى ذلك قالت : مألوف جدا أن يدخل الحمام ومعه الكتب وزجاجة النبيذ والتليفون والتلفزيون . . إنه يفعل ذلك من ثلاثين عاما . .

إنه حوت عبقرى . . عندما خرج من الماء مات ! .

ليالى الأنس فى ڤيينّا :
سنة حلوة ياجميل !

(١)

عبارة مشهورة عن مدينة فيينا : ليس فيها وجع للدماغ ، ولكن فيها وجع للقلب !

أغنية مشهورة تقول عن مقاهى فيينا : أنت لا تجد طعاما ـ اذهب إلى المقهى أنت تجد طعاما ولا تجد عرشا ـ اذهب إلى المقهى .

أنت تكره كل الناس ، ولا تستطيع أن تستغنى عنهم ـ اذهب إلى المقهى !

أنت لا تجد البنت التى تحبها ، وعندما وجدتها احتقرتها ـ إذن اذهب إلى المقهى . .

قالها الأديب التنبرج . .

ولكن لماذا قالها ؟ لأن فى فيينا أجمل مقاهى الدنيا . . وقد بدأت هذه المقاهى فى أثناء الحصار التركى سنة ١٦٨٣ . وفى أثناء هذه المحنة قام واحد كروانى بجمع ما تبقى من حبوب البن وراء الجيش التركى وافتتح أول مقهى . . وجاء واحد إيطالى وأضاف إلى هذا المقهى ترابيزات للبلياردو والقمار والشطرنج والصحف أيضًا .

وأصبحت المقاهى أشكالا وألوانا . .

وهناك أنواع من المقاهى أطلقوا عليها مقاهى العظمة المجنونة . . ففى هذه المقاهى يجلس الأدباء والشعراء والرسامون وجلساتهم حفلات تكريم لأنفسهم ، ما دام لا أحد هناك يكرمهم ويضعهم فى مكانهم الصحيح ! .

وفى فيينا التقى أكبر عدد من الأدباء والرسامين والموسيقيين . . ولكن نصيب فيينا من الفلاسفة قليل جدًا . .

ربما كان فى فيينا اثنان أو ثلاثة فلاسفة . . مثل الوجودى فتجنشتين ونصف الوجودى فانيجر والكافر بالجميع ماخ . . أما عدد الأدباء فكثير جدا من بينهم : كافكا وفرفل وتسفايج وهو فمانشتال . .

أما الموسيقيون فهم موتسارت واشتراوس ولبهار ومالر ؟ وكان هنا هايدن وبيتهوفن وشوبان وجاء فاجنر إلى فيينا أيضًا . .

وهناك عبارة عن فيينا تقول : كل ما فيها لذيذ إلا الهواء . .

وعبارة أخرى تقول : ولكن الهواء يهب على فيينا لأنها لذيذة ! »

أول مرة رأيت فيينا كان سنة ١٩٥٠ . . وقررنا فيما بيننا أن نجعل ليلتنا كما وصفتها أسمهان : ليالى الأنس فى فيينا . .

وفى ذلك الوقت كانت فيينا مقسمة خمسة أقسام : كل دولة عظمى تحتل قسما من المدينة . . والقسم الخامس هو القسم الدولى . والذى نزلت فى أحد فنادقه . . والكباريه الذى ذهبنا إليه فى القسم الخامس الدولى . . الكباريه اسمه (مولان روج) ـ أى الطاحونة الحمراء . . وهو لا يختلف عن أى كباريه آخر فى أى مكان . . ولكنه فى فيينا التى لياليها أنس كما تقول الأغنية . . وكانت أنوار دافئة وموسيقى صاخبة ، وراقصات فى لون النار من بعيد ولكن هواءهن فاسد من قريب . . ولكنها فيينا التى لياليها أنس . . سألت جارتى التى تجلس إلى مائدة أخرى : طبعا نمساوية . . فأجابت مستنكرة : ولماذا طبعا . . فهل أنت نمساوى طبعا ؟ قلت : طبعا لا . .

واختفى الأنس ساعة من ليالى فيينا . . واقترحت على الزملاء أن نغير المكان (د. عبد العزيز حجازى ود. عبد المنعم البنا ود. حسن عثمان ود. مراد كامل ود. محمد محمود الصياد ومدير الإذاعة الأستاذ طبفور) . .

وسألتنى جارتى : من إيطاليا .

قلت : لا .

قالت : من الشرق الأوسط .

قلت : نعم . . وأنت؟

قالت : من الشرق الأوسط .

فقلت : من لبنان ؟

فأجابت : نحن جميعا من إسرائيل!

ويبدو أن ما تبقى من أمل فى أن يكون هناك أى نوع من الأنس قد اختفى . . وهمست فى أذن الذى إلى جوارى ليهمس فى أذن الذى إلى جواره واتفقنا على مغادرة الطاحونة الحمراء . .

وأمامها قلت : طبيعى جدا أن يكون هنا هذا العدد الكبير من اليهود . . ففيينا هى بلد الصحفى العالمى هرتسل الذى كان أبا دينيا للصهيونية العالمية . .

واقترحت أن نخرج وأن نجلس فى أحد المقاهى . . وكان أقربها (مقهى سخر) . . وبنت صاحب المقهى كانت ملكة جمال فيينا ، ثم تزوجت رئيس وزراء مصر محمد باشا نسيم . . وفى فيينا تورتة مشهورة بالشيكولاتة اسمها تورتة سخر . .

هـل كان المكان ضيقـا . . هـل كان دافئا . . هـل كانت الأضـواء شـاعرية أو إننا رأيناهـا كذلك لأننا نريد تعويضًا عن الذى أصابنا فى الطاحونة الحمراء ـ فقد رأيت المقهى بعد ذلك عدة مرات ، ولم أجده هكذا جميلاً ساحرًا . ولكن الجمال والسحر نحن الذين نسجنـاهما لأنفسنا . . كأنه مطلوب منا أن نقتنع أو نقنع أنفسنا بأن ليالى فيينا هى ليالى الأنس !

وفى الساعة الثانية صباحا كانت دقات على الباب . وفتحت الباب وأنا اغط فى النوم . وأمامى أحد رجال الشرطة ومعه فتاة يسألها : هل هو هذا ؟ تقول الفتاة : لا . . ليس هذا .

وخرج الأصدقاء جميعا من غرفهم بالبيجاما ورجل الشرطة يسأل الفتاة : هل هو هذا ؟ إذن هو هذا ؟ ليس هذا . . ولا هذا . . إذن كيف كان شكله . . كان يجلس مع كل هؤلاء . . هرب . . إذن هرب ! .

والحكاية أن واحدا قد ضحك على هذه الفتاة وأعطاها جنيها على أنه مائة دولار . . وما دام قد وعدها بهذا المبلغ ، وهى لا تكذب فلابد من دفعه . . لابد أن نتعاون جميعا على دفعه ، وإلا فلا خروج من النمسا ، وإنما دخول للسجن ! .

منتهى اليأس من الأنس فى فيينا !

(٢)

فى يوليو سنة ١٩٥٢ كنت فى فيينا . . وفجأة صدرت الصحف كلها وعليها هذه المانشتات : هكذا قال د. عصفور . . تصريح خطير لدكتور عصفور ٣٥٠٠ ألف مدرس نمساوى تحتاج إليهم مصر لتعليم اللغة الألمانية . . مفاجأة كبرى من ثورة مصر : أول احتياجاتهم مدرسون من هنا فورًا .

أما دكتور أحمد عصفور فكان عضوا فى حزب مصر الفتاة وفى آخر أيامه كان يعمل مستشارًا للبرنس عباس حليم . . فقد طلع فى دماغ عباس حليم أنه اشتراكى . . أو شيوعى على خفيف وأنه ضد الملك وضد النظام الملكى . . وكانت الصحف المصريةترى فيه ثائرًا . .

ولم يكن ذلك إلا (تقليعه) اجتماعية . . وإن د. عصفور قد ضحك عليه . . وجعله يركب الترام مثل الشعب المصرى . . وكان بذلك يغيظ الملك « فاروق » . .

ود. أحمد عصفور كان نازيا . . مع الألمان ضد الإنجليز . . وكان مع عباس حليم ضد الملك . . وهرب من مصر بعد أن تزوج فتاة نمساوية ساعدته على أن يحصل على الدكتوراه من جامعةسويسرية ـ هى التى كتبت له الرسالة طبعا . . وكانت مراجع هذه الرسالة كلها عربية وليس فى متناول أى إنسان خارج مصر . . فكلها مأخوذة عن جريدة (الجمهور المصرى) التى كان يرأس تحريرها الصحفى الرهيب أبو الخير نجيب . . وكان أحمد عصفور هذا أعرج وكل ذى عاهة جبار . . وكان جبارا فى معاملة هذه الزوجة . . فكان يضربها ويطردها . . وكانت تدق أبواب كل أصدقائه ولم تستطع أن تخرج من مصر ، فكل جوازات السفر معه هو . .

وساعدته على الهرب من مصر وعلى أن يفتح مطعما للفول والطعمية فى فيينا . . وكان قد استورد كمية كبيرة من الفول ولم تفرج عنها الجمارك النمساوية . . إلا إذا دفع مبلغا كبيرا . وهو لا يريد ولا يستطيع . فلما وقعت الثورة المصرية عقد مؤتمرا صحفيا . أعلن فيه صداقته الحميمة لرجل الثورة المصرية الرئيس محمد نجيب . وقال فى المؤتمر الصحفى إنه اتصل به تليفونيا وهنأه على الثورة التى كان ينتظرها . . ولكنها تأخرت عن الموعد الذى حدده معه . . ولما تأخرت فقد يئس من نشوبها . ولذلك ترك مصر . وقال : إن صديقه الرئيس نجيب الذى يتكلم الألمانية ويحب الأدب الألمانى قد طلب منه أن يتوسط لدى الحكومة النمساوية لعلها أن تبعث فورا بثلاثين ألف مدرس .

ومثل هذا الخبر قد هز الحكومة النمساوية والشعب . . فأول قرار تتخذه الثورة المصرية هو الاستعانة بالنمساويين وليس بالألمان . . ثم هذا العدد الكبير جدا من دولة عددها خمسة ملايين؟! .

وأفرجت الحكومة النمساوية عن الفول والعدس والأرز الخاص بالدكتور عصفور . . وبعد إفراجها عن هذه الكمية الكبيرة ، وإنكار الثورة المصرية لهذه التصريحات التى أدلى بها د. عصفور هرب إلى الدانمرك ! .

(٣)

سنة ١٩٦٠ جئت مرة أخرى إلى فيينا . . كانت أجمل ألطف أرق . . الصحة والشباب والابتسامة والرغبة فى الحديث مع أى أحد : كانت من علامات المجتمع النمساوى . وفى فيينا أنت لا تعرف ما هى ملامح الرجل أو السيدة النمساوية . . فهنا خليط هائل من كل

شعوب أواسط أوربا وتركيا . . وهناك أقلية على الحدود تحتفظ بالمعالم الألمانية ويتفاخرون بأنهم ألمان . . ويتكلمون الألمانية بلهجة الألمان العنيفة ، وليس بلهجة النمساويين الرقيقة . . ثم إنهم يعلقون العلم الألماني وليس العلم النمساوي . . ولا أحد يلومهم فهم جميعا ألمان لاشك في ذلك . . والنمسا بالألمانية معناها : الدولة الشرقية أو المنطقة الشرقية من ألمانيا . .

وسافرت إلى سالزبورج المدينة التي ولد فيها عبقري الموسيقى موتسارت . . والذي صوره في كل مكان . . على المحلات وعلى الشيكولاتة والذي موسيقاه في كل أذن . . في المقهى والمطعم وصالون الحلاقة . .

واخترت بنسيونا صغيرا قديما حطمت الحرب نصفه بالطول . . ولم تستطع صاحبة البنسيون أن تبني النصف الآخر . ولكن عندها حكايات كثيرة عن كيف انهدم عليها البيت وهي تحت الأرض . . فلما خرجت وجدت نصف البيت كومة من التراب . . وهي تأسف على ما حدث . . وتحمد الله على الباقي . . ومعنى ذلك أنه من الواجب عليك أن تغفر لها أي تقصير أو إهمال . . والحقيقة أنني لم أجد فيها أي إهمال ولا تقصير . . فالبيت نظيف جدا . . فأنا عندما أفتح الباب أجدها قد وقفت بالإبريق والطشت لكي تساعدني على غسل وجهي . . أما إذا حلقت ذقني ، فإن ابنتها الصغيرة تكون قد أمسكت الإبريق لكي أغسل وجهي مرة أخرى . .

وأخيرا وجدت حلا وهو أن أغسل وجهي في محطة السكك الحديدية . . فإنني لم أسترح إلى هذا الذي تفعله صاحبة البنسيون وبناتها الجميلات جدا . . ولكنها تشعر بأنها لا تفعل أكثر مما يجب . . فهذا واجبها . وما دام واجبا فهو شيء مقدس ـ وهي في ذلك ألمانية مائة في المائة !

ولكن الذي لم تستطع أن تفعله هذه السيدة ولابناتها الجميلات هو حكاية البراغيث في غرفة النوم . . إنها شديدة اللسع . . فإذا كشفت وجهي لسعتني ، وإذا غطيته لسعتني وإذا جلست وإذا وقفت وإذا لبست وإذا قلعت . . فإنني ملسوع ملسوع . وإذا أضيئت الغرفة ، فإنني لا أراها . . ولذلك لا وسيلة للنجاة من هذه البراغيث . .

ولا أعرف كيف أشكو فالسيدة قد قدمت لي كل الأعذار . .

ولكن وجدت لنفسي قصة ترضيني وأتحدث عنها منذ ذلك الحين . . وهي أن هذه البراغيث هي أحفاد البراغيث التي لسعت الموسيقار العبقري موتسارت . . فدم موتسارت يجري في عروقي مع الموسيقى . . وفي ذلك ألف عذر وعذر لليلة واحدة في مدينة سالزبورج ! .

(٤)

فى أول إبريل ١٩٧٦ وفى مؤتمر صحفى للرئيس السادات سألوه فأجاب : إن مجلة ٦ أكتوبر سوف تصدر يوم الاحتفال بثورة التصحيح . . يوم ١٥ مايو القادم بإذن الله !

ولم أستطع أن أكتم صرخة من قلبى : يانهار أسود . كيف ؟

فقرار صدور المجلة عمره ٢٤ ساعة ونحن مسافرون مع الرئيس السادات أياما أخرى . . وليس عندى معلومات من أى نوع عن اسم المجلة ولا شكلها ولا حتى مكان صدورها . . ولا عندى صورة عن نظام العمل . . ولا معى محرر واحد . .

وتحولت ليالى فيينا إلى ليالى حزن وغم . . ذهبت إلى عمرو موسى ، فوجدته بالبيجاما والطاقية : قلت له ما رأيك ؟

قال لى : تضرب دماغك فى الحائط فالمجلة لابد أن تصدر . . هذا قرار جمهورى .

قلت : أعرف ولكن يستحيل أن تصدر فى هذا الموعد الذى قرره الرئيس . .

قال : اذهب إليه وناقشه بسرعة !

ذهبت إلى أسامة الباز . . وهو دائما فى بعض ملابسه . . فلم أر فى حياتى واحدا يمشى نصف عريان فى غرفته فى أى وقت وبلا ملابس داخلية . . أقل الملابس الداخلية . . وحتى عندما يخرج إلى الشارع مهما كانت درجة الحرارة تحت الصفر فهو بلا فانلة ـ فانلة خطأ ـ ولا بلوفر ولا بالطو . . قلت له : ما رأيك !

قال : لا رأى . . يجب أن تصدر ولكن ليس فى هذا الموعد . . فأنا أعترف أن هناك صعوبة . اذهب إليه . . بسرعة قبل أن يتمسك بهذا القرار .

قلت : إنه صحفى ويعرف استحالة ذلك . .

قال : ولكنه رئيس جمهورية وهذا أمر . وهو أعلن وعليك أن تنفذ له هذه الرغبة . .

وقابلت الرئيس السادات وقلت له : ياريس كيف تصدر المجلة فى هذا الوقت . . لا عندى مكان . . لا عندى فكرة . . ولا أعرف أين تصدر ولا كيف . . ولا عندى محررون . .

قال : إذن يجب أن تصدر فى عيد ثورة يوليو . .

قلت : ممكن . حاضر ياريس !

ولم أشعر فى حياتى بضرورة أن أتصعلك على مقاهى فيينا ، كما شعرت فى ذلك الوقت . . وأغرقتنى الحيرة والقلق وكنت قد انشغلت عن مثل هذه المشاعر . . فبدلا من الصعلكة

الحركية ، أصبحت عندى صعلكة روحية . . بين المذاهب الفلسفية والأدبية والدينية واعتدت أن ألف الدنيا وأدور حولها وأنا جالس فى مكانى . .

ورحت أتنقل بين مقاهى فيينا . .

ففى هذا المقهى خطط الثوار الروس لثورة أكتوبر . .

وهنا أعلن الرسامون النمساويون ثورتهم على الخطوط الكلاسيكية والألوان التقليدية . .

وهنا جلس العالم النمساوى الكبير فرويد وأدار رأسه وأدار رءوسا كبيرة وكثيرة أيضًا . .

وأسندت ظهرى لتمثال الإمبراطورة ماريا تريزا وأقول لها : قولى لى ياست أنت كيف حللت مشكلة بنتك الملكة مارى أنطوانت عندما عرفت أن زوجها الملك لويس السادس عشر عاجز جنسيا . . وأنه لم يفلح فى أن يقترب حتى مات . . وكانت هى تبدد طاقتها وأموالها فى شراء الفساتين والمجوهرات وزيارة بيوت الفقراء . . وكان كلما جلس عند قدميها كما أفعل الآن كنت أنت تكتبين إليها وتقولين : ابنتى لا أحد عنده كل شىء . . الكمال ليس صفة إنسانية . . فليكن لك أى شىء . . إنه أفضل كثيرًا من لا شىء !

أبدا ياصاحبة الجلالة . لابد أن يكون الشىء كاملا فريدا وإلا فلا معنى له . . يامجلة ممتازة ليس لها نظير فى مصر والعالم العربى ، وإلا فلا معنى لذلك . . أبدا وحياتك ياجلالة الإمبراطورة ـ يا أم عشرة من الأولاد . . وإلا لا داعى مطلقا لأن تصدر مجلة وهى نسخة مكررة من المجلات المصرية أو العربية !

وتوقفت أمام تمثال الإمبراطورة ماريا تريزا وتخيلت أنها أدارت رأسها إلى الناحية الأخرى وأن ذراعى قد طالت وطالت حتى بلغت قفاها ، واستحييت أن أفعل شيئًا . . ولكن يدها هى التى امتدت إلى شفتى فقبلت الجمال والأبهة وروعة نهار وليل فيينا !

وطلبت مقابلة الرئيس السادات : عندى رأى ياسيادة الرئيس والرأى لك . . لماذا ما دامت المجلة اسمها ٦ أكتوبر أن تصدر يوم ٦ أكتوبر !

قال متهللا : لا بأس يا أنيس . . مفيش مانع أبدا !

شكرا ياريس . .

(٥)

٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩١ وفى مقهى السلام بفيينا . . تذكرت أيام كنا نذهب إلى صالون العقاد فى مصر الجديدة . . وكنا لشدة إعجابنا بالأستاذ العقاد نعتقد أن الأعلام المرفوعة على

كل المؤسسات يوم الجمعة ، قد وضعت تحية للأستاذ أو لتلامذة الأستاذ الذين يسعون إليه مسرعين لكى يصلوا الساعة التاسعة تماما . .

كل هذه الأعلام لكل هؤلاء الشبان . . ياسلام . . دعنى أصف لك واحدا منهم . إنه نحيف . . شعره منكوش يرتدى قميصا وبنطلونا . . يعطس فقد نسى المنديل فى البيت . . أو إن المنديل فى جيبه ولكنه نسى أن يضع يده فى جيبه . . أو إن المنديل فى جيبه ولكنه لا يريد أن يخفى فيه أنفه . . فلعله يريد أن يصيبه التهاب فى الحلق ، لكى يلف حول رقبته كوفيه كالتى يضعها الأستاذ العقاد حول رقبته . . ثم إنه وهو يمشى يجعل خطوته واسعة ويميل إلى الأمام مثل الأستاذ . . أما الوجه فهو مكشر قليلا ، وهو مستقل عن كل شىء حوله . . كأنه غارق فى التفكير . . وهو نزل من المترو قبل بيت الأستاذ . . لأنه يريد أن يمشى إلى بيت الأستاذ . . أن يسعى إليه . . وأن يعرف كل الناس أنه ذاهب للعقاد . . وأنه شخص مهم جدا ، كما أن الأستاذ شخصية هامة جدا . . ولا يدل على استغراق هذا الشاب فى عظمة الأستاذ إلا أنه على الرغم من صعود السلم ألف مرة فلم يخطر على باله أن يعرف كم عدد السلالم . . كم واحدة سليمة وكم واحدة مكسرة . . ولا إن كان السلم مغسولا . . ولا ما هى نوعية الروائح التى تخرج من كل الشقق ، وهذه الروائح هى أكبر دليل على نوعية الناس . . نوعية الطبقة الاجتماعية . . ولا ما هى الروائح التى تنبعث من بيت الأستاذ . . غالبا لا رائحة فالشباك الشرقى مفتوح على الباب الغربى . . والتيار يجىء من هنا ويخرج من هنا . . ثم إن أحدا لا يدخن فى صالون الأستاذ . . فالجو بارد . . وهذه البرودة هى التى توقف نمو الكلمات والضحكات . . أو إنها تقلص الحركات والأضواء والأصداء . . وعندما يدخل هذا الشاب النحيف فإنه يحشد كل حيويته وفى وجهه وفى يده . . فهو يضحك سعيدا برؤية الأستاذ ويمد يده بسرعة ، وبسرعة يجلس وينتظر وقد ضم ساقيه وقدميه ورفع رأسه وفتح أذنيه وعينيه ـ ذلك الشاب هو أنا فى ذلك الوقت ! .

وليست هذه الأعلام حولى فى فيينا والصور والشيكولاتة التى رسمت عليها صورة موتسارت عبقرى الموسيقى الذى يحتفلون بمرور قرنين على وفاته ، إلا احتفالا بمناسبة أخرى . .

فكلما جاء الجرسون انصرف ووقف بعيدا يرانى أقلب فى شيكولاتة موتسارت . . وصوره على قائمة الطعام وفى الصحف وعلى الجدران فالعين تراه فى كل مكان . . والآذان تستمع إليه من كل باب وشباك . . والوجوه سعيدة بذلك وتتوقع أن تهنئها بمرور قرنين . . فتدعو لأى إنسان أن ربنا يعطيه طول العمر ليحتفل بمرور ثلاثة أو أربعة قرون . . ويتلقى منك الناس هذه الأمنية بامتنان عظيم ، كأنها ممكنة !

ثم عاد الجرسون سعيدا بيا رأى . . وأحنى رأسه لكى أطلب فقلت : تورته .

ـ من أى نوع .

ـ لعيد ميلاد .

ـ كم شمعة . .

ـ . . .

ـ وحدك سوف تحتفل ؟

ـ نعم . .

ـ فهمت . .

أما الذى فهمه ، فهو أنه رأى أننى وحدى وأننى أردت أن أحتفل بعيد ميلادى . . ومنعه الحياء أن يسألنى عن عمرى . . فاختفى وعاد بتورتة عليها شمعة واحدة كبيرة . . ترمز إلى الاحتفال دون ذكر لعدد السنين . .

فقلت : بل أريد ١٥ شمعة .

ـ حالا ياسيدى .

وأتى بالشموع . . وأشعلها . . والموسيقى تقول : سنة حلوة يا جميل .

فأطفأت الشموع الخمس عشرة التى ترمز إلى عيد ميلاد مجلة (أكتوبر) ، أطال الله عمرها ونجاحها رمزًا للشباب والحيوية والشعبية . .

وكان هذا الاحتفال الصغير بداية رقيقة بديعة لإحدى ليالى الأنس فى فيينا . . وإحدى سنوات السلام فى مدريد والشرق الأوسط ! .

ما أحلاها عيشة الفلاح ولكن فى كواكب أخرى!

من خمسين عاما كان محمد عبد الوهاب يغنى ويقول ، ونصدقه ونردد وراءه . .

ما احلاها عيشة الفلاح   متهنى وبالـه مرتـاح !

ولكننا الآن لا نغنيها ولا نرددها وراءه ، وإن كانت نغمة الصوت الموسيقى للأغنية هى التى تأخذنا بجمالها وليست بمعانيها . . فحياة الفلاح لا يحسده عليها أحد : لا هومرتاح ولا نحن . . ولا يستطيع أن يجد شجرة ينام تحتها ، وإن وجد الشجرة فإنه لن يجد النوم ، وإذا وجد النوم فسوف ينهض مدشدشا . . فالهواء فاسد والماء والطعام . فألف رحمة تنزل على فلاح زمان الذى ذهب ولن يعود !

ومن ٢٥٠ سنة كان الفيلسوف الفرنسى روسو يتغنى بجمال الطبيعة . ويدعوالناس إلى حياة الفطرة . . إلى الغابات والجبال والوديان والسير على الأقدام . . فاتجهت أوربا كلها إلى جبالها ووديانها بعيدًا عن المدن والكباريهات والمقاهى . . وانتقلوا بعد ذلك إلى غابات إفريقيا وآسيا . . وخلعوا ملابسهم ورأوا فى الإنسان البدائى النموذج الحقيقى لسعادة الإنسان قبل أن تفسده الفلسفة والعلوم . .

أما كيف تحول الفيلسوف روسو إلى عشق الطبيعة والدعوة إلى الفطرة والبساطة والابتعاد عن العلوم والفلسفة ، فإنه كان يمشى فى أحد شوارع جنيف . . ثم فى باريس فوجد إعلانا عن مسابقة أدبية موضوعها : هل العلوم أفسدت أخلاق الإنسان ؟

ووجد روسو أن هذا السؤال هوالذى يهز أعماقه ، وإنه مؤمن إيمانا قاطعا بأن العلم الحديث قد أفسد ذوق الإنسان وأخلاقه ، وملأه بالغرور والجشع والحقد والكراهية والعنف والحرب . .

وذكر أن مصر القديمة كانت رمزًا لجمال الفن والعمارة . . ولكن العلوم الحديثة والغزوات أفسدتها . . وكذلك بلاد الإغريق حطمها الملك فيليب المقدونى الذى انهزمت قواته مرتين فى آسيا . . أما ماذا يجب أن يفعله الإنسان ؟

هو أن يمشى بين الغابات تحت الأشجار وأن يفتح صدره للهواء وقلبه للشمس . وأن ينام متى أراد ، وأن يصحو متى يشاء . . وأن يفتح ذراعيه لكل ما خلق الله . . ولكل مخلوقات الله . .

هل هو ضدالعلم ؟

أبدًا . إن العلم من غير أخلاق : سيارة من غير فرامل . . بندقية بلا أمان . . تهور بلا ضوابط . . والأخلاق بغير علم : اندفاع أهوج . . فوضى بلا قواعد . .

ولكن القلب أروع من العقل ، والإنسان البدائى أشرف من كل نبلاء أوربا فى كل العصور!

أما إن العلم قد أفسد علينا الحياة فأكثر جدًا مما كان يتصور روسو . .

ولو حاول أحد منا أن يذهب إلى الغابة لوجدها فقيرة . . ولو حاول أحد أن ينام تحت شجرة ، لكانت الشجرة هى التى تنام فوقه ـ أو كأنها . لأنه لن يجد الراحة فى الهواء أو الماء أوالطعام أو الشراب !

حتى الإنسان البدائى يموت الآن من الجوع . . يموت من الجفاف . . هذا الجفاف سببه المصانع الضخمة فى أوروبا وأمريكا التى أقامت سحبا لا نهائية حول الأرض تمتص الحرارة ولا تسمح بخروجها . . وسببه أيضا أن غاز (ك . ف . ك) كلورو فلورو كاربون هو الذى مزق طبقة الأوزون فوق القطب الجنوبى فدخلت أشعة الموت تصيب الإنسان البدائى فى الصحارى الجليدية وتصيب الحيوانات والأسماك أيضا . . ولذلك فنحن جميعا نعانى من الخوف . . الخوف من كل الأمراض المعقولة : والأمراض الوهمية . .

وهذا الخوف الجنونى من المرض ، هو الذى أصاب الإنسان بجنون الأدوية والمستحضرات الكيماوية . أمريكا مثلا : كل شىء فى أمريكا قد دخلته المواد الكيماوية : الخبز والماء والقهوة والشاى والحلوى والفواكه . . ثم الأدوية نفسها . وكلها يبتلعها المواطن الأمريكى . . وكلها مهلكة للمعدة والكبد والدم والقلب والمخ . فكيف لا يصاب بكل الأمراض أبناء الحضارة الحديثة . . أبناء العلوم الحديثة والفلسفة الجديدة التى تنادى بحماية البيئة من الإنسان وحماية الإنسان من الإنسان . . إن هذه الأدوية والمستحضرات الكيماوية هى قوات مرتزقة يستخدمها الجسم لمساندة قواته الوطنية فى الدم . . وكثيرًا ما انضمت القوات المرتزقة إلى قوات الميكروبات المضادة . . فكانت كلها جيوشا معادية للإنسان . .

أما الأغنية الساحرة التى كنا نرددها فى الخمسينات للمطربة شارون تيت فهى الأخرى من أغانى الماضى الذى لن يعود . تقول الأغنية :

دعنى شجرة فى غابتك .

دعنى فرعا فى شجرتك .

دعنى زهرة فى غصنك .

دعنى بقعة خضراء فى لوحتك .

دعنى الإصبع التى تمسك اللوحة .

والعين التى تراها وتراك . .

دعنى هنا فى قلبك داخل قلبك .

ادفنى هنا فى قلبك . .

قلبى فى قلبك . .

دعنى اتمدد تحت شجرة .

على شاطئ نهر السعادة !

هذه الأغنية هى الأخرى مثل « ما احلاها عيشة الفلاح » مثل النقوش على الكهوف القديمة : صورة من صور العصر الذهبى الذى لن يعود . .

فكيف المستقبل إذن ؟

كما ترى فنحن نخوض فى بحار من الكيماويات . . اعتدنا عليها . . والجسم أيضا . ونحن لا نستطيع أن نرد القضاء والقدر ولكن نطلب اللطف فيه . . نطلبه من أنفسنا . . نطلبه من الدول الصناعية الكبرى . . لأننا اليوم نعيش فى بيوت زجاجية خانقة وسط غابات مريضة وليس صدفة أن نتجه إلى الكواكب الأخرى . . فليس ذلك استعراضا فقط للقوة . وإنما هو هجرة إلى كواكب أخرى تشبه فى نظافتها أرضنا من ملايين السنين . . صحيح أنه الإنسان يهرب من كوكب إلى كواكب أخرى ، فسوف تكون الكواكب جديدة ببيئات جديدة . . ولكن ستبقى المشكلة دائما : إن الإنسان هوالإنسان . . وإنه سوف يقوم بتهجير مشاكله إلى مستويات أعلى . . ولكنه لن يفسد هذه البيئات الجديدة قبل ملايين السنين . . وبعدها يستأنف الهجرة إلى مجرات أخرى ـ والله أعلم وأرحم !

أرضنا تطرح : بطيخًا وغرابًا أبيض !

اهرب بجلدك من القاهرة واتجه إلى الطريق الصحراوى . . وسوف تتأكد لديك حقيقة واحدة : أن هناك أملاً فى إنقاذ مصر من كسل وبلادة شعب مصر . . فالأرض الصحراوية تبوح بأسرارها الخضراء : أشجارًا وثمارًا وطيورًا . . وهذا الشريط الضيق الأخضر يمكن أن يتسع ويشمل الصحارى كلها : فالتربة غنية وماؤها بحيرات تحتها ، والهواء والشمس وملايين الأيدى الشابة جاهزة تنتظر الإشارة !

قال لى صديق سودانى رأى الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية وإلى الإسماعيلية : إنكم تذبحون أنفسكم . . إنكم تظلمون أنفسكم . . إنكم تحولون الأمل إلى يأس . . إنكم تخصصتم فى دفن الأحياء من الشبان . . فقد سحبتم الأوكسجين من الهواء الذى هو أمل الحياة ، حتى يختنق الشباب أو يهرب من الحياة أو يرتد معتديًا على مصر !

لقد بهرته الأرض المزروعة . .

وعندما جاء شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل ورأى المناطق المزروعة فى الصالحية بهرته الصحارى المزروعة والبيوت والمدن والميكنة الزراعية . . ولم ير إلا جانبا ضئيلا من مصر . . فوصف الرئيس «مبارك» بأنه أكبر منشىء فى القرن العشرين . . آه لو رأى بيريز الطريق إلى الإسكندرية شرقًا وغربًا . . آه لو رأى سيناء التى احتلتها إسرائيل واستعادتها مصر وأطلقت فيها كتائب من الشباب يبنى ويعرق ويزرع ويكسب . . ولكن وبقدر اجتهاده تواجهه الصعوبات الرسمية ، كأن مصر لا تريد أن تغير خريطتها الجغرافية ، كأن الوادى الضيق الذى ورثته تريده أن يبقى ضيقًا . . وأن يزداد ضيقًا بنا ، عندما نبنى عليه العمارات . . فى استطاعتك أن تتفرج على أطراف العواصم لترى ناطحات السحاب على الأرض المزروعة . . تنطح السحاب والقوانين !

بل هى تعلو وتعلو لترمى بتصريحات المسئولين من فوق حتى يكون لها دوى ويكون للدوى صدى ، ويكون للصدى صداع فى رأس كل من يفكر من أجل مصر !

ومن الممكن أن يقرأ د. يوسف والى نائب رئيس الوزراء هذه السطور السابقة ويصدر قرارًا بعرض عشرة آلاف فدان ليشتريها الشباب فورًا !

وبعدها بأيام يعرض عشرة آلاف فدان فى مكان آخر فورًا !

خطأ ياسيدى خطأ . . ما هكذا تحل مشاكل الأرض المصرية ولا الشباب .

الحل : هو أن تكون سياسة الدولة الثابتة التى لا تتغير مع الوزراء هى أن الأرض للشباب . . نص دستورى . . كل واحد يتملك مساحة من الأرض . . والدولة تعطيه قرضا . . وقبل ذلك توفر له الطرق والمواصلات . . وتضع ما تشاء من الشروط . . وتغنى وتطبل للشباب وتدعوه وتدفعه وتدربه لكى يكون فلاحًا مستنيرًا .

وإذا كان المؤرخ الإغريقى هيرودوت قال من ٢٥قرنًا : إن مصر هبة النيل فيمكننا أن نقول : والصحراء هبة الشباب !

ليس مستحيلاً زراعة الصحراء . . لقد زرعت . . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك : مديرية التحرير والمساحات الهائلة للمؤسسات على جانبى الدلتا . . كلها مزروعة . . فادحة التكاليف . . ولكن يبقى أن نعبئ جيوش الشباب فى أشرف معركة . . عرق بلا دم ، حب بلا حرب . .

ونحن عندما نزرع الصحراء . . فإننا نزرع الشباب أيضًا . . فيطرح لنا قوة وحيوية ومستقبلاً باهرًا . . نجعل له جذورًا فى أرضه . . فيكون البيت والأسرة . . وتكون الأرض هى العرض . . وليس تشنيعًا على مصر ما نشرته الصحف العالمية عن أسباب « ضعف » الجندى المصرى فى معظم الحروب التى خاضها . . كان سبب ضعفه أنه لا يملك فى مصر شيئًا . . فالذى لا يملك يدافع عن الذى يملك . . الفقراء يدافعون عن الأغنياء . . المعدمون يدافعون عن الملاك . . ولكن عندما تصبح الأرض ملكًا للناس جميعًا ، فالدفاع عنها استشهاد من أجل : الأم والزوجة والابن . . والحياة نفسها !

ولو كان الناس جميعًا لا يملكون ، لكانت الأرض لنا جميعًا . . فكلنا يدافع عن كلنا . . حتى الدول الشيوعية التى حرمت ملكية الأرض والبيت ، عادت تعطى للإنسان الحق فى أن يملك . . فى أن تكون له خصوصيات : كالزوجة والابن . . وبذلك تكون أرضى هى عرضى . . ودولتى : أسرتى . . وأبناء الناس : أبنائى . . والموت فى سبيل الولد ، كالموت فى سبيل الوطن : شرف ما بعده شرف !

* * *

أما أن تخرج لنا الجامعة مئات الألوف كل سنة ، فلا بأس . . فمن حق الناس جميعًا أن

يتعلموا . . وبغير العلم لا تقدم . . وبغير النور لا هدى . . وبغير الشباب لا مستقبل . .

وإذا نحن أردنا للشباب أن يكون شبابا . فلنعذره إذا كانت له أنياب وأظافر . . فليس شابا من لا يشهر مخالبه ، ويكشف عن أنيابه . . كنا كذلك ، فيجب ألا ننسى وألا ننكر على الشباب إذا فعل ما كنا نفعله !

ولكن أن نقص أجنحة الشباب فلا يطير فى السماء ، وأن نقضم أظافره فلا يحفر الصخر وأن نكسر أنيابه فلا ينهش الكسل واليأس والفقر والخوف ـ هذا بالضبط ما تفعله الدولة كل عام . . وذلك عندما تقرر « توظيف » الشباب فى المؤسسات الحكومية ـ فهى قد علمته ، وهى قد وظفته ونحن نعرف أية وظيفة هذه ؟ أى عمل هذا الذى يجعل الشباب ينتقل من «اللطعة» على المقاهى وفى الأندية إلى « اللطعة » على المكاتب والكراسى .

كان شاعرنا الصعلوك عبد الحميد الديب ، بلا عمل . . ثم وظفوه فى دار الكتب . . وسألوه عن حاله بعد ذلك . . فقال ما ينطبق على شباب مصر :

بالأمس كنت مشردًا أهليًا   واليوم صرت مشردًا رسميًا !

إن الشباب بمئات الألوف الذين نحيلهم إلى « الاستيداع » بمجرد تخرجهم ، لخسارة كبرى على مصر . . لأننا نجردهم من أهم صفات الشباب : الإرادة والشجاعة والإقبال والكفاح . . ونسوقهم أسرى إلى المنطقة المنزوعة السلاح : دواوين الحكومة .

ومعنى ذلك أننا قررنا أن نبنى مصر بجيش من الأسرى : الشباب الذين علمناهم وأنفقنا عليهم ، ثم تقاضينا الثمن فادحًا حين نزعنا منهم الريش والمنقار والمخلب ! وحولنا الصقور والنسور إلى طيور داجنة : أوز وبط وفراخ وأرانب !

هكذا أصبحت المؤسسات مزارع للدواجن . .

ولكى ترى الصورة أوضح وأفدح ، اذهب إلى مزرعة الدواجن . . سوف تجد المزرعة مضاءة ليلاً ونهارًا . . حتى لا تنام الفراخ . . أمامها يتحرك الطعام والماء . . ومطلوب من هذه الدواجن أن تأكل وأن تبيض . . كل يوم بيضة . . وبعد سنة أو سنتين تتوقف الدجاجة عن البيض . . لقد تجاوزت عمرها الافتراضى . . ولذلك يجب أن تموت . . فيذبحونها طعامًا للشعب . .

وبسبب الإضاءة المستمرة والسجن الدائم وعجزها عن الحركة ، فإنها فى حالة هياج عصبى مستمر . . ولذلك تتقاتل وينهش بعضها بعضًا . . فلا تكاد الدجاجة ترى جارتها وهى تبيض وترى لحمها ودمها حتى تنهال عليها تأكلها وتقتلها . . ولذلك فإنهم يكسرون منقار الدجاجة . . كل الدجاج الذى يبيض يكسرون منقاره حتى إذا اعتدى على الدجاج الآخر فإنه لا يقتله . . ويقلمون مخالبها أيضًا .

فما هو المعنى؟

المعنى أن يكون تحويل الطيور الجارحة إلى دواجن بالسجن والإرهاق . . ولكن السجن والإرهاق من الممكن أن يثيرا أعصاب الدواجن ـ حتى الدواجن من الممكن أن تثور ـ فتقتل بعضها بعضًا . . ولذلك فقد كسرنا الجزء العلوى من المنقار . . وحطمنا المخالب . . ورغم ذلك تثور !

ويدهشنا ذلك !

مع أن هذه الدهشة هى التى تبعث على الدهشة . . فما الذى من الممكن أن نتوقعه مع القفص الحديد ، ونزع سلاح الشباب . . فهل نحن نريد ذلك ؟ الجواب : نحن لا نريد !

فما هوالحل ؟

الحل هو أن تمتلئ أيدى الشباب بتراب مصر ، والشباب وحده القادر على أن يحول التراب إلى تبر ـ لقد استطاع ذلك دائمًا ويستطيع فى أى وقت ولأى وقت !

* * *

ولكل عصر سؤال . . والإجابة عن هذا السؤال هى مفتاح العصر . .

فقديما كانوا يقولون : قل لى كيف تعاملون العبيد والأسرى ، وأنا أقول لكم من أنتم ؟

وقيل : كيف تعاملون المرأة وأنا أقول لكم من أنتم ؟

وقيل : كيف تعاملون الأقليات وأنا أقول لكم من أنتم ؟

ولكن مفهوم الشباب عندنا هو : رعاية اللعب واللاعبين وبناء المدرجات . . كأن بلادنا هى « مونت كارلو » ـ كازينو للقمار حوله بيوت تعيش على ذلك . . أو كأنها « لاس فيجاس » ولاية القمار والدعارة والمافيا ، يعيش منها وحولها عدد من الشرفاء يدافعون عن القانون وكرامة الإنسان ويأسفون كثيرًا على الذى يحدث فى الكباريهات والكازينوهات . . ونحن يجب ألا نأسف على إقامة الملاعب وتشجيع الرياضة : الحرب الشريفة من أجل التفوق بالقانون . . ولكن يجب أن نأسف إذا كانت كل معانى الشباب عندنا هى اللعب من أجل اللعب !

ولا تزال هتافات اللاعبين أعلى من كل الشعارات : أهلى حديد . . يازمالك ياهندسة . . بالروح بالدم نفديك ياجمال . . ياسادات . . يامبارك ـ فلا نحن نصدق ذلك ، ولا نحن قد اهتدينا إلى شىء جديد ، يكون له معنى جديد . . وهذا يدل على « عقم » الحماس الشعبى . . وإنه لم يذهب إلى أبعد من تمزيق الحناجر . . بدلاً من تقوية الأيدى والسواعد والجباه من أجل مستقبل مصر !

لماذا لا يكون لنا شعار جديد حتى نهاية القرن : مجانية الأرض تمامًا كمجانية التعليم . . فكما إن التعليم للجميع ، فالأرض للجميع . .

هل أضرب مثلاً صحيحًا مهما ضايقنا ؟

إسرائيل : لم تكن عندهم أرض ، ولذلك لم يعرفوا الزراعة . ولأنهم بلا أرض لا يملكونها لم يكن لهم جيش !

فماذا حدث ؟ تفوقوا فى العسكرية وفى الزراعة . . لماذا ؟ بالعلم والإيمان ـ بالعلم الذى نعرفه جميعًا ، وبإيمانهم الذى لا نوافق عليه . . فلا عندهم أرض . . ولا عندهم ماء . . ويصيبهم الجنون عندما يجدون الصحارى الشاسعة عندنا ، والمياه الغزيرة وملايين الأيدى العاملة . قرأت مقالاً لباحث إسرائيلى يقول : كيف لا يباع كيلو السمك فى مصر بقرش صاغ : عندهم النيل والبحيرات والترع والبحران الأبيض والأحمر ؟ كيف لا يكون كيلو البلح والبرتقال والسمسم والبطيخ بمليم ، وعندهم كل هذه المساحات من الأرض الصالحة للزراعة؟ كيف لا يكون فى مصر مليون مليونير فى عشر سنوات وعندهم كل هذه الخيرات ؟

لا أنسى دهشة مناحم بيجين عندما رأى النيل من فندق أوبروى « فى أسوان » . أدهشه أن الماء كثير جدًا والشاطئ الخصب ليس مزروعًا ؟ اندهش جدًا . . ثم طلب من أى أحد أن يفهمه . . أفهموه . . ولكنه لم يقتنع . . لأنه لايتصور أن عندنا كل هذا الماء ، وصخورنا لا تنفجر بأشجار الجوز والمطاط . . إن عقله لا يستطيع أن يستوعب وجود الماء والصحارى معًا؟!

* * *

كانت الأمثلة الشعبية تقول : تضرب الأرض تطلع « بطيخ » . . دليلاً على المستحيل ، أما الآن فهذا هو الممكن فى أى وقت !

وكان العرب يقولون : إن المستحيل هو أن يكون الغراب أبيض . . وقد رأيت فى حدائق حيوانات سيدنى باستراليا ، عددًا كبيرًا من الغربان البيض . . فلا مستحيل ما دام هناك شباب تتفتح له الأبواب ، لتوظيف مخالبه وأظافره وأنيابه وإرادته وشجاعته على أرضه .

وشاعرنا كمال عبد الحليم قال :

هذه أرضى أنا
وأبى مات هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا !

وأعداؤنا : اللامباة والكسل و « وتدجين » الشباب فلا يهش ولا ينش وإنما يبيض . . ليموت ضحية .

وداعـًا ..
يا آخر نعامة مصرية !

الملك الألمانى « ذو اللحية الحمراء » فريد ريش الأول (١١٢٢ ـ ١٢٩٠) هو أول من التفت إلى حماية البيئة الحيوانية فى التاريخ . فقد حدث أن رأى عددًا من الشبان يربطون الخنازير بالحبال ثم يطلقون عليها السهام والنبال . . وقف يتفرج ولكن بعد أن فرغ الشبان من هذا اللهو العنيف . . ألقى القبض عليهم ثم ربطهم بالحبال وجعل جنودًا يقذفونهم بالطوب . . وأساءوا فهم الملك ذى اللحية الحمراء وظنوا أنه يحرم أكل اللحوم ، ولحم الخنزير بالذات . . ولكنه بعث من يعلن فى جنوب ألمانيا وفى شمال إيطاليا التى استولى عليها : إنه ضد العنف وضد القسوة . . فمن يشاء أن يذبح الخنزير فليفعل . ولكن أن يعذبه فلا !

ولكن الملك فريد ريش الأول هذا لم يكن رحيما مع الإنسان . فقد كان أحد أبطال الحروب الصليبية . وكان فى غاية الغلظة مع جنوده ومع القساوسة الذين رافقوه . . وفى طريق عودته غرق فى أحد أنهار تركيا ويقال فى البحر ويقال أغرقوه . . وبعد وفاته أشيع أنه لم يمت وإنما سوف يعود فى الوقت المناسب لحل أزمات الشعوب الجرمانية !

وعلى الرغم من إعجاب الكثيرين به فإنهم أطلقوا عليه الكثير من الفكاهات . . قالوا : إنه ليس صحيحا أنه غرق . . وإنما جاءه فى النوم خنزير فعقره فمات من الخوف . . فالخنازير تحب الضرب كما إنها تحب القسوة !

ولكن « ذو اللحية الحمراء » وإن لم يترك رسالة أو مرسوما لتحريم ضرب الحيوان ـ الخنازير مثلا ـ فإن فى بعض رسائله إلى الأمراء ما يدل على أنه كان يكره قطف الزهور ويكره منظر ذبح الحيوان . . ولا يقوى على سماع بكاء الأطفال . . ويقال أعلن أنه سوف يعطى جائزة كبيرة لأطبائه إن أفلح أحد فى البحث عن طريقة لإسكات الطفل حتى لا يبكى فى الليل . ويقال إن الأطباء عثروا على مركب كيميائى يشربه الطفل ـ إن الملك الألمانى لم يعش ليرى ماذا تفعله الخادمات فى زماننا . . عندما يشممن الأطفال رائحة البوتاجاز فيظل الطفل دائخا حتى تفرغ الخادمة من حديثها الغرامى مع الخدم فى الشقق المجاورة !

ولكن هذا الملك وضع أصبعه على البداية : الطفل كيف لا يبكى . . كيف لا يتعذب . . فلا يكون قاسيًا عندما يكبر . .

هذه البداية نحن لا نعرفها فى مصر . . فلا يوجد فى أية مدرسة صغيرة أو كبيرة أية توجيهات للرحمة بالحيوان والنبات . . أى للرفق بالحياتين الحيوانية والنباتية . . فقط بعض الملصقات « الهزلية » تظهر فيها صور الحيوانات المصرية التى انقرضت أو سوف تنقرض . ومطلوب من ولى أمر الطفل أن يقول له : لا تقتل . . لا تسرق . . لا تكن قاسيا مع هذه الحيوانات التى لا يعرفها ولا يراها إلا فى أقفاص حدائق الحيوان . . بينما الدولة بهيئاتها المحترمة تمنح تصريحات للصيادين من الشرق والغرب يقتلون ويذبحون . . ويدفعون يمينا وشمالا . وقد سمعت أخيرًا ـ وأرجو ألا يكون صحيحًا ـ أن بعض الصيادين الأشقاء يجيئون إلى شمال سيناء . ويتبرعون بمئات ألوف الدولارات . . وتحت ستار هذه التبرعات يسمحون لهم بالصيد العنيف فى المناطق المحرمة . سمعت من يؤكد أن هذا يحدث كل سنة !

قال لى د. محمد حسين عامر وكيل الوزارة لشئون حدائق الحيوان والطيور والأسماك والحياة البرية إنه يتلقى يوميا ٢٠٠ تلميذ ينصحونهم كيف يحمون الحياة . . جهد صادق ولكنه متواضع جدا . . فالوسائل المستخدمة فى إقناع الأطفال هى بعض الصور الملونة . . وهو يحتاج مع مساعديه من دكاترة الحديقة إلى سبعين سنة لكى يعرض هذه الصور على طلبة المدارس المصرية ـ طلبة هذا العام فقط ؟!

فحديقة الحيوانات وحدها لا تكفى ولا تستطيع . . وإنما كل وسائل الإعلام ، وكل المدارس وكل البيوت . . والبداية هى هذا الشعار : أنت يجب أن تعيش ، وكل الحيوانات وكل الزهور وكل النباتات . . يجب أن نعيش وندع غيرنا يعيش . . الحياة حلوة . . ومن الممكن أن تكون حلوة . . وليس كل الذين أصبحوا شيئًا ، كانوا كذلك فى البداية . وإنما عاشوا وتركناهم يعيشون ، وحاولوا . . وكافحوا وتعبوا . . ونجحوا ووصلوا . . وكذلك كل من يحاول أن ينجح . . وكل مريض يريد الشفاء ويريد العافية . . يجب أن تكون لدى المريض إرادة الحياة . . وإرادة الصحة . . وإرادة البقاء !

فى سنة ١٩٥٧ كنت فى ألمانيا ، وقرأت فى مجلة ألمانية هجوما عنيفا على مصر وعلى الجامعة العربية . المقال بالصور . والمجلة واسعة الانتشار . فقابلت د. فقوسة مندوب الجامعة العربية . وسألته ما الذى يفعله فى مثل هذه الحالة للرد على المجلة الألمانية المعادية للعرب . فإذا بالرجل يقف فى حماس شديد ويقول : أنت ترى هذا المكتب الصغير . .

ودرت بعينى فى المكتب . . إنها غرفة صغيرة . المكتب يشغل نصف الغرفة والكتب والمجلات تشغل نصف الأرضية . . والستائر نصف الجدران والمقاعد محشورة بين الأوراق

والحائط . . وإذا انفتح الباب كان من الضرورى أن نقف حتى يمكن أن نرى من الذى يدق الباب . ولا يدق الباب عادة إلا السكرتيرة وقد أعدت رد الدكتور فقوسة على المجلة الألمانية . . الرد من نار . فعلا من نار . . وأعطتنى السكرتيرة التى هى من نار أيضا مقال مندوب الجامعة العربية . المقال تحفة أدبية منطقية .

وسألنى : ما رأيك !

قلت : عظمة !

قال : أنا لا أسكت أبدا . هم يكتبون وأنا لسانى طويل لا أسكت .

سألت : وهل ينشرون هذا الرد ؟

وبقدرة قادر كأن السقف قد انسحب من فوقنا بسرعة لتهبط إحدى السحب المشبعة بالبخار ، مطرا على رأس مندوب الجامعة العربية فتذهب ألوانه وصوته ولمعان عينيه من تحت منظاره ويرتمى على مقعده قائلا : أبدا . . ولا كلمة !

وتذكرت ما نفعله نحن عادة عندما نتلقى بيانات السفارات وخاصة التى ترد على ما يجيء عنها فى الصحف . . إننا نلقيها فى سلة المهملات . . لا السلة امتلأت ولا السفارات سكتت . . هم يردون ونحن لا نقرأ ولا ننشر . . ولا هم توقفوا عن الكتابة ولا نحن توقفنا عن إهمال ذلك !

فقلت : أطال الله عمرك يادكتور سيزيف !

فسألنى مندهشا : من هو سيزيف !

ورويت له الأسطورة التى تصور بطلا إغريقيا حكمت عليه الآلهة بأن يدفع أمامه حجرا إلى قمة الجبل ، ثم يتدحرج الحجر إلى السفح ليعود البطل فيدفعه أمامه إلى القمة . . وهكذا إلى الأبد . . الحكمة البالغة البليغة معناها : إن سيزيف هذا لم ييأس . . وكأنه يتحدى الآلهة . . أرادوا أن يزهق وأن يموت من الملل لسخافة هذا الذى يفعله كل يوم . . فما كان منه إلا أن أغاظ الآلهة عندما ظهرت المتعة على وجهه !

وكأن أمطار هذه السحابة قد نفذت إلى أعماق د. فقوسة فقال : ولكن سيزيف هذا بطل . . وهو أسطورة . . أما أنا فكما ترى أجلس فى هذه الزنزانة أواجه وحدى العواصف والبراكين الألمانية التى تعمل لحساب الصهيونية وضد العروبة . . ولكن أنا أؤدى واجبى . . حتى لو لم تكن هناك نتيجة . . فعلا أنا الصورة المتواضعة جدا للبطل الإغريقى ماذا تحب أن تشرب !

ووجدت أن فى هذا الطلب نوعا من اللامبالاة بعذاب سيزيف العربى . .

فقلت : القهوة مع بعض الموسيقى . . هاها . . هاها !

شيء من مثل هذا تفعله حديقة حيوانات الجيزة : د. محمدعامر ومعاونوه . . بينما المدارس والوزارات كلها تتفرج على هذا المجهود المتواضع المتحضر !

وجاءنى من بلدياتى د. المحمدى السيد عيد رئيس جهاز شئون البيئة التابع لمجلس الوزراء . .

« الكاتب الكبير والأستاذ الفاضل أنيس منصور » أسعدنى متابعة سلسلة مقالات «الأرض تموت والإنسان » التى تفضلتم سيادتكم بكتابتها فى جريدة « أخبار اليوم » ولعلى لا أخفى على سيادتكم أن كل مقال يتناول قضايا البيئة أشعر أنه إضافة هامة للجهود المبذولة فى نشر الوعى البيئى بين الجماهير .

وبالنسبة للآراء التى تفضلتم سيادتكم بنشرها فى سلسلة كتاباتكم الأخيرة ، فإننا نعتبرها تجسيدًا لاهتمامكم الشديد بحماية البيئة المصرية ، ونأمل أن يحذو كل كتاب مصر حذوكم فيه ، إلا أن هناك بعض النقاط الخاصة بما أثير حول « محمية رأس محمد » يشرفنى أن أعرضها على سيادتكم فيما يلى . .

١ ـ إنه قبل إنشاء جهاز شئون البيئة تابعا لرئاسة مجلس الوزراء لم يكن هناك فى مصر كلها أى جهود تبذل للتنسيق بين الهيئات المعنية من أجل حماية الحياة الطبيعيـة النادرة فى مصر وبعد إنشاء الجهاز وضعنا فى مصر أول تقرير وطنى عن البيئة فى مصر ، متضمنًا حالة المناطق الطبيعية المتميزة ، وما تحتاجه من جهود ورعاية .

٢ ـ فيما يتعلق بتنمية المحميات الطبيعية فى مصر يتم اللجوء إلى الهيئات العالمية ذات الخبرة المتميزة فى هذا الشأن ، ولعل سيادتكم تتفقون معى فى الخبرة الطويلة التى يتمتع بها خبراء السوق الأوروبية المشتركة ، والولايات المتحدة الأمريكية فى مجال إنشاء مناطق المحميات الطبيعية ، وهما الجهتان اللتان شاركتا خبراء مصر فى وضع ما يلزم من خطط وبرامج لإنشاء هذه المحميات .

٣ ـ إن المحميات الطبيعة فى كل دول العالم لا يمنع الزوار من دخولها أو مشاهدة الجمال النادر بها ، ولكن يسمح بهذا ، وذلك تحت رقابة مشددة حتى تتاح الفرصة للأفراد للاستمتاع بهذا الموروث الجمالى الطبيعى ، ولذا فمعظم هذه المحميات على مستوى العالم تعتبر مناطق جذب سياحى تقدم فيها الخدمات للزائرين فى مناطق تبعد عن « حرم » المحمية الطبيعية ، وهذا ما نفذناه حرفيا فى رأس محمد . .

(أ) تم تحديد حرم بحرى للمحمية والتى قامت بها القوات البحرية المصرية بعمل مسح بحرى للمحمية وتم الإعلان الدولى لذلك .

(ب) يتم العمل فى تحديد مدخل للمحمية يتمشى مع البيئة والطبيعة ، وكذلك تحديد منطقة آمنة « حرم برى » للمحمية لا يسمح بأى حال من الأحوال بالبناء داخلها .

(جـ) تم رصف طريق برى يسهل المرور والدخول حتى منطقة الحرم للمحمية .

(د) إبعاد المنطقة المحمية تماما عن مركز استقبال الزائرين ، ووضعت لها شروط مشددة للزيارة ، واحتفظنا فيها بكل مالها من صفات طبيعية بكر ، ولم نسمح بأى إنشاءات داخل منطقة المحمية .

(هـ) يتم إنشاء مركز استقبال بحرى مزود بمحطة ميدانية لاستمرار الحفاظ على صفات المحمية النادرة .

(و) يتم إنشاء مركز استقبال الزائرين بعيدًا عن المحمية متضمنا مجموعات شرائح وأفلاما وكتيبات عن الصفات النادرة للمحمية ، وقد تم تصميمه على شكل محارة متمشيا مع الوضع الطبيعى لهذه المنطقة النادرة .

(ز) اعتبارًا من شهر مارس القادم سيقيم بالمحمية خبير دولى متخصص للإقامة الدائمة بشرم الشيخ للإشراف على تنفيذالبرنامج المقترح والمرفق مع تجهيز المحمية بتلسكوبات تمكن الرؤية للمشاهدين من مناطق مشاهدة محددة .

أما باقى المناطق الطبيعية فلم يتم فيها حتى الآن أى إنشاءات أو تدخلات تسيء لصفاتها الطبيعية من قريب أو بعيد ، ولكن القرار الذى تم اتخاذه كان للحفاظ عليها وإن شاء الله سيتلوها أخرى وأخرى حفاظًا على كنوز مصر النادرة » .

« ولسيادتكم خالص شكرى وتقديرى »

ثم جاءنى الرد من اللواء محمد نور الدين عفيفى يؤكد فيه . .

« لم . . ولن يتم إنشاء فنادق أو مطاعم أو رصف طرق داخل حدود المحمية . . وإن ما تم رصفه هو الطريق الرئيسى خارج المحمية ولهدف تقصير المسافة بين مدينة شرم الشيخ والمحمية ، ومن أساسيات الحفاظ على الشكل الطبيعى للمحمية الإبقاء على مظاهر البيئة الطبيعية داخلها » .

وفى مصر هيئات علمية عالمية كثيرة تهتم بالحيوانات المصرية . . بل وتسجيل الحيوانات التى فى الحديقة . . وأهم من ذلك بنقل الحيوانات من حدائق مصر إلى حدائق أوروبا وأمريكا . . وذلك لتنويع السلالات وحتى لا تضعف لأنها تتزاوج من بعضها البعض لسنوات طويلة . . والزواج من الأقارب يضعف النسل ، فى الحيوان والإنسان أيضا . . ومن المألوف أن تجد عالما أمريكيا جاء ليأخذ معه حمارًا مصريًا ، ويأتى بحمار أمريكى . . حتى لا

تضعف الحمير المصرية ـ هذه مسألة علمية . . وهذا جزء من الاهتمام بحماية الحيوان صحيحًا سليما معافى . .

ولكن هذه الهيئات العلمية العالمية لا تلقى ما تستحقه من الاهتمام الشعبى أو الرسمى أو التربوى . .

وقد سمعت من أطباء حديقة الحيوان أن الأطفال كانوا يزفونهم فى الشوارع وهم يتابعون الطيور المهاجرة . . أو عندما كانوا يسألون الأطفال إن كان أحد منهم قد رأى عصفورًا أو غرابًا أو ثعبانا أو ثعلبا . والأطفال لا يفهمون معنى هذه الأسئلة . . ثم إن أحدا من الهيئات الشعبية لا يساعدهم ولا يقف إلى جوارهم والسبب واضح : لا يوجد وعى بيئى . . لا يوجد فهم لدور الأجهزة العلمية لحماية الحيوان والنبات . .

قال لى أحد العلماء المصريين إنه اندهش جدا عندما وجد مجموعة من الأطفال قد نصبوا مشنقة والتفوا حولها . . وإذا بالمحكوم عليه بالإعدام قط صغير برىء . . فما كان منه إلا أن وقف وأنقذ القط وكاد يضرب الأطفال وكادوا يقذفونه بالحجارة . . والتفت إلى أحد القيادات الشعبية مستنكرا . فما كان من هذا المسئول الشعبى إلا أن قال له : جرى إيه يادكتور عيال بتلعب . . يعنى جت على هذا القط . . هاها . . هاها . . والناس حوله : هاها . . هاها . .

وإذا كان هذا ما يفعله المسئول فلا لوم على الأطفال !

وتبقى القضية : كيف نجعل الحياة مقدسة . . كيف نجعل حرص الأطفال على كل ما هو حى ، حيوانا أو نباتا . . كيف لا نلمس ما لا نملك . . كيف لا نضع المسامير وأمواس الحلاقة فى جيوبنا لنمزق بها المقاعد فى السينما وفى المسارح وفى الأتوبيس والمترو . . ولا نمر بها على الأبواب والجدران والسيارات . . كيف نقضى على روح القتل والهدم والتخريب ـ هذه هى القضية التى يجب ألا تنفرد بالدعوة إليها حدائق حيوانات الجيزة . . فحماية مصر ليست مشكلة « حيوانية » . . ولكن حماية الحياة والجمال والصحة والسلام والسلامة والأسرة مشكلة مصر كلها . . مدارسها وبيوتها وصحفها وميكروفوناتها ومساجدها وكنائسها . .

والناس كثيرون الذين يحبون الحيوان والطيور والزهور . . والذين ينفضون التراب من فوق المقاعد التى لا يملكونها ، لأنهم يحبون النظافة ولا فرق عندهم بين مقعد يملكونه ومقعد تملكه الدولة . . فهم يحرصون على الذى لهم والذى ليس لهم . . ويحبون أطفالهم وأطفال غيرهم ، وكلابهم وقطط غيرهم . .

والمطلوب هو إقناع عام لكل أجهزة الدولة فى الداخل والخارج بأن تساعد الأجهزة المصرية

والدولية على حماية البيئتين البرية والمائية . . وليكن ذلك معلوما لدى كل الدول وكل سفاراتها فى مصر . وفى ١١/ ٦/ ١٩٨٨ بعثت إدارة المراسم بوزارة الخارجية المصرية إلى كل السفارات المعتمدة فى مصر تقول :

ونظرًا لما لوحظ فى رغبة العديد من السائحين القيام بزيارة الصحراء فى محافظات سيناء ومرسى مطروح وغيرها بغرض الصيد دون الحصول على ترخيص بذلك وتصريح من وزارة الزراعة التى هى الجهة المناط بها تنفيذ القوانين الخاصة بحماية البيئة . لذلك تكون وزارة الخارجية ممتنة تفضلكم باتخاذ ماترونه لازما لإعلام السائحين الذين يحملون جنسية دولتكم بها تقدم قبل قيامهم بزيارة المناطق الصحراوية بغرض الصيد والتنبيه عليهم بضرورة الحصول على موافقة مسبقة من وزارة الزراعة قبل التوجه لهذه المناطق للصيد » .

ومن الصدف أن نرى أخيرًا فى التليفزيون رسالة عمان ومن قبلها رسالة السعودية : كيف أنهم يحافظون على البيئة . . ياتون بالغزلان من أمريكا لإطلاقها فى صحارى السعودية ويأتون بحيوان المها الجميل ـ ٦٦ ذكرا وأنثى ـ إلى سلطنة عمان ويطلقونها فى أماكنها الطبيعية ـ فى الوقت الذى نعمل جاهدين على انقراض الحيوانات المصرية . .

قال لى د. السيد جامع الخبير المصرى فى حماية البيئة إنه عندما ذهب إلى « محمية علبه » على البحر الأحمر لم يجد نعامة مصرية واحدة ! وكانت فى هذه المنطقة أكثر من مائتى نعامة من الذى قتلها ؟ إنهم الصيادون من البلاد العربية التى تعلن عن صدق ، أنها مهتمة جدًا بحماية بيئتيها الحيوانية والنباتية ؟!

شرم الشيخ : أجمل شواطئ مصر !

تعال ورائى وأنا أدلك على أجمل شواطئ مصر كلها . . إنه جنوب سيناء . . وأجمل ما فى جنوب سيناء شرم الشيخ ، وأجمل ما فى شرم الشيخ قراها السياحية الطويلة العريضة التى يتبارى فيها المهندسون والفنانون . . وأجمل ما فى هذه القرى شبابها .

يريدون أن ينغرسوا فى هذه الأرض هم وزوجاتهم وأولادهم . . يريدون أن يتحولوا من موظفين إلى أصحاب مشروعات . . من سكان إلى مالكين للأرض . . ومن مالكين إلى أصحاب رسالات لكل شباب مصر يقولون لهم : هنا يولد أمل مصر فى الخلاص من قرف العواصم الكبرى . وأسوؤها جميعا القاهرة . . فكل شىء فيها زحام وضوضاء . . وكل أنواع التلوث : الصوتى والضوئى والفكرى . . أما هنا فكل شىء صحة وصفاء وجمال وفلوس ومستقبل . . وكل الدنيا تجىء إليك . . والحياة هنا إيقاعها أهدأ ، ونفسها أطول . . وكل شىء صريح . . فهذا الممتد أمامك هو البحر . . والذى تحتك شعب مرجانية . . والذى وراءك جبل . . جبل موسى وعيون موسى وحمام موسى . . والطريق الذى تاه فيه موسى وبنو إسرائيل أربعين عاما . . وهنا تجلى الله لموسى . . وهنا نزلت الوصايا العشر . . وهنا أمطرت السماء المن والسلوى . . والمن نبات مثل السكر . والسلوى هى طائر السمان . . وهنا تمتد البحيرات المرة حيث شق موسى البحر بعصاه . . ويقال إنه جاء من ناحية المنيا إلى رأس محمد . . ورأس محمد ، شبه جزيرة وإحدى قمم الجمال العالمى . . وأعماق الفتنة الحيوانية والإنسانية . . وهنا ملتقى الغواصين من جميع أنحاء العالم . . وفى العالم كله ١٦ مليون غواص آه لو جاءنا ربع هذا العدد كل سنة ؟

وفى العام الماضى جاء اليابانيون وتمنوا للعالم كله يوم رأس السنة سنة سعيدة . . قالوها من تحت الماء والأسماك من كل لون وحجم مفردات وعبارات جميلة تكتب هذه الأمنية السعيدة بعيونها وقروشها وزعانفها بأجمل الألوان وأعمق الأنوار . .

وعلى الناحية الأخرى شواطئ الغردقة الجميلة . . الشاطئ هناك مستقيم والقرى السياحية

متراصة الواحدة إلى جوار الأخرى صفا واحدا فى استعراض معمارى هادئ بديع . . ولكن الجبال الأروع هنا فى جنوب سيناء . . إنها محافظة الجبال والشواطئ . . فلا توجد صحارى فى جنوب سيناء . . والشاطئ يدخل ويخرج ويبرز ويتوارى . . والصخور فوق حمراء داكنة . . والصخور تحت فى الماء جزر صنافير وتيران . . والشاطئ يتعرج ويتعوج ويعتدل ، ثم يعلو ويتعالى ، ويجرى متواضعا نحو الشاطئ كأنه يركع ويسجد لجلال الله فى الماء وتحت الماء . . والشواطئ والجبال تتلاقى وتتخاصم . . والقرى السياحية واسعة ممتدة . . وكلها أحضان للهضاب . . وقبلات للماء . . والسماء ستائر شفافة والرمال غلالة ناعمة . . كلها ترحب بالوافد من أى مكان . . فكما إن الجمال هنا ، والجلال هنا ، فالأمان أيضًا .

ضع على أذنك أية قطعة حجر وأنت تسمع ملحمة جنوب سيناء . . صدق كل الذى ترى ، وكل الذى تسمع . . فإذا أمضيت يوما هنا ، بهرك كل شىء . . فإذا أمضيت يومين . . فأنت لم تعد تدرى شيئًا . . فكل ما تقع عليه عيناك جديد فى جديد . . لقد جئت هذه المنطقة أيام الاحتلال الإسرائيلى . . بهرتنى الأشجار القليلة هنا وهناك . . وقلت : إنهم يزرعون الصحراء . . فكيف لم نفعل . . والطرق طويلة مرصوفة . . وقلت : إنهم يرصفون الصحراء فكيف لا نفعل . . وهنا فندق صغير فوق ربوة . . النوافذ كأنها « مزاغل » . . والفندق كأنه قلعة . . لقد كانوا يستحمون والسلاح فى أعناقهم . طبيعى ، فالأرض ليست لهم . . وإنهم لخارجون اليوم أو غدا أو بعد غد . . لا محالة !

وقد امتلأت مدينة « الطور » العاصمة ، بالشوارع الجميلة ، والمطاعم المعلقة ، والشواطئ الأنيقة ، ومكتبة الأطفال ، أكبر مكتبة فى أى مكان فى مصر . . ومطلوب أناس من مصر إلى هذه المدينة الفاتنة . . وكانت مدينة الطور هى السجن الرهيب المخيف لمصر كلها . . لعتاة المجرمين . . إن مدينة الطور الآن ليس بها سجن . . ولا سجن فى جنوب سيناء !

أما الخارجون على القانون ، وما أقلهم ، يبعثون بهم إلى الزقازيق . . هنا فى مدينة الطور كان الحجر الصحى للمساكين المسافرين إلى بيت الله الحرام ، لابد أن يحبسوهم حتى تظهر عليهم أعراض المرض . . فإذا ظهرت حبسوهم مرة أخرى . . لقد دخلت مدينة الطور فى شكل معمارى جميل وثقافى شامل ـ إن مسرحها الحديث يتسع لثلاثة آلاف نسمة ـ أى نصف سكان المدينة . .

وما أكثر الاستراحات فى جنوب سيناء . . كأن لديهم إحساسا بأن المشوار طويل والرحلة مرهقة ، ولذلك تعددت الاستراحات الأبهة ـ أقصى درجات الإغراء لعل أحدا يذهب . وإذا ذهب سوف يندم على أنه لم يفعل ذلك من قبل !

والمدن الأخرى : دهب ونويبع وطابا وسانت كاترين ، كل واحدة لها جمال خاص . .

قلت للصديق نور الدين عفيفى محافظ جنوب سيناء ، وأحب أهلها إليها : إن الشباب لهم مشكلة : يريدون أرضا . يريدون أن يبقوا هنا . . الشباب يريد مساكن . . لقد قرروا ألا يعودوا إلى القاهرة والإسكندرية وبقية المحافظات !

إن المحافظ يبنى ويوزع الأرض على من يريدها . . إنه لا يضع شروطا تكسر الرقبة والوسط . إنه يريد الأرض أن تتغطى بالبيوت والأشجار ، ويريد الأطفال أن تملأ كل مكان. . ولكن الأموال التى فى يديه قليلة . صحيح أن هناك وسائل « محدودة » لإغراء المواطنين بمضاعفة مرتباتهم ، وتقديم السكن لهم بما يعادل ٧٪ من المرتب . . ولكن المحافظ فى سباق مستمر مع الراغبين فى البقاء والازدهار ـ كما يقول الأخوة العرب ـ أى التناسل . .

وكنت قد أشفقت على المحمية الطبيعية فى « رأس محمد » بعد أن تلقيت بلاغات وشكايات دولية بأن رصف الطرق وتكديس الأسمنت قد أصابا رأس محمد بالصداع . . وإن العنف فى الرصف والبناء سوف يقضى على المحمية من فوق ـ من نبات المانجروف الذى يعيش على الماء المالح . . ومن تحت أيضا : يخنق المرجانيات والأسماك وبقية الكائنات الصغيرة فى مياه خليجى السويس والعقبة . . وإن رأس محمد سوف يصبح مقبرة لملايين الملايين من الكائنات التى عاشت وتوالدت فى ملايين السنين . . وإنها أكبر فضيحة فى تاريخ الحياتين النباتية والحيوانية ، ووصمة عار فى حاضر مصر الحديثة المتعلمة المليئة بالعلماء أيضًا . .

ولكن أكد لى د. المحمدى عيد رئيس جهاز حماية البيئة ، أنه لا خوف على المحمية وعلى مصر أيضًا . . وأنه يستعين بأكبر العلماء لدراسة وحماية المحمية . .

وأكد لى المحافظ نور الدين عفيفى ، أنه لم ولن يمس جمال الطبيعة فى هذا المكان ، فإن لم يزدها جمالا ، فلن يجرح كبرياء وشرف مصر وعلمائها . .

قلت : أريد أن أرى . .

قالوا : وحدك اذهب واحكم . .

ذهبت . فعلا وجدت شكائر أسمنت . .

قلت : آه . . هنا !

قالوا : ولكن هذا خارج المحمية !

وذهبت إلى أبعد ووجدت بلدوزرات لوريات وإكشاك المهندسين والعمال . .

قلت : إذن هنا بداية هدم المحمية على رءوس كائناتها الجميلة !

قالوا : ولا هنا . . فنحن ما نزال خارج المحمية !

وتوقفت . وقالوا إنه يجرى بناء بوابة جميلة الشكل . . ورأيت نموذجا لها قد اتخذ شكل الصخور الموجودة فى الجبال والهضاب . . والبوابة بعيدة تماما عن حدود المحمية . . والأسمنت الذى يستخدمونه مغطى حتى لا يتطاير مع الهواء ويهبط إلى الماء فيخنق المرجانيات . . وظهر المصورون من تحت الماء . وظهرت المصورات . . ومددت يدى إلى أشجار المانجروف ـ واسمها نبات الشورى ـ وقطعت ورقة ووضعتها على لسانى . . إنها مغطاة بطبقة من الملح الناعم . . وهذا النبات هو معجزة المستقبل الزراعى فى العالم كله . . فلو عرفنا كيف يعيش هذا النبات الاستوائى على الماء المالح . . وكيف يتخلص من الملح ويعيش على الماء الحلو . . إن هذا النبات هومصنع لتحلية مياه البحر . . لو عرفنا سره لزرعنا الصحراء كلها بماء البحر ـ ولكن العلم لم يهتد بعد إلى هذا اللغز الإلهى !

وهناك مناطق من الجبال والهضبات تعيش فيها أعداد قليلة من الحيوانات البرية هى أيضا فى حاجة إلى حماية . ويقوم البدو بحمايتها من بعضها البعض ومن الإنسان .

والناس يتحدثون ـ أيضًا ـ عن الخواجات الذين هم أكثر احتراما لكل شىء جميل وللنظام عن المصريين . . فيجدون العجوز تمشى تحت الشمس نصف ساعة لكى تضع زجاجة فارغة فى صندوق زبالة ، بينما الشباب المصريون يدفنون العلب فى الأرض ، فى أى مكان ؟!

وعندما تجد كوما من الزبالة فى هذا المكان الجميل يقولون لك ويمطون الشفاة ويهزون الأكتاف : طبعا كان هنا شوية طلبة ؟!

ويتحدث رواد قرية الفيروز هيلتون عن طبيب القرية الذى ضبطوه يصطاد سمكا ملونا من البحر وهو ممنوع قانونًا . . فما كان من مدير الفندق الفرنسى إلا أن هاجمه وانتقده بعنف أمام الناس . . ثم أرغمه على أن يعيد السمك الملون إلى البحر !

ويتساءل الناس : هذا مصرى متعلم يعتدى على البيئة ، وهذا أجنبى يحميها ويلقنه درسا فى احترام القانون !

وهذه « مدرسة البيئة » كان قد أقامها علماء إسرائيل ، مكانا متواضعا لبحث ظروف البيئتين النباتية والحيوانية . . وهى الآن تابعة لجامعة قناة السويس . . وسوف يهدمونها ليقام فوقها وحواليها أعظم الفنادق بأموال أبى ظبى . . والمنطقة كأنها نقلت من خليج المكسيك . . أو إن خليج المكسيك تقليد للهضبات والجبال . . والخليج والساحل الناعم الذى يطل على العقبة والسويس والبحر الأحمر وجبل الطور . . وبعدها مساحة من الأرض سوف يملكها مواطن عادى ويبنى قرية لمجموعة من الشبان والشركات . . وهنا أرض لعشرة من المهندسين الشبان والفنانين . . وهنا أرض لتجار الفضة والنحاس . . وهنا أجمل وأوسع قرية سياحية تديرها الشركات الألمانية تمتد من الجبل إلى البحر . . وهذا موتل صنافيرالعربى الطراز بذوقه

الفريد . . وهنا وهناك يلتقى الجمال والأناقة والبساطة والأمل والاستقرار والإيمان بالمستقبل السياحى والسكانى لهذه المنطقة الفاتنة . .

ولا يوجد طريق صحراوى أو زراعى فى مصر كلها تعددت فيه علامات المرور ذهابا وإيابا كهذا الطريق بين نفق الشهيد أحمد حمدى حتى طابا (٨٠٠ كيلو متر) .

وقبل أن تصل إلى طابا يوجد هذا التل الناعم الذى انطلق فيه رصاص الجندى سليمان خاطر على أطفال صغار فقتلهم . . إن هذه المنطقة فى صميم مصر ، بعيدة ٤٦ ميلا عن الحدود المصرية . تماما كأن هؤلاء الأطفال قد تسللوا إلى نقطة بوليس قصر النيل أو الجيزة . . إلى مكان فى قلب مصر ؟! وأخيرًا قضت المحاكم المصرية بالتعويضات لعائلات الضحايا . .

ثم طابا (٢٥٠ فدانا) وفيها فندق سونستا الذى يملكه بابا شادو المصرى الأصل . . سألنى مدير الفندق : ما رأيك ؟ قلت : مخنوق يا أخى . . السقف أسود . . والشرفة صغيرة . . وكل شىء فى الفندق « مزنوق » . . والسبب أنكم تريدون استغلال كل شبر . . ثم إن الواجهة البحرية ضيقة جدًا . . وهذه القرية المحشورة فى الفندق والتى تسمونها «الشاطئ الخاص » للعراة . . صغيرة جدا أيضا . .

قال : يعنى لا يعجبك ! لماذا لا تقنع أهلك وناسك بأن يتركوه لنا ؟!

قلت : صحيح إنه صغير . . ولكنها مساحة من السيادة المصرية ، لا يملك أحد أن يفرط فيها . . حتى لو كانت موطئ قدم . . وأنتم أيضًا تحاولون زحزحة الخط الممتد من العلامة ٩١ إلى البحر ، تحاولون أن تجعلوها ناحيتنا لتكسبوا بضعة أمتار ؟!

حتى شواطئ مدينة إيلات ضيقة . . والناس هناك ينزلون إلى البحر عراة تماما . . معظم السيدات بلا سوتيان . . والشوارع صغيرة والبيوت من دورين لا أكثر . . والميناء ضيق . . وسوف يسحبون المراكب إلى الداخل . . ولكن سكان مدينة إيلات كلهم من الشباب . . وفيها الآن انتخابات جديدة لاختيار رئيس المدينة . . المرشحون لا تزيد أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاما ؟ . . والدولة تعفى السكان من معظم الضرائب لكى يقيموا فى هذه المناطق الصحراوية النائية ـ وهذا ما يجب أن نفعله نحن أيضًا فى جنوب سيناء ـ إذا أردنا أن نزرع سيناء بالشباب والحماس والعلم والمستقبل .

والشباب المصرى هنا متحمس جدا . . ولا شىء يمكن إنجازه بغير حماس . . ولا شىء أيضا يمكن إنجازه . إذا لم يكن لدينا إلا الحماس ؟

فالحماس هو موتور السيارة ، ولكن لابد من قائد يعرف ويخطط ويصمم على الهدف . .

ونحن يجب أن نلتقط حماس الشباب بسرعة ، فليس أسهل من أن يخمد حماسنا . .

والطريق إلى الفشل محفوف باللامبالاة .

وفى مرحلة الشباب نحن نتغلب على الصعوبات ، وفى الشيخوخة تغلبنا الصعوبات . .

ومن الغريب أن المسافة بين الشباب والشيخوخة قصيرة جدا ـ انظر إلى الوزراء قمة الجهاز التنفيذى ـ كيف كان شكلهم يوم حلف اليمين ، ثم اليوم . . بسرعة شاخوا وابيضت شعورهم ، وشحبت وجوههم ، وغارت عيونهم ، ماذا حدث ؟ إنه العمل المرهق ، وهو مرهق . لأن الوزير والمدير والرئيس يضعون كل السلطات فى أيديهم ، ولا يوزعونها على معاونيهم . إنها البروقراطية المركزية التقليدية . . ومن هنا كانت الإدارات والوزارات فوق دماغهم ، وليسوا هم الذين فوقها يديرونها ويوجهونها من أعلى . .

سألوا مدير أكبر شركة أمريكية وهى شركة « جنرال موتورز » كيف تدير هذه الإمبراطورية التى تربح ألوف ملايين الدولارات كل سنة ، وأنت تتنقل بين مصايف أوروبا وجزر هاواى . . فأجاب : تفسير هذا اللغز هو أننى نجحت فى اختيار الذين يساعدوننى . . وهم نجحوا فى اختيار معاونيهم !

فليس العبء كله فوق دماغه لوحده ـ ولذلك نحن ننتقل من الشباب إلى الشيخوخة أسرع مما تقوله لنا نتيجة الحائط وشهادة الميلاد . .

ولذلك يجب أن ندق الحديد وهو ساخن . . أى ندقه لكى نجعل له شكلا ، وهدفا أيضًا . . والحديد الساخن هو الشباب المتحمس ـ قبل أن يبرد ويفتر ولا يبالى ـ ويقول : وأنا مالى . . وهوه أنا اللى حاصلح الكون ؟!

والحقيقة أنه هو الذى سوف يصلح الكون المصرى . . لأنه هو وحده مستقبل هذا الكون . . والشباب هنا مفتون بالحركة المتجددة والطائرات ملآنة بالسياح والأتوبيسات . . حيوية وشباب وفلوس . . وهو يريد أن يقفز بسرعة من موظف إلى صاحب عمل وينافس الشركات الكبرى ذات المندوبين والعملاء والفروع فى كل الدنيا . . إنه حماس وشباب . . ويجب أن نعطيه كل فرص العمل وفرص الكفاح . . والباقى عليه . .

* * *

أما عدد المسئولين عن حماية هذا الجمال الإلهى فقليل جدا . . وهذه الشواطئ الطويلة العريضة العميقة تحتاج إلى عيون ساهرة . . واعية مهذبة أيضًا . . .

سوف يجيء خبراء من دول السوق الأوروبية المشتركة لإدارة هذه المحمية ومراقبة أن تظل محمية مصونة لمصر وللعالم كله . . وتكون أيضًا على صلة بكل الهيئات العلمية . وبالذين

يجيئون ليصوروا تحت الماء . . ويدرسوا ويبحثوا ـ فما أكثر الأسرار التى أودعها الله فى أصغر مخلوقاته تلك التى تصنع الشعب المرجانية مأوى رائعًا لكائنات أخرى تستدرج كائنات أكبر . لتستدرج كائنات أكبر ، لتعيش الحياة على الحياة . . ويتحقق بذلك العدل الإلهى . والتوازن الكونى ، وانسجام السماء والأرض ، فى سيمفونية الجمال والجلال . . وليس الإنسان إلا واحدة من نغماتها الشاذة الناشزة أحيانا ، العاقلة المتكاملة أحيانًا . .

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . . وكل فى فلك يسبحون» سبحان الله . .

ولايزال القتل مستمرًا بتصريح من الدولة؟!

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يتكاثر ويتضاعف عدده . . بينما الحيوانات الأخرى تتناقص وتنقرض . . والإنسان هو أحد أسباب القضاء على هذه الحيوانات . . ونحن لا نعرف كم كان عدد سكان الأرض قبل طوفان نوح عليه السلام . وإن كنا نعرف عدد الذين ركبوا مع سيدنا نوح . . كانوا سبعين أو ثمانين . . ومن هذا العدد القليل توالدت الإنسانية مرة أخرى . . حتى أصبحت ستة آلاف مليون . .

أما عدد الحيوانات ، فلا نعرف كم كان عددها . وكم هو الآن . . ولكن من المؤكد أن النقص مستمر . . مثل واحد أذكره عن طيور السمان التى تهاجر إلى بلادنا فى الخريف . . فتهبط على سواحل البحر الأبيض وفى شمال سيناء . . فطائر السمان أو « السلوى » هو الذى أنزله الله من السماء لإنقاذ بنى إسرائيل من الجوع عند خروجهم من مصر فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . . لقد انهال عليهم السمان كثيرا وتكدس أمامهم ووراءهم .

جاء فى سفر « الخروج » : السلوى صعدت وغطت المحلة . .

وجاء فى سفر « العدد » : فخرجت ريح من قبل الرب وساقت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ، ومسيرة يوم من هناك ، حوالى المحلة ، ونحو ذراعين فوق وجه الأرض . . فقام الشعب كل ذلك النهار ، وكل الليل وكل يوم الغد ، وجمعوا السلوى .

وجاء فى سفر « المزامير » : . . وأمطر عليهم الرب لحما مثل التراب ورمل البحر طيورًا ذوات أجنحة . . فأتاهم بالسلوى وخبز السماء أشبعهم . .

أى أن الملايين من طيور السمان قد سقطت على مساحة كبيرة من الأرض بارتفاع ذراعين وراح بنو إسرائيل وعددهم بعشرات الآلاف يجمعون هذه الطيور أيامًا !!

ويقول القرآن الكريم : « يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . ولا تطغوا فيه فيحل عليكم

غضبى . . ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . .

فالله قد أنزل عليهم السمان وأنزل عليهم المن أى « عسل الندى » وهى بلورات عسلية تتساقط من أشجار الطرفاء النيلية . .

ولو وضعنا الشباك الآن فى نفس الأماكن التى سار فيها بنو إسرائيل ، فإن هذه الشباك لن تحتجز إلا بضع مئات من السمان . . فماذا حدث ؟

حدث ما نعرفه فى البر والبحر . فالإنسان قد أهلك الطيور باستخدام المبيدات الحشرية . . وأبادها بالصيد العنيف . فانقرضت طيور وحيوانات مصرية كثيرة . وأصبح الباقى نادرًا . ولذلك أصدرت مصر القوانين التى تحرم الصيد والقتل والتعذيب وتصدير هذه الحيوانات والطيور والزواحف حية أو ميتة . .

فالمادة ١١٧ من القانون ٥٣ لسنة ١٩٦٦ تنص بوضوح على حظر صيد الحيوانات وقتلها وإمساكها بأية طريقة . . وحظر حيازتها أو نقلها أو التجول بها أو بيعها أو عرضها للبيع حية أو ميتة .

وكذلك ينص القانون أيضًا : لا يجوز استيراد ملكات النحل وبيض دودة الحرير أو بيعها أو الاتجار فيها إلا بترخيص من وزارة الزراعة . .

والحيوانات والطيور المحظور صيدها هى النافعة . . صديقة الفلاح مثل : العصافير والزرزور و « أبو » منجل والغراب و « أبو » قردان والبلبل والبلشون والكروان والهدهد إلخ . أما الحيوانات المحرمة تماما فهى : الكبش الجبلى والغزال والفهد والنسر والتمساح والنعام .

والقانون قد حرم نهائيًا صيد أى نوع من أنواع الطيور أو الحيوانات عند مرسى مطروح . . وفى سنة ١٩٨٢ حرم القانون تحريما قاطعا إعطاء أى تصريح بالصيد عند مرسى مطروح . .

وبهذه القوانين والهيئات التى تشكلت لحماية البيئة ، أصبحت مصر واحدة من الدول المتحضرة التى تحترم حياة الحيوان . . وتحترم القيمة التاريخية والجمالية والاقتصادية للطيور والحيوانات . . ومعنى ذلك أن مصر قامت بما هو أعمق من ذلك ، بالدعوة لحب الحياتين الحيوانية والنباتية بين المواطنين وبين تلاميذ المدارس . فحب الحياة هو الذى يجعل الإنسان يحرص عليها وعلى نفسه . . فلا يعذب ولا يقتل ولا يدمر . . وبذلك ينغرس فى أعماق الطفل حب كل ما هو حى وكل ما هو جميل . .

ولكن القوانين التى تصدر فى وزارة الزراعة لا تعرفها وزارة الداخلية وتجهلها الخارجية والإدارات المحلية . . كأن وزارة الزراعة تعمل فى مكان آخر غير مصر ، أو كأنها لا تخاطب إلا

النباتات والحيوانات . . ولا علاقة لها بالإنسان . ولذلك ارتكبت الهيئات الأخرى مخالفات صارخة دموية . لأن أحدًا لا يدرى بهذه القوانين ، أو لأن أحدًا لا يعنى كثيرًا بحياة الحيوان والنبات ، مهما كانت نافعة للإنسان . .

وقد تقدم اثنان من الخبراء د. سيد متولى جامع ود. عبد الوهاب خدام بشكوى عاجلة . فقد وجدا عند البحر الأحمر ١٥٠ صيادا برفقة أحد سياح الخليج . . ومعهم أسلحة نارية وترسانة من الذخيرة والسيارات والخيام . . جاءوا يصيدون النعام والماعز الجبلى والغزلان ؟!

ومعهم تصريح بالصيد صادر من حرس الحدود ومن المخابرات الحربية ؟!

ووجدوا صيادين آخرين من الخليج ومعهم أسلحة نارية . . جاءوا يصيدون فى هذه المناطق المحرمة تماما ؟

أما هذه الشكوى فقد بعث بها الخبيران إلى مدير حديقة الحيوان الذى يجب أن يرفعها للسيد الوزير ، والسيد الوزير يعيدها إلى السيد الوزير المحافظ الذى يحيلها إلى وزير الداخلية ثم إلى المخابرات العسكرية ـ وكأن قانونا قاطعا لم يصدر ولم ينشر !

وقبل ذلك بعام واحد بعث مسئول الأمن بوزارة الخارجية إلى مسئول الأمن بوزارة الزراعة يطلب إليه اتخاذ اللازم نحو الموافقة على التصريح لعدد من الصيادين من دول الخليج ؟!

فما كان من مسئول الزراعة إلا أن طلب أسماء الصيادين ـ كأنه هو الآخر لا يعلم أن قانونا صدر بمنع أى أحد من الصيد . .

والخطاب المرسل من الخارجية يطلب التصريح لصيادين من الكويت . . ولكن الأسماء المرفقة لصيادين من السعودية !!

وهؤلاء الخبراء وأعضاء الأجهزة الرسمية لحماية الحيوانات البرية أعطاهم القانون حق الضبطية . أى إنه إذا رأى عدوانا على القانون فإنه يتقدم بسرعة ويوقف الصيد ويسوق الصيادين إلى الشرطة والنيابة .

أما العقوبة لمن اصطاد نعامة بعشرة آلاف جنيه أو صقرًا بعشرين ألفا ، فهى عشرة جنيهات !!

أى إن هذا هوالعقاب الصارم الذى يضعه القانون للصياد والذى جاء ومعه ١٥٠ مرافقا وسيارات وذخيرة ليقيموا شهرا فى الخيام المزودة بالثلاجات والمطابخ والتليفزيونات ليتكلفوا مليون جنيه ـ تصور !!

وأكثر وأعنف من ذلك هناك عقاب بجنيه واحد لبعض المخالفات ؟!

فمن الذى لا يدفع هذا المبلغ التافه ولا يقتل كل حيوانات مصر شرقا وغربًا ؟!

ثم إن هؤلاء الخبراء الذين لهم حق الضبطية القضائية لا عندهم فلوس ولا عندهم ضمان ولا أمان . وإذا أرادوا أن ينتقلوا لن يجدوا السيارة . . وإذا وجدوها فمن الذى يملؤها بالبنزين ـ مع أن مصر تتلقى ملايين الدولارات والجنيهات لحماية البيئتين البرية والبحرية أيضًا !

ثم إن وزارة الزراعة ليست هى الهيئة الوحيدة التى تطبق القانون أو تلفت النظر إلى ذلك وإنما هناك هيئات أخرى منافسة أو معاكسة . . وأمام هذه الازدواجية ، فى تطبيق القانون أو تعطيله يحار محافظ الإقليم . . وأخيرًا يريح دماغه ويوافق على ما يراه هو صالحا للسياحة أو الدعاية . .

وأذكر أننى شخصيا تلقيت من عشر سنوات برقية من باحثة أمريكية تصرخ بأعلى صوتها أن الجنود المصريين عند رأس محمد يصيدون الأسماك النادرة بالديناميت . . وأن البحر هناك يتحول إلى بحيرة من الدم . . ثم يتحول إلى بقعة كبيرة سوداء من العار . . إذ كيف يحدث ذلك فى مصر وأن يسكتوا عن ذلك ؟!

أما الأسماك والشعب المرجانية فى « رأس محمد » فمأساة أخرى !

ونحن لا نعرف بالضبط ما الذى فعله الصيادون برا وبحرا فى المناطق « المحمية » إلا عندما يعودون إلى بلادهم . . وتنشر الصحف صورهم ومغامراتهم . . فمثلا نشرت الصحف فى مالطة أخيرًا أن عشرات الصيادين قد عادوا سعداء جدا من رحلاتهم فى مصر . . فكل واحد قد اصطاد أكثر من مائتى عصفورة !! أى إنهم جاءوا إلى مصر ووافقنا على أن يقتلوا ألوف العصافير المحرمة آكلة الديدان صديقة الفلاح . . إنهم لم يقتلوا العصافير ، وإنما اعتدوا على كل القوانين التى وضعناها لحماية البيئة . . ولم يفعلوا ذلك سرا ولكن علنا وبموافقتنا على ذلك!

وقد رأيت فى « رسالة المملكة العربية السعودية » التى يذيعها التليفزيون المصرى كيف أن الحكومة السعودية قد اشترت عددا من الغزلان النادرة لتطلقها فى بيئتها الطبيعية . . لأنها توشك أن تنقرض . . ولا أظن المملكة السعودية ستوافق لأى صياد مصرى أيا كان اسمه . على صيد هذه الغزلان العربية النادرة !!

هذه الغزلان قد عاشت قبل ذلك فى المكسيك . . وراقبها الخبراء ودرسوها ورأوا أن انتقالها إلى الصحارى السعودية ، هو عودة إلى البيئة المناسبة . . وأنهم سوف يتركونها تتزايد ـ أما الصيد فممنوع تماما !

وقد نشرت مجلة « فستو » الإيطالية أن صيادا وزوجته واثنين من أولاده قد ذهبوا إلى منطقة

البحر الأحمر وإنهم أفلحوا فى صيد عدد من الغزلان الجبلى .. ولكن الأهالى منعوهم من سلخ هذه الحيوانات .. أما البوليس فقد أخلى سبيلهم ، لأن معهم تصريحًا بذلك ؟!

ولقد أسعدنى كثيرًا أن أجلس إلى عدد من الخبراء الشبان فى ندوة علمية جادة . إنهم قد درسوا فى مصر وفى الجامعات الأجنبية .. تخصصوا وأخلصوا .. ولكن : لا حياة لمن تنادى كما قال الشاعر القديم . لأن أحدًا لا يستمع إليهم أو يقرأ شكاواهم .. وإذا كانت السلطات على الحدود لا تعرف من هى الجهة التى يحق لها أن توافق أو تعارض ، لتعدد الجهات وتضاربها ، فإنهم أيضا أكثر حيرة .. ومن الذى يستمع إلى من يطالب بحماية الثعابين ، والناس يبحثون عن الرغيف الطباقى .. ومن الذى تهمه حماية أبى قردان والقرود والكلاب والسحالى ، بينما الأصوات تتعالى دفاعا عن المواطنين الذين ضاعت أرزاقهم فى شركات توظيف الأموال .. مع أنه لا تعارض . فنحن جميعا نطبق القانون لحماية الإنسان من الإنسان والحيوان من الإنسان . بل إن حماية الحيوان هى دعوة عميقة لحماية الحياة : حياة الإنسان والحيوان والنبات . فالذى يقتل النبات هو قاتل الحيوان هو الذى يستهين بروح الإنسان ..

ويوم وقف الناس فى ميدان سليمان باشا فى الخمسينيات يتفرجون فى ذهول على أستاذ إنجليزى فى آداب القاهرة ، وهو يمسك رقبة عربجى ويجرجره إلى مركز الشرطة .. اندهش الناس جدا : كيف أن خواجة يتدخل بين عربجى وحصانه .. فالعربجى قد ضرب الحصان بالكرباج .. والخواجة يرى أن هذا الضرب لا مبرر له .. إذ يكفى التلويح والتهديد .. وإنه شخصيا لا يطيق هذه القسوة ولن يسكت عليها .. والناس تدق كفا بكف وتقول له : وأنت مالك ؟ يا أخى واحد يضرب حصانه .. يقتله ويشرب من دمه .. وأنت مالك ؟

ولكن الخواجة يؤكد أن كل قوانين الدنيا تحمى الحصان من الضرب والعنف والوحشية .. وإنه هو مندهش كيف أن الناس تقف مع العربجى المتوحش ضد الحصان المسكين !!

إننا ما نزال ياخواجة نقف مع الصياد المتوحش الذى وافقنا على وحشيته ، ضد الطيور النافعة والحيوانات النادرة !

* * *

لم أشأ أن أقول لهؤلاء الخبراء الذين جلست إليهم إن هناك نكتة تصور حالهم .. يقال إن عفريتا تقدمت به السن حتى أصبح عاجزًا عن الحركة .. فرأى طفلاً صغيرًا فناداه : تعال يا ابنى .. خد إيدى .. علشان أقوم أخوفك !

إن أحدا يجب أن يأخذ بيد هؤلاء الخبراء الذين لا قوة لهم لكى يتمكنوا من تخويف الصيادين وتخويف الذين أعطوهم التراخيص بمخالفة القانون !

ومن العدل أن نقول إنهم استطاعوا ضبط تمساحين صغيرين عند أحد تجار المعادى . . التمساحان اشتراهما التاجر من صياد فى بحيرة السد العالى . وجاء بهما إلى القاهرة لبيعهما إلى السياح . . فإذا كانت هذه أول ضبطية فنرجو ألا تكون الأخيرة !

الذين لم تعلمهم حدائق الحيوان!

الطفل الذى يحرص على ارتداء ملابسه كاملة وعلى ترتيب كتبه قبل ذهابه إلى المدرسة ثم يعود بسرعة إلى البيت لقد نسى شيئًا هاما . . نسى المسمار الذى يمر به على الجدران وعلى كل السيارات الواقفة . .

ثم هذا الشاب الذى يضع فى جيبه موسى حلاقة فإذا ذهب إلى السينما وانتهى الفيلم أخرج الموسى بسرعة ومزق الكرسى الذى جلس عليه واستراح . هذا الشاب هو الذى إذا ذهب إلى المكتبة العامة ليقرأ أحد الكتب نزع منه الصفحات ليقرأها فى البيت . وبذلك يحرم غيره من أن يقرءوا ثم إنه أفسد كتابا لا يملكه ، وإنما هو ملك للدولة ملك لكل الناس .

إنه نفس الرجل الذى يسرق اللمبات والكابلات وهو الذى يدخل المصعد مع أن بعض الموجودين قد نبهوه إلى أنه كامل العدد ، وأنه رجل متعلم وأنه يعرف أن لكل جهاز طاقة وعمرا ، ومع ذلك أصر على أن يكون الحمولة الزائدة !

وعندما يكبر هذا الطفل أو هذا الشاب فلا يهمه كثيرًا خراب مصر وضياع حقوق مواطنيها ، ولا يهمه كثيرا أن يقتل الناس : إن هذا الطفل أو هذا الشاب أو هذا الرجل لم يذهب إلى حديقة الحيوانات ولم يفهم معنى أن تقام للحيوانات حديقة . المعنى أن يتفرج وأن يضيف إلى معلوماته شيئًا جديدًا ، وأن يحب هذه الحيوانات ، فلا يؤذيها ولا يقدم لها طعاما . لأن التعليمات تحذر من ذلك ومن الواجب أن يحترم تعليمات الخبراء . وأن يحترم عالم الحيوان ومن أجل ذلك أيضًا كانت حدائق الأسماك نذهب ونتأمل جمال المخلوقات وأن نحبها وأن نحترم القانون . . ومن أجل ذلك أيضًا كانت حديقة الأورمان ـ حديقة النباتات النادرة نرى ونتعجب لعظمة الخالق . . وأن نحب الحياة فى الحيوان والنبات وأن نحترم حياة الناس وألا نعتدى على أحد أو شىء . وأن نحترم القانون دائمًا ، ولكن الذى رأى أباه يضرب الحمار ضربا عنيفا هو نفسه الذى لا يضيق إذا رأى أباه يضرب أمه وينهال على أولاده ضربا ويطردهم من البيت ومن المدرسة .

وإذا رأينا شبابا جامعيا يعودون إلى هذا المسار ويكتبون به أسماءهم وعبارات بذيئة فى داخل المعابد الفرعونية وعلى التماثيل التى لا يصح أن يمسها أحد ، أدركنا أن هؤلاء جميعا لم يتعلموا احترام القانون وجلال التاريخ واحترام الحياة ، وأنهم لم يتعلموا الذوق . ولم يفهم أحد منهم معنى الرحمة بالحيوان والنبات والإنسان . . وهم أيضا الذين إذا جلسوا إلى الطعام «ظلطوه» دون أن يروه ودون أن يتذوقوه . فهم لا يتذوقون المعانى . . ولم يتدربوا على أن لديهم حاسة جمالية . . فأى نوع من الناس هؤلاء ؟ إنهم الذين لم يذهبوا إلى حدائق الحيوانات والأسماك والنباتات . . أو إنهم ذهبوا فلم يفرقوا بين الحارة والحديقة . . ولذلك ما كان ينبغى لهم أن يخرجوا منها فهم حيوانات أسوأ من الحيوانات !

فمن أهم الأسباب التى تعمق الشعور بحماية البيئتين البرية والمائية أن يكون الأطفال والشباب قد تعلموا حب الحياة . . وحب الجمال . . والرحمة والذوق واحترام القانون . .

* * *

ولا نزال نذكر يوم أطلق الروس الكلبة « لايكا » فى الفضاء الخارجى ، لتدور وتموت فى السماء ، ثارت جمعيات الرفق بالحيوان وحماية البيئة لهذه القسوة السوفيتية مع أن الروس لم يطلقوها إلا لكى يجربوا عليها ويعرفوا ما الذى سوف يحدث للإنسان حتى لا يموت فى الفضاء .

وإنما ينطلق ليعود حيا . ثم إن فى المعامل مئات ألوف الحيوانات تعيش وتموت فداء للإنسان . . ورغم أن الهيئات العالمية لحماية البيئة تعلم ذلك ، فقد خافوا أن يكون لهذه الصورة أثر عنيف على الأطفال الذين يحبون الكلاب والقطط والفئران !

فحماية البيئتين ـ المائية والبرية ـ تبدأ من الطفولة . . فإذا آمن بها الطفل ، فإنه يكون أكثر إيمانا عندما يكبر . . ويكون مسئولا عن كل حيوانات مصر ونباتاتها وحينئذ لن يضع فى جيبه مسمارا ولا موسى .

فما هو المقصود بحماية البيئة ؟ وما هو المطلوب ؟

لقد تحددت مناطق فى مصر ليحميها القانون من الإنسان ، الصياد والقاتل والمهمل ـ هذه المناطق قد نص عليها القانون ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ :

١ ـ محمية منطقة علبة : وتشمل البحر الأحمر وغابات المنجروف ـ التى تسمى أعشاب الشورى ـ تلك النباتات العجيبة التى تشرب من الماء المالح وتحوله إلى ماء حلو . . وتعيش عليه . . والأمل عظيم جدًا عند العلماء فى رى الأراضى الصحراوية بماء البحر بدلا من تحلية الماء الذى يتكلف مئات الملايين . . والمثل الذى أمام العلماء هو نبات الشورى . . وفى

هذهالمنطقة المحمية قانونًا توجد الماعز الجبلى والحمار البرى والغزال المصرى والأرنب الجبلى والقط والنعام والحبارى والنسور والعقبان والسلاحف . .

وقد تحررت مخالفات بالمئات للصيد العنيف ـ أما الجهات التى تمنح التصريحات المخالفة للقانون فهى المخابرات العسكرية وأمن السواحل ـ تصور ! !

٢ ـ محمية الزرانيق شمال سيناء وفيها الطيور المهاجرة من أوروبا وآسيا ، وهى بمئات الأنواع والصيادون يقتلونها بمنتهى العنف ، وخاصة السمان ويصيدون الطيور المائية بالخرطوش . .

٣ ـ محمية رأس محمد نموذج فريد فى العالم كله للحيوانات والنباتات .

٤ ـ محمية العميد بمرسى مطروح وقد منع منعا باتا صيد أى حيوان برى أو مائى من أى نوع وتوجد محمية مساحتها كيلو متر مربع مخصصة لأبحاث جامعة الإسكندرية على النباتات والحيوانات والطيور المهددة بالانقراض . .

٥ ـ محمية مجموعة جزر النيل عند أسوان : جزر سالوجا وغزال وآمون . . وتتغطى بكساء نباتى طبيعى . وهذه الجزر صالحة تماما للطيور البرية . .

٦ ـ محمية وادى الريان بالفيوم وهى تضم الحيوانات البرية الآخذة فى الانقراض مثل الغزال الأبيض والثعلب والذئب . . ولم تتحول هذه المنطقة إلى محمية بعد ؟! ولم تسفر الاتصالات عن شىء ، وكذلك التوسلات إلى مجلس الوزراء بالتعجيل بحماية الحيوانات . .

٧ ـ محمية الغابة المتحجرة شرقى المعادى . إنها غابة من الأشجار تحجرت وعمرها أربعون مليون سنة . . وليس لها نظير فى العالم . . وهذه المحمية ليست إلا مشروعا لم يلق أى اهتمام من مجلس الوزراء . .

والسبب هو أن هناك وزارة الزراعة بهيئاتها وهناك مجلس الوزراء بهيئة واحدة تتبعه . ولا أحد يعرف من الذى يتخذ القرار . . هل هى وزارة الزراعة المعنية فى المقام الأول ، أو هو مجلس الوزراء الذى هو أقوى سلطة وأبعد وأوسع . . وأكبر دليل على ذلك مأساة محمية رأس محمد . . فقد نشرت الصحف أخيرًا أن محافظة جنوب سيناء سوف تقوم « بتطوير » هذه المحمية النادرة ، لتكون متحفا عالميا يتفرج عليه السياح وهواة الصيد والغطس والتصوير . .

أما مفهوم التطوير فهو رصف الطرق وإقامة البوابات والمطاعم والفنادق ومراكز للتدريب على الغطس والصيد . .

ولكن د . محمد عامر رئيس الإدارة المركزية لحماية الحياة البرية يفهم أن التطوير هو تطوير

حماية البيئة . . أى استخدام الوسائل المتطورة لحماية البيئة الطبيعية . . أى لتظل البيئة على طبيعتها دون تدخل من الإنسان . . لأن كل البيئات الحيوانية والنباتية قد أفسدها الإنسان وأخل توازنها . .

فهذه التطويرات التى أعلنها المحافظ نور الدين عفيفى من رصف للشوارع وإقامة المطاعم والفنادق والمحلات التجارية سوف تؤدى إلى إفساد البيئة الفريدة فى رأس محمد . . فالأسمنت الذى سوف يتطاير سوف يخنق الكائنات المجهرية فى الشعب المرجانية . . وسوف تؤدى عكارة المياه إلى قتل الكائنات البحرية . . ثم إن الصيد يحطم الشعب المرجانية . .

ولا يزال الصيادون فى مواسم سمك الشعور يصيدون بمنتهى العنف ويتلفون الشعب المرجانية التى تكونت من إفراز كائنات دقيقة جدا على مدى ألوف السنين ـ أفرزتها من الكلسيوم الملون والناعم لتعيش فى داخلها . .

ثم هناك التلوث البترولى الذى أفسد هذه المحمية الفريدة فى العالم كله . .

قال لى مصور الأعماق العالمى أيمن صلاح طاهر إن بعض شركات تنقيب البترول قد طلبت منه قبل قيامها بأعمال التنقيب أن يصور لها البحر الأحمر ر. . حتى لا يؤدى الحفر إلى إفساد البيئتين الحيوانية والنباتية لماذا؟ لأن إحدى الشركات فى المكسيك قد قامت بأعمال الحفر دون إدراك للبيئة الحيوانية ، فدفعت غرامة مئات ملايين الدولارات . . وقد ظنت هذه الشركات التى تنقب فى مصر أنها لو فعلت ذلك لعوقبت عقابا شديدًا ـ غلطانة هذه الشركات ، لأن العقوبة بنص القانون لا تزيد عن عشرة جنيهات ! وإذا كان عند هذه الشركات محام شاطر فسوف تدفع جنيها واحدًا . . وإذا كان لها محام أشطر ، فسوف توجه لها الحكومة الشكر لأنها قامت بتنظيف البحر من هذه الشعب المرجانية التى لا تهم المواطن المصرى المشغول بالرغيف الطباقى والمطحون بالأسعار والمسطول فى المسارح يضحك على خيبته دنيا وآخرة ! .

ولم تكد تنتشر تصريحات السيد نور الدين عفيفى محافظ جنوب سيناء حتى نقلتها وكالات الأنباء . . وحتى تلقت مصر من جميع الهيئات الدولية تحذيرات عنيفة تقول : إن محمية رأس محمد فى أرض مصرية ولكن لها قيمة عالمية . . والعدوان عليها عدوان على التراث الإنسانى !

أما جمعيات حماية البيئة غير الحكومية ، فإيمانا منها بأن الشكوى لأهل البصيرة عيب ، فقد اتجهت إلى المواطن المصرى تستعطفه وتقول له : إن الصيد الجائر للطيور والحيوانات البرية ما زال مستمرا ، وخاصة من الأجانب الذين تمنع دولهم مثل هذا النشاط المدمر للبيئة ، كما إن التلوث البيئى بجميع أشكاله ما زال قائما سواء فى الهواء أو التربة أو المياه العذبة والمالحة والأكثر من ذلك فإن المحميات الطبيعية ما زالت بدون إدارة علمية أو تنفيذية مما أدى إلى الاضمحلال السريع لهذه البيئات الطبيعية ، وهناك الكثير من الوقائع والحالات المؤسفة التى تحدث داخل وخارج المحميات الطبيعية فى مصر . ولذلك نناشد جميع المهتمين بالبيئة فى جميع

المواقع حكومة وشعبا أن يقفوا بكل حزم ويتعاونوا لمواجهة هذه الأخطار المرئية وغير المرئية والعمل على تلافيها و إيجاد الحلول المناسبة لها .

وينتهى هذا النداء بهذه الحكمة إن لم يحافظ هذا الجيل على بيئته فسيلعنه الأجداد والأحفاد والإمضاء الجمعية المصرية للحياة البرية والجمعية المصرية لعلم الحيوان والجمعية المصرية لعلم الطيور والجمعية المصرية للحفاظ على الثروات الطبيعية ، أى إن هذا النداء اتجه إلى كل الناس إلا الجهة التابعة لمجلس الوزراء التى هى الخصم والحكم ـ التى منها وإليها تشكو ؟!

* * *

والمطلوب هو أن يكف الإنسان ـ بمساعدة الدولة ـ عن إحداث أى خلل فى البيئتين الحيوانية والنباتية . أى منع الإنسان من الاعتداء على حياة الحيوان والنبات لأن هذا الاعتداء يؤدى إلى ارتباك عنيف فى دورة الحياة البيئية . مثلا إن استخدام الإنسان للمبيدات الحشرية قد أدى إلى زيادة الفئران التى أصبحت وباء قوميا ؛ فالمبيدات قد قتلت الغربان والبوم والثعالب والذئاب التى تأكل الفئران فزادت الفئران وراحت تأكل النبات والطيور وصغار الحيوان والأطفال ؟!

وعلى الرغم من أننا أوقفنا استخدام الـ د. د. ت من عشرين عاما ، فإن السودان ما يزال يستخدمه ولذلك يجىء إلينا فى مياه النيل ويؤكد بعض العلماء أن أثر الـ د. د. ت موجود فى المصريين فى كل دم . . وإنه مسئول عن كثير من اضطرابات الغدد وعن ظهور حالات كثيرة من التخلف العقلى وعن اختفاء ظاهرة ولادة التوائم فى مصر . .

وقد تناقصت الأسماك فى بحيرة المنزلة بسبب الأملاح والكيماويات الموجودة فى المصارف وقد ماتت أسماك كثيرة فى النيل الذى جعله السد العالى ـ راكدًا ، فتكثفت فيه الأملاح التى قضت على الأسماك .

إن حماية البيئة ليست موقفًا حكوميا ، وإنما يجب أن تكون موقفا قوميا وطنيا تربويا جماليا أخلاقيا . وإذا كان الكبار لا يحترمون القانون فلأنهم لم يتعلموا ذلك فى البيت أو فى حدائق الحيوان والأسماك والنبات ، ولذلك يجب أن نتوجه إلى الأطفال فى المدرسة والبيت والتليفزيون وندربهم على حب الحياة والرحمة والذوق . . فالذى يحب الحياة هو الذى يحب الناس . . وهو الذى يحب أن يعيش وأن يدع غيره يعيش . . هو الذى يحب السلام ، هو الذى ينحنى أمام القانون ، قانون الإنسان وقانون الطبيعة . .

قال أحد علماء البيئة إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الجمال .

قال له : اذهب إلى رأس محمد !

وما دام الكبار لا يرون ذلك ، فلنتجه إلى الصغار لعلهم يستوعبون هذه الحكمة فيعتدل ميزان الحياة على أيديهم من أجلهم ومن أجل أجيال تحب الحياة والجمال والرحمة والسلام !

ياشيخ شعراني مدد!

برافو . . برافو . . ما أروعك . . ما أعظمك . . قالها الجمهور . .

وكان التصفيق حادًا عندما فرغت الفرقة الموسيقية من عزف « المتابعة الموسيقية » شهر زاد للموسيقار الروسى رمسكى كورساكوف . . ثم وقف الموسيقار وانحنى والدموع فى عينيه . . وهنأ الناس بعضهم البعض . والقيصر أعلن أنه سعيد لأنه عاش ليسمع مثل هذا اللحن الجميل الذى استوحاه الفنان الكبير من ليالى ألف ليلة . . ومن مخامرات السندباد البحرى ومن العواصف والأمواج التى أطاحت بالسفن وأغرقتها . . كل ذلك فى فتنة ساحرة !

ولكن طبيبًا تقدم للموسيقار يقول له : نحمد الله ياسيدى أنك لست طبيبًا !

فسأله الموسيقار : ولكن لماذا ؟

قال الطبيب : لأنك جعلت التكرار شيئًا جميلاً . .

قال الموسيقار : لم أفهم !

فردعليه الطبيب : إن العبارات الجميلة التى تتكرر فى موسيقاك وتتجاوب بديعة ياسيدى . .

ولكننا فى الطب ياسيدى لا نريد أن يلقى التكرار مثل هذه السعادة بين الناس . . لأننا نريد أن نفزع الناس على أنفسهم . . فنقول لهم كل يوم : احترس . . لا تأكل . . لا تشرب . . لا تهمل . . إن الطبيب لا يستطيع كل شىء . . لابد أن يساعده المريض . . فلو أحب الناس هذاالتكرار . . أو إن هذا التكرار لا يلقى اهتمامًا بالغا من الناس لمات الناس . . وانتهى دور الأطباء . . هذا ما أردت أن أقوله لك . . وأن أشكر الله على أنك لست طبيبًا . . تعيد وتزيد بصورة جميلة كل نصائحك !

ويبدو أن الموسيقار لم يستوعب تمامًا ما قاله الطبيب . . فالطبيب يشير إلى عبارات تتكرر

فى هذا اللحن الخالد الذى استوحاه الموسيقار من ليالى ألف ليلة . . فهذه الليالى التى تحكيها شهر زاد لزوجها الملك شهريار تبدأ هكذا : بلغنى أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أن كذا وكذا . .

وتنتهى كل ليلة بهذه العبارة أيضًا : وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . .

وقد حرص الموسيقار على الاحتفاظ بهذا التكرار الجميل فى حكاياته الأربع فى هذا اللحن الساحر . .

وبعد مائة سنة تماما اختفى التكرار الجميل وتجاوبت صرخات الأطباء والعلماء والساسة يلفتون عيون خمسة آلاف مليون نسمة إلى أن الأرض نفسها تحذر وتنذر وتكرر التحذير والإنذار . وتلفت عقول سكانها إلى أن موتا مؤكدا يحيق بالإنسان . . وبالأرض نفسها . . صحيح أن الأرض لن تموت قبل خمسة آلاف مليون سنة ، ولكن الإنسان الذى يعيش على الأرض من مليون سنة سوف يقضى على نفسه بنفسه إن لم يتنبه إلى ماذا صنعت يداه . .

أما هذه الإنذارات المروعة فى سنة ١٩٨٨ فهى أن الجفاف قد أصاب أمريكا ثلاثة شهور فنفقت ملايين الأغنام ونقص المحصول . .

وارتفعت درجة الحرارة سبع درجات . وأدى ذلك إلى موت الحياة النباتية فى ملايين الأفدنة ، فى أمريكا أيضًا . .

كما إن الأبخرة التى تتصاعد من الغابات فى البرازيل وتتحول إلى أمطار قد نقصت هذا العام أيضًا . . السبب أن الإنسان بدأ يقطع الغابات . . فكل ثانية يقطع من الغابات ما يساوى مساحة أستاد القاهرة . . فتتناقص الأبخرة والأمطار ويزداد الجفاف . .

وقد هبت الأعاصير على جزر الكاريبى ، فأغرقت وأهلكت وأحرقت . .

والفيضانات فى بنجلاديش أماتت الغابات والحيوانات وشردت الناس . .

وفى أرمينيا وقع زلزال دفن تحته ستين ألفا وشرد أضعاف هذا العدد . . ولم يكن ذلك كله بسبب الزلزال ، وإنما لأن البيوت قد أقيمت من الطوب الهش ـ وهذا هو الإهمال الجسيم !

إن سيدنا « نوح » عليه السلام قد أنذر قومه . . وراح يصنع بأعينهم سفينة على الشاطئ وبعيدا عن البحر . فكانوا يسخرون منه . . وكان يكرر لهم ما أوحى الله به إليه . . إن طوفانا سوف يهلك الكافرين . . وأنه خير لهم أن يؤمنوا به وأن يركبوا معه . . ولكنهم لم يصدقوه . . كما إن واحدا من أولاده لم يصدقه ، وحاول أن ينجو بذراعيه سابحا إلى جبل توهمه قريبًا . . فغرقوا وغرق . . ونجا نوح عليه السلام . .

أما هذه المرة فإن الأرض نفسها هى التى تقوم بدور نوح عليه السلام تحذر وتنذر بأن قوى الطبيعة مع أخطاء الإنسان ، سوف تعجل بنهاية الإنسان . والإنسان لا يخاف من الموت . فهو النهاية . . ولكن الخوف هو من السنوات السابقة على الموت . . سنوات المرض والعذاب . . والإنذار معناه : أيها الإنسان لا تضاعف عذابك . . لا تضف إلى ويلات الطبيعة ويلات صنعتها بيديك . .

فكانت سنة ١٩٨٨ هى السنة التى قرر العلماء أن يجتمعوا ليقولوا للعالم كله ما الذى يجب عمله حرصا على حياة الإنسان . .

وقبلها انعقد فى أمريكا وحدها ١٩٢ مؤتمرا علميا لدراسة « البيئة » . . وتحليل الأخطار التى سوف تودى بصحة الإنسان . . وفى بريطانيا وألمانيا وفرنسا واليابان . . واتخذوا جميعا موضوعا واحدًا : الخطر مؤكد . فكيف نواجهه ونخفف من آثاره المهلكة للإنسان والحيوان والنبات و « جو » الأرض . .

وكانت مجلة « تايم » الأمريكية ، أكثر مجلات العالم احتراما وفاعلية أسبق إلى اختيار كوكب الأرض شخصية سنة ١٩٨٨ وإلى عقد مؤتمر يضم علماء من ثلاثين دولة من بينها الاتحاد السوفيتى . واستعرضوا كل الأخطار التى تهدد حياتنا على الأرض . وأوصوا . ولا يبقى إلا أن تجىء الدول كلها وتتابع ذلك . .

فكما إن الصناعات تتطور وأضرارها تتضخم ، والسكان يزداد عددهم واحتياجاتهم الغذائية والأمنية والصحية والاقتصادية . فكذلك الأضرار التى تجىء بعد كل خطوة علمية متقدمة . . فيوم استمع الناس إلى لحن « شهر زاد » لأول مرة كان عدد سكان العالم ألف مليون . . وفى سنة ١٩٣٠ تضاعف إلى ألفى مليون وفى سنة ١٩٧٥ تضاعف إلى أربعة آلاف مليون . . وفى سنة ١٩٨٨ صار خمسة آلاف مليون نسمة . .

فمنذ الثورة الصناعية « المباركة » وأبخرة المصانع وهبابها وثانى أوكسيد الكربون الشفاف يتصاعد فى الجو . . وكذلك تتضاعف السموم فى الأرض وفى المياه وفى الهواء وفى طعام الإنسان وفى دمه . .

مثلا : عندما اخترعت أمريكا المصباح الكهربى راحت كندا تصرخ . . لا من النور ، ولا من المصابيح التى أطالت النهار وزحفت على الليل . . ولكن من المحطات التى تولد الطاقة الكهربية . . هذه المحطات تدار بالفحم . . والفحم له دخان . . والدخان تذروه الرياح سموما إلى كندا . .

وعندما اخترع الإنسان السيارة التى أنقذت المدن من مخلفات الخيول والبغال التى تجر

العربات . راح يشكو من العادم الذى يخرج من السيارات فيفسد جو المدن ويتلف خلايا الإنسان ، ويسد رئتيه . . ويساعد على تسلل الأمراض فى جسمه . .

وعندما استخدم الإنسان البترول بدلا من الفحم فى البواخر ، فإنه قد اختصر المسافات واختصر الزمن . . ولكن الإنسان بدأ يشكو من تلوث المياه وموت الأسماك . . وتلوث الشواطئ . . وحوادث اصطدام ناقلات البترول وتغطية ألوف الأميال المربعة بالزيت قد وقعت كثيرًا . . فأفسدت الشواطئ وقتلت الأسماك . .

وعندما استخدم الإنسان الطاقة النووية انتشرت الإشعاعات القاتلة فى كل مكان فى الدنيا . . وهو يحاول الآن أن « يروض » الطاقة وأن « يطهرها » من السموم . . وأن يجردها من أسلحة الدمار . .

والإنسان كل يوم يمسك « القمقم » المعروف فى « ألف ليلة » ويفتحه . . فينطلق منه عفريت . . وهذا العفريت يحاول أن يقتل الإنسان الذى حرره من السجن الطويل . . ويحاول الإنسان بذكائه أن يعيد العفريت إلى الزجاجة التى كان محبوسًا فيها . . وقد أفلح الإنسان بخياله العظيم فى « ألف ليلة » أن يعيد العفريت إلى سجنه الزجاجي ويلقى به فى البحر . . ولكن العفاريت النووية والكيماوية التى أطلقها الإنسان ، لم يفلح بعد فى حبسها . . أو فى ترويضها . . كما تروض الوحوش فى السيرك . . فقد انطلقت الشرور وانتهى الأمر . . تماما كما حدث فى الأساطير الإغريقية عندما أمسكت حواء صندوق الآلهة ـ ورغم أنهم نصحوها ألا تفتحه ـ فإنها قد فتحت الصندوق . . فخرجت كل الشرور : الفقر والجهل والمرض والظلم . . ولكن فى آخر لحظة أغلقت الصندوق على شىء واحد هو . الأمل!

والأمل عندنا لا فى أن نعيد الشرور إلى صندوقها . . إلى القمقم . . وإنما فى استئناس هذه الشرور وإنقاذنا من ضررها وسمومها . . وهذا ما يحاوله العلماء والساسة الآن !

ومن المعروف تاريخيا أنه فى أعقاب كل تغير كبير على الأرض ، تنقرض بعض الحيوانات أو الطيور أو النباتات . . تماما كما حدث من ١٣٢ مليون سنة ، عندما انقرض حيوان الديناصور . . ويقال إنه انقرض بسبب الجفاف الذى أدى إلى موت هذه الحيوانات الضخمة . ويقال إن أحد الأجرام السماوية قد سقط على الأرض . . فأدى إلى إحراق سطحها المغطى بالغابات . . ويقال إنه أيضا أثار سحبا كثيفة من التراب . . كل ذلك أدى إلى موت الديناصورات . ولم نعد فى حاجة الآن إلى مثل هذه الأجرام السماوية لكى نهدد الحياة على الأرض . إننا نحن نصنع بأيدينا ومصانعنا كل هذه التغيرات العنيفة الحمقاء . . وسوف نزداد حماقة وجنونا بكل ما هو جديد فى العلوم . . أيا كان الثمن فادحا . وهو فادح .

فالعلم قد قفز إلى الأمام عدة مرات . .

عندما انتقلنا من استخدام قوى الرياح فى السفن الشراعية والمضخات المائية إلى استخدام الفحم . .

وعندما انتقلنا من البخار إلى استخدام البترول . .

وانتقلنا إلى استخدام الطاقة النووية .

ثم استخدمنا الترانزستور والبطاريات الجافة . .

وأخيرا جاءت الثورة البيولوجية ، فالإنسان الآن اهتدى إلى « الهندسة الوراثية » . . أى اعادة ترتيب مكونات الخلية الحيوانية والنباتية والإنسانية . . إنها الثورة الجديدة التى سوف تضاعف الإنتاج وتضاعف أحجام الحيوان والنبات . . وذلك عن طريق التحكم فى نمو الخلايا . . لمواجهة زيادة السكان . .

وزيادة السكان تضاعف احتياجات الإنسان . وهذه الاحتياجات لا يمكن الوفاء بها إلا بالقوة . بقوة الجيوش والسلاح . . ومصانع الأسلحة . . والمصانع تخدم ترسانة السلاح . بالمواد الكيماوية والنووية . . وهذه المصانع الضخمة لها نفايات . هذه النفايات يجب أن نطرحها بعيدا عن الإنسان الذى يصنع السلاح وعن الإنسان الذى يحميه السلاح . ولذلك طاحت صناديق الزبالة بين الأرض والبحر والسماء . . يدفعونها فى أعماق الأرض . . وفى قرار المحيط وفى الفضاء الخارجى . . ومن سنوات تفرج العالم كله على فضيحة الإنسان : فالسفينة بليكانو حملت ١٤ ألف طن من النفايات الكيماوية والنووية . . تحاول أن تبيع هذه النفايات لأية دولة بأعلى الأسعار . والهدف كان الدول الفقيرة طبعا . . فبعضها قبض الملايين ليدفن النفايات فى جوف الجبال وقاع البحيرات . منتهى استغلال الأغنياء للفقراء . . وبعض هذه النفايات ألقيت فى المحيط الهندى جنوبى قارة آسيا التى تضم ثلثى سكان الأرض !

وفى ذلك استهانة بالإنسان وحق الإنسان فى الحياة . . وبكرامة الإنسان . . والعالم كله يتفرج ولا يتكلم !

وفى أيام استخدام الفحم للوقود بدلا من الخشب فى المصانع كانوا يلقون الأطفال الصغار فى المداخن . . فيؤدى سقوط الأطفال إلى تنظيف المداخن من الهباب المتراكم . . وكان الأطفال يموتون بعد ذلك . . ثم دفعتهم الرحمة بالأطفال إلى استخدام الدجاج والبط . . فيلقون عددا من الدجاج أو البط فى المداخن . . فتضرب الهباب بأجنحتها وهى هابطة . . ويؤدى ذلك إلى تسليك المداخن من الهباب المتراكم . . ويموت الدجاج بعد ذلك !

والآن اتسعت المداخن وأصبح الهباب يشمل العالم كله . . ولم يعد أحد يلقى بالأطفال أو الدجاج لكى يتطاير الهباب . . وإنما الهباب والإشعاع والسموم هى التى تطارد الناس فى بيوتهم ومصانعهم لكى يموتوا بعد ذلك . . أو لكى يصابوا بالأمراض الغريبة العجيبة قبل أن يموتوا !

أما مجلة « ناشونال جيوجرافيك » العظيمة الاحترام ، فقد أصدرت عددًا فريدًا . . استخدمت أسلوبا جديدا فى صناعة الغلاف . . والغلاف للكرة الأرضية بالبارز وقد أحاطت بها السحب السامة . . والأرض كأنها ترتجف من كل ذلك . . ثم المجلة من أولها لآخرها عن هذا الذى أصاب كوكب الأرض . . وإذا كانت مجلة « تايم » قد اختارت شخصية عام ١٩٨٨ « كوكب الأرض » الملفوفة بالحبال والأسلاك للدلالة على خطورة ما نصنعه بها ، فإن مجلة « ناشونال جيوجرافيك » قد قدمت لنا حيثيات هذا الاختيار بأقلام وصور عدد كبير من أعظم الخبراء . .

* * *

وكل الدول الصناعية الكبرى تحاول الآن أن تعيد دورة النفايات السامة . . أى أن تستخدم هذه النفايات كمادة جديدة تصنع منها شيئًا مختلفا . . تماما كما تستخدم العربات القديمة وتحولها إلى حديد وصلب . . أى تحولها إلى مادة خام ، لتصنيع شىء جديد . . أو تعيد استخدام الزجاجات الفارغة . . أو تعيد عجن ورق الصحف والكتب ، لتصنع منها ورقا للصحف والمجلات مرة أخرى . .

مثلا فى أمريكا يرمون فى الزبالة كل سنة ٢٥٠ مليون عجلة كاوتش . . وثلاثة آلاف مليون قلم بلاستيك . . وثلاثة آلاف مليون موسى حلاقة . . وعشرين ألف مليون منديل ورق . .

وقد بدأ هذا الاهتمام بصورة فريدة مع رواد الفضاء . فقد علموهم أن يحرقوا مخلفاتهم . . أو يصبوا عليها مواد كيماوية تحولها إلى عجينة أو إلى غاز يتم تبريده . . وكذلك دربوا العلماء على إعادة استخدام مخلفاتهم من البول والبراز بمعالجتها كيماويا وتطهيرها وإعادة تناولها ـ تماما كما تتحول مياه المجارى إلى مياه للشرب فى كثير من الدول الأوربية ـ ولقد رأيت محطات لتحويل مياه المجارى إلى مياه للرى فى السعودية بالقرب من مدينة الطائف . .

وقد كانت اليابان أسبق من كل دول العالم فى إعادة استخدام كل النفايات . . وليس على المواطن اليابانى إلا أن يتصل بإحدى الشركات يخبرها عن الزبالة التى يريد التخلص منها . . ابتداء من الراديو والتليفزيون والثلاجة والسيارة . وتجىء اللوريات تنقل هذه النفايات . وتقوم المصانع بتحويلها إلى مادة خام . . أو إلى مخصبات أو غاز للوقود . . ويحاول العلماء اليابانيون

الآن إعادة استخدام النفايات النووية فى إدارة محطات الطاقة ثم إعادة استخدام نفايات هذه المحطات مرة ثانية وثالثة حتى يتم إرهاق المواد المشعة . . أى إخمادها إلى أكبر قدر مستطاع !

والعلماء لكى يعرفوا عمر أية مادة فإنهم يحولونها إلى « كربون » ثم يقيسون عدد الذرات التى تحللت . . ومعروف أن كل مادة لها عمر . . فإذا بلغت هذا العمر أصبحت عجوزاً لا حياة فيها . . والذى يحاوله العلماء اليابانيون الآن هو « تشييخ » أو « تعجيز » هذه المواد المشعة أى تحويلها إلى شيخ أوعجوز قبل الأوان ـ وبذلك يتقون شرها وفتكها بالإنسان . . وهم الآن فى بداية الطريق !

* * *

وكنا ـ قبل ذلك ـ عندما نقرأ عن استخدام السموم فى قصور الملوك والنبلاء ، نفزع لوضعهم السم فى الخواتم فى أصابعهم . . فتجد الواحد ينزع غطاء الخاتم ويلقى بالسم المسحوق فى كأس سوف يشربها الخصم . . وكنا نرى السيدة الإيطالية الباهرة « لركيريشيا بورجيا » امرأة بشعة لأنها تقتل بالسم كل الذين حولها . . من عشاقها وأعدائها من الرجال والنساء . . وكانت لها طرق مبتكرة . . من بينها أنها كانت ترتدى الأساور الشائكة . . وهذا الجانب الشائك من الأسورة عبارة عن إبرة مثقوبة كالحقنة تماما . . فإذا ضغطت على صديقة أو عدو أنفذت الشوكة فى ظهرها أو بطنه . . كأنها لدغة ثعبان . . ويكون الموت محققا !

ذلك ما كانت تفعله سيدة واحدة لكى تتخلص من خصومها . . ولكن كم من ملايين ملايين الأشواك التى نلقاها فى كل مكان . . نصبناها لأنفسنا . . لنموت بها . . ففى كل ذرة ماء وهواء شوكة يندفع منها السم المؤكد إلى خلايانا !

فكيف لا نرى صورتنا بشعة أمام أنفسنا ؟!

* * *

وفى نهاية المؤتمر الدولى للبيئة الذى انعقد أخيرًا فى برلين وقف أحد رجال الدين يقول . أرجو ألا تكون صرخاتنا مثل صرخات يوحنا المعمدان الذى وصفه « الكتاب المقدس » بأنه الصارخ فى البرية . . أى فى الصحراء . . فلا يسمعه أحد . . وانتهى الصراخ بالقضاء عليه فمات وعاشت قضيته . . وهى : الاستشهاد فى سبيل الفضيلة وكلمة السماء . . .

فقد كان يوحنا المعمدان يصرخ احتجاجا على الرذيلة فى قصر الملك . . ولم يطق الملك صبرا . . فقطع رقبته ـ ومات يوحنا المعمدان . . ولكن صرخاته إذا كانت ماتت فى الصحراء فإنها باقية فى كل ضمير فى مواجهة كل رذيلة . .

وقد تكررت صور الاحتجاج على الشر ، كما ترددت صور الاحتجاج على إفساد الحياة النظيفة وجمال الطبيعة منذ الثورة الصناعية الأولى . . فلم تكن « الرومانسية » الأوربية فى الأدب والفن إلا نوعا من الاحتجاج على المصانع التى أكلت الأرض وأفسدت الهدوء والصفاء والتى عندما حررت الإنسان من أعبائه العضلية قد استعبدته . . فكأن الإنسان قد صنع الآلة ليعبدها . . تماما كما صنع الأوثان ليعبدها . . يصنعها ويخاف منها . . يريدها وسيلة فتكون غاية ، يريد خادما فتكون سيدا طاغيا !

ولابد أن عالمنا الجليل د. حسين فوزى كان يقصد هذا المعنى عندما اشترك فى أحد المؤتمرات فوجد العلماء نياما . . أما القضية فكانت حماية الأحياء المائية من الانقراض بسبب التلوث وبسبب الصيد الجاهل العنيف لكثير من الأسماك النادرة . . قال د. حسين فوزى . لو كانت عندى حنجرة الشيخ عبد الوهاب الشعرانى لزلزلت هذه الأجساد وهذه العقول ! مدد ياشعرانى مدد !

فقد كان الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ذلك المتصوف المصرى الذى عاش فى القرن السابع عشر رجلا صالحا . وكان عميق الإيمان ، قوى الشفافية . . ويقال إنه صاح فى غضب فاهتز المسجد . واهتزت البيوت المجاورة . . وقرر « المجاورون » الصالحون أن يتركوا له المكان . . فكان هو أسبقهم إلى ترك المكان . . وقال فى ذلك : إنه جاءه وحى بأن يترك هذا المكان إلى مكان أفضل !

أى إنه صرخ معلنا غضبه على المكان ثم انتقاله إلى مكان آخر . . هو الذى أعلن غضبه وهو الذى انتقل !

وتمنى د. حسين فوزى أن يصرخ فى هؤلاء العلماء لكى ينهضوا فيكونوا قدوة لكل الناس . . ولكن المصيبة أنه ليس كل واحد قادرا على أن يصرخ وأن يبدأ بنفسه !

* * *

. . ومن أهم توصيات كل هذه المؤتمرات الدولية العناية الفائقة بما يحدث فى البيئة الإنسانية والنباتية والحيوانية . فتنفق الدولة مزيدا من الملايين على التوعية والحماية . .

وإن العلماء الذين يهتمون بالبيئة يستحقون أسمى الجوائز - جائزة نوبل مثلا . فليس فى جائزة نوبل نصيب لعلماء البيئة . ولذلك يرون أن تبدأ أكاديمية نوبل بتكريم العالمة الأمريكية راشيل كارسون فقد كانت أسبق العلماء جميعا بالتحذير من استخدام الددت وبقية المبيدات الحشرية على صحة الإنسان وحياة الطيور والحشرات والنباتات . وإن أكاديمية نوبل يجب أن

تمنحها هذه الجائزة بأثر رجعى . فقد كان كتابها «الربيع الصامت» الذى أصدرته سنة ١٩٦٢ بداية « الرعب » العالمى مما يصنعه الإنسان بالإنسان . .

وإذا كانت أكاديمية نوبل قد أضافت أخيرًا جائزة لعلماء الاقتصاد لخطورة الاقتصاد فى حياة الشعوب ، فإن الوقت قد حان لكى تمنح هذه الجائزة لعلماء البيئة الذين يعملون على إنقاذ الإنسان من اكتشافات الإنسان . .

إن اليابان تحاول الآن شيئًا جديدًا . . فهى لا تدخل العفريت فى القمقم . . وإنما هى تحاول أن تصيب العفريت بأمراض مختلفة . . تضعف من قدرته وتشل إرادته . . وبدلا من أن تدخله كله القمقم فإنها تقطع أوصاله وتدخلها واحدا واحدا فى أكثر من قمقم ـ إنها البداية !

فما الذى عندنا فى العالم الثالث ، وفى مصر ؟!

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب إسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ أعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة

(ز) مسرحيات مترجمة

* للأديب السويسرى فريدريش ديرنيات

١ ـ رومولوس العظيم

٢ ـ زيارة السيدة العجوز

٣ ـ زواج السيد مسيسى

٤ ـ الشهاب

٥ ـ هى وعشاقها

* للأديب السويسرى ماكس فريش

١ ـ أمير الأراضى البور

٢ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو

١ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الأمريكى آرثر ميللر

١ ـ بعد السقوط

* للأديب الأمريكى تنسى وليامز

١ ـ فوق الكهف

* للأديب الأمريكى يوجين أونيل

١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو

١ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف

١ ـ الباب والشباك

* للأديب الأسبانى أرابال

١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ ألوان من الحب

٥ ـ شباب . . شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين . . اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

١٦ ـ لأول مرة

١٧ـ كيمياء الفضيحة

(ط) دراسات علمية

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أرواح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة

٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الأشياء الصغيرة
١٢ ـ إلا فاطمة
١٣ ـ القلب أبدا يدق

(د) نقـد أدبى
١ ـ يسقط الحائط الرابع
٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شىء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش . . يعيش
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى . . ومع الآخرين
١٣ ـ ما لا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٥ ـ كتاب عن كتب
١٦ ـ أنتم الناس أيها الشعراء
١٧ ـ أيها الموت . . لحظـة مـن فضلك
١٨ ـ أوراق على شجر
١٩ ـ فى تلك السنة
٢٠ ـ دراسات فى الأدب الأمريكى
٢١ ـ دراسات فى الأدب الألمانى
٢٢ ـ دراسات فى الأدب الإيطالى
٢٣ ـ فلاسفة وجوديون
٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحـلات :
١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ أطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية
١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك ياشيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانه
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك ياجارة

رقم الإيداع ٥٧٨٠ / ١٩٩٤
I.S.B.N 977 - 09-0216 - 0

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

لأوّل مرّة !

هذا هو الكتاب رقم ١٦٠ لكاتبنا الكبير أنيس منصور . . وهو فى كل كتاب طائر بين السماء والأرض طائر بين الناس . . بين الزمان والمكان عصفور كثير التنقل . . نسر قوى النظر . . أصابعه دود قز يحول أوراق التوت إلى حرير . . يلف الحرير حول المعانى ويعلقها عقودًا رقيقة ناعمة فريدة . .

درس الفلسفة وقام بتدريسها فى الجامعة . . ومنذ ذلك الوقت وهو حريص على شىء واحد . . ألا تكون عبارته فلسفية . . وإنما أن تكون معانيه فلسفية . . أن يكون مفهومًا لأقل الناس تخصصا وثقافة . . ونجح فى ذلك .

واختارته الإحصاءات الكاتب الأكثر انتشارًا فى مصر منذ الستينيات . . واختارته جريدة الأهرام فى إحصائها الشامل : كاتب المقال القصير الأول فى مصر . . وكاتب المقال الأدبى الأول فى مصر أيضًا . . وكتبه تسجل دائمًا أرقامًا قياسية فى أرقام التوزيع . . وكميات الطبع . . وإعادة الطبع . . لماذا ؟ لأن حيويته لم تخمد ، وتعطشه إلى المعرفة لا نهاية له . . ولو جلست إلى كاتبنا الكبير أنيس منصور لوجدت إنسانا بسيطا متواضعًا لأن الذى يريد أن يعرفه كثير، والذى يريد أن ينقله إلى القارئ كثير جدًا .

وعنده إحساس غريب عجيب قد لا تصدقه . ولكنه صحيح . . عنده إحساس إنه لم يكتب ولم يقل مع أنه صاحب أكبر عدد من الكتب فى الأدب العربى . . ولكنه هو هكذا يرى إنه لم يقل إلا القليل ولم يعرف إلا أقل القليل . . وهى طبيعة العلماء الذين لم يشبعوا من العلم . .

وفى كتابه لأول مرة يدهشك ما الذى قاله لأول مرة ورآه لأول مرة وناقشه وعايشه . .

